# السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية

## فى عهد الامبراطور مانويل الاول

## ١١٤٣ - ١١٨٠ م



سحبه الباحث عماد أمير
ونسقه وفهرسه
جروب معين التاريخ لأهل التأريخ


دكتور
محمود سعيد عمران
استاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية



١٩٨٥



دار المعارف

السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية

# السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية

## في عهد الإمبراطور مانويل الأول

## ١١٤٣ - ١١٨٠م


أ. دكتور

محمود سعيد عمران

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية





دار المعارف



«تقــديم»

عنــدما شرع الدكتور محمــود سعيـد عمـران فى بحـث موضـوع : «الامبراطورية البيزنطية وسياستها الشرقية فى عصر الإمبراطور مانويل الأول ١١٤٣ ـ ١١٨٠ م» قدرت مبلغ الجهود التى كان عليه أن يبذلها والمسئوليات التى كان عليه الاضطلاع بها والصعاب التى تحتم عليه مواجهتها وتذليلـها حتى يتم له إنجاز بحثه ويقدمه للقارىء الكريم .

فهذا الموضوع يختص بدراسة عصر هام كان بمثابة منعطف تاريخى شاهد تطورات أساسية فى التكوين السياسى والحضارى لعالم العصور الوسطى بمجتمعاته الرئيسية ، وهى المجتمع الأوربى الشرقى بملحقاته فى البلاد الآسيوية وهو المعروف حالياً بالإمبراطورية البيزنطية ، بما له من ثقافة هلينستية وعقيدة مسيحية أرثوذكسية المذهب ، والمجتمع الأوربى الغربى بثقافته اللاتينية وعقيدته المسيحية الكاثوليكية ، والمجتمع العربى الإسلامى وبالذات ذلك القسم منه الذى يقع فى منطقة الشرق الأدنى .

وكان من أهم التغيرات فى المنظور التاريخى العام للعصر موضوع هـذا البحث ، ذلك التغيير فى ميزان القوى بين الامبراطورية البيزنطية من ناحية والغرب الأوربى اللاتينى من ناحية أخرى . فمنذ منتصف القرن الحادى عشر للميلاد أخذت الإمبراطورية البيزنطية تفقد الكثير من عناصر قوتها وما سبق أن تمتعت به من تفوق سياسى وعسكرى وحضارى على الغرب الأوربى . وذلك على إثر المشاكل الداخلية التى أخذت تواجهها والأخطار الخارجيـة المتزايدة التى باتت تتهددها ، ومن بينها خطر النورمان والأتراك والسلاجقة .

أما الغرب اللاتينى فقد أخذ يتغلب على العديد من المشاكل التى واجهها فى المراحل المبكرة من العصر الوسيط ، وقامت به نهضة القرن الثانى عشر للميلاد ، التى تعتبر كبرى النهضات التى شاهدها الغرب فى العصور الوسطى بأبعادها الثقافية والإقتصادية والسياسية . وقد صاحب ذلك تزايد فى قوى الغرب اللاتينى حتى أصبح يتطلع لخارج حدوده . وشرع فى إتباع سياسة توسعية كان من أهم مظاهرها حركة الاسترداد الموجهة ضد الكيان الإسلامى فى أسبانيا ، وإنتزاع النورمان لصقلية وجنوب إيطاليا من أيدى المسلمين . وفضلا عن هذا وذاك ، كانت الحركة الصليبية التى عرفها المسلمين بحركة الإفرنج ، والتى أسفرت عن نجاحهم فى إقامة إمارات لاتينية كاثوليكية فى بلاد الشام . هذا وقد أخذت أنظار الغرب اللاتينى تتجه للإمبراطورية البيزنطية لتحقيق مكاسب له على حسابها ، وجاء ذلك نتيجة لعدة عوامل .

وكان من أخطر العوامل التى أثرت فى العلاقات بين بيزنطة والغرب اللاتينى تفاقم الخلاف الدينى الذى إنتهى بحدوث القطيعة الدينية الكبرى بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما ، وإشتعال الخلاف المذهبى الأمر الذى ترك آثاره السيئة على العلاقات بين البيزنطيين واللاتين . لما أشاعه من كراهية وتعصب متبادلين . هذا وقد تزايدت أطماع التجار والبنادقة فى الحصول على مزيد من الإمتيازات التجارية فى الإمبراطورية البيزنطية وكانت أى محاولة من جانب الأخيرة للحد من ذلك من شأنها أن تؤدى إلى مزيد من سوء العلاقات بين الجانبين .

وفضلا عن هذا وذاك فعلى إثر عبور الصليبيين اللاتين أراضى الإمبراطورية البيزنطية وهم فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة ، أخذت

الإختلافات بينهم وبين البيزنطيين فى التزايد نتيجة لتضارب المصالح السياسية لكل من الجانبين فضلا عما كان بينهما من تباين حضارى . كما أن اللاتين بعد تعرفهم على خيرات الإمبراطورية البيزنطية أخذوا يفكرون فى وضع أيديهم عليها . وباتت هذه تشعر بما يتهددها من أخطار متزايدة من جانب العناصر اللاتينية .

وفى هذه الظروف المتشابكة المعقدة التى تعرضت فيها الامبراطورية البيزنطية للعديد من المشاكل الداخلية والخارجية والتى تزايدت فيها أطماع الغرب اللاتينى ، إعتلت أسرة آل كومنين العرش البيزنطى وحاولت تحقيق نهضة جديدة لتلك الإمبراطورية وتسجيل مزيد من صفحات المجد لتاريخها المديد . وكان من أبرز أباطرة آل كومنين ، الإمبراطور مانويل الأول الذى تمتع بشخصية طموحة طريفة . فقد كان حاكما مرموقاً وجندياً باسلا ودبلوماسياً ماهراً . كما كان حريصاً على مصالح دولته هادفاً لتحقيق سيادتها العالمية بالرغم من المشاكل والتحديات والتى كانت تواجهها . وبالرغم من التنافر والإختلاف بين البيزنطيين واللاتين فى هذا العصر ، كانت لمانويل نزعات وميول لاتينية واضحة ، إذ كان يتحلى بخصائص الفارس اللاتينى الغربى كما كان أكثر ميلا للعادات الغربية واللاتينية من أى من الأباطرة البيزنطيين الآخرين . وقد أعجب به اللاتين الذين شابههم أكثر من إعجابهم بأى إمبراطور بيزنطى آخر .

وقد إتبع مانويل سياسة خارجية واسعة المدى ، وأدخل أوربا بأكملها فى نطاق سياسته الخارجية لتحقيق أطماعه فى الغرب ، هذا بالرغم من تقديره للقوة المتزايدة للدول اللاتينية . وتطلب منه عمل ذلك نشاطاً دبلوماسياً كبيراً ، فبيزنطة من أجل تدعيم نفوذها وسط التحالفات الأوربية المتشابكة ، كان

عليها أن تناور دبلوماسياً من أجل الحفاظ على مركزها ، ومواجهة أعدائها الذين لم يكن هناك أدنى شك فى رغبتهم فى غزو أراضى الإمبراطورية البيزنطية متى تيسر لهم ذلك .

ومع إهتمامه بالسياسة الغربية ، إهتم مانويل كذلك بالسياسة الشرقية ، وكانت هذه موجهة بشكل خاص لفرض السيادة البيزنطية على الإمارات الصليبية فى الشام ، وتأكيد سيادته على الأمراء الأرمن فى قيليقية . ومواجهة القوة الإسلامية فى الشرق الأدنى والأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى .

والحق أن المشاكل السياسية للامبراطورية البيزنطية فى عصر مانـــويل كانت متداخلة ومعقدة ، مما تتطلب من صاحب البحث بذل جهود كبيرة لإستجلاء حقائق الأمور ، وتتبع الخطوات التى إتبعها مانويل فى دبلوماسيته وسياسته الخارجية سواء أكان ذلك فى الغرب أو الشرق . وكان على الباحث تتبع مصادر البحث المتعددة ما بين عربية ويونانية ولاتينية وأرمينية لجمع مادة بحثه وتحليلها تحليلا موضوعياً وتخليصها مما علق بها من تعصب دينى أو عنصرى . هذا وقد وفق الباحث فى عرضه للموضوع عرضاً منهجياً سليماً يتسم بتحرى الدقة والوضوح . والواقع أن ما بذله من جهد ليستحق الثنـاء خاصة وأن هذه هى المحاولة الأولى التى يتقدم بها أحد الباحثين بموضوع هذا البحث للمكتبة العربية .

والله ولى التوفيق ؛ ؛ ؛

دكتور عمر كمال توفيق

رئيس قسم التاريخ بجامعة الاسكندرية سابقـاً

وأستاذ التاريخ الوسيط بجامعة الكويت حاليـاً .

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقـــدمة الكتاب

كان يجب إصدار هذا الكتاب فى عام ١٩٧٥ ، ولكن مشاغلى وتواجدى خارج البلاد حال دون ذلك . وأحمد الله أننى وجدت بعض الوقت لأتفرغ لاصدار هذا الكتاب الذى كان بحثى لرسالة الدكتوراه وحصلت بـه على مرتبة الشرف الأولى . وإذا كان عنوان الكتاب هو ( السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية فى عهد الامبراطور مانويل الأول ١١٤٣ — ١١٨٠ م / ٥٣٧ — ٥٧٦ هـ ) ، فان ما ورد به يمثل جانبا هاما من التراث العربى والمصرى فى هذه الحقبة التى تعرف بعصر الحروب الصليبية ، وما كان من أطماع الامبراطورية فى الشام ومصر ، وما أعدته الامبراطورية من جيوش وأساطيل للسيطرة على هذه البقعة الهامة من العالم ، وما كان من الدور البطولى الذى وقفه نور الدين زنكى وصلاح الدين الأيوبى فى مصر والشام . ولا يفوتنى فى هذه المناسبة أن أتقدم لأستاذنا الفاضل الاستاذ الدكتور عمر كمال توفيق — الذى أشرف على هذه الرسالة — بكل الشكر والتقدير لشخصه العظيم .

والله ولى التوفيق

اسكندرية فى ١٩٨٤/٩/٣٠ — محمود سعيد عمـران

محتـــويات الكتـــاب

الفصل الخامس | صفحة

# مقدمة

أولا : هدف البحث وأهمية موضوعه

ثانيا : عرض وتحليل لأهم مصادر البحث

المصادر البيزنطية

المصادر اللاتينية

المصادر السريانية

المصادر الأرمينية

المصادر اليهودية

المصادر العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

موضوع هذا الكتاب هو السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية فى عهد الامبراطور مانويل الاول كومنينوس Manuel I Comnenus ( ١١٤٣ – ١١٨٠ م / ٥٣٧ – ٥٧٦ ه) . والمقصود «بالسياسة الشرقية» هو سياسة الامبراطورية تجاه الدول والدويلات والامارات الاسلامية والمسيحية التى كانت تجاور الحدود الشرقية للامبراطورية بشكل مباشر وغير مباشر. وكانت المجموعة التى تتاخم حدود الامبراطورية هى دولة الاتراك السلاجقة المعروفة باسم سلاجقة الروم التى تسيطر على جانب كبير من آسيا الصغرى وتتخذ مدينة قونية(١) عاصمة لها فى هذه الفترة ، وكذلك إمارات آل دانشمند التى كانت تحكم إقليم كبادوكيا الواقع فى آسيا الصغرى كذلك . وإمارة الارمن الذين كانوا يسيطرون على إقليم قيليقية الذى يقع إلى الجنوب من دولة السلاجقة والامارات الدانشمندية ويحتل الجزء الجنوبى الشرقى من آسيا الصغرى ، أما المجموعة الاخرى فهى الامارات الصليبية والدويلات الاسلامية بالشام والدولة الفاطمية ثم الدولة الايوبية فى مصر .

وقد اختار الباحث هذا الموضوع للدراسة لعدة أسباب ، منها حاجة المكتبة العربية إلى دراسة علمية مستقلة تتناول هذا الموضوع الهام ، وليس ذلك فحسب بل ما هو أهم أن هذه الفترة كانت تمثل حلقة من أخطر حلقات الصراع بين الشرق والغرب ، فقد ألقى الغرب الاوربى بكل ثقله فى المنطقة

---

(١) اتخذ سلاجقة الروم مدينة نيقية عاصمة لهم عندما فتحها سليمان بن قتلمش عام ١٠٧٤ م /٤٦٧ه ثم اتخذوا مدينة قونية بعد سقوط نيقية على يد الصليبين عام ١٠٩٧ م / ٤٩٠ ه . أنظر : العظيمى : تاريخ العظيمى ص ٣٦١ ، أنظر أيضاً: Fulcher of Chartres, Chronicle of the First Crusade, pp. 33, 37.

أنظر أيضا : عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٤٥ .

وتمكن من إقامة الامارات الصليبية فى الشام فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى / أواخر القرن الخامس الهجرى . وفى الوقت الذى بدأت فيه القوى الاسلامية تجمع قواتها لضرب هذه العناصر الدخيلة وطردها من أراضيها يبرز الأمبراطور مانويل محاولا السيطرة على الشرق الاسلامى وبسط نفوذ الامبراطورية البيزنطية على المنطقة .

وبات يتصارع على المنطقة ثلاث قوى . أولها . القوى الاسلامية باعتبارها صاحبة البلاد الأصلية . وثانيها . القوى الصليبية الدخيلة التى تمكنت من فرض نفوذها فى المنطقة . وثالثها . الإمبراطورية البيزنطية وهى ماتهمنا فى هذا البحث . والواقع أن الصراع بين الأمبراطورية البيزنطية والشرق الاسلامى لم يكن وليد عهد الأمبراطور مانويل فالصراع بين الامبراطورية والمسلمين كاد لا ينقطع منذ الفتح الاسلامى .. وفى عهد الامبراطور مانويل كانت الامبراطورية البيزنطية تسعى لاعادة سيطرتها على آسيا الصغرى والقضاء على السلاجقة وآل دانشمند وأمراء الأرمن الذين كانوا يشكلون خطرا كبيرا على كيان الامبراطورية، يضاف إلى ذلك ما كانت تسعى إليه بيزنطة من استعادة أملاكها التى استولى عليها المسلمون ثم الصليبيون فى الشام خاصة إمارة أنطاكية الصليبية وأخيرا ما كانت تدعيه الامبراطورية البيزنطية فى عهد الامبراطور مانويل من حقها فى الديار المصرية باعتبارها كانت من أملاك الامبراطورية قبل الفتح الاسلامى ويجب أن تعود مصر إلى دائرة النفوذ البيزنطى(١) .

---

(١) حول هذه الفكرة أنظر : Cinnamus, Epitome Historiarum, p. 278.

وتشعبت المشاكل الشرقية فى عهد مانويل ازاء القوى المتعددة فى المنطقة من مسلمين وصليبيين وأرمن ، ويزيد من تعقيد هذه المشاكل أن المسلمين لم يكونوا تحت قيادة موحدة ، فكثيرا ما نجد الصراع بين السلاجقة وآل دانشمند وحكام الشام المسلمين حينا ، والتقارب الظاهرى بين هذه الأطراف حينا آخر ، وكذلك ما نجده من خلافات بين الحكام الصليبيين فى وقت ما ، ثم اتفاقهم فى وقت آخر . يضاف إلى ذلك ما دار من صراع بين حكام الأرمن أنفسهم ، وأخيرا صراع هذه القوى مع بعضها حينا وتحالفها مع البعض الآخر حينا آخر. وفى خضم هذا الصراع يظهر الامبراطور مانويل ليحاول من خلال هذا التطاحن الذى يسود المنطقة إعادة نفوذ الامبراطورية على المنطقة تارة بقوة السلاح ، ومرة أخرى عن طريق ضرب قوى المنطقة ببعضها دون تدخل القوات البيزنطية ، وفى مناسبة ثالثة عن طريق المعاهدات التى عقدها مع بعض الأطراف ليتفرغ لضرب أحد القوى المعادية لسياسة الامبراطورية . ولهذه الأسباب وغيرها التى سأتناولها فى ثنايا هذا البحث بالنقد والتحليل تتضح أهمية دراسة هذا الموضوع الذى تعتبر فترته من الفترات المصيرية فى تاريخ الشرق الاسلامى.

ولما كان هذا البحث يتناول طرفا من العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية وبين الشرق . بما كان يحكمه فى هذا الوقت من مسلمين وأرمن وصليبيين ، لذلك تحتم على الرجوع إلى كافة المصادر العربية والأجنبية على قدم المساواة سعيا وراء الحقيقة التاريخية المطلقة التى هى فوق كل اعتبار ، ولاشك أن ما اعترى الكتابات التاريخية فى هذا الميدان من قصور ولبس فى بعض النواحى انما يرجع إلى أن الكتاب الغربيين جنحوا إلى الاعتماد على شق واحد من أصول هذا الموضوع أكثر بكثير من اعتمادهم على البعض الآخر ، فانطبع استعراضهم السريع المبتور لبعض البحث ومشاكله التى تعرضوا اليها

بطابع انصاف الحلول ، وعلى ذلك أصبحت مهمة الباحث فى معالجة سياسة الامبراطورية البيزنطية فى هذه الحقبة التاريخية هى مناقشة مختلف الأسانيد والروايات التاريخية التى تعرضت لهذا الموضوع أو تناولت جانبا منه ومقارنتها ببعضها البعض بغية الوصول إلى أسلم النتائج التى يتمخض عنها البحث التاريخى السديد .

وعلى هذا المنهج الذى أتبعه الباحث فى هذه الرسالة رجع إلى المصادر الشرقية والغربية وبعضها لازال بلغته الأصلية كاليونانية واللاتينية والبعض الآخر لايزال مخطوطا لم ير النور بعد ، وأهم هذه المصادر دون شك مصادر شهود العيان والمؤرخين المعاصرين للأحداث ثم المصادر المتأخرة زمنيا التى دون أصحابها مادتهم التاريخية عن الأصول المفقودة أو غير المفقودة . وأحمد الله لأننى وفقت فى الحصول على كافة المصادر الرئيسية لهذا البحث لدرجة أننى رجعت فى معظم المادة التاريخية المتعلقة بصميم هذه الرسالة إلى المصادر الأصلية ولم أرجع إلى المراجع العربية أو الأجنبية إلا فيما يتعلق بفكرة أو رأى أو الاشارة إلى أحداث جانبية تتعلق بموضوع البحث .

وقد لجأت إلى وضع المصادر البيزنطية فى المكانة الأولى تليها المصادر اللاتينية فالمصادر السريانية ثم المصادر الأرمينية والمصادر اليهودية وأخيرا المصادر العربية . ويرجع هذا الترتيب إلى أهمية المصادر التى استقيت منها المادة التاريخية موضوع البحث ، فالمصادر البيزنطية قد شملت معظم جوانب هذه الرسالة تليها المصادر اللاتينية وهكذا ، ولما كنت قد رجعت إلى العديد من المصادر فأننى أكتفى فى الصفحات التالية بالقاء الضوء على أهم المصادر التى استقيت منها المادة التاريخية والتعريف ببعض آخر تاركا البقية منها إلى ثنايا الكتاب . . .

وفيما يتعلق بالمصادر البيزنطية فأهم ما رجعت اليه ما كتبه المؤرخ المعاصر نيكتاس خونياتس Nicetas Choniates فى كتابه «التاريخ» Historia (١) والمؤرخ نيكتاس ولد فى أواسط القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى فى مدينة خونيه Chonea بآسيا الصغرى ولذلك اقترن أسمه بمسقط رأسه (٢) وعندما بلغ التاسعة من عمره انتقل إلى القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية ليتلقى تعليمه تحت اشراف أخيه الأكبر ميخائيل خونياتس Michel Choniates الذى أصبح مطرانا لمدينة أثينه فيما بعد(٣) . ولقد تقلدنيكتاس عددا من الوظائف الهامة كان أولها أنه عمل حاجبا فى البلاط البيزنطى فى أواخر عهد الامبراطور مانويل ثم أصبح عضوا فى مجلس السناتو Senatus ، كما عمل قاضيا وتدرج فى منصبه حتى أصبح كبير الحجاب Paracoemomenus فى عهد الأمبراطور اسحق الثانى انجيلوس Issac II Angelus (١١٨٥ — ١١٩٥ )م ثم عين حاكما لثيم فيليبوليس Philippolis الواقع فى البلقان . وعندما سقطت القسطنطينية فى يد اللاتين عام ١٢٠٤ م / ٦٠٠ ﻫ لجأ نيكتاس إلى اقليم بثينه Bithynia فى آسيا الصغرى ودخل فى خدمة الامبراطور البيزنطى ثيودور الأول لاسكاريس Theodore I Lascaris (١٢٠٤ — ١٢٢٢ م) الذى أقام حكومته فى نيقية حيث انتهت حياة نيكتاس فى تاريخ غير معروف يمكن تحديده فى الفترة الممتدة من عام ١٢١٠ وهى السنة الأخيرة التى انتهت فيها الحوادث التى ذكرها فى مؤلفاته وعام ١٢٢٢ م وهى السنة

---

(١) Nicetas Choniates, Historia, cf., C.S.H.B., Bonn, 1835.
والكتاب منشور باللغة اليونانية ومزيل بترجمة لاتينية .

(٢) Ostrogorsky, History of the Byzantine State, p. 312.

(٣) Brehier, L.. la Civilisation Byzantine, p. 322.

التى مات فيها أخوه واشار فيما كتبه عن موت أخيه الأصغر نيكتاس(١) .

وكتاب «التاريخ» الذى تركه لنا نيكتاس هو المؤلف البيزنطى الوحيد الذى تناول فيه الفترة الممتدة من عام ١١١٨ — ١٢٠٦ م / ٥١١ — ٦٠٢ هـ وأرخ فيه للأباطرة البيزنطيين وذيله بملحق صغير تناول فيه المؤلف تماثيل القسطنطينية التى أتلفها اللاتين عام ١٢٠٤ م عندما استولوا على العاصمة البيزنطية ، وللمؤرخ بعض المؤلفات الأخرى تتعلق بالمجالات الدينية والشعرية والخطابية . والمهم أن كتاب التاريخ يعتبر من أعمدة المصادر التاريخية البيزنطية عن حكم الامبراطور مانويل الأول .

ويقع كتاب «التاريخ» فى واحد وعشرين فصلا . يهمنا فى هذا البحث الفصل الأول الخاص بعهد الأمبراطور يوحنا الثانى كومينينوس John II Comnenus ١١١٨ — ١١٤٣ م / ٥١١ — ٥٣٧ هـ والفصل الثانى حتى الفصل الثامن المتعلق بحكم الأمبراطور مانويل . والمتصفح لفقرات هذا الكتاب يمكنه أن يلاحظ بوضوح أن المؤرخ دون الفصول الثلاثة الأولى بعد عهد الامبراطور مانويل وفى عهد الأمبراطور اندرونيكوس كومينينوس Andronicus Comnenus (١١٨٣ — ١١٨٥ م / ٥٧٨ — ٥٨١ هـ) ومما يدل على ذلك أن المؤرخ تحدث عن بعض أخبار اندرونيكوس كامبراطور فى الوقت الذى يتحدث فيه عن أخبار الأمبراطور مانويل(٢) . أما بقية الفصول فقد كتبها المؤرخ بعد سقوط القسطنطينية لأنه تحدث فيها عن سقوط القسطنطينية وأشاد

---

(١) Chalandón, F. les Commnenes t., II, XXIII; Michaud, Bibl. Croi, II, pp. 249—250.

(٢) Nicetas, op. cit., p. 68.

فيها بحسن سياسة الأمبراطور مانويل التى أتبعها مع اللاتين (١) ، وربمايكون قد دون بعضها قبل ذلك .

ولم يشر نيكتاس إلى المصادر التى استقى منها مادته التاريخية ، ولكن من الواضح أن المناصب التى تقلدها هذا المؤرخ قد مكنته من الاتصال بكبار الشخصيات الذين كانوا يحركون الأحداث كالقادةالعسكريين ورجال البلاط ، وعلى ما يبدو أن المؤرخ قد استقى بعض مادته التاريخية من الروايات الشعبية التى تناقلها البعض خاصة فيما يتعلق بعلاقة الأمبراطورية مع الحملة الصليبية الثانية(٢) . كما رجع المؤرخ إلى بعض المصادر المكتوبة ويتضح ذلك من تطابق مادته التاريخية التى أوردها عن معركة ميريوكيفالون Myriokephalon إلى حد كبير مع ما كتبه الامبراطور مانويل فى تقريره الذى أرسله الأمبراطور إلى هنرى الثانى Henry II ملك انجلترا (١١٥٤ — ١١٨٩ م) فى نوفمبر عام ١١٧٦ م (٣) .

وقدم لنا نيكتاس مادة تاريخية تتعلق بكل من الشرق والغرب على السواء . وما يهمنا فى هذا البحث هو سياسة الأمبراطور مانويل الشرقية ، لذلك ينصب التحليل للمادة التاريخية على ما يخص الأمور الشرقية فقط دون الاشارة إلى ما يخص الغرب الا إذا لزم الأمر ، وينسحب هذا المنهج على كافة المصادر التى أتعرض لها فى هذه الصفحات .

تناول المؤلف فى الفصل الأول عهد الامبراطور يوحنا ، وقد سجل فيه الأحداث حسب ترتيبها الزمنى وقد أوردها فى صورة مختصرة ، ورغم ذلك

---

(١) Nicetas; op. cit., p. 265.

(٢) قارن على سبيل المثال بين ما كتبه نيكتاس مع ما أورده المؤرخ الفرنسى
Odo of Deuil, De Profection Ludovici VII, pp. 103, 105 ff.

(٣) أنظر ما يلى ص ٢١ .

فقد قدم لنا مادة طيبة فى بعض جوانبها خاصة ما يتعلق بحروب الامبراطور ضد السلاجقة وكذلك حملاته على قيليقية وأنطاكية . أما بقية الاحداث الخاصة بعلاقته مع الأمراء الصليبيين فقد أوردها المؤرخ بايجاز شديد .

واختص الفصل الثانى بالأحداث منذ بداية عهد الأمبراطور مانويل حتى عام ١١٤٨ م / ٥٤٣ هـ . وقد اشتمل هذا الفصل على عودة الامبراطور بعد وفاة أبيه إلى العاصمة البيزنطية، كما قدم لنا أيضا أحداث حروب الأمبراطور مع السلاجقة ومعلومات عن الحملة الصليبية الثانية .

واشتمل الفصل الثالث على ما يلى ذلك من أحداث حتى عام ١١٦٢ م / ٥٥٧ هـ وأورد فيه المؤرخ أخبار حملة الأمبراطور مانويل على قيليقية ودخول الأمبراطور مدينة أنطاكية وعلاقته بالصليبيين وأسباب عودة مانويل إلى العاصمة البيزنطية وموت الامبراطورية ايرين Iren زوجة مانويل وزواج الأمبراطور من الأميرة الصليبية ماريا Maria . كما تناول باختصار حروب مانويل مع السلاجقة وتوسع فى أخبار زيارة السلطان السلجوقى قلج ارسلان . (٥١٠ - ٥٥١ هـ / ١١١٦ - ١١٥٦ م ) للقسطنطينية . وأشار إلى مساندة الامبراطور للسلطان قلج أرسلان ضد آل دانشمند .

أما الفصل الرابع فقد تضمن علاقة الامبراطورية بهنغاريا والمجر وما ترتب على ذلك من أحداث . وكل ما ورد به عن الجانب الشرقى خاص بحروب الامبراطورية البيزنطية فى آسيا الصغرى التى إنتهت أحداثها حوالى عام ١١٧٣م ٥٦٩ هـ .

وأورد المؤرخ فى الفصل الخامس أحداثا تاريخية امتدت من عام ١١٦٦م ٥٦١ هـ حتى عام ١١٨٠ م / ٥٧٦ هـ أى حتى نهاية حكم الأمبراطور مانويل ،

وخصص معظمها لأحداث المجر والغرب وقصة الصراع بين الامبراطورية والبنادقة ، وفى الجانب الشرقى تناول أحداث الحملة البيزنطية الصليبية على دمياط عام ١١٦٩ م / ٥٦٥ ه بايجاز .

وتضمن الفصل السادس حروب الامبراطورية مع السلاجقةفى آسيا،وفيه يعود المؤرخ بالأحداث منذ عام ١١٧٤ / ٥٧٠ ه حتى عام ١١٨٠ ؛ ولم يتضمن أحداثا أخرى .

وعالج فى الفصل السابع علاقة الامبراطورية بايطاليا والأحوال الداخلية للامبراطورية وينتهى بالأيام الأخيرة لحكم الأمبراطور مانويل .

ويتضح مما كتبه نيكتاس أنه لم يراع التسلسل الزمنى للأحداث أو للموضوع إلى حد ما وأنه كان يميل إلى الاستطراد فى بعض الأحيان كما أنه لم يشر إلى السنة التى وقعت فيها الأحداث وانما كان يكتفى بذكر الفصل الجغرافى ، كما أبدى أعجابه بالامبراطور يوحنا على العكس من ابنه مانويل ، ولعل ذلك مرجعة إلى أنه شاهد أواخر حكم مانويل وهى الفترة التى بدأت فيها الأخطار تحيط بالامبراطورية. كما أنه لم يشر إلى انغارة التى قام بها الأمبراطور مانويل ضد أنطاكية(١) فى عام ١١٤٣ م بعد وفاة الأمبراطور يوحنا مباشرة عندما تمرد ريموند أف بواتيه Raymond of Poitiers أمير أنطاكية (١١٣٦ — ١١٤٩ م / ٥٣٠ — ٥٤٤ ه). كما أنه لم يشر كذلك إلى الهجوم الذى دبره ريموند الثالث كونت طرابلس(٢) (١١٥٢ — ١١٨٧م

---

(١) عن المادة التاريخية لهذه الأحداث راجع :

Cinnemus, Epitome Historiarum, pp. 33—35.

(٢) عن هذه الأحداث أنظر : William of Tyre, History of Deeds Done Beyond The Sea; II, pp. 291—2.

٥٤٦ — ٥٨٣ هـ) فى عام ١١٦٢ م / ٥٥٧ هـ على الأراضى البيزنطية عندما رفض الأمبراطور مانويل الزواج من أخته ميلسند Melisende . كما أنه لم يشر إلى مشروع التحالف البيزنطى الصليبى بهدف غزو مصر عام ١١٧٧ م ٥٧٣ هـ (١) . وقد انفرد نيكتاس بما أورده عن الحروب السلجوقية البيزنطية التى وقعت فى الأربع سنوات الأخيرة من حكم الأمبراطور مانويل،وقدم لنا مادة مفيدة عن هذه الأحداث غطت جانبا هاما فى هذا البحث خاصة وأنها تتعلق بنهاية حكم الأمبراطور مانويل .

والمصدر البيزنطى الثانى الذى لا يقل أهمية عن كتاب نيكتاس هو كتاب «مختصر التاريخ» للمؤرخ يوحنا كيناموس John Cinnamus (٢).ومعلوماتنا عن هذا المؤرخ قليلة . فمسقط رأسه غير معروف لدينا . وكل ما نعرفه أنه ولد حوالى عام ١١٤٣ م / ٥٣٧ هـ أى مع بداية حكم الأمبراطور مانويل أو بعد ذلك بقليل،وأنه عمل كذلك حاجبا فى البلاط البيزنطى شأنه فى ذلك شأن زميله نيكتاس(٣) . وعلى ما يبدو أنه صاحب الأمبراطور مانويل فى بعض حملاته العسكرية بدليل ما نجده من اسهاب فى شرح تفاصيل بعض المعارك أو أنه كان يعمل فى البلاط فى بعض الشئون العسكرية . وتاريخ وفاته غير معروف والواضح من النصوص التى تركها فى مؤلفه «مختصر التاريخ» أنها كانت فى عهد الأمبراطور الكسيوس الثانى كومينينوس Alexuis II Comnenus (١١٨٠ — ١١٨٣ م / ٥٧٦ — ٥٧٩ هـ)( ابن الامبراطور مانويل أو بعده بقليل ،لأنه أشار فى بداية مؤلفه إلى حكم الكسيوس الثانى (٤) .

---

(١) راجع : William of Tyre, op. Cit., II, pp. 420 ff.

(٢) Cinnamus, J., Epitime Historiarum, CF. C.S.H.B. Bonn, 1836.

و الكتاب منشور باللغة اليونانية ومذيل بترجمة لاتينية كالحال مع كتاب نيكتاس

(٣) M.E.E.II., tom. 14, p. 437.

(٤) Cinnamus, op. Cit., p. 4.

ويعتبر ما كتبه كيناموس من المصادر الهـامة فى التاريخ البيزنطى التى تناولت جانبا من القرن الثانى عشر الميلادى ولا يقل أهمية عن نيكتاس، فقد تناول فى كتابه الأحداث التى تبدأ من عهد الأمبراطور يوحنا(١) ، وعهد الأمبراطور مانويل حتى عام ١١٧٦ م . ومن المحتمل أن يكون كيناموس قد انتهى من كتابة عهد الامبراطور مانويل وأضاف إليه عهد أبنه الكسيوس ولكنه فقد ولم يلحق بالكتاب الذى بين أيدينا . ومن الملاحظ أن المؤرخ كيناموس كان معاصرا لزميله نيكتاس ، وإذا كان كيناموس قد توفى فى زمن سابق لوفاة نيكتاس فمن المشاهد كذلك أن المؤرخ نيكتاس لم يشر إلى زميله كيناموس ، ولعل من أسباب ذلك أن المؤرخ كيناموس لم يكن معروفا لدى معاصريه كمؤرخ وأن ما دونه من مادة تاريخية لم تعرف إلا بعد وفاة نيكتاس ، أو أن الأخير تعمد اغفاله .

وكتاب «مختصر التاريخ» من المصادر التى يعتمد عليها خاصة وأنه المؤرخ الوحيد بعد نيكتاس الذى ألف لعهد الأمبراطور مانويل — وصلت مادته التاريخية إلى أيدينا — يضاف إلى ذلك أن ما تركه لنا هذا المؤرخ يمتاز بالدقة والمعرفة . وعلى ما يبدو أنه لم يسهب إلا فى سرد الأحداث التاريخية التى شاهدها بنفسه بدليل ما نجده من اسهاب فى ذكر بعض الأحداث على العكس من بعض الأحداث الأخرى، وهى التى على ما يبدو قد نقلها عن شهود العيان، لذلك أوردها باختصار وفى غاية التحفظ .

ومن الملاحظ أيضا على كيناموس أنه كان يحب الأمبراطور مانويل ومعجبا به بشكل واضح ، ومن ذلك ما نشاهده من أنه أعطى أعمال الامبراطور

---

(١) ويلاحظ هنا أن المؤرخين يكملان أعمال المؤرخة أنا كومنينا التى أرخت حتى أحداث عام ١١١٨ م . أنظر ما يلى ص ١٧ .

قيمة خاصة وأنه عندما يتكلم عن أعمال مانويل العسكرية يضفى عليه نوعا من البطولة الأسطورية وكان ذلك على حساب المادة التاريخية للأحداث لأنه فى غمرة حديثه عن بطولات مانويل الفردية ينسى امدادنا بالمعلومات التاريخية الكافية عن أحداث هذه المعارك .

وينقسم كتاب «مختصر التاريخ» إلى سبعة فصول . يشتمل الفصل الأول منها على حكم الأمبراطور يوحنا . والمعلومات التاريخية التى وردت به موجزه وقد أوردها المؤرخ حسب ترتيبها الزمنى .

أما الفصل الثانى فقد تضمن الأحداث منذ بداية حكم مانويل حتى عام ١١٥٢ م / ٥٤٧ هـ ، وقد أورد فيه المؤرخ أحداث حروب الأمبراطورية مع السلاجقة وأخبار الحملة الصليبية الثانية وعلاقات الأمبراطور مانويل مع الملك كونراد أثناء عبوره على رأس قواته إلى آسيا الصغرى ، وما كتبه المؤرخ فى هذا الفصل عن العلاقات السلجوقية البيزنطية يدل على معرفته الطيبة بالمسائل السلجوقية ، والمادة التاريخية وردت حسب ترتيبها الزمنى فى سرد الوقائع .

وتناول الفصل الثالث الفترة التالية الممتدة حتى عام ١١٥٦ م / ٥٥١ هـ وقد اشتمل على جانب كبير عن علاقة الامبراطورية بالغرب ، والجانب الشرقى الذى أورده المؤرخ يتعلق بصراع الامبراطورية مع الأرمن وهى معلومات ناقصة ولا تتناسب اطلاقا مع مجريات الأحداث .

ويلى ذلك الفصل الرابع الذى امتدت أحداثه حتى عام ١١٦١ م/٥٥٦هـ، وتناول فيه المؤرخ حملة الأمبراطور مانويل على قيليقية والشام وانتهى باحداث هجوم السلاجقة على الامبراطورية البيزنطية . وقد قدم المؤلف فى هذا الفصل

معلومات طيبة عن الأحداث المتعلقة بأنطاكية وآسيا الصغرى ولكن معلوماته عن أحداث قيليقية قليلة وفى غاية الاختصار .

أما الفصل الخامس فقد شملت مادته التاريخية الفترة التالية حتى عام ١١٦٦ م/٥٦٢ هـ ،وتضمن الأحداث الشرقية الخاصة بحروب الامبراطورية مع السلاجقة وعلاقة الامبراطور مانويل بامارة أنطاكية،والأحداث التاريخية واردة حسب ترتيبها الزمنى واشتمل هذا الفصل على جانب كبير من العلاقات البيزنطية الغربية والروسية .

واشتمل الفصل السادس ما يلى من أحداث عام ١١٧٤ م / ٥٧٠ هـ وما ورد به من الجانب الشرقى يتركز فى الحملة البيزنطية الصليبية على مصر فى عام ١١٦٩ م وزيارة الملك عمورى الأول Amalric I ملك مملكة بيت المقدس (١١٦٢ — ١١٧٣ م / ٥٥٧ — ٥٦٩ هـ) وجانبا من الحروب السلجوقية .

أما الفصل السابع والأخير فقد تناول فيه المؤلف الأحداث حتى منتصف عام ١١٧٦ م / أواخر عام ٥٧١ هـ تقريبا ، وقد أورد فيه المؤلف الحروب السلجوقية مع الأمبراطورية فى هذه الفترة والجهود التى قام بها مانويل الأول لضرب السلاجقة،وتنتهى أحداث هذا الفصل بما ذكره المؤلف عن ارسال بعض قطع الأسطول البيزنطى إلى مصر ويتوقف فى الوقت الذى نظم فيه الامبراطور مانويل قواته لضرب السلاجقة التى انتهت طبقا لما روته لنا المصادر الأخرى بهزيمة القوات البيزنطية فى معركة ميريوكيفالون .

هذا وقد انفرد كيناموس بذكر حادثة تاريخية لم ترد فى المصادر الأخرى المتاحة لنا وهى الحملة البرية البحرية التى أرسلها الأمبراطور مانويل لاخضاع ريموند أمير أنطاكية الذى تمرد على الامبراطورية البيزنطية وهاجم أملاكها

عقب وفاة الأمبراطـور يوحنا مباشرة(١) . كما أغفل المؤرخ بعض الوقائع التاريخية الهامة وهى مصاهرة الملك بلدوين الثالث Baldwin III (١١٤٤ - ١١٦٢ م / ٥٣٨ – ٥٥٧ هـ) للأمبراطـور مانويل الأول ، كما أنه لم يشر إلى الغارة التى شنها ريموند الثالث كونت طرابلس على الأملاك البيزنطـية بسبب رفض الأمبراطور مانويل الزواج من أخته ميلسند .

ومن المصادر البيزنطية الهامة التى رجعت اليها الخطـاب الذى أرسلـه الأمبراطور مانويل إلى هنرى الثانى ملك انجلترا(٢) . ويقتصر ما ذكر فى هذه الوثيقة على احداث معركة ميريوكيفالون وقد صورت هذه الوثيقـة المعركة بكل تفاصيلها وتوضـح لنا جانبا كبيرا من فنون الحرب السلجوقيـة والبيزنطية . والواقع أن الأمبراطور مانويل كان صادقا مـع نفسه إلى حد كبير فى تسجيل احداث هذه المعركة التى انتهت بهزيمـة القوات البيزنطية هزيمـة ساحقة . ولكن يلاحظ على ما ورد بها من مادة تاريخيـة ما دونه الأمبراطور من أن السلطان قلج قد عرض عليه الصلح بعد هزيمـة القوات البيزنطية ومبالغة الأمبراطور بأنه كان يحارب القوات السلجوقية وكافة القوات الاسلاميـة التى أتت لنجدة السلطان ، وقد ناقشت هذه الآراء وغيرها التى وردت فى هـذه الوثيقة فى متن الكتاب . وقـد كتب الخطاب بنبرة حزينة جعلت المؤرخ الانجليزى روجر أف وندوفر يشير إلى أن السفارة التى حملت الخطاب جاءت تلتمس المشورة مـن الملك هنرى(٣) .

وقبل أن أنتقل إلى نوع آخر مـن مصادر البحث أود أن أشير إلى بعـض

---

(١) أنظر ما يلى ص ١١٠.

(٢) Manuel I, Empror of Constantinople., Lettre to the King Henry II of England, CF. Roger of Hovenden I, pp. 419—423.

(٣) Roger of Wendover, Flowers of History, II, p. 35.

المصادر البيزنطية التي أفادت في الفترة السابقة لحكم مانويل وهي كتاب «الالكسياد» (١) للمؤرخة أناكومنينا (٢) وحولية المؤرخ ميخائيل بسلوس (٣) وما كتبه الرحالة البيزنطي يوحنا فوكاس (٤) في عام ١١٨٥ م / ٥٨١ هـ عن الاصلاحات التي تمت في كنيسة بيت لحم عام ١١٦٩ م / ٥٦٤ — ٥٦٥هـ.

أما المصادر اللاتينية فيتصدرها ما كتبه المؤرخ وليم الصوري William of Tyre في كتابه «تاريخ الأعمال التي تمت في بلاد ما وراء البحر» (٥). وقد ولد وليم في مملكة بيت المقدس حوالي عام ١١٣٠ م / ٥٢٤ هـ، وعلى ما يبدو أنه تلقى تعليمه في مدينة بيت المقدس نفسها ؛ وقد لجأ وليم في مرحلة مبكرة من حياته إلى السلك الكنسي ثم أصبح في حوالي عام ١١٦١ م / ٥٥٦هـ أحد رجال الدين التابعين لرئيس أساقفة صور. وبعد ذلك بقليل سافر إلى أوربا ليواصل دراسته هناك ثم ما لبث أن عاد في خريف عام ١١٦٣ م /

(١) Anna Comnena, Alexiad. (Tran. Sewter. Great Britain, 1969.
وهي الطبعة التي اعتمدت عليها.

(٢) هي ابنة الأمبراطور الكسيوس من زوجته الأمبراطورة ايرين دوكاس وكان ميلادها عام ١٠٨٣ م وتوفيت في عام ١١٤٨ م، وتزوجت من نقفور برنيوس. وقد وضعت كتابها هذا ليكون سجلا حافلا لتاريخ أبيها ويشمل الفترة الممتدة من ١٠٦٩ إلى سنة ١١١٨ م. عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر :
جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ص ٢٣ حاشية (١).

(٣) Psellos, M., Chronographie 2 Vols. Paris. 1926—8.
والكتاب منشور باللغة اليونانية وعلى الصفحات المقابلة ترجمة باللغة الفرنسية.

(٤) Phocas, J., A Brief Description (Tran. Stewart), P.P.T.S. Vol. V. London, 1889.

(٥) William of Tyre, History of Deeds Done Beyond the Sea, Trans E.A. Babcobk and Krey, 2 Vols. New York, 1943.
وهي النسخة التي رجعت اليها في هذا البحث.

أواخر عام ٥٥٨ هـ ، وعلى ما يبدو أن عمله اقتصر بعد عودته على أداء بعض الواجبات الدينية فى كنيسة صور .ولم تكن علاقته مع فريدريك Frederick رئيس أساقفة صور طيبة فى هذه المرحلة . ومنذ عام ١١٦٧ م / ٥٦٢ هـ بدأ وليم فى الارتباط بالملك عمورى الأول الذى طلب منه تسجيل تاريخ عهده خاصة وأنه فى هذا الوقت كان الصراع على أشده بين الصليبيين ونور الدين لامتلاك مصر ، وتكريما للمؤرخ وليم عينه عمورى رئيسا لشمامسة كنيسة صور . وتوثقت الصلة بين عمورى ووليم ومن ذلك ارساله فى سفارة إلى الأمبراطور مانويل عام١١٦٨ م/٥٦٣ هـ للتفاوض على تنظيم حملة بيزنطية صليبية لغزو مصر . وبعد موت عمورى عين وليم مستشارا للمملكة الصليبية فى عام ١١٧٤ م / ٥٧٠ هـ ثم أصبح فى العام التالى رئيسا لأساقفة كنيسة صور . وفى عام ١١٧٨ م / ٥٧٤ هـ سافر إلى روما بناء على دعوة البابا وعند عودة عرج على القسطنطينية لمقابلة الأمبراطور مانويل بتكليف من البابا ، وكان ذلك فى أواخر عهد مانويل وقبل وفاته بأشهر قليلة . وقد أتيحت لوليم الصورى بحكم المناصب التى شغلها والأعباء التى اضلع بها فرصة طيبة لمعرفة بواطن الأمور فى الامارات الصليبية والامبراطورية البيزنطية.وقد ساعده على ذلك إلمامه ببعض اللغات الأخرى كالعربية والفرنسية واليونانية والفارسيةوالعبرية فضلا عن لغته الأصلية وهى اللاتينية . وتاريخ وفاة وليم غير معروفة واختلف فيها المؤرخون ولكنه يمكن القول بأنها تقع بعد ما قدم لكتابه فى عام ١١٨٤ م ٥٨٠ هـ وقبل معركة حطين فى عام ١١٨٧ م / ٥٨٣ هـ (١) .

---

(١) عن هذه المعلومات وغيرها راجع البحث القيم الذى قام به الأستاذ الدكتور عمر كمال توفيق للمؤرخ وليم الصورى المنشور فى مجلة كلية الآداب — جامعة الاسكندرية العدد الحادى والعشرين سنة ١٩٦٨ ص ١٨١ — ٢٠٠ .

ويبدأ كتاب وليم الصورى بعرض سريع عن حالة الأراضى المقدسة قبل الحملة الصليبية الأولى وعن أصل الأتراك السلاجقة والتاريخ الاسلامى والعقيدة الاسلامية ويقدم عرضا للمعاملة التى لاقاها الحجاج المسيحيون الغربيون فى بيت المقدس ثم يصل إلى حملة بطرس الناسك ووصول قواد الحملة الصليبية الأولى، وهكذا يستمر فى سرد الأحداث حتى عام ١١٨٤ م ، وقد استقى وليم بعض مادته التاريخية خاصة قبل عام ١١٢٧ م / ٥٢١ هـ ممن سبقوه أمثال المؤرخ فوشيه أف شارتر Fulcher of Chartres ، والمهم أن ما كتبه وليم بعد هذا العام يعتبر المصدر الرئيسى للامارات الصليبية(١) .

ولقد قدم لنا وليم الصورى مادة تاريخية فى غاية الأهمية لا يتسع المكان فى هذا الموضوع لذكرها ويبدو أثرها واضحا فى ثنايا هذا البحث ولكنه يكفينى فى هذه السطور أن أنوه ببعض منها على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر واقتصر على ذكر بعض نوعيات من هذه المادة وهى ، أولا ، المادةالتاريخية التى لم ترد فى غيره من المصادر . ثانيا ، الأحداث التى أسهب فيها المؤرخ على العكس من المصادر الأخرى المتاحة لنا . وثالثا . الأحداث التى لم يقدم لنا المؤرخ عنها مادة تاريخية كالمصادر الأخرى . ورابعا ، الوقائع التى لم يذكرها المؤرخ فى الفترة موضوع البحث . وخامسا ، الأخطاء التى وقع فيها المؤرخ .

والنموذج الأول الذى اتعرض له وهو المادة التاريخية التى قدمها وليم الصورى دون غيره من المصادر المتاحة لنا هو مشروع الحملة البيزنطية الصليبية فى عام ١١٧٧ م ورغم قدوم الأسطول البيزنطى وسفارة من قبل الامبراطور مانويل الا أن المؤرخ نيكتاس الذى تناول هذه الفترة لم يشر اليها ،

---

(١) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١٨٩ .

ولاشك أن ما دونه وليم من مادة تاريخية حول هذا المشروع يعتبر فائدة قيمة لهذا البحث خاصة وأن هذه المعلومة تتعلق بصميم هذا البحث .

والنوع الثانى وهو الأحداث التى أسهب فيها المؤرخ فهى كثيرة ومتعددة نذكر منها حملتى الأمبراطور يوحنا على الشام عام ١١٣٧ م / ٥٣١ ه وعام ١١٤٢ م / ٥٣٧ ه والموكب الذى دخل به مانويل مدينة أنطاكية عام ١١٥٩م ٥٥٤ ه ،ومعاهدة ١١٦٨ م / ٥٦٤ ه بشأن غزو مصر وحملة عام ١١٦٩ م / ٥٦٥ه على دمياط ،وخاصة شجاعة المصريين فى الدفاع عن المدينة وأحوال مملكة بيت المقدس والامارات الصليبية التى دفعت عمورى لزيارة القسطنطينية واحداث الزيارة نفسها ونتائجها .

أما الجانب الثالث الخاص بالأحداث التى أوجزها المؤرخ فهى معركة ميريوكيفالون فقد أشار اليها بايجاز شديد وكذلك أحوال امارات الأرمن والسلاجقة وآل دانشمند . وربما نلتمس للمؤرخ العذر فى هذا الجانب باعتباره يؤرخ للامارات الصليبية .

وإذا كان للمؤرخ عذره فى الجانب الثالث فان النموذج الرابع لا عذر له فيه لأنه يتعلق بامارة أنطاكية ، فلم يذكر لنا المؤرخ الحملة البرية البحرية التى أرسلها الأمبراطور مانويل فى عام ١١٤٣م لتأديب ريموند أف بواتيه أمير أنطاكية عندما تمرد على السيادة البيزنطية وهاجم أملاكها عقب وفاة الأمبراطور يوحنا .

والنوع الأخير وهو الاخطاء التى وقع فيها وليم الصورى ومنها الأحداث الخاصة بوفاة الكسيوس وأندرونيكوس ولدى الأمبراطور يوحنا . وأنه أشار إلى مقتل ريموند أف بواتيه فى عام ١١٤٨ م / ٥٤٣ ه وصحته عام ١١٤٩ م / ٥٤٤ه، وأنه ذكر أن زيارة عمورى للقسطنطينية كانت فى السنة السابعة من

حكم الملك والصواب أنها كانت فى السنة التاسعة أى عام ١١٧١ م / ٥٦٧ ه كما أن وفاة مانويل كانت فى أكتوبر عام ١١٨٠ م والصواب أنها فى الرابع والعشرين من سبتمبر من العام نفسه / أول جمادى الثانى عام ٥٧٦ ه . ورغم ذلك فان ما كتبه وليم الصورى يعتبر مصدرا فى غاية الأهمية للدراسة الامارات الصليبية فى الفترة التى ألف لها بوجه خاص وعلاقاتها مع جيرانها من المسلمين والبيزنطيين والأرمن بوجه عام .

ومن المصادر اللاتينية الهامة التى أفادت جانبا من هذا البحث ما كتبه المؤرخ الفرنسى أودو أف ديل فى كتابه «حملة لويس السابع فى الشرق (١)» ، وتاريخ ميلاد هذا المؤلف ليس معروف لدينا ، وعلى ما يبدو أنه إنخرط فى السلك الكنسى فى بداية حياته حتى أصبح راهبا فى دير سانت دنيس St.Denis شمالى مدينة باريس . وقد عين واعظا للحملة الصليبية الثانية التى قادها كل من كونراد الثالث Conrad III ملك ألمانيا (١١٣٨ — ١١٥٢ م) ولويس السابع Louis VII ملك فرنسا (١١٣٧ — ١١٨٠ م) ، وقد اصطحبه لويس معه فى حملته هذه وعاد إلى بلاده فى عام ١١٤٩ م ثم ما لبث أن عين رئيسا للدير سانت دنيس فى عام ١١٥٢ م وظل فى هذا المنصب طوال حياته(٢).

وما كتبه أودو عن الحملة يبدأ منذ أن كانت فكرة وما يلى ذلك من أحداث كالاعلان عنها والدعوة اليها واعداد القوات ومسيرتها من فرنسا فى طريقها إلى آسيا الصغرى. وانتهى عند المرحلة التى وصل فيها الجيش الفرنسى

(١) Odo of Deuil, De Profection Ludovice VII in Orientem New York, 1948. وهذه الطبعة منشور باللغة اللاتينية وعلى الصفحة المقابلة الترجمة الانجليزية .

(٢) Odo of Deuil, op. Cit., pp. XIV FF.

إلى مدينة أضاليا البيزنطية الواقعة على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى. كما تناول جانبا من الأحداث التى لحقت بالجيش الألمانى الذى كان تحت قيادة كونراد. والملاحظ أن المؤرخ أورد فيما كتبه جملة عن حصار دمشق (١) مما يجعلنا نشك أن المؤرخ قد أكمل تاريخ الحملة خاصة وأن مهاجمة دمشق لم تتقرر إلا بعد انعقاد مجلس الحرب الذى عقده الصليبيون فى مدينة عكا بعد وصول لويس وكونراد إلى هناك (٢) .

والواقع أن ما قدمه المؤرخ من مادة تاريخية عن الحملة وعلاقتها بالامبراطورية البيزنطية يعتبر فى غاية الأهمية وهو مالا نشاهده فى أى مصادر آخر ، كما أمدنا المؤرخ ببعض العلاقات البيزنطية السلجوقية قبل وصول الحملة إلى آسيا الصغرى وأهم ما قدم لنا فى هذا الجانب أخبار الهدنةالسلجوقية البيزنطية وقد أشار اليها المؤرخ بأنها اثنى عشر عاما (٣) ، كما أمدنا أيضا بموقف روجر الثانى Roger II ملك صقلية (١١٢٩ — ١١٥٤ م)من الحملة ومهاجمته الاملاك البيزنطية أثناء مرور الحملة فى آسيا الصغرى . ومن الملاحظ على المؤرخ عدائه الشديد للبيزنطيين بصفة عامة والامبراطور مانويل بصفة خاصة.ومن الجائز أن هذه الكراهية قد انعكست على المؤرخ لدرجة أنه لم يذكر فى مؤلفه اسم الامبراطور مانويل وأشار اليه بعبارة أمبراطور اليونانيين Greek Emperor أو عبارة امبراطور القسطنطينية Emperor of Constantinople أو اكتفى بكلمة الأمبراطور the Emperor، ورغم ذلك فقد أشار إلى الخدمات التى قدمها مانويل للحملة والنصائح التى قدمها إلى كل من

---

(١) Odo of Deuil, op. cit., p. 119.

(٢) William of Tyre, op, Cit., II p. 184—6.

(٣) Odo of Deuil, op. Cit., p. 55.

كونراد ولويس قبل عبورهما وفواتهما آسيا الصغرى حتى تتفادى القوات الصليبية الهجمات السلجوقية وهى فى طريقها إلى الشام .

وإذا كان أودوأف ديل قد أمدنا بمعلومات فى غاية الأهمية عن موقف الامبراطور من الحملة باعتباره أحد شهود العيان . فأن زميله أوتوأف فرايزنج Otto of Freising الأخ غير الشقيق للملك كونراد والذى كان يصاحب القوات الألمانية للحملة فأنه لم يترك لنا فى مؤلفاته ما يشفى غليل الباحث عن أحداث هذه الحملة وكل ما قدمه لنا بضع كلمات . والواضح أن المؤرخ قصد عن عمد عدم كتابة تاريخ الحملة بعد النهاية الفاشلة التى منيت بها وهو ما ذكره المؤلف صراحة فى كتابه (١) .

وعلى أية حال فانه ما يعوضنا بعض الشيء عن ندرة مصادر الحملة الثانية بعض ما أورده المؤرخ وليم الصورى فى كتابه الذى أشرت إليه وبعض الخطابات التى أرسلها مانويل إلى لويس والى البابا وخطابات الملك كونراد الى ويبالد أف كورفى Wibald of Corvey وخطابات الملك لويس إلى البابا وقد أوردناها فى الفصل الثانى من الكتاب وستظهر أهميتها بوضوح من سياق الأحداث .

ومن المصادر اللاتينية أيضا خطابات الملك عمورى للغرب الأوربى التى تتعلق بطلب المساعدات للامارات الصليبية ، وكذلك خطاب الملك عمورى للملك لويس الذى يشكو فيه من تدخل الامبراطور مانويل فى شئون أنطاكية بعد

---

(١) Otto of Freising, The Deeds of Frederick Barbarossa p. 103.
وقد خدم هذا المصدر بعض نقاط هذا البحث .
ولنفس المؤرخ مصدر آخر بعنوان المدينتين . The Two Cities.

أسر أميرها بوهمند الثالث Behemond III (١١٦٣ — ١٢٠١ م / ٥٥٨— ٥٩٧هـ)، وبعض المصادر اللاتينية الأخرى التى سجلتها فى أئمة المصادر اللاتينية وكلها خدمت جانبا أو أكثر من هذا البحث

أما المصادر السريانية فأهمها على الاطلاق حولية المؤرخ ميخائيل السريانى Michel le Syrien (١) . وقد ولد ميخائيل عام ١١٢٢ م تقريبا/٥١٦ هـ وكان أبوه أحد رجال الدين فى مدينة ملطية . وبدأ حياته فى دير القديس مار برسوم Mar Barsauma ثم تدرج فى مناصبه الدينية حتى أصبح رئيسا لهذا الدير وكان آخر المناصب الدينية التى تولاها منصب بطريـك السريان فى مدينة أنطاكية من عام ١١٦٦ حتى عام ١١٩٩ م (٥٦١—٥٩٦هـ) أى حتى نهاية حياته (٢) . وبالاضافة إلى حوليته المشهورة فقد ألف ميخائيل فى النواحى الدينية والقانونية وكان أحد رجال الدين البارزين فى عصره حتى أن الامبراطور مانويل أرسل اليه بغرض توحيد الكنيستين السريانيةوالبيزنطية .

وقد كتب ميخائيل حوليته هذه على ما يبدو فى عام ١١٩٦ م / ٥٩٢ هـ أى قبل ثلاث سنوت من وفاته وتنتهى الأحداث التاريخية التى أوردها المؤرخ فى عام ١١٩٥ م / ٥٩١ هـ . وقد اعتمد ميخائيل السريانى فى مادته التاريخية على بعض ممن سبقوه من المؤرخين السريان ومنهم أجناس الملطى Ignace de Melitene(ت ١١٠٤ م / ٤٩٨ هـ)وبازل ابن شومان Basil bar Choumana (ت ١١٦٩ م / ٥٦٥ هـ) وايوانيس الكسيونى Iwannis de Kaisoun

---

(١) Michel le Syrisn, Chronique, CF, R.H.C. Doc. Arm., I, pp. 309-409
وهى النسخة التى اعتمدت عليها وتشمل الأحداث من عام ١١٣٧ م وما بعدها وتوجد طبعة أخرى للحولية نشرها شابو Chabot فى أربعة أجزاء باريس ١٨٩٩ — ١٩١٠ ، وهى كاملـة .

(٢) Michel le Syrien, op. cit., pp. 309—310.

(٣) Michel le Syrien, op. cit., p. 306.

(ت ١١٧١ م / ٥٦٧ هـ) وديونيسوس ابن الكلبي Dionysos bar Calibhi (ت ١١٧٥ م / ٥٧١ هـ) (١) وقد فقدت هذه المؤلفات كلها مما يجعل لهذه الحولية أهمية خاصة للتاريخ من وجهة النظر السريانية فى القرن الثانى عشر الميلادى (٢) . كما إعتمد ميخائيل السريانى على بعض المؤلفات العربية فى مادته التاريخية المتعلقة بالفترة من ١١٠٧ — ١١١٩ م / ٥٠١ — ٥١٣ هـ (٣) .

أرخ ميخائيل الأحداث التى تعرض لها على طريقة السنوات شأنه فى ذلك شأن معاصريه ولكنه لم يوفق إلى حد ما فى هذا المضمار . فمن الملاحظ عليه أنه لم يوف الحادثة حقها التاريخى وأحيانا يعود مرة أخرى ليصف بعضا من وقائعها فى سنوات لاحقة. كما أنه كثيرا ما يغفل الحادثة برمتها ثم يعود اليها ويذكر جانبا منها فى سنوات متتالية . وقد انطبع ما كتبه ميخائيل بطابع رجال الدين وذلك بسبب النشأة الدينية التى نشأها وتعصبه لمذهبه. يضاف إلى ذلك أنه أدخل على مادته التاريخية كثيرا من الأساطير الدينية وغير الدينية . ولذلك كله يجد الباحث مشقة بالغة فى استخلاص المادة التاريخية .

ورغم ما يشوب هذه الحولية من الاضطراب الا أنها تحوى مادة تاريخية فى غاية الأهمية وتعتبر من المصادر الهامة التى استفدت منها فى هذا البحث ، ذلك لأن المؤرخ تناول فيما كتبه الكثير عن أحداث هذه الرسالة خاصة ما يتعلق بدولة سلاجقة الروم وعلاقتها بالأمبراطورية البيزنطية وآل دانشمند وهى نقطة افتقرت اليها معظم المصادر المعاصرة للأحداث ، يضاف إلى ذلك علاقة

---

(١) Cahen, la Syrie du Nord, p. 96.

(٢) Runciman, A History of the Crusades, II, p. 484.

(٣) Cahen, op. cit., pp. 96—7.

السلاجقة بنور الدين وهو ما أشارت اليه بعض المصادر العربية فى سطور أو لم تشر اليه على الاطلاق .

كما تناول المؤرخ جانبا كبيرا من تاريخ الأرمن فى قيليقية وعلاقتهم بالأمبراطورية البيزنطية وتحالف الامبراطورية مع السلاجقة ضد الأرمن والحملات التى شنها السلاجقة ضد الأرمن ، يضاف إلى ذلك تحالف الامبراطورية مع الصليبيين ضد الأرمن وما ترتب على ذلك من نتائج ،منها اتفاق الأرمن وبعض القادة الصليبيين على مهاجمة جزيرة قبرص . وخلاصة القول أن ما قدمه لنا ميخائيل السريانى عن الأرمن يبدو أثره واضحا فى المادة التاريخية التى أوردتها فى الفصل الثالث .

وللحولية أهمية أخرى فيما يتعلق بالمسلمين وعلاقتهم بالصليبيين وموقف الامبراطورية البيزنطية من هذه العلاقات . فقد تعرض لاحداث سقوط مدينة الرها وأحداث أسر جوسلين الثانى JoscelinII أمير الرها (١١٣١ — ١١٥٠ م / ٥٢٥ — ٥٤٥ ﻫ) وأطماع البيزنطيين والسلاجقة والمسلمين فى هذه الامارة وزواج الملك عمورى من الأميرة البيزنطية ماريا والتحالف البيزنطى الصليبي لغزو مصر ،وكذلك التجاء بوهمند الثالث أمير أنطاكية بعد اطلاق سراحه إلى الأمبراطور مانويل وعودته من القسطنطينية ومعه البطريك البيزنطى الأرثوذكسى ليكون بطريكا على أنطاكية (١) . وقد انفرد بذكر هذه المعلومة دون غيره من المؤرخين ، وغير ذلك من الأحداث التاريخية التى تظهر بوضوح على امتداد هذا البحث وقد قمت بمناقشتها فى موضعها .

ومن المصادر السريانية أيضا ما كتبه المؤرخ السريانى المجهول : وهو

(١) Michel le Syrien, Op. Cit., p. 360.

الكاتب الذى كتب حوليته فى العقد الرابع من القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى . وقد اعتمد هذا المؤرخ فيما كتبه على حولية ميخائيل السريانى وعلى المصادر التى رجع اليها ميخائيل السريانى كذلك (١) . وتمتد أحداث هذه الحولية من الحرب الصليبية الأولى حتى وفاته ، والحقيقة أننى لم أطلع على كل ما كتبه المؤرخ وانما رجعت فقط إلى الجانب المنشور منه والذى تنتهى مادته التاريخية حتى عام ١١٦٤ م / ٥٥٩ هـ (٢) .

وقد أمدت هذه الحولية بعض جوانب البحث بمادة تاريخية لها قيمتها خاصة فيما يتعلق بسقوط الرها وحسن معاملة المسلمين لأهل المدينة وقيام عماد الدين زنكى باصلاح الكنائس الأرثوذكسية والسريانية وهو ما انفرد به المؤرخ (٣) ، وكذلك بعض الأحداث الخاصة بالتحالف البيزنطى الأرمينى الصليبى ضد المسلمين عام ١١٦٤ م وهروب الأمير الأرمينى ثوروس الثانى Thoros II (١١٤٤ — ١١٦٧ م / ٥٣٩ — ٥٦٣ هـ) من المعركة وهى معلومة انفرد بها المؤرخ كذلك (٤) . كما أمدنا المؤرخ ببعض الأحداث التى أفادت جوانب متفرقة فى البحث تتعلق بالسلاجقة والأرمن والبيزنطيين وآل دانشمند . والمادة التاريخية التى قدمها المؤلف أكثر ترتيبا ووضوحا وتفصيلا من المادة التاريخية التى قدمها لنا ميخائيل السريانى وهذا جانب آخر يوضح أهمية هذه الحولية .

---

(1) Cahen, op. cit., p. 97; Runciman, op. cit., II, p. 484.

(٢) A.S.C., The First and Second Crusades, Cf. Journal of The Royal Asiatic Society, London 1933. pp. 69—101, 272—305.

(٣) A.S.C., pp. 290—1.

(٤) A.S.C., p. 304.

أما المصادر الأرمينية فهى متعددة ، ويتصدر هذه المؤلفات حولية القس جريجوار Gregoire le Pretre (١) ، وكان جريجوار أحد الرجال البارزين فى عصره وتلميذا للمؤرخ متى الرهاوى Matthieu d'Edesse وتولى أسقفية مدينة كيسون منذ عام ١١٠٩ م / ٥٠٣ هـ حتى وفاته فى عام ١١٦٣ م / ٥٥٨ هـ ، كما تمتع جريجوار بثقة الحكام المعاصرين له (٢) .

ولما كان المؤرخ متى الرهاوى قد سجل لنا فى حوليته الأحداث التاريخية حتى عام ١١٣٦ م / ٥٣١ هـ (٣) ، فان المؤرخ جريجوار كان وفيا لأستاذه وأكمل تاريخ متى الرهاوى وقدم لنا بعض الأحداث التاريخية الهامة حتى أوائل عام ١١٦٣ م ، والواضح أن المؤرخ لم تكن لديه النية فى الكتابة أكثر من ذلك فقد ختم مؤلفه بكلمة «آمين» . وترجع أهمية ما كتبه جريجوار إلى نقطة فى غاية الأهمية ، فان توليه أسقف مدينة كيسون لفترة تزيد على نصف قرن جعلته على اتصال بالحكام الصليبيين والبيزنطيين والسلاجقة والمسلمين ، ذلك لأن هذه المدينة كانت ضمن امارة الرها وتحت الحكم الصليبي عندما تولى جريجوار منصب أسقف المدينة ثم آلت إلى السلاجقة بعد سقوط امارة الرها وكانت تجاور الاملاك البيزنطية التى آلت إلى الامبراطورية بعد ما تنازلت عنها زوجة جوسلين الثانى للأمبراطور مانويل . يضاف إلى ذلك ما دار من صراع على المدينة بين نور الدين والسلاجقة وبين نور الدين والصليبيين . وعلى ذلك فقد تيسر للمؤرخ فرصة طيبة لرؤية الأحداث التاريخية من زاوية اختلفت عن بقية معاصريه إلى حد ما .

---

(١) Gregoire le Pretre, Chronique, Cf. R.H.C. Doc. Arm. I, pp. 151—201.

(٢) Giegoire le Pretre, op. Cit., p. 151; Cahen, op. cit., p. 98.

(٣) عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر : عمر كمال توفيق : العدوان الصليبى على الشرق العربى — الامبراطور يوحنا تزيمسكيس وسياسته الشرقية ص ١٧٧ .

قدم لنا المؤرخ جريجوار مادته التاريخية باختصار فى بعض الأحيان وباسهاب حينا آخر وظهر الطابع الدينى عليها بوضوح . وقد حاول المؤرخ ترتيب الأحداث حسب سنى الأحداث ولكنه أخفق فى ذلك اخفاقاشديدا، فكان يبدأ بسرد الأحداث التاريخية ونتائجها ثم يعود ليذكر الأسباب التى أدت إلى هذه الأحداث ..ورغم المادة المضطربة التى قدمها لنا المؤرخ فقد سجل الكثير من الوقائع التى غطت جوانب متعددة فى هذا البحث خاصة ما يتعلق بحملتى الأمبراطور يوحنا على قيليقية والشام. وكذلك حروب الامبراطور مانويل مع الأمير ثوروس وتحالف السلطان سعود السلجوقى (٥١٠–٥٥١هـ/ ١١١٦ – ١١٥٦ م) وحملتى السلطان مسعود على قبليقية والعلاقات السلجوقية بآل دانشمند وحملة مانويل على قبليقية والشام ودخوله مدينة أنطاكية والتحالف البيزنطى الأرمينى الصليبى ضد نور الدين والغارة التى شنها رينو أف شاتيون Reynald of Chatillon أمير أنطاكية (١١٥٣–١١٦٠م/ ٥٤٨ – ٥٥٥ هـ) بالتحالف مع ثوروس على قبرص. وقد انفرد جريجوار ببعض الأحداث منها أطماع الأمير استيفانى شقيق الأمير ثوروس الأرمينى فى امارة الرها (١). وما أورده من اطلاق نور الدين سراح الأسرى الصليبيين بعد عقد الهدنة مع مانويل وقد كساهم نور الدين بالملابس الجديدة (٢) وانضمام بعض الأمراء الأرمن إلى جانب الامبراطورية البيزنطية فى حروبها ضد ثورس (٣) .

ويتضح مما كتبه جريجوار أعجابه الشديد بالأمير ثوروس الذى صوره

---

(١) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 178.
(٢) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 190.
(٣) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 168.

على شاكله الأبطال الاسطورين على العكس من والده الأمير ليو Leo (١١٢٩ ١١٣٦ م / ٥٢٣ — ٥٣١ هـ) الذى يبدو أن المؤرخ لم يكن يعترف به كأمير على الأرمن لأنه كان يطلق على الأمبراطور البيزنطى يوحنا لقب «أمبراطورنا أى أمبراطور الأرمن . وإذا كان جريجوار قد أعجب بالابن دون الأب فى الأمراء الأرمن فعكس الحال مع الأباطرة البيزنطيين فقد أعجب بالأب دون الابن فكان يكره الامبراطور مانويل خاصة بعد حملته على قيليقية، وعندما عقد مانويل الصلح مع نور الدين ألقى باللوم على الامبراطور وصور خيبة الأمل التى أصابت الأرمن من جراء هذا الصلح، كما أنحى باللائمة على كافة البيزنطيين باعتبارهم مخادعين وأن المسلمين أشرف منهم لأن المسلمين لم يخدعوا الأرمن . والملاحظ أنه عاد بعد ذلك ليصور أن المسلمين خدعوا الصليبيين . وازاء ما يقدمه المؤرخ من مواقف متناقضة فأنه فى تصورى أن المؤرخ كان يقيم الحاكم حسب كل واقعة على حدة من وجهة نظره ،فيقدم حسناته حينا وسيئاته حينا آخر ومن ذلك يتضح عدم تحيز جريجوار لأى جانب باستثناء الأمير ثوروس .

وهناك مجموعة أخرى من المصادر الأرمينية بعضها معاصر للأحداث والبعض الآخر متأخر زمنيا ، انتقى منها مصدرين لالقاء الضوء عليها وعلى المادة التاريخية التى قدماها لهذا البحث، ولا يعنى هذا الاختبار أن المصادر الأخرى غير ذات أهمية بل على العكس فلكل مصدر ميزة خاصة يقدمها للباحث وانما هذا الاختبار يرجع لأن المصادر التى اخترتها قدمت بعض النقاط الهامة التى تهم البحث فضلا عن أنها تضم أنماطا مختلفة للمؤرخين الأرمن

وأول هذه المصادر قصيدة شعرية من الأدب الأرمينى تركها لنا سانت

نرسيس (١) الذى تولى أسقفية مدينة كيسون خلفا للقس جريجوار ١١٦٣ - ١١٧٣ م ولعب دورا كبيرا لمحاولة التوفيق بين الكنائس اللاتينية والبيزنطية والأرمينية ولبى دعوة الأمبراطور مانويل لبحث الاختلاف الناشىء عن المجامع الدينية (٢) .

والقصيدة التى تركها لنا نرسيس خاصة بسقوط مدينة الرها وأهم مافى القصيدة اللوم الذى يلقيه نرسيس على الامبراطور مانويل لعدم نجدته مدينة الرها .

والمصدر الثانى هو الحولية التى تركها لنا المؤرخ سمباد (٣) ، وهو سليل الأسرة الحاكمة فى مدينة لامبرون Lampron بأرمينية، وقد ولد عام ١٢٠٨ م/ ٦٠٥ ه وكانت وفاته فى عام ١٢٧٦ م/٦٧٥ ه . وقد اعتمد سمباد فيما كتبه على متى الرهاوى والقس جريجوار، ولكنه لم يشر إلى ذلك، ولكنه اعتمد على نفسه بعد احداث عام ١١٥١ م / ٥٤٦ ه حتى تاريخ وفاته، ولكن الحولية لم تقف عند هذا الحد فقد أضاف اليها مؤرخ مجهول الأحداث التالية حتى عام ١٣٣١ م / ٧٣٢ ه . وقد أتيحت له الفرصة للاطلاع على الوثائق باعتباره أخا لهيثوم الأول Hethoum I ملك أرمينية الصغرى (١٢٢٦ - ١٢٦٩ م / ٦٢٣ - ٦٩٦ ه ، فضلا عن المادة التى استقاها من دار المحفوظات الأرمينية (٤) .

وقد صنف سمباد ما كتبه حسب سنى الأحداث وقد أفاض فى بعضها واختصر فى البعض الآخر، ولكنها وردت أكثر ترتيبا من حولية المؤرخ

---

(١) Saint Narses Schnorhali, Elegie sur la Prise d'Edesse Cf. R.H.C., Doc. Arm., I, pp. 226—307.

(٢) Fortescus, E., The Armenian Cchurch, p. 128.

(٣) Le Connetable Sempad, Chronique, (extr.) Cf, R.H.C. Doc. Arm. I pp. 605—680.

(٤) عن ذلك المزيد من التفاصيل أنظر : Sempad, Op. Cit., pp. 605--9.

جرنجوار وتعين الباحث فى التعرف عليها بوضوح . وقد أورد المؤرخ فى مادته جانبا طيبا عن الجهود التى قام بها الأمير ثوروس لاعادة تأسيس امارة الأرمن وتحالف البيزنطيين مع السلاجقة ضد الأرمن وقيام السلطان السلجوقى قلج أرسلان الثانى (٥٥١ — ٥٨٤ ﻫ / ١١٥٦ — ١١١٨ م) بعقد الصلح مع ثوروس بعد وفاة السلطان سعود . كما أمدنا بمادة تاريخية لها قيمتها تتعلق بالأمير مليح أخو ثوروس والدور الذى لعبه مع نور الدين وعودة مليح إلى أرمينية بعد وفاة ثوروس واغتصابه العرش. يضاف إلى ذلك هزيمة القوات البيزنطية أمام ثوروس وفرار القائد البيزنطى اندرونيكوس كومنينوس وتنازل زوجة جوسلين عن بقية أملاك الرها وأخبار موجزة عن معركة ميريوكيفالون .

والمادة التى قدمها المؤرخ لا تخلو من الأساطير الدينية وقد فسرت بعض جوانب المادة التاريخية التى تركها لنا المؤرخون الآخرون وانفرد المؤرخ سمباد بذكر الشخصيات الأرمينية التى كانت تحارب فى صفوف الجيش البيزنطى ضد الأمير ثوروس وموقفه من هذه الشخصيات بعد هزيمة القوات البيزنطية فى عام ١١٥٢ م / ٥٤٧ ﻫ (١) .

وفى ختام التعريف بأهم المصادر غير العربية أود الاشارة إلى حولية المؤرخ اليهودى يوسف بن يوشع (٢) وتبدأ هذه الحولية منذ بداية الخليقة وتنتهى فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى تقريبا مع نهاية حياة المؤلف .

والواقع أن المادة التاريخية التى قدمتها هذه الحولية للبحث وردت مبتورة وتشير إلى فلسفة الأحداث برمتها ، ولم يشر المؤلف إلى المصدر التى رجع

(١) Sempad, Op. Cit., pp. 618—9.

(٢) Joseph ben Joshua. Chronicle, (tran. Biallablotzky), 2 Vols. London, 1834—6.

انها فى جميع مادته التاريخية.وعلى ما يبدو أن المؤرخ رجع إلى ما كتبه وليم الصورى وإلى المؤرخ جاك دى فترى(١)؛ لتقارب مادة الحولية التاريخية إلى ما أورده هذان المؤرخان . ولقد تعمدت الاشارة إلى هذه الحولية لأن المؤلف اليهودى لم يختلف فى تفكيره الصليبي – رغم التباعد الزمنى بين عصر الحروب الصليبية وبين عصره – مـــع فارق يبدو فى نظرى فى غاية الأهمية وهو أن المؤلف عندما يشير إلى منطقة الشام فأنه يشير اليها بكلمة «أرضنا» وأن جميع البلدان الشامية التى أوردها فى حوليته قد ذكرها جميعها بالأسماءاليهودية، ومن هنا يتضح لنا مدى الأفكار والأطماع اليهودية فى أرض الشام منذ مئات السنين .

وبعد التعرف على بعض المصادر الأجنبية ننتقل إلى المصادر العربية ، والواقع أن المصادر العربية المنشورة منها وغير المنشورة المتاحة لنا لم تتعرض إلا لجوانب محدودة فى هذا البحث . وأننى أقدمعذرىعنهؤلاءالمؤرخين ، فحقيقة الأمر أن اهتمام المؤرخين فى هذه الفترة إنصب على جانب كبير من

---

(١) ولد حوالى عام ١١٨٠ م ، وتقلد العديد من المناصب الكنسية وسرعان ما أصبح أحد رجال الدين المرموقين . وكان تأثيره على الحركة الصليبية فى القرن الثالث عشر الميلادى لا يقل عن تأثير بطرس الناسك فى زمانه وقد كرس حياته لاعادة تعزيز الوجود الصليبى فى الأراضى المقدسة بالشام بعد ما عين إسقفا على عكا فى عام ١٢١٦ واصطحب الحملة الصليبية الخامسة على دمياط ١٢١٨ – ١٢٢١ م / ٦١٥ – ٦١٨ هـ . وبعد هزيمة الحملة عاد إلى عكا وظل بها حتى عام ١٢٢٧ م وقفل عائدا إلى روما وهناك شغل عدة مناصب دينية وفى أواخر أيام حياته عين بطريكا على بيت المقدس ولكنه توفى فى نهاية ابريل أو أول مايو عام ١٢٤٠ م قبل أن يتسلم مقاليد هذا المنصب . أنظـــر :

Vitry, Lettres de Jacques de Vitry, p. I; History of Jerusalem, pp. III—IV.

الصراع مع الصليبيين ، كما أن العلاقات البيزنطية مع حكام الشام ومصر المسلمين كانت محدودة فى هذه الرسالة ومعظمها أتى من خلال العلاقات الصليبية . ولكن الملاحظ على المصادر العربية أن بعض المعارك العسكرية التى تحالفت فيها القوى البيزنطية والصليبية ضد المسلمين تطالعنا المصادر الاسلامية حتى الخاصة منها بأحداث موجزة عن الوقائع التاريخية . ولو كانت هذه الأحداث تتعلق بالجانب غير الاسلامى لكان للمؤرخين عذرهم ، اما وأن هذه الأحداث تتعلق مثلا بدفاع المسلمين عن مدينة دمياط ولا تقدم لنا المصادر الاسلامية جانبا من هذه البطولات التى تمدنا بها المصادر الأخرى فهذا ما يدفعنى إلى توجيه النقد إلى المؤرخين الذين تعرضوا للأحداث خاصة المعاصرين منهم .

لقد اشتمل هذا البحث على علاقة الامبراطورية البيزنطية أثناء حكم الامبراطور مانويل بالدول والامارات والدويلات الشرقية وهم السلاجقة والدانشمنديون والأرمن والصليبيون والمسلمون فى الشام ومصر . وفيما يتعلق بالجانب البيزنطى السلجوقى فالملاحظ أن المصادر العربية لا تقدم لنا عن دولة السلاجقة كدولة اسلامية سوى بعض سطور قليلة لا تصور لنا الحال حتى داخل الدولة نفسها ، أما عن العلاقات السياسية البيزنطية السلجوقية فلم تقدم لنا المصادر العربية سوى جانب ضئيل منها لا يتعدى بضع جمل على امتداد هذا البحث (١) . وعلى ذلك يتضح أن المصادر العربية لم تقدم للبحث المادة التاريخية التى تستحق الذكر عن العلاقات البيزنطية السلجوقية خاصة وأن

---

(١) راجع على سبيل المثال ما كتبه ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٤١١ .

السلاجقة لعبوا دورا كبيرا وفى غاية الأهمية والخطورة فى عهد الأمبراطور مانويل .

ولا يختلف الأمر كثيرا مع آل دانشمند وأن ما يمكن جمعه من المصادر العربية لا يتعدى وفاة أمير وتولية أمير آخر ، ولعل أهم ما قدمته لنا هذه المصادر هو التجاء أمراء آل دانشمند إلى نور الدين بعد ما طردهم قلج أرسلان من أملاكهم وبعض سطور عن الصراع السلجوقى مع نور الدين (١) .

والحال نفسه مع أمراء الأرمن وعلاقتهم السياسية بالامبراطورية البيزنطية وحتى غير السياسية ، فما أوردته المصادر العربية من مادة تاريخية لا يتجاوز بضع سطور . ولعل أهم ما قدمته لنا على امتداد هذا البحث هو التجاء الأمير مليح الأرمنى إلى نور الدين والعمل فى صفوف القوات الاسلامية ومساعدة نور الدين للأمير مليح على دخول قبليقية بعد وفاة أخيه الأمير ثوروس (٢) .

أما العلاقات البيزنطية الصليبية فهى نوعان : علاقات صليبية بيزنطية بحتة وعلاقات بيزنطية صليبية مع المسلمين . والنوع الأول منها مثل زواج الأمراء الصليبيين من الأميرات البيزنطيات وزواج مانويل من الأميرة الصليبية ماريا والسفارات التى رأسها وليم الصورى أو الشخصيات الأخرى الصليبية أو السفارات البيزنطية فلا تطالعنا بها المصادر العربية. وعذر المؤرخ هنا ويبدو واضحا باعتبارها أحداث غير مرئية له، أو ربما لا تهم المؤرخ العربى فى ذاك الوقت .

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٣٩١ ، ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ١٦٦ وهو ينقل عن ابن الأثير .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٣٨٧ — ٣٨٨ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٣٣٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٣٥ . والملاحظ أن ابن العديم وابن واصل ينقلان عن ابن الأثير .

والنوع الثانى وهو العلاقات البيزنطية الصليبية ضد المسلمين. فالمصادر العربية لم تشر إلى بعضها وأفاضت فى جانب منها وأغفلت ذكر حقائق فى الجزء الثالث . وعن الجانب الذى لم تشر اليه هو مشروع التحالف البيزنطى الصليبى لغزو مصر عام ١١٧٧ م . والأحداث التى أمدتنا بها المصادر العربية بمادة تاريخية طيبة ومفصلة الوقائع التاريخية الخاصة بهجوم التحالف البيزنطى الأرمينى الصليبى فى عام ١١٦٤ م . والمثال الأخير منها أحداث الحملة البيزنطية الصليبية على دمياط عام ١١٦٩ م فما ورد منها من أحداث تاريخية جاء فى غمرة النصر التى حققه المسلمون على المتحالفين كما لو كان مهرجانا للدعاء والخطابة وليس مادة تاريخية يمكن مقارنتها بالمادة التاريخية التى وردت فى المصادر اللاتينية . وإذا كان ما قصرت فيه المصادر العربية يتعلق ببعض الجوانب الخاصة بالبيزنطيين والصليبيين لكان للمؤرخين عذرهم ولكن إذا كان ما أغفلته المصادر يتعلق بجانب من البطولات الاسلامية التى توضح لنا جانبا من فنون الحرب والقتال التى كانت وليدة الحصار على مدينة دمياط أشاد بعظمتها الأعداء فهو أمر يلفت النظر ويدعو للتساؤل (١) .

ولعل أهم ما ورد فى المصادر العربية ما قدمه لنا المؤرخ ابن الفرات (٢) الذى انفرد بذكر فرار نصرةالدين أخ نور الدين من وجه أخيه بعد وقوع الخلاف بينهما، والتجاء نصرة الدين إلى الأمبراطور مانويل فى القسطنطينية

---

(١) راجع على سبيل المثال ما كتبه ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٤٣ .

(٢) هو محمد بن عبد الرحيم بن على بن أحمد بن محمد بن عبد العزيز بن محمد بن الفرات . وعرف بين الخاصة والعامة بابن الفرات ولقب بالمصرى واشتهر بالشيخ ناصر الدين وكان ميلاده عام ٧٣٥ هـ / ١٣٣٤ م ووفاته ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م وقد أرخ لثلاثة قرون ويعرف تاريخه باسم تاريخ الدول والملوك. وقد نشر جانب منه باسم تاريخ ابن الفرات . أنظر ابن الفرات : **تاريخ ابن الفرات المجلد الرابع جـ ١ ص ك .**

وترحيب الامبراطور به واستضافة . وقد أفاض المؤرخ فى ذكر أعمال نصرة الدين أثناء تواجده فى العاصمة البيزنطية واعجاب الامبراطور بهلما أبداه من فروسية وشهامةعربية ، واستجابة مانويل لطلبات نصرة الدين كتعمير مسجد القسطنطينية وهدم التمثال الذى كان مقاما بالعاصمة البيزنطية على صورة سيدنا محمد (صلعم) ليسخر منه البيزنطيون (١) .

وبهذه الدراسة التحليليةيكون الباحث قدقدم صورة لأهم المصادر التى اعتمد عليها فى بحثه ، هذا فضلا عن المصادر والمراجع الأخرى المتعددة التى رجع اليها أثناء كتابة بحثه ، والتى تتضح أهميتها أثناء متابعة صفحات الكتاب .

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك (مخطوط) المجلد السادس لوحة ١٤ ب — ١٥ أ ، لوحة ٢٨ أ — ٢٨ ب .

# الفصل الأول

## السياسة الشرقيـــة للامبراطورية البيزنطية
## قبيل عهد مانويـــل

١ – العلاقات مع سلاجقة الـــروم . ٤١ – ٥٧

٢ – العلاقات مع الأمـــراء الأرمينيين.

٣ – العلاقات مـــع الصليبيـــين .

٤ – العلاقات مع الـــدولة الفاطميـة . ٨٣ – ٨٨

٥ – العلاقات مع الامارات والدويلات الاسلامية فى الشام. ٨٨ – ٩٧

كانت الامبراطورية البيزنطية بمثابة خط الدفاع الأمامى المنيع لأوربا فى الشرق ضد الهجمات التى تعرض لها الأوربيون من جانب العناصر الشرقية الآسيوية . فقد لعب الأمبراطور البيزنطى هرقل Heraclius (٦١٠ — ٦٤١) دورا هاما فى ايقاف تقدم الفرس وسحق قوتهم العسكرية فى نهاية الأمر. وقد ظهر بعد ذلك الخطر العربى بشكل مفاجىء مفزع على المسرح السياسى وأصبح العرب قوة من أعظم القوى فى العالم . وهكذا أصبح على الامبراطورية البيزنطية أن تكافح من أجل حياتها ضد الخطر الجديد ، وظل الصراع ضد العرب فى الشرق أحد المسائل الرئيسية التى كان على الأباطرة البيزنطيين أن يلتفتوا اليها (١) .

وإذا كانت الامبراطورية البيزنطية قد نجحت فى الدفاع عن أراضيها حينا ومهاجمة المسلمين حينا آخر ، فأنه بعد هزيمة القوات البيزنطية فى موقعة مانزكرت عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م (٢) ، كان على الأباطرة البيزنطيين أن يهتموا بالجانب الشرقى اهتماما كبيرا لوقف الخطر السلجوقى الذى كان يزداد يوما بعد يوم . وقد حاول الامبراطور الكسيوس الأول Alexius I (١٠٨١ — ١١١٨ م / ٤٧٣ — ٥١٢ هـ) مؤسس الأسرة الكومينية (١٠٨١ — ١٢٠٤ م) ومن بعده أبنه الامبراطور يوحنا النهوض بالامبراطورية واعادة حيويتها اليها فأعطيا اهتماما كبيرا للشئون الآسيوية بهدف اعادة الحدود البيزنطية حتى أنطاكية والفرات وارغام الأمراء الأرمن فى قيليقية والأمراء الصليبيين فى الشام على قبول سيادة الامبراطورية (٣) .

---

(١) عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٣ ، ١١١ .

(٢) أنظر ما يلى ص ٤٣ .

(٣) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١٣٩ .

ولعل نظرة سريعة إلى أحوال الامبراطورية البيزنطية — فى الفترة السابقة لعهد الامبراطور مانويل وعلاقاتها السياسية بجيرانها من السلاجقة والأرمن والصليبيين والمسلمين توضح لنا جانبا هاما وتعطى لنا صورة واضحة عن الفترة السابقة لحكم مانويل تكون مدخلا لهذا البحث . وأود الاشارة هنا إلى أننى وجدت أنه من الأفضل أن أتعرض بإيجاز لسرد أحداث هذا الفصل دون الدخول فى التفاصيل الا عندما تقتضى ضرورة البحث، حتى يمكن اعطاء خلفية مناسبة ستكون ولاشك مفيدة للقارىء ليتفهم بعمق فترة حكم الامبراطور مانويل وجذور المشاكل التى ورثها عن أسلافه . أو بمعنى آخر أطماع الامبراطورية البيزنطية فى المنطقة وهى نقطة ظهرت فى تصرفات وسلوك حكام الدول والامارات الشرقية من السلاجقة وآل دانشمند والأرمن والصليبيين والدولة الفاطمية، يضاف إلى ذلك الامارات والدويلات الاسلامية فى الشام ، وسنفرد لكل منها مبحث خاص .

وفيما يتعلق بالسلاجقة فقد كان عهد السلطان السلجوقى ألب أرسلان (٤٥٥ — ٤٦٥ هـ / ١٠٦٣ — ١٠٧٢ م) فاتحة عهد جديد فى علاقة الأتراك السلاجقة بالامبراطورية البيزنطية ، فقد تمكن السلاجقة من الاستيلاء على مدينة آنى Ani الواقعة فى الشمال الشرقى من شبه جزيرة آسيا الصغرى عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م (١) . ومنها نفذ السلاجقة إلى الأقاليم الشرقية للامبراطورية وإتخذوا طريقهم داخل آسيا الصغرى واستولوا على قيصرية عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م فى الوقت الذى اتخذت فيه بيزنطة سياسة الدفاع عن نفسها (٢) ولكى يدعم ألب أرسلان مركزه للانطلاق إلى عمق الأقاليم البيزنطية استولى على

(١) الأصفهانى : تواريخ آل سلجوق ص ٣١ .

(٢) Ostrogorsky, op. cit., p. 303.

حلب التى كانت تتبع الخلافة الفاطمية الشيعية فى مصر . ونجح أيضا فى الاستيلاء على جزء كبير من الشام كما أستولى على بيت المقدس عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م ، وبذلك أحاط السلاجقة بالامبراطورية البيزنطية من الشرق والجنوب الشرقى ، وهكذا سبب تقدم السلاجقة قلقا بالغا للامبراطورية البيزنطية (١) .

وحاول الامبراطور البيزنطى رومانوس الرابع Romanus IV (١٠٦٨ - ١٠٧١ م) وقف حركة التوسع السلجوقى والانتقال من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم واستعادة الأراضى البيزنطية من السلاجقة ولكنه فشل فى تحقيق أهدافه وهزم هزيمة نكراء فى موقعة مانزكرت ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ووقع الامبراطور نفسه أسيرا فى يد السلاجقة (٢) . ومن النتائج الثابتة لهذه المعركة أنها فتحت الطريق أمام السلاجقة للتوغل فى عمق آسيا الصغرى وجاءت دليلا على فقدان بيزنطة ما يمكن أن نطلق عليه لقب «حامية أوربا المسيحية ضد الاسلام فى الشرق» (٣) .

والمهم أنه تمخض عن معركة مانزكرت عقد معاهدة بين ألب أرسلان ورومانوس الرابع نصت على أن يقوم الامبراطور باطلاق سراح الاسرى المسلمين ودفع جزية سنوية وفدية مالية مقابل اطلاق سراح الامبراطور الذى عاد إلى القسطنطينية ليجد ميخائيل السابع ودوكاس Michael VII Docas

---

(١) Psellos, op. cit., II, p. 147.

(٢) عن معركة مانزكرت أنظر : العظيمى : تاريخ العظيمى ص ٣٥٩ ، الراوندى : راحة الصدور ص ١٨٨ — ١٩٠ ، صدر الدين أبو الحسن : أخبار الدولة السلجوقية ص ٤٦ — ٥٣ ، Psellos, op. cit., II, p. 162.

(٣) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٢٣ .

(١٠٧١ — ١٠٧٨ م) قد أستولى على العرش . وتم القبض على الامبراطور المهزوم وسلمت عيناه ثم ما لبث أن مات بعد قلـــيل (١) . ولم يعترف الامبراطور ميخائيل السابع بهذه المعاهدة فقرر ألب أرسلان الانتقام من الامبراطورية البيزنطية ولكنه توفى فى العام التالى فخلفه أبنه ملكشاه (٤٦٥ — ٤٨٥هـ/١٠٧٢—١٠٩٢م) الذى عين سليمان بن قتلمش قائدا على القوات السلجوقية فى آسيا الصغرى . وقد انتهز سليمان فرصة الحرب الأهلية داخل الامبراطورية البيزنطية فوسع من حدود أملاكه واستولى على مدينة قيزيقوس Cyzicus ونيقية واتخذ الأخيرة عاصمة لملكه وهو ما عرف بدولة سلاجقة الروم (٢) .

وقد حاولت بيزنطة جاهدة هدم الدولة الناشئة التى تهدد الامبراطورية وحشدت لذلك جيشها كما أستعانت بجند من المرتزقة . ولكن هذه الجهود قد فشلت ، وليس ذلك فحسب بل راحت القوات المرتزقة تنهب المواطنين البيزنطيين ، وتسبب كل ذلك فى انزال الضرر بالامبراطورية أكثر من الافادة منها (٣) وازاء تزايد الخطر السلجوقى طلب الامبراطور ميخائيل السابع النجدة من البابا جريجورى السابع Gregory VII (١٠٧٣ — ١٠٨٥ م) . وقد وجد البابا فى ذلك فرصة طيبة لوضع حـــــد للقطيعة الدينية بين روما والامبراطورية البيزنطية ، ولكن مشاغله فى الغرب الأوربى حالت دون تنفيذ ذلك (٤) .

---

(١) Psellos, op. cit., II, p. 172.

(٢) Anna Comnena, op. cit., p. 77; Otto of Freising, The two Cities, p. 404; Freeman, E., The Historical Geography, p. 382.

(٣) Finlay, History of Greece, III, p. 42.

(٤) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ٢٥ — ٢٦ .

ومما ساعد على استقرار السلاجقة فى الأقاليم البيزنطية الصراع الذى دار بين بيزنطة وبين قيادة القوات المرتزقة التى جلبتها الامبراطورية لمساعدتها فى وقف الزحف السلجوقى وتمكن أحد هؤلاء القادة المرتزقة وهو رسل Roussel النورمانى من التمرد على سادته واستولى على بعض الأقاليم الشرقية وأسس امارة له فى بنطس Pontus . وقد دفع الخطر الجديد الامبراطور ميخائيل السابع إلى التحالف مع السلاجقة عام ١٠٧٤ م / ٤٦٦ — ٤٦٧ هـ للقضاء على رسل وأتباعه، وقد نجح هذا التحالف فى القضاء على رسل فى نهاية الأمر وسملت عيناه وتمكن السلاجقة بموجب هذا التحالف من عقد معاهدة مع بيزنطة الـتى اعترفت للسلاجقة بما استولت عليه من أراضى . ويضاف إلى ذلك حركـة العصيان التى قام بها نقفور بوتانيتس Nieephorus Botaneiates حاكم مدينة عمورية وذلك عام ١٠٧٨ م وخروجه على الامبراطور ميخائيل السابع، وقد استعان نقفور بالسلاجقة وزحف على العاصمة وخلع الامبراطور وتوجه بطريق القسطنطينية امبراطورا (١٠٧٨ — ١٠٨١ م) (١) ولكن حالته الصحية وعدم اعتراف الطبقة الارستقراطية وملاك الأراضى به لم تمكنه من أن يصبح الامبراطور المرتقب الذى يستطيع حماية أملاك بيزنطة (٢) . والمهم أن السلاجقة وجدوا الفرصة المناسبة للتوسع مقابل ما قدموه من مساعدة للامبراطورية فى أزماتها، يضاف إلى ذلك ضعف الامبراطور ؛ فمدوا نفوذهم من البحر الاسود شمالا حتى شواطىء البحر الأبيض جنوبا وأصبحوا يسيطرون على نيقية ونيقوميديا والبسفور (٣) .

---

(١) Anna Comnena, op. cit., pp. 32—31.

(٢) نبيه عاقل : الامبراطورية البيزنطية ص ٢٥٢ .

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٩١ .

وقد أدى ضعف الامبراطور وسوء الحالة الداخلية ، فضلا عن الاخطار الخارجية إلى ظهور عدد من الطامعين فى العرش البيزنطي وكان على رأسهم الكسيوس الأول الذى تمكن من اعتلاء العرش بعد أن تنازل له نقفور . ومع بدايات حكم الكسيوس كانت تحركات السلاجقة تشكل خطرا مميتا على الامبراطورية البيزنطية ، وقد وجد الكسيوس أنه من الحكمة مهادنة السلاجقة حتى لا تساند كل منشق على الامبراطورية يضاف إلى ذلك الاستفادة بهم فى حروب الامبراطورية ضد النورمان ، فعقد معاهدة مع الأمير السلجوقى سليمان ابن قتلمش ، وتقضى هذه المعاهدة بأن يحصل السلاجقة على الأراضى الممتدة حتى منابع نهر سانجاريوس Sangarius على البحر الأسود ونيقوميديا الواقعة على الخليج الشمالى لبحر مرمرة وأصبح دراكون Dracon وهو الرافد الصغير لنهر سانجاريوس بمثابة الحد الفاصل بين الحدود البيزنطية ، وفى مقابل ذلك قدم سليمان بن قتلمش سبعة آلاف مقاتل من السلاجقة وعددا من القادة العسكريين على مستوى عال من المهارة لمقاومة روبرت جويسكارد Robert Guiscard دوق أبوليا Apulia النورمانى (١٠٥٩—١٠٨٥م) الذى بات يهدد الامبراطورية البيزنطية(١) . وإذا كان السلاجقة قد أكتسبوا جانبا من الأراضى البيزنطية بموجب هذه المعاهدة فمن الملاحظ أن الممتلكات السلجوقية فى آسيا الصغرى لم تكن تدين كلها بالولاء للأمير سليمان بن قتلمش ولم تكن هناك رابطة بين سلاجقة الروم حتى ذلك الحين ، فكان هناك مجموعة من الامارات المستقلة وهى امارة فيزيترس وامارة أزمير وامارة سينوب وامارة كبادوكيا التى حكمها آل دانشمند (٢) .

(١) Anna Comnexa, op. cit., p. 129.

(٢) Anna Comnena, op. cit., pp. 97, 102—103,131,167.

(٣) Finaly, op. cit., III, pp. 72—3, 90.

وآل دانشمند أحد البيوت السلجوقية التى أقامت حكمها فى كبادوكيا على أيدى دانشمند أحمد غازى المعروف بشمس الدين (٤٥٥ — ٤٧٧ هـ) زامباور : معجم الانساب ج ٢ ص ٢٢٠

غير أن أطماع السلاجقة لم تقف عند هذا الحد ، إذ نجح سليمان بن قتلمش فى الاستيلاء على بعض الممتلكات البيزنطية ، فاستولى على طرطوس عام ٤٧٥ ه / ١٠٨٢ م (١) كما استولى على أنطاكية عام ٤٧٧ ه / ١٠٨٥ م (٢) الا أن وفاة سليمان فى العام نفسه تسببت فى حدوث انقسامات خطيرة وتمكن أبو القاسم أمير مدينة نيقية من الاستيلاء على السلطة . وقد أعطى ذلك الفرصة للامبراطور الكسيوس للتحالف معه ضد زاخاس أمير أزمير الذى كان يعمل على احتلال القسطنطينية (٣) .

ولم يترك السلطان السلجوقى ملكشاة الأمراء السلاجقة فى آسيا الصغرى فريسة هذا الانشقاق فأرسل عماد الدين بوزان حاكم أنطاكية لمنازلة أبى القاسم وقد نجح فى هزيمته بل وذبحه . وحاول الكسيوس الاستفادة من الموقف بالتحالف مع بوزان الا أن موت ملكشاه جعله يتحول إلى التحالف مع قلج أرسلان بن سليمان الذى استعاد عرش والده (٤٨٥ — ٥٠١ ه / ١٠٩٢ — ١١٠٧ م) (٤) وبذلك أصبح شغل الكسيوس الشاغل هو التحالف مع بعض السلاجقة لضرب بعضهم بالبعض الآخر ، خاصة زاخاس الذى تمكن من هزيمة الأسطول البيزنطى عام ١٠٩٠ م / ٤٨٣ ه ولقب نفسه بالامبراطور واتخذ الشعار الامبراطورى . وقد كان لدى زاخاس قوات كبيرة لدرجة أنه حاصر مدينة أبيدوس Abydus عام ١٠٩٣ م / ٤٨٦ ه (٥) مما جعل قلج أرسلان يسعى لكسب وده فتزوج من ابنته ، ولم يجد الكسيوس وسيلة

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١١٥ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١١٧ ، الاصفهانى : المصدر السابق ص ٦٣ .

(٣) Anna Comnena, op. cit., p. 201.

(٤) A.S.C., p. 89.

(٥) Anna Comnena, op. cit., pp. 233—4, 275.

للتخلص من السلاجقة الا باتباع الدس والوشاية بين الصهرين ، وقد آتت هذه السياسة أكلها فقتل قلج أرسلان صهره بعد أن أسكره ، كما عقد الامبراطور صلحا مع قلج أرسلان وتم توقيع المعاهدة التي لم تكن في صالح السلاجقة بقدر ما كانت في صالح بيزنطة التي استعادت بموجبها بعض المدن الساحلية . وبعد أن أمن الامبراطور جانب قلج أرسلان بدأ يعمل على حماية أملاكه من خطر الدانشمنديين في كبادوكيا وذلك باقامة بعض التحصينات لتساعد في الدفاع عن المقاطعات البيزنطية ، وليتفرغ للأحوال الداخلية والقضاء على محاولات التمرد التي قامت في هذه الفترة وهددت حياته (١) .

ومع حلول عام ١٠٩٦ م / ٤٨٩ ﻫ نجد أن الجزء الأكبر من آسيا الصغرى أصبح في يد السلاجقة ، وكانت حدود الأمبراطورية البيزنطية لا تمتد أكثر من خلقدونيه ونيقوميديا ومنطقة الساحل الغربي لآسيا الصغرى وبعض المدن المعزولة على ساحل البحر الأسود مثل سينوب وطرابيزون (٢) ، أما إقليم قيليقية فقد استولى عليه الأرمن كما استولى الدانشمنديون على اقليم كبادوكيا ووسعوا حدود ممتلكاتهم ونجحوا في الاستيلاء على مدينة قسطموني الواقعة في اقليم بفلاجونيا Paphlagonia . ومن الملاحظ في هذه الفترة استمرار العداء بين الدانشمنديين والسلاجقة ولم تهادن القوتان الا عندما أحستا بأن الجيوش الصليبية توشك أن تعصف بهما (٣) .

ويرجع اتفاق آل دانشمند والسلاجقة إلى أن الامبراطور الكسيوس لم يترك القوات الصليبية تمر عبر بلاده دون أن يغتنم هذه الفرصة ويستغلها

---

(١) Anna Comnena, op. cit., pp. 278—9, 207.

(٢) Oman, A History of the Art of War in the Middle Ages, I, p. 238.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ١٢٠ .

لتحقيق أهدافه، وهي استعادة الاملاك البيزنطية التي استولى عليها المسلمون. وكانت ضرورة أمن الصليبيين الحربي تجمع بين أهدافهم وأهداف الامبراطورية البيزنطية في هذه المرحلة بالذات ، لأنه لو ظلت نيقية في يد السلاجقة فستكون البقعة التي تهدد طرق مواصلاتهم وامداداتهم الحربية (١) . وساعد على ضرب السلاجقة في هذا الوقت أن قلج أرسلان لم يكن موجودا في نيقية وقت تحرك الصليبيين في أبريل ١٠٩٦ م / ربيع ثان ٤٨٩ ﻫ لانشغاله بالحرب مع الأمراء الدانشمنديين حول ملطية (٢) ، وشدد الصليبيون والبيزنطيون الحصار على نيقية التي ظلت تقاوم أملا في وصول بعض النجدات اليها ولكنها استسلمت في النهاية وتسلمها الامبراطور الكسيوس (٣) . ولم يكن بوسع قلج أرسلان بعد ضياع نيقية إلا التوجه إلى الأمراء الدانشمنديين الذين كان يحاربهم بالأمس ليصلح بينه وبينهم للوقوف ضد هذا الخطر الذي يتهددهما سويا ، وحاول التصدي للصليبيين ولكن النصر كان في جانب أعدائه ، ومن شدة حقد الكسيوس على السلاجقة أنه اشترى «من السبي خلقا كثيرا وحملهم إلى القسطنطينية» (٤) . وبعد هذه الهزيمة أتجه قلج أرسلان إلى قونية واتخذها عاصمة لملكه وقاعدة عسكرية للدفاع عن أراضيه ولكنه هزم مرة أخرى عند ضورليوم Dorylaeum (٥) وليس لنا في هذا الموضع من البحث أن نتتبع تحركات الصليبيين في المنطقة الا أنه يمكن القول أنه بعد

---

(١) حسن حبشي : الحملة الصليبية الأولى ص ٨٥ .

(٢) Matthieu d'Edesse, Extraits de la Chronique de Matthieu d'Edesse. Cf. R.H.C.—Doc. Arm. t., I, p. 28.

(٣) Anna Comnena, op. cit., p. 330; William of Tyre, op. cit., II, p. 166.

(٤) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ١٣٤ .

(٥) Fulcher of Chart res, of cit., p. 34 ff.

تحركات الحملة الصليبية الأولى ومع مطلع القرن الثانى عشر الميلادى(السادس الهجرى) ، كانت الحدود السياسية لدولة سلاجقة الروم قد تغيرت ، فقد فقدت أدنه وطرسوس وتل باشر والراوندان وسميساط بعد أن استولى عليها الصليبيون كما أن الامبراطور الكسيوس تمكن من انتزاع بعض المدن السلجوقية مثل أزمير وافسوس Ephesus وسارديس Sardis واستعاد عددا من المدن دون جهد (١) . والمهم أن الامبراطورية البيزنطية التى عجزت عن وقف التقدم السلجوقى نجحت فى استغلال الصليبيين فى ضرب السلاجقة وارجاع حدودها إلى مسافة مائتى ميل تقريبا ، وانزلت بهم ضربة قاصمة وأصبحوا مضطرين للقيام بالحرب الدفاعية لمدة ليست بقصيرة .

وكما استغل الكسيوس الصليبيين فانه استفاد من الظروف التى أعقبت وفاة قلج أرسلان ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م والصراع الداخلى الذى قام فى دولة السلاجقة حول العرش (٢) واستمر حوالى عشر سنوات وهى فترة حكم ملكشاه بن قلج أرسلان (٥٠١ — ٥١٠ هـ / ١١٠٧ — ١١١٦ م) . وقدتميزت هذه الفترة بأمرين ، أولهما : تحالف الكسيوس مع السلاجقة ضد بوهمند الأول Bohemond I أمير أنطاكية (١٠٩٨ — ١١٠٤ م / ٤٩١—٤٩٨ هـ) عندما قام بمهاجمة مدينة دورازو Durazzo البيزنطية الواقعة فى منتصف الساحل الغربى لشبه جزيرة البلقان عام ١١٠٧ م وكان النصر فى هذه المعارك حليف الامبراطور الذى أجبر بوهمند على توقيع معاهدة ديفول Devol (٣) .

---

(١) Anna Comnena, op. cit., p.p. 346—8.

(٢) Michel le Syrien, op. cit., p. 331; A.S.C., p. 89;
الفارقى : تاريخ الفارقى ص ٢٥٠ .

(٣) Anna Comnena, op. cit., pp. 395 ff.
أنظر أيضا : ابن القلانسى : المصدر السابق ص ١٥٨ ، ص ٧١ من هذا الكتاب.

ويبدو أن هذا النصر العظيم الذى حققه الكسيوس بالاضافة إلى الصراع الداخلى فى دولة السلاجقة قد دفع الكسيوس على نبذ التحالف الذى عقده مع السلاجقة وشجعه على استعادة بعض المدن من أيدى السلاجقة وهذا هو الأمر الثانى ، فقد تمكن الكسيوس من استعادة السواحل الجوبيةلآسيا الصغرى حتى مدينة أضاليا وتمكن أيضا من اصلاح أسوار مدينة ضورليوم التى سبق أن خربها زاخاس . ولم تفلح المقاومة السلجوقية فى هذا الوقت فى وقف التقدم البيزنطى ، فقد هزمت القوات البيزنطية السلاجقة وعامل البيزنطيون الأسرى منهم أسوأ معاملة حتى أنهم كانوا يلقون بالأطفال فى الماء المغلى . ويبدو أن آل دانشمند كانوا فى هدنة مع السلاجقة فى هذا الوقت لذلك ،حاول الدانشمنديون بدورهم التصدى للبيزنطيين وايقاف مثل هذه الأعمال الوحشية ولكن القوات الدانشمندية هزمت على يد البيزنطيين الذين قتلوا وأسروا العديد كما نجحوا أيضا فى اطلاق سراح الأسرى البيزنطيين الذين وقعوا فى أيدى آل دانشمند(١).

ويبدو أن هذه الانتصارات أجبرت ملكشاه بن قلج أرسلان على عقد الصلح مع الامبراطور الكسيوس فى عام ٥٠٦ هـ / ١١١٢م،ولم تسجل لنا المؤرخة أناكومنينا شروط هذا الصلح إلا أنه من الواضح أن ملكشاه لم يتخل عن أى منطقة من المناطق الواقعة فى أملاكه (٢) .

والظاهر أن ملكشاه قد عقد هذا الصلح كسبا للوقت حتى يستعد ويجمع أكبر عدد من القوات ليهاجم الامبراطورية البيزنطية ويستعيد المدن التى فقدها السلاجقة فى السنوات السابقة ،ولكن الكسيوس نجح هذه المرة أيضا

---

(١) Anna Comnena, op. cit., p. 437.

(٢) Finlay, op. cit., III, p. 125.

وتمكن من هزيمة القوات السلجوقية وخرب بيثينه Bithynia وفيلادلفيا Philadelphia واستولى على مدينة بروسه (١) ، وفى عام ٥١٠ هـ / ١١١٦ م جمع ملكشاه جيشا كبيرا بالاضافة إلى ما ورد اليه من امدادات ، وعندما علم الامبراطور البيزنطى بأمر هذه التجمعات أخذ زمام المبادأة (٢) ، وهاجم السلاجقة وكان النصر للسلاجقة فى أول الأمر ولكن الجيش البيزنطى تمكن بقيادة بارداس Bardas من هزيمة السلاجقة عند سهل عمورية وغنم الكثير ، ثم انتصر السلاجقة بعد ذلك وانتهت هذه المعارك بأن اقترح ملكشاه الصلح مع الامبراطور ، وقد وافق الكسيوس على ذلك دون تردد لأنه كان يخشى القوات السلجوقية التى تتجمع بأعداد ضخمة وتهاجم الجيش البيزنطى من كل جانب ، وتقابل الكسيوس وملكشاه ، وبينما كان التفاوض دائرا بين الفريقين جاءت الأخبار بخروج مسعود على أخيه ملكشاه وأعلن نفسه سلطانا على دولة سلاجقة الروم (٥١٠ — ٥٥٠ هـ / ١١١٦ — ١١٥٥ م) (٣) .

وإذا كان عرش السلاجقة قد آل إلى مسعود فلم يلبث عرش بيزنطة أن آل أيضا إلى يوحنا كومنينوس عام ١١١٨ م ، وعند موت الكسيوس أول أباطرة الأسرة الكومنينية كانت ممتلكات بيزنطة فى آسيا الصغرى هى طرابيزون وكل ساحل البحر الأسود وكل الساحل الجنوبى حتى أنطاكية فى الشام وجميع المدن الواقعة غرب الخط الذى يمر بمدينة سينوب وجانجرس Gangres وانقره Ancyre وعمورية وفيلوملميون Philomelion (٤) . وهكذا

(١) Anna Comnena, op. cit., p. 453.

(٢) Diehl, C., Histoire de l'Empire Byzantin, p. 147.

(٣) Anna Comnena, op. cit., pp. 471—491.

(٤) Frood, E., The Byzantine Empire, pp. 343—4.

استعادت الامبراطورية الكثير من أراضيها التى كان السلاجقة قد استولوا عليها .

واهتم يوحنا بالشئون الآسيوية مثل أبيه، وكان يهدف إلى اعادة حدود الامبراطورية حتى أنطاكية والفرات وارغام كل من الأرمن فى قيليقية والامارات الصليبية فى الشام على قبول سيادته (١) . والواقع أنه كان لا يستطيع القيام بهذا العمل الا بالقضاء أولا على القوة السلجوقية . ويبدو أن السلاجقة قد استعادوا سيطرتهم على بعض المناطق الممتدة من وادى نهر المياندر Meander حتى أضاليا مستغلين الفرصة التى أتاحها الصراع على العرش البيزنطى وقطعوا اتصال الامبراطورية بممتلكاتها الواقعة شرقى هذه المنطقة إلا عن طريق البحر ، وقد تمكن يوحنا فى فترة مبكرة من حكمه من طرد السلاجقة واجلائهم عن المنطقة التى تسللوا اليها (٢) وبذلك قضى على الاسفين الخطير الذى سببه وجود الممتلكات السلجوقية داخل الأراضى البيزنطية (٣) . وحتى يفتح الطريق أمامه إلى أنطاكية .

ولكن السلاجقة عادوا مرة أخرى للهجوم على أملاك الامبراطورية البيزنطية عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م فعبر يوحنا البسفور فى العام التالى وأغار على القبائل السلجوقية الرحل والزم عددا كبيرا منها بالدخول فى طاعته وأجبرهم على إمداد الامبراطورية بعدد من القوات العسكرية (٤) وفى الفترة التالية

---

(١) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١٣٩ .

(٢) Nicetas, op. cit., pp. 17, 19; Cinnamus, op. cit., pp. 2—3.

(٣) عمر كمال توفيق : نفس المرجع والصفحة .

(٤) Frood, op. cit., p. 347.

انشغل يوحنا بمسائل الصرب وهنغاريا (١) ، وانشغل السلاجقة بالصراع بين بعضهم البعض وبينهم وبين آل دانشمند من جانب آخر . فقد قام عرب أخ السلطان السلجوقى مسعود بعزله فلجأ الأخير إلى الامبراطور يوحنا لمساندته على أخيه ، الأمر الذى رحب به الامبراطور ، ولم يجد عرب بدا من التحالف مع الأمير الأرمينى ثوروس الأول Thoros I (١١٠٠ — ١١٢٩ م / ٤٩٣ — ٥٢٣ ﻫ) . وبفضل المساعدات البيزنطية تمكن مسعود من الانتصار على أخيه عرب واستعادة العرش السلجوقى فلجأ عرب بدوره إلى يوحنا أيضا ولكنه ما لبث أن مات هناك . وفى الوقت نفسه ازداد نفوذ آل دانشمند وتمكن محمد ناصر الدين بن كمشتكين (٤٩٥ — ٥٣٧ ﻫ — ١١٠٢ — ١١٤٣ م) من توسيع رقعة أملاكه إلى الشرق فى أتجاه الفرات على حساب الممتلكات السلجوقية وشمالا تجاه الممتلكات البيزنطية عند بنطس Pontus ، وخاصة بعد أن سلمه الحاكم البيزنطى كاسيانوس Casianos المنطقة التى كان يسيطر عليهاو كانت آخر ما تبقى للامبراطورية البيزنطية من مراكز فى هذه المنطقة (٢) .

وحوالى ذلك الوقت كان يوحنا قد فرغ من مشاكله فى الغرب فقرر القضاء على قوة آل دانشمند ، وخلال الفترة الممتدة من ١١٣٠ — ١١٣٥ م / ٥٢٦ — ٥٣١ ﻫ قام الامبراطور بعدة حملات على آسيا الصغرى الاسلامية لمحاولة استعادة الأراضى المفقودة ولتأكيد هيبته خاصة أن بوهمند الثانى Bohemond II أمير أنطاكية (١١٢٦ — ١١٣٠ م / ٥٢٠ — ٥٢٤ ﻫ)

---

(١) عن مسائل الصوب وهنغاريا فى هذه الفترة أنظر :

Ostrogosky, op. cit., p. 336; Brehier, L., Vie et Mort de Byzance, p. 321; Bailly, A., Byzance, p. 327.

(٢) Chalandon, F., Jean II Comnene et Manuel Comnene, pp. 80—81; Brehier, op. cit., p. 323.

أسد رستم : الروم : جـ ٢ ص ١٤١ .

حاول السيطرة على أملاك الأمير الارميني ثوروس عند موته (١) . وكانت الحملة الأولى للامبراطور يوحنا سنة ١١٣٠ م / ٥٢٦ ه ولكنها لم تستكمل بسبب المؤامرة التي دبرها أخوه اسحق Issac مما اضطره للعودة إلى العاصمة لمواجهتها (٢) وقد فر اسحق وابنه يوحنا إلى الأمير الدانشمندى الذى رحب به،ولم يقتصر الأمر على ذلك فحسب بل أن الأمير الدانشمندى محمد ناصر الدين تحالف مع ليو الأول Leo I (١١٢٩ — ١١٣٦ م / ٥٢٣ — ٥٣١ ه) خليفة ثوروس (٣) ، وانزعج يوحنا لهذا التحالف فخرج فى عام ١١٣٢ م / ٥٢٧ ه إلى إقليم بنطس،ولكن أنصار اسحق فى العاصمة اغتنموا فرصة غياب الامبراطور ونادوا باسحق امبراطورا ، مما اضطر يوحنا للعودة مرة أخرى للقضاء على المتآمرين ، وكان ذلك فرصة للأمير الدانشمندى الذى تقدم حتى سينوب (٤) :

وفى أوائل عام ١١٣٣ م / ٥٢٧ ه تمكن الامبراطور البيزنطى من الاستيلاء على مدينة قسطمونى من أيدى آل دانشمند وهى المدينة التى كان يعتبرها الامبراطور مركزا لانطلاق المسلمين ضد الأراضى البيزنطية،وتقدم حتى وصل إلى نهر الهاليس Halys ، وعاد يوحنا إلى العاصمة ودخلها دخول الظافرين ومعه الأسرى . ويبدو أن النصر الذى أحرزه يوحنا كان عظيما لدرجة أن انشعب استقبله أستقبالا رائعا وقدم له مركبة مزينة بالذهب والاحجار الكريمة . ولم يستسلم الأمير محمد ناصر الدين لهذه الهزيمة فبعد

---

(١) Hethoum, Comte de Groigos, cf., R.H.C. Doc. Arm., I, P. 473.

(٢) Walter, G. la Vie quotidienne a Byzance, p. 24.

(٣) A.S.C., p. 99.

(٤) Chalandon, op. cit., 85.

عودة يوحنا هاجم مدينة قسطمونى واستردها بالقوة،وكان على يوحنا أن يجهز حملة جديدة لمهاجمة الأمير محمد ناصر الدين ولكن وفاة زوجة الامبراطور أخرت قيام هذه الحملة حتى صيف العام التالى.وقد ساعد يوحنا عندما قام بحملته هذه أمران ، أولهما الصراع الذى نشب بين آل دانشمند وبعضهم البعض ، وثانيهما أن الامبراطور نجح فى استمالة السلطان مسعود السلجوقى إلى جانبه . وقد تمكن يوحنا من مهاجمة مدينة قسطمونى التى سلمت له ثم إتجه إلى جانجرس واستولى عليها أيضا وترك بها حامية بيزنطية (١) . وظن يوحنا أنه أضعف من قوة آل دانشمند وأنه أصبح فى امكانه أن يتجنب أخطار سلطنة قونية والأمراء الدانشمنديين (٢) . بعد هذه الحملة الظافرة التى أعادت للامبراطورية بعض الأراضى التى فقدتها منذ زمن طويل (٣) . فقد تمكنت من استرداد كل ساحل البحر الأسود حتى شرقى طرابيزون وكل سواحل آسيا الصغرى الأمر الذى أسهم فى اعادة الامبراطورية إلى قوتها مرة أخرى كدولة بحرية (٤) .

واستعد يوحنا لمهاجمة السلاجقة عندما حاصروا مدينة كيسون واستنجاد بلدوين Baldwin حاكم مرعش وكيسون بالامبراطور ، وعندما علم السلاجقة بقدوم القوات البيزنطية رفعوا الحصار ، ولما كان يوحنا فى طريقه إلى أرمينية وأنطاكية لاخضاعهما لسلطانه فلم يهاجم السلاجقة واتخذ طريقه إلى الجنوب . وانتهز السلطان مسعود فرصة غياب يوحنا وتواجده فى الشام وهاجم مدينة

---

(١) Nicetas, op. cit., pp. 25—7; Cinnamus, op. cit., pp. 13—14.

(٢) Diehl, op. cit., p. 148.

(٣) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١٣٩ .

(٤) Brehier, op. cit., p. 323.

أدنه (١) الأمر الذى دفع يوحنا بعد عودته من الشام إلى القيام ببعض العمليات العسكرية ضد السلاجقة التى انتهت بانسحاب مسعود، ولم يستمر يوحنا فى مهاجمة السلاجقة ، ربما لعلمه بالارهاق الذى تعانيه قواته بعد حملته على الشام أو ربما أنه اطمأن بعض الشىء خاصة وأنه أثناء عودة الامبراطور إلى القسطنطينية ، قدم أخيه اسحق وابنه يوحنا — اللذان سبقا أن تآمرا على الامبراطور وفرا إلى آل دانشمند — وأعلنا خضوعهما للامبراطور وحصلا على عفوه (٢) ، وكان آخر ما قام به يوحنا ضد المسلمين فى آسيا الصغرى هو مهاجمة أمراء دانشمند إنتقاما لمهاجمتهم أملاكه عام ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م ، فقام فى العام التالى بمهاجمة مدينة نيكسار ولكن المدينة قاومت ببسالة واضطر يوحنا لرفع الحصار الذى طال لمدة ستة أشهر وانسحب فى نهاية العام دون أن يحقق أى نجاح (٣) .

وإذا كانت هذه هى صورة العلاقات السياسية بين السلاجقة وآل دانشمند والبيزنطيين فى هذه الفترة نتيجة توغلهم فى الأراضى البيزنطية واستقرارهم فى شمال ووسط آسيا الصغرى ، فأننا نجد أنه قد صاحب ذلك هجرة الأرمن تجاه الأراضى البيزنطية أيضا بعد ما استولى السلاجقة على مواطنهم الأصلية فى منابع نهر الفرات . وقد رحبت الامبراطورية البيزنطية فى أول الأمر بالمهاجرين الجدد ومنحتهم ضياعا واسعة فى كبادوكيا ، وقد أدى ذلك إلى زيادة هجرة الأرمن إلى موطنهم الجديد. ولكنهم بدأوا يبحثون عن موطن

(١) عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر : A.S.C., pp. 276—7.

(٢) Nicetas, op. cit., pp. 42—3.

(٣) Brehier. op. cit., p. 225.

آخر نتيجة الزحف السلجوقى فأتجهوا إلى أراضى قيليقية الجبلية فى جنوب شرقى آسيا الصغرى وتركزوا فى الجهات المحيطة بملطية والرها وأنطاكية (١) .

وبالتدريج أخذ هؤلاء المهـــاجرون الريفيون الجبليون الذين يتميزون بطاقات كبرى والجلد على العمل المغرمون بالاستقلال ينزلون إلى سهل قيليقية الفسيح بعد أن جهزوا وحصنوا معاقلهم القوية بالأبراج على قمم الجبال ومنافذ الوديان . وشيئا فشيئا تمكنوا من السيطرة على هذا الاقليم الجبلى الموحش الذى يسرت له الطبيعة سبل الدفاع عنه (٢) . ومما تجدر الاشارة إليه أن هذه المنطقة كانت تضم عددا من البلدان والقلاع التى كانت تتحكم فى الطريق من آسيا الصغرى إلى الشام ومنها أدنه وطرسوس والمصيصة وعين زربه وهى التى عرفت بالثغور الاسلامية (٣) وكانت فى هذا الوقت بمثابة خط الدفاع الأمامى للامبراطورية البيزنطية وسيكون لاستيلاء الأرمن على هذه المنطقة أثرا كبيرا على أمن الأمبراطورية فى الجنوب الشرقى من آسيا الصغرى . وعلى أية حال كان ضمن المهاجرين عدد من الشخصيات الذين لعبوا دورا كبيرا فى تاريخ هذه المنطقة .وقد استغلوا الصراع الذى دار بين السلاجقة والبيزنطيين لكى يستقلوا فى أماكنهم على حساب القوتين معا (٤) . وكان من الـــذين انتهزوا مثل هذه الفرصة فيلاريتوس Philaretus الذى اعتمدت عليه الامبراطورية البيزنطية فى صراعها مع السلاجقة إذ كانت تكن له كل تقدير واحترام لما توسمت فيه من الشجاعة والاخلاص . واعتبره الامبراطور

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ٩٧ — ٩٨ .

(٢) Schlumberger, G., Renaud de Chatillon, p. 45.

(٣) لى ستر انج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٥٩ وما بعدها وعن هذه المدن وغيرها .أنظر الخريطة رقم ١ — ٤ .

(٤) Chalandon, op. cit., p. 97.

رومانوس الرابع أحد رجاله المقربين ، ولكنه ما لبث أن تمرد على الامبراطورية البيزنطية بعد معركة مانزكرت التي أسر فيها الامبراطور وما أعقب ذلك من خلعه من العرش وسمل عينيه ، ورفع راية العصيان (١) .

وانتهز فيلاريتوس ضعف كل من الامبراطور ميخائيل ونقفور واضطراب الأحوال الداخلية في بيزنطة من ناحية وانشغال الامبراطورية بالصراع مع السلاجقة من ناحية أخرى فتمكن من تدعيم مركزه حول مرعش ورعبان والابلستين ، كما نجح أيضا في انتزاع مدينة ملطية من أيدي السلاجقة وهي أيضا من مدن الثغور . وكان من نتيجة هذا النجاح الذي أحرزه فيلاريتوس أن دخل في طاعته الزعماء الأرمن المجاورين له وكانوا يسيطرون على طرسوس والمصيصة وعين زربه ، وزادت أطماع فيلاريتوس في الممتلكات البيزنطية فاستولى على الرها سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م ، ثم انتزع أنطاكية في العام التالي ، وهي المدينة التي سلمها له أهلها مختارين خشية استيلاء السلاجقة عليها (٢) وبذلك أصبح فيلاريتوس يسيطر على الأراضي الممتدة من طرسوس غربا حتى فيما يلي نهر الفرات شرقا (٣) وأصبحت حدود دولته الجديدة متاخمة للأتراك السلاجقة من الشرق والشمال والامبراطورية البيزنطية من الغرب .

ولم يجد الامبراطور البيزنطي نقفور بدا من محاولة ربط هذا الأمير بالدولة البيزنطية فعمل على التقرب إليه في الوقت الذي كان يخشى فيه فيلاريتوس قوة الأتراك السلاجقة . فأعلن ولاءه للامبراطور واعترف

---

(١) Anna Comnena, op. cit., p. 198; Grousset, R., L'Empire du Lavant, p. 177.

(٢) Anna Comnena, op. cit., p. 189.

أنظر أيضا سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ص ٩٨ — ٩٩ .

(٣) Runciman, op. cit., I, p. 73.

بالسيادة للامبراطـــــور نقفور الثالث . وبذلك أمن فيلاريتوس جانب الامبراطورية البيزنطية . ولكن الأتراك السلاجقة لم يتركوه ينعم بهذه الغنيمة التى تعترض توسعاتهم . وحانت الفرصة عندما سار فيلاريتوس إلى القسطنطينية فكتب أهل أنطاكية إلى سليمان بن قتلمش «وراسلوه ليحضر ليسلموا إليه أنطاكية ، فسار اليهم وتسلم البلد وملكه» (١) وهكذا ضاعت أنطاكية من أيدى البيزنطيين والأرمن عام ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ — ١٠٨٥ م وآلت بعد مقتل سليمان فى عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م إلى الأمير باغى سيان حتى فتحها الصليبيون عام ٤٩٠ هـ / ١٠٩٨ م (٢) .

وبعد ضياع أنطاكية من فيلاريتوس استقل أحد رجاله وهو جبريل Gabriel بمدينة ملطية ، كما احتفظ رجل آخر من رجاله وهو ثوروس Thoros بالرها . ولكنهما تحولا تجاه السلاجقة وأعلنا ولاءهما للحكام المسلمين وظل هذا الوضع قائما حتى قدوم الحملة الصليبية الأولى التى استولت على الرها فى عام ١٠٩٨ م وانتهى أمر ثوروس . كما تسلم بوهمند أمير أنطاكية مدينة ملطية من جبريل الذى زوجه ابنته وقدم له المدينة بائنة لهذا الزواج (٣) .

غير أن الأرمن الذين كانوا يتأرجحون فى ولائهم بين المسلمين والبيزنطيين بالأمس نجدهم منذ قدوم الحملة الصليبية الأولى يتأرجحون فى ولائهم بين البيزنطيين والصليبيين ، وكان من هؤلاء الأمراء الذين ظهروا فى هذه الفترة هو باكرد Pakrad الذى هرب من سجنه فى القسطنطينية وتمكن من الانضمام إلى القوات الصليبية عندما كانوا يحاصرون نيقية ، كما قدم اليهم

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٦ .

(٢) أعمال الفرنجة ص ٦٤ وما بعدها ، عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٥٠ .

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ١٠١

باكرد

خدمات جليلة أثناء مرورهم عبر قيليقية لخبرته بمسالك هذه المنطقة وكافأه الصليبيون على ذلك بمنحه بعض القلاع فى تل باشر والراوندان ولكن العلاقة بينه وبين الصليبيين ما لبثت أن أنتابها الشكوك فانتزعوا منه أملاكه بعد أقل من سنة (١) .

وإلى جانب باكرد نجد أيضا أخيه كوخ بازل Kogh Basil أو بازل اللص كما يسميه المؤرخ أبو الفرج الملطى لأنه سرق عدة قلاع من البيزنطيين فى قيليقية وحكمها (١٠٩٨ — ١١١٢ م / ٤٩٠ — ٥٠٦ هـ) (٢) ، وقد تمكن بازل من بسط نفوذه على كيسون ورعبان وحصن منصور وقلعة الروم (٣) ، كما حاول الابقاء على الروابط الاسمية مع الامبراطورية البيزنطية (٤) ، وفى الوقت نفسه ظل على علاقة طيبة ظاهرية مع الصليبيين حتى عام ١١١٢ م وهى السنة التى دخل فيها فى صراع مكشوف مع تانكرد Tancerd أمير أنطاكية ١١٠٤ — ١١١٢ م / ٤٩٧ — ٥٠٦ هـ ، الذى هاجم ممتلكاته ولكنه ما لبث أن مات بعد قليل وقد سبب موته حزنا بالغا للأرمن الذين كانوا يجدون فيه كل الصفات الممتازة على حد قول المؤرخ الأرمينى سمباد (٥) . ولا تمدنا المصادر التى تحت أيدينا بأية معلومات عن أية مساعدات قدمها الامبراطور البيزنطى الكسيوس للأمير بازل فى صراعه ضد تانكرد .

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, pp. 188, 304—5.

(٢) أبو الفرج الملطى : تاريخ مختصر الدول ص ٣٤٦ . A.S.C., p. 72.

(٣) Sempad, op. cit., p. 610.

(٤) يذكر المؤرخ الأرمينى جريجوار اسم كوخ بازل مقرونا بكلمة Sebaste وتعنى «المفضل» وهى من الألقاب التى كان يحملها رجال الامبراطورية البيزنطية أنظر : Gregoire le Pretre, op. cit., p. 165.

(٥) Semped, op. cit., p. 613.

وخلف الأمير بازل أمير أرميني آخر هو بازل دجه Basil Dagah (١١١٢ — ١١١٦ م / ٥٠٦ — ٥١٠ هـ) وأقام فى كيسون وقد اختلفت سياسة هذا الأمير عن سلفه فانحاز تماما إلى الصليبيين وهم الجانب الأقوى فى هذه المرحلة بعد ما اتعظ بما لحق بسلفه ، ولكنه لم يتمكن من ارضاء كافة الزعماء الصليبيين ، فى الوقت الذى وطد فيه العلاقات الطيبة مع تانكرد نجده على العكس مع أمير الرها بلدوين أف بورج (١) Baldwin of Bourg (١١٠٠ — ١١١٨ م / ٤٩٣ — ٥١٢ هـ) وحاول بازل دجه ايجاد روابط أرمينية قوية لمواجهة الموقف فتزوج من أبنة ليو وهو زعيم أرميني آخر ، ولكن ثوروس أخ ليو قبض عليه وسلمه لبلدوين فاضطر للتنازل عن ممتلكاته مقابل اطلاق سراحه . وبعد اخلاء سبيله فى عام ١١١٦ م لجأ إلى القسطنطينية حيث قابله الامبراطور الكسيوس بالترحاب (٢) .

هذا ما كان من أمر الزعماء الذين جاء حكمهم قبل بداية حكم الامبراطور مانويل ، أما سلالة آل روبان Rupen فقد استمرت وعاصرت حكم مانويل . ويهمنا فى هذا الموضع القاء الضوء على هذه الأسرة . وروبان هذا كان أحد الزعماء الأرمينيين وكان له أبنا هو قنسطنطين Constantine الذى تمكن من السيطرة شيئا فشيئا على ممرات طرسوس وأصبح يتحكم فى الطريق المؤدى من قيصرية إلى عين زربه ، وقد احتفظ بالعلاقات الطيبة مع الصليبيين أثناء الحصار على أنطاكية ، وعندما مات فى عام ١١٠٠ م / ٤٩٣ هـ خلفه أبنه ثوروس الأول Thoros I (١١٠٠ — ١١٢٩ م / ٤٩٣ — ٥٢٣ هـ) الذى منحه الصليبيون لقب بارون . وقد أعلن ثوروس هذا راية العصيان على

---

(١) تولى بلدوين هذا ملك مملكة بيت المقدس (١١١٨ — ١١٣١ م) بعد امارة الرها .

(٢) Chalandon, op. cit., p. 101.

بيزنطة واستولى على بعض الأراضى البيزنطية وأقام فى مدينـةفاهجه(١) Vahka الواقعة فى شمال قيليقية إلى الشمال من مدينة سيس ولم يعترف بالتبعية للامبراطور الكسيوس،وازدادت العلاقة سوءا عندما قام ثوروس بقتل أولاد مانديليـه Mandale الموالين للامبراطـورية البيزنطية انتقاما لقتل الملك كاكيج الثانى آخر ملوك أرمينيـة الكبرى — فى عام ١٠٩٢ م / ٤٨٥ هـ . ولم يترك الكسيوس أية فرصة إلا وانتهزها لتأكيد ملكية الامبراطورية البيزنطيـة للأراضى التى يحكمها ثوروس ومن ذلك ما نصت عليه معاهدة ديفول التى أجبر بوهمنـد على توقيعها من تبعية ثوروس للامبراطور (٢) ، وظل الوضع متأزما بين بيزنطـة وثوروس حتى مات فى عام ١١٢٩ م (٣) .

وخلف ثوروس أخيه ليو الأول (٤) الذى تمـكن من الاستيلاء فى عام ١١٣٢ م / ٥٢٦ هـ على أدنه وطرسوس والمصيصة وعـين زربه (٥) وهـى المدن التى كانت فى حوزة بيزنطـة فى ذلك الوقت (٦) وفى العام التالى استولى على بعض الأراضى الواقعة جنوبى ملطيـة وكانت فى حوزة آل دانشمند . وفى عام ١١٣٥ م / ٥٢٩ — ٥٣٠ هـ استولى ليو على بعض الأراضى الخاضعـة للصليبين والواقعة فى جبال الامانوس Amanus ، وبذلك دخل ليـو فى صراع مع البيزنطين والصليبين والمسلمين . وقـد تمكن بلدوين حاكم مرعش

---

(١) Sempad, op. cit., p. 610.

(٢) Anna Comnena, op. cit., p. 430.

(٣) Sempad, op. cit., p. 615.

(٤) كان جوسلين الثانى Josceline II أمير الرها (١١٣١ — ١١٥٠ م) متزوجا من بياتريس Beatrice أخت ليو الأول . أنظر :

William of Tyre, op. cit., II, p. 52.

(٥) A.S.C., p. 276.

(٦) Cinnamus, op. cit., p. 16.

وكيسون من القبض عليه وسلمه إلى ريمـوند أف بواتيه أمير أنطاكية وظل ليو فى السجن لمدة شهرين تقريبا ثم أطلق سراحـه بعد ما سلم أولاده كرهائن وتنازل عن مدينة أدنة والمصيصة وتعهد بدفع جزية سنوية قدرها ستون ألف تاهجان Tahegane (١) .

ويبدو أن ليو تحالف مع الصليبيين ضد بيزنطة عندما كان فى الأسر لأنه قام عقب عودته إلى قيليقية بمهاجمة مدينة سليوقية Seleucia وهى من المدن المتقدمة فى الامبراطورية البيزنطية (٢) ومن أعظم المدن التجارية (٣) وحوالى ذلك الوقت كان الامبراطور البيزنطى يوحنا قد فرغ من مشاكله وعاد ليؤكد سيطرته على أنطاكية وأرمينية لأنه كان يهدف إلى جعلهما اقطاعا لأبنه المفضل مانويل (٤) . وقام يوحنا بحشد عددا كبيرا من الوحدات العسكرية المتمرسة على الحروب وكانت تتكون من أجناس مختلفة من الشعوب الخاضعة للامبراطورية استعدادا لغزو أرمينية وأنطاكية . وسار يوحنا جنوبا حتى أضاليا ثم توجه إلى عين زربه واستولى عليها بعد حصار دام سبعةوثلاثون يوما ، وتشير هذه المدة إلى مدى مقاومة الأرمن للقوات البيزنطية رغم ضخامتها فى الوقت الذى لم تتلق فيه المدينة أية نجدات لأن المنطقة المحيطة بها لم تكن

---

(١) Sempad, op. cit., pp. 615—6.
راجع أيضا : انطوان خانجى : مختصر تواريخ الأرمن ص ٢١٩ . والتاهجان عمله أرمينية كانت تعادل الدينار عند المسلمين وأحيانا تعادل البيزنط وأصل الكلمة فارس . وكان التاهجان مقسم إلى عشر أقسام مثل الدينار أو البيزنط وكان أيضا من نوعين أحدهما من الذهب والآخر من الفضة عن ذلك أنظر : Mattheu d'Edesse, op. cit., P.IX N.2.

(٢) Finlay, op. cit., III, p. 141.

(٣) Brehier, op. cit., p. 333.

(٤) Diehl, op. cit., p. 157.

كلها تابعة لحكم ليو ، والدليل على ذلك أن المؤرخ الأرمينى جريجوار أطلق لقب «امبراطورنا» على الأمبراطور يوحنا (١) . وقد نجح يوحنا أيضا فى الاستيلاء على بعض الحصون والقلاع التابعة للأمير ليو وأسر زوجته وهرب أثنان من أولاد ليو واتجها إلى خالهما جوسلين الثانى كونت الرها ، كما لاذ ليو بالفرار ومعه أثنان من أولاده وهما روبان وثوروس واختبأوا جميعا فى جبال طرسوس ورفعوا لواء المقاومة (٢) .

ولم يستمر يوحنا فى مطاردة ليو وانما أدخر قواته لاخضاع أنطاكية وهو ما سنوضحه فى موضع آخر فى هذا البحث ، ولكن ما يهمنا فى هذا الصدد أن يوحنا بعد ما عاد من أنطاكية عام ١١٣٧ م / ٥٣٢ ه أكمل حملاته ضد ليو وانتهى الأمر بالقبض عليه ومعه ولديه روبان وثورس وأرسلوا جميعا إلى القسطنطينية (٣) ، ولتأكيد السيادة البيزنطية على هذه المنطقة أقام يوحنا بطاركة بيزنطيين فى هذه المدن (٤) ، وظل ليو فى أسره حتى مات فى عام ١١٤٢ م / ٥٣٦ ه ، ولكن ابنه ثوروس تمكن من الهرب فى عام ١١٤٤ م / ٥٣٨ ه وعاد إلى قبنيقية ليعيد تأسيس الامارة الأرمينية مرة أخرى (٥) .

وهكذا سجل يوحنا نصرا حقيقيا على امارة أرمينية قبل موته فى عام ١١٤٣ م / ٥٣٧ ه وأعاد المنطقة إلى حظيرة الامبراطورية ،ولكن ذلك لم يكن

---

(١) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 154.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, 52, Chalandon, op. cit., p. 116.

(٣) Sempad, op. cit., p. 617.

ويروى ابن العديم أن الامبراطور يوحنا قال للأمير ليو الأرمينى «أنت بين الفرنج والأتراك لا يصلح لك المقام» فسيره إلى القسطنطينية . أنظر : ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٦٣ ، أنظر أيضا : ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢١٢ .

(٤) Odo of Deuil, op. cit., p. 69.

(٥) Hethoum, Comte de Groigos, op. cit., p. 474.

كل أهداف الأمبراطورية فى الفترة السابقة لحكم مانويل . بل كان من هدفها أيضا تأديب الصليبين واعادة امارة أنطاكية بالذات إلى السيادة البيزنطية وهو ما سنوضحه فى المبحث التالى .

كانت الامبراطورية البيزنطية قد مرت بفترة من المتاعب السياسية وضعفت فيها السلطة المركزية وترتب على ذلك ضعف القوة العسكرية حتى حلت بها كارثة مانزكرت ، ومع هذا الشعور بالخطر نجد أن الامبراطور ميخائيل السابع الذى استولى على العرش عقب موقعة مانزكرت قد ألح على البابا جريجورى السابع لارسال نجدة سريعة لانقاذ الامبراطورية البيزنطية وأراضيها فى آسيا الصغرى . ونظير ذلك وعد ميخائيل السابع بالعمل على إزالة الخلاف بين الكنيسة الشرقية والغربية ، وحاول البابا تنفيذ ذلك ولكنه لم يستطع ،وانبعث الأمل من جديد فى بيزنطة أثر اعتلاء الامبراطور الكسيوس العرش الذى كان رجلا ذكيا حاضر الذهن قوى الارادة وقائدا عظيما ودبلوماسيا ماهرا ، وظهر فى تلك الفترة العصيبة من تاريخ الامبراطورية كرجل الساعة . وقد تمكن الكسيوس من التغلب على بعض المشاكل كما حقق استقرارا نسبيا فى الداخل وصد بعض الاخطار الخارجية التى تعرضت لها الأمبراطورية (١) .

وبينما كان الامبراطور الكسيوس مهتما بالأمور الداخلية للأمبراطورية ويعمل على صد الأخطار السلجوقية،أعلن البابا أوربان الثانى Urban II (١٠٨٨ — ١٠٩٩ م) فى مؤتمر كليرمونت Clermont الذى عقد فى عام

---

(١) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ٢٣ — ٢٤ ، سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ١٣٠ .

١٠٩٥ م عن مشروع الحملة الصليبية الأولى (١) ، واستعدت القوات الصليبية لتأخذ طريقها إلى الأراضى المقدسة بالشام عبر القسطنطينية ، ومع قدوم الحملة الأولى تدخل الأمبراطورية البيزنطية فى صراع ضد عنصر آخر ، هو الصليبيون .

اتخذت القوات الصليبية طريقها من أوربا شرقا إلى آسيا الصغرى ، وعندما تجمع الصليبيون عند القسطنطينية بغية الوصول إلى الأراضى المقدسة فى الشام ، كان الأمبراطور البيزنطى الكسيوس يعتبرهم قوات مرتزقة ، لذلك رأى أنه يجب على جميع القادة الصليبيين أن يقسموا يمين الولاء والطاعة للأمبراطور ، وعليهم أن يعتبروا أنفسهم أتباعا للأمبراطورية البيزنطية ، ولم يكن ذلك بالأمر الهين ، ولكنه بعد مناقشات عديدة ومواقف متباينة واختلاف وجهة النظر بين الامبراطور والقادة الصليبيين انتهى الأمر بأن قام جودفرى أف بوايون Godfrey of Bouillon دوق اللورين بتقديم الولاء وأعلن وضع قواته فى خدمة الأمبراطورية البيزنطية لاسترداد الأراضى التى استولت عليها السلاجقة (٢) ، وسمح الأمبراطور جودفرى بعبور البسفور حتى لا تتجمع القوات الصليبية كلها عند القسطنطينية ، وأعقب ذلك قدوم بوهمند النورمانى أكبر أبناء روبرت جويسكارد العدو القديم للامبراطورية (٣) . ولاشك أن قدوم بوهمند قد أثار المخاوف فى نفوس البيزنطيين ، ولكن هذه الغيوم مالبثت

---

(١) Fulcher of Chartres, op. cit., p. 11 ff.
وعن أسباب الحروب الصليبية ودوافعها أنظر : عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ٢ وما بعدها ، سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ٢١ وما بعدها ، جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ص ٣٧ وما بعدها .

(٢) Anna Comnena, op. cit., p. 323.

(٣) عن الصراع بين روبرت جويسكارد وبيزنطة أنظر :
Saewulf, Pilgrimage to Jerusalem, P. 2; Bailly, op. cit., pp. 308—9.

أن تبددت عندما أقسم بوهمند يمين الولاء كسلفه جودفرى . ولكن الأمر اختلف مع بوهمند فقد ذكرت احـــدى الحوليات أن بوهمند طـلـب مـن الكسيوس أن يمنحه اقطاعا فى أنطاكية فوافق الأمبراطور على ذلك ووعد أن يمنح بوهمند منطقة حول أنطاكية طولها مسيرة خمسة عشر يوما وعرضهامسيرة ثمانية أيام (١) .

وتلى ذلك قدوم ريموند كونت تولوز Raymond Count Toulouse وقد دعاه الكسيوس ليقدم يمين الولاء كزملائه ولكنه رفض فى أول الأمر وأصبح الوضع يهدد بصدام مسلح بين الطرفين . وتحت بعض العـــوامل والظروف والضغوط وافق على احترام الأمبراطور ووعد بألا يقوم هو أو رجاله بأى عمل يسىء إلى الامبراطور . أما بقية زعماء الحملة الذين قدموا عن طريق القسطنطينية فلم يسببوا متاعب تذكر للأمبراطور البيزنطى . وقد وجد بعض زعماء الحملة أمثال تانكرد أخو بوهمند عدم الارتباط مع الأمبراطور بأى عهود لذلك تجنبوا المرور عبر القسطنطينية (٢) ويهمنا فى هذا الموضوع أن نتتبع إلى أى مدى التزم الصليبيون بالعهود التى قطعوها عـــلى أنفسهم للأمبراطور الكسيوس .

اتجه الصليبيون ومعهم بعض القوات البيزنطية إلى نيقية التى سقطت فى أيديهم وانتهى الأمر بأن ضمت إلى أملاك الامبراطورية البيزنطية . وتقـدم الصليبيون بعد ذلك فى ربوع آسيا الصغرى ، وعند مدينة طوانه Tyana انقسموا إلى شعبتين ، واتخذت الشعبة الأولى طريقها إلى الرها بقيادة بلدوين

(١) أعمال الفرنجة : ص ٣١ ، سعيد عبد الفتاح عاشور حـ ١ ص ١٥٦ .

(٢) Anna Comnena, op. cit., pp. 323, 339; William of Tyre, op. cit., I, pp. 148—9.

أخ جردفرى ، وقد نجح بلدوين هذا فى دخول المدينة، ثم ما لبث أن سيطر على زمام الموقف فى المدينة بعد مقتل حاكمها ثوروس الأرمينى وأصبح أميراً على الرها (١) . وأما الشعبة الثانية وكان على رأسها جودفرى وبوهمند فقد اتجهت إلى مدينة أنطاكية ، ولما كان بوهمند يعمل على التنصل من الوعد الذى قطعه على نفسه ، فقد أتهم القائد البيزنطى تاتكيوس Taticius الذى كان يرافق القوات الصليبية بالخيانة مما أثار غضب الصليبيين ، يضاف إلى ذلك تهديده بالانسحاب أثناء حصار مدينة أنطاكية وتوسل الزعماء الصليبيين إليه فى البقاء ووعدوه بتسليم المدينة . هذا إلى جانب أن المسلمين عندما حاصروا الصليبيين داخل المدينة استنجدوا بالأمبراطور البيزنطى ، وبينما كان الكسيوس فى طريقه إلى أنطاكية أخبروه بأن المسلمين استعادوا المدينة وأنهم فى طريقهم إلى آسيا الصغرى فانزعج الكسيوس وعاد إلى بلاده (٢) . بكل هذه الأسباب مهد بوهمند لعدم الارتباط بالعهد الذى قطعه على نفسه وانتهى الأمر بعد صراعه مع ريموند كونت تولوز أن آلت إليه أنطاكية وأعلن نفسه حاكما مستقلا عليها (٣) . وقد أثار ذلك حفيظة الأمبراطور الكسيوس باعتباره خرقا لنصوص الاتفاقية المعقودة بينه وبين الصليبيين ، ولكن احتجاج الكسيوس لم يلق آذانا صاغية من جانب بوهمند (٤) . واستمر الصليبيون فى فتح الشام وتمكنوا بعد ذلك من تاسيس امارة بيت المقدس ثم طرابلس فى الوقت الذى كان يخطط فيه الكسيوس للانتقام من بوهمند .

---

(١) عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر : A.S.C., pp. 70—71.

(٢) William of Tyre, op. cit., I, pp. 219, 277—8.

(٣) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ٥٤ — ٥٦ .

(٤) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٢٤٤ وما بعدها .

وحانت الفرصة للامبراطور عندما وقع بوهمند أسيرا عام ٤٩٥ هـ ١١٠١ — ١١٠٢ م فى يد الأمير غازى بن دانشمند أمير سيواس (٤٧٧ — ٤٩٥ هـ / ١٠٨٤ — ١١٠٢ م (١) ؛ وتولى الوصاية على أنطاكية ابن أخته تانكرد الذى لم يكن أقل عداء للأمبراطورية البيزنطية عن بوهمند، فقام بالاستيلاء على بعض المدن البيزنطية وهى أدنه والمصيصة وطرسوس واللاذقية (٢) . كما قام أيضا بعزل رجال الدين الأرثوذكس وحل محلهم رجال الدين الكاثوليك ، مما زاد فى غضب الأمبراطور الكسيوس (٣) . وعمل الكسيوس جاهدا لاستلام بوهمند من الأمير غازى بأى ثمن ولكن جهوده باءت بالفشل لأن الزعماء الصليبيين نجحوا فى فك أسر بوهمند للحد من أطماع تانكرد (٤) .

وعندما عاد بوهمند إلى أنطاكية ، أرسل إليه الكسيوس سفارة يطالبه بتنفيذ العهد الذى قطعه على نفسه ويطالبه برد جميع المدن التى انتزعها من السلاجقة وعلى رأسها أنطاكية. ولكن بوهمند رفض طلب الامبراطور متعللا بخيانة تاتكيوس وعدم حضور الامبراطور على رأس قواته لمساعدة الصليبيين أثناء زحفهم على الشام، ويلومه أيضا على ترك الصليبيين يقاسون ويلات الحروب ضد المسلمين بمفردهم ، وعندما عادت السفارة إلى القسطنطينية ومعها رد بوهمند قرر الامبراطور مهاجمته (٥) ؛ وقد شجعه على ذلك هزيمة بوهمند على يد المسلمين فى موقعة حران عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م ، والثورة التى قام بها الرعايا البيزنطيون فى مدن أرمينية ضد الحكم النورمانى (٦) ، وأرسل

(١) ابن العديم : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٤٤ — ٢١٤٥

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ١ ص ٣٩١ — ٣٩٢ .

(٣) Neal and Others, The Patriarchate of Antioch. p.

(٤) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ٩٠ — ٩١ .

(٥) Anna Comnena, op. cit., pp. 357—8.

(٦) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ١ ص ٤٠٦ .

حملة بحرية بقيادة كانتاكوزينوس Cantacuzenus ، وقد تمكنت هذه الحملة من استعادة اللاذقية وعديد من القلاع على طول الساحل حتى طرابلس(١).

ولم يسع بوهمند إلا الابحار إلى أوربا وقام بدعاية سيئة واسعة النطاق ضد الأمبراطورية البيزنطية خاصة لدى البابا وملك فرنسا، وتمكن من حشد عدد كبير من المحاربين لمحاربة بيزنطة وقام بمهاجمة دورازو، وقد أسرع الكسيوس لملاقاة بوهمند بعد أن تحالف مع السلاجقة (٢) . وقد تمكن الأمبراطور من انزال الهزيمة بخصمه مما اضطر بوهمند في النهاية للاستسلام وتوقيع معاهدة ديفول مع الامبراطور عام ١١٠٨ (٣) . ويعتبر خضوع بوهمندوهو الأمير كان يتطاول على الأمبراطور لدليل على ما كان للأمبراطوريةمن جلال ومجد(٤) وفي الواقع فإن خضوع بوهمند وتوقيعه معاهدة ديفول يعتبر حجر زاوية في هذا البحث ، وقد أوردت نصوص المعاهدة أنا كومنينا، ونستخلص منها أن المعاهدة ألغت كل العهود التي قطعها بوهمند على نفسه عند مروره مع الحملة الصليبية الأولى وأن بوهمند نفسه هو الذي طلب عقد هذه المعاهدة التي تعهد فيها من جديد أن يكون تابعا وخادما مخلصا طول حياته للامبراطور الكسيوس ولأبنه يوحنا من بعده وأنه يعتبر نفسه حايفا للامبراطور وأنه قبل أن يحكم الأراضي التي تحت يديه، كوديعة من قبل الأمبراطور ، كما تعهد بوهمند أن يحترم حلفاؤه من بعده هذه المعاهدة ووافق على تنصيب بطاركة بيزنطيين أرثوذكس بدلا من البطاركة الكاثوليك (٥) .

---

(١) Anna Comnena, op. cit., p. 365

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٥ ص ١٦٥ .

(٣) William of Tyre, op. cit., I, pp. 417—2, Anna Comnena, op. cit., p. 416

(٤) Runciman, op. cit., I, pp. 50—51; Baynes and Moss, Byzantium, p. 30.

(٥) عن نصوص المعاهدة أنظر : Anna Comnena, op. cit., pp. 424—433.

وفى الواقع لقد كان الأمبراطور فى منتهى الحرص عندما وضع فى بنود هذه المعاهدة نصا يلغى الاتفاقيات الأولى ويجبر بوهمند على عهود جديدة لأنه كان يعلم أنه أخل بشروط الاتفاق لعدم زحفه بنفسه مع القوات الصليبية، وهى النقطة التى كان يتذرع بها الصليبيون فى رفض أحقيته فى البلدان التى فتحوها وكانت ملكا للأمبراطورية البيزنطية من قبل ، فأراد أن يقطع خط الرجعة على الصليبيين بهذا البند الذى صيغ بمنتهى الحكمة ، يضاف إلى ذلك أن الامبراطور أمن لأولاده من بعده ملكية المدينة ، والأهم الذى نود أن نوضحه فى هذا المكان ونحن بصدد نصوص المعاهدة أن إدعاء بيزنطة فى ملكية أنطاكية بعد ذلك أصبح مرجعه إلى معاهدة ديفول وليس إلى إتفاقيات القسطنطينية الأولى التى قطعها القادة الصليبيون على أنفسهم ، لأن معاهدة ديفول حلت محل العهد الذى قطعه بوهمند على نفسه عام ١٠٩٧ م (١) .

ولم يعش بوهمند طويلا فقد مات فى عام ١١١١ م بعد صراع مرير مع الامبراطور الكسيوس وحياة حافلة بالكره العميق للبيزنطيين جميعا (٢) فهو الذى قال «أنى أخشى البيزنطيين حتى وهم يقدمون الهدايا» مات بعد أن أحرز عليه الامبراطور الكسيوس نصرا إسميا بينما أحرز هو نصرا فعليا. وقد خلف بوهمند وراءه طفلا فى حوالى الثانية عشرة من عمره فتولى أمر الوصاية عليه تنكرد (٣). ولم يكن تانكرد أقل عداء لبيزنطة من بوهمند فشق عصا الطاعة على الأمبراطور وأعلن رفضه لأحقية الأمبراطور فى أنطاكية ، وبادر الكسيوس وأرسل سفارة اليه تبلغه أن الامبراطور لن يسكت على هذا الأمر ولكن تانكرد لم يلق.

---

(١) La Monte, J., To what Extent the Byzantine Empire the Suzerain of the latin Crusading States ? Cf., Byzantion Vol. VII, 1932, p. 254.

(٢) Diehl, C., Byzantum; Greatness & Decline . p. 218.

(٣) William of Tyre, op. cit., I, p. 471—2.

بالا لتهديد الأمبراطور ، وعندما عادت السفارة إلى القسطنطينية وأعلمت الامبراطور بما انتهى اليه الأمر قرر إرسال سفارة أخرى إلى الأراضى المقدسة بهدف ضم القادة الصليبيين الآخرين إلى جانبه ضد تانكرد، واستعان فى ذلك ببذل المال والعطاء، ولكن مثل هذه الدعاية لم تلق آذانا صاغية (١) . وعادت السفارة إلى العاصمة فى الوقت الذى كان فيه الأمبراطور مشغولا بالصراع ضد الأتراك السلاجقة وضد البنادقة والبيازنة (٢) . كما أن تانكرد ما لبث أن مات فى عام ١١١٢ م بعد أن أوصى وهو على فراش الموت لابن عمه روجر Roger بالوصاية على ابن بوهمند حتى يبلغ سن الرشد (٣) .

ويبدو أن الكسيوس أيقن أن استعمال القوة لضم أنطاكية تحت حكمه بشكل مباشر أصبح أمراً غير مجديا، فبعد أن فرغ من مشاكله بدأ يتحول إلى طريقة أخرى لضم أنطاكية وذلك عن طريق الزواج السياسى، ولكن موته حال دون القيام بمثل هذا العمل ، وحاول يوحنا من بعده القيام بمثل هذا التصاهر فأرسل مبعوثا إلى روجر حاكم أنطاكية . ولما كان روجر مشغولا فى هذا الوقت بقتال المسلمين فأصطحب معه المبعوث البيزنطى (٤) ، ولكن روجر لقى مصرعه فى معركة البلاط ٥١٣ هـ/١١١٩ م كما «أسر رسول ملك الروم» (٥) ، فتأخر الشروع فى العمل على التصاهر المقترح لبعض الوقت حتى أفرج عن المبعوث البيزنطى الذى توجه إلى بلدوين الثانى Baldwin II ملك بيت

---

(١) Anna Comnena, op. cit., pp. 438—444.

(٢) Finlay, op. cit., III, p. 125.

(٣) William of Tyre, Ibid.

(٤) Cahen, op. cit., p. 281.

(٥) ابن العديم : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٩٣ ، أنظر أيضا ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

المقدس (١١١٨ — ١١٣١ م / ٥١١ — ٥٢٥ هـ) الذى رحب بالفكرة وعرض على المبعوث زواج احدى كريماته من أحد الأمراء البيزنطيين . وعاد المبعوث إلى بيزنطة بعد أن تخلف لبعض الوقت فى قبرص (١) ، ولكن هذا المشروع لم ير النور لأن الامبراطور كان يرى أن يتم الزواج من ابنه روجر نيؤكد سيطرته على أنطاكية وهى ما يعنيه وليس من احدى بنات بلدوين .

تولى بلدوين الثانى أمر الوصاية على أنطاكية بعد مقتل روجر . وفى عام ١١٢٦ م / ٥٢٠ هـ وصل بوهمند الثانى إلى أنطاكية ثم تزوج من اليس Alice ابنة بالدوين الثانى فى العام التالى ولكنه لم يحكم طويلا ، فقد قتل أثناء قتاله مع المسلمين عام ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م وترك ابنته الصغيرة كونستانس Constance وريثة للعرش ، ولما كانت والدتها اليس ترى أن تكون زمام أمور أنطاكية فى أيديها فقد دخلت فى صراع مع والدها الذى مات فى العام التالى ومع فولك الانجوى Fulk of Anjou ملك مملكة بيت المقدس (١١٣١—١١٤٤ م ٥٢٦ — ٥٣٨ هـ) من بعده ، وعندما حاول فولك تزويج ابنتها كونستانس من ريموند أف بواتيه (٢)—أحد أبناء وليم التاسع دوق أكوتين Aquitaine (٣) سارعت بالاتصال بالامبراطور يوحنا وعرضت عليه زواج ابنتها من ابنه مانويل وهو ما كان يتمناه الأمبراطور البيزنطى (٤) ، ولكن فولك عندما علم بذلك أسرع باستقدام ريموند وتمكن من اقناع اليس بأفضلية هذا الزوج الذى تم فى عام ١١٣٦ م (٥) . وقد أشتد غضب يوحنا لذلك ، وأعتبر أن

(١) Chalandon, op. cit., p. 120.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 59.

(٣) يطلق عليه بعض المؤرخين لقب هرقل أنطاكية نظرا لقوته أنظر :

King, The Knights Hospitallers in the Holy land, p. 43 n.1.

(٤) Stevenson, W.B., The Crusaders in The East, p. 139.

(٥) Joseph ben Joshua, I, p. 103.

زواج الأميرة القاصرة كونستانس دون استشارته فيه انتهاكا صريحا من قبل الصليبيين لسيادته على أنطاكية ، وأخذ يعد العدة لاحقاق الحق البيزنطي فى أنطاكية بقوة السلاح (١) .

وقد شجع يوحنا على الاستعداد فى هذه الفترة أن الامارات الصليبية كانت تمر بمرحلة دقيقة ، فقد مات بوهمند ١١٣٠ م وبلدوين الثانى وجوسلين الأول دى كورتناى Joscelin I de Courtenay كونت الرها عام ١١٣١ م / ٥٢٥ هـ ، وزادت الانقسامات والخلافات التى نشبت بين الصليبيين الأمر الذى شجع عماد الدين زنكى لمهاجمة الممتلكات الصليبية وانزال الهزيمة بها الواحدة تلو الأخرى ، وهاجم المسلمون اللاذقية عام ٥٣٠ هـ / ١١٣٦ م وعادوا محملين بالأسرى والغنائم وكانت «نكبة ما منى الافرنج الشماليون بمثلها» ، يضاف إلى ذلك هزيمة أخرى حلت بالصليبيين عند قلعة الحجاج ومقتل بونز Pons أمير طرابلس فى مارس عام ١١٣٧ م (٢) . وكان من نتيجة الكوارث والهزائم التى أنزلها المسلمون بالصليبيين أنهم «أرسلوا إلى ملك القسطنطينية يستصرخون به ويعرفونه ما فعله زنكى بهم ويحثونه على لحاق البلاد قبل أن تملك ولا ينفعه حينئذ المجيء» (٣) ، وأخيرا ما كان يرمى إليه من اخضاع ثوروس الأرمينى لسلطاته .

وفى صيف عام ١١٣٧ م تقريبا إستعد يوحنا بجيش كبير وعبر أرمينية واتجه نحو أنطاكية وعسكر على ضفاف نهر الأورنت وشرع فى حصار

---

(1) Brehier, op. cit., p. 324.

(٢) عن هذه الأحداث أنظر : ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٢٥٥ — ٢٥٦ ، راجع أيضا : William of Tyre, op. cit., II 82.

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٥٣ ، أنظر أيضا العينى : عقد الجمان جـ ١٦ لوحة ٩٤ .

المدينة (١) وقد ساعد يوحنا فى القاء الحصار على المدينة دون مشقة خروج ريموند أف بواتيه أمير أنطاكية — رغم علمه بقدوم يوحنا وقواته — للعمل على انقاذ الملك فولك الانجوى الذى كان عماد الدين زنكى يحاصره عند قلعة بعرين (٢) فى هذا الوقت (٣) ، وربما يكون ريموند قد قصد مساعدة فولك ضد المسلمين وفك الحصار المضروب على الحصن وبداخله فولك حتى يساعد فولك بدوره ضد الامبراطور البيزنطى . والمهم أن ما قام به يوحنا من حصار أنطاكية قد أزعج الصليبيين جميعا فى بعرين فخضعوا لشروط عماد الدين وسلموا الحصن (٤) ، وعند عودة ريموند إلى أنطاكية ليتولى أمرها . وجد القوات البيزنطة تضرب الحصار حول المدينة وتقذفها بالمجانيق (٥) فى محاولة لدخول المدينة (٦) ، وقد نجح ريموند فى دخول المدينة بعد أن كاد يقع أسيرا فى قبضة البيزنطيين (٧) .

والواقع أن ريموند كان أضعف من أن يدخل فى معركة عسكرية مع القوات البيزنطة خاصة أنه عاد بمفرده دون بقية الزعماء الآخرين وقواتهم .

---

(١) Cinnamus, op. cit., p. 18 ; William of Tyre, op. cit., II, p. 92.

(٢) بعرين أوبارين : تقع بين حلب وحماه جهة الغرب أو بين حمص والساحل ويسميه نحوه بعرين . أنظر : ياقوت الحمرى : معجم البلدان جـ ١ ص ٦٧٢ .

(٣) القلانسى : المصدر السابق ص ٢٥٩ .

(٤) ابن العديم : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٦١ — ٢٦٣ .

(٥) المنجانيق : كلمة فارسية ، وهى عبارة عن آلة من الخشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه طويل وذنبه خفيف وفيه تجعل كفة المنجانيق التى توضع فيها الحجر يجذب حتى ترفع أسافله إلى أعاليه ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج الحجر منه ،عن ذلك المزيد من التفاصيل أنظر : القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٢ ص ١٣٦ ، الحسن بن عبد الله : آثار الأول ص ١٩٤ .

(٦) William of Tyre, op. cit., II, p. 92.

(٧) Cinnamus, op. cit., p. 17.

فبدأ على الفور فى ارسال مبعوثه للتفاوض مع الأمبراطور والجنوح إلى السلم بدلا من الحرب ، وقد نجحت المفاوضات وانتهى الأمر بأن توجه ريموند إلى معسكر الأمبراطور وأدى له يمين الولاء والطاعة وتعهد بوضع المدينة وقلعتها تحت إمرة الامبراطور وأن له أن يدخلهما فى أى وقت يشاء إن سلما أم حربا (١) وقد ارتضى يوحنا بهذه التسوية السلمية وأحس أنه أدرك بعض النجاح بعد ما أحرزه من قبل فى أرمينية . ومن الواضح أن يوحنا قدم بقواته لثلاث مهام ، اخضاع أرمينية وتأديب الصليبيين ثم مساعدتهم ضد المسلمين بعد ما استنجدوا به ، وبعد أن فرغ يوحنا من اخضاع ثوروس وريموند بدأ يعمل مع الصليبيين على مهاجمة المسلمين ، وهذا ما يتضح لنا من المفاوضات التى تمت بين يوحنا وريموند والتى اقترح فيها ريموند على الأمبراطور أنه فى حالة استيلاء الأخير على حلب أو شيزر أو حماه فعلى ريموند أن يتسلمها ليحكمها ويرد له أنطاكية ، ووافق يوحنا على هذا الاقتراح عن طيب خاطر وتعهد لريموند وأولاده من بعده فى ملكية هذه الأراضى المزمع فتحها (٢) واستراح يوحنا لهذا العرض الذى يضمن له عودة أنطاكية إلى ملكية الامبراطورية البيزنطية، وهو ما عمل من أجله هو وأبيه منذ حوالى نصف قرن ، وخطط يوحنا وريموند للقيام بهذا العمل فى الصيف القادم ، وبعد هذه الاتفاقيات رفعت الأعلام البيزنطية على أبراج قلعة أنطاكية (٣) ، ثم ما لبث الامبراطور أن عاد إلى قيليقية ليقضى الشتاء ويكمل اخضاع ثوروس .

وعندما حل ربيع عام ١١٣٨ م / ٥٣٢ هـ كان يوحنا قد انتهى من أمر

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 93; Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 106.

(٢) William of Tyre, Ibid.

(٣) Nictas, op. cit., p. 36.

ثوروس وأرسل إلى ريموند أمير أنطاكية وجوسلين الثانى أمير الرها (١١٣١ ١١٥٠ م / ٥٢٥ — ٥٤٥ هـ) يطالبهم باعلان التعبئة العامة واعداد آلات القتال والاستعداد لقتال المسلمين (١) ؛ ومن الطبيعى أن يطالب يوحنا ريموند بالاستعداد للقتال بحكم الاتفاقية، اما وأن يطالب جوسلين بالاستعداد فهو أمر له دلالته ويوضح مدى أطماع يوحنا ليس فى ملكية أنطاكية فحسب . بل يشير أيضا إلى أى حد كان يوحنا يعتبر امارة الرها من ضمن أملاكه . وربما يرجع تصرف يوحنا فى هذا الوقت بالذات وبهذه الصورة إلى ما أحس به من نشوة النصر بعد اخضاع ثوروس وارساله أسيرا إلى العاصمة البيزنطية . واحساسه أيضا بأن الطريق أصبح مفتوحا أمامه إلى الشام دون عوائق بعد اخضاع أرمينية تماما للسيادة البيزنطية .

نزل يوحنا بقواته من الشمال وتجمعت القوات البيزنطية وعلى رأسها يوحنا وقوات الرها وأنطاكية وعلى رأسهم جوسلين وريموند وهاجموا حلب ومن بعدها بزاعه والاثارب وشيزر (٢) وهذا ما سنوضحه فى المبحث الثالث من هذا الفصل ، والمهم أن هذه الأعمال العسكرية باءت بالفشل وانتهى الأمر بأن رفع يوحنا الحصار عن شيزر وعاد إلى أنطاكية . ويرجع سبب انسحاب الأمبراطور إلى عدة أسباب، بعضها مرجعه إلى المسلمين والبعض الآخر إلى الصليبيين ، ويهمنا فى هذا المقام أن نذكر منها موقف الصليبيين من الأعمال العسكرية التى قادها الامبراطور يوحنا ضد المسلمين . فبينما نجد الأمبراطور البيزنطى يقود العمليات العسكرية بكل حماس وشجاعة نلاحظ فتور وعدم

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 92.

(٢) Martin, Abb, les Premiers Princes de Croises, Cf., J.A., 1889, p. 77.
أبو الندا : المختصر فى تاريخ البشر جـ ٣ ص ١٣ .

اكتراث ريموند وجوسلين بأعمال القتال ، وليس ذلك فحسب بل أنهما جلسا يلعبان النرد ولا يلقيان بالا بالامبراطور الذى أرسل اليهما عدة مرات يحثهما على اللحاق به والقتال إلى جانبه ،ولكنهمالم يستجيبا لندائه الأمر الذى دفع المؤرخين لالقاء اللائمة عليهما (١) . وعلى ذلك يمكننا القول أن موقف ريموند السلبى بصفة خاصة يرجع إلى أنه لم يكن راغبا إطلاقا فى انجاح عمليات يوحنا العسكرية فى الأراضى الاسلامية واستيلائه عليها حتى لا يتسلمهابدوره حسب أتفاق عام ١١٣٧ م،ويسلم إنطاكية للامبراطور ، وربما يكون أبعد نظرا من ذلك ورأى أن المسلمين لن يتركوه سالما فى ملكه الجديد بعد عودة الامبراطور إلى بلاده وأنه سيتعرض لهجمات اسلامية لا طاقة له بها وأنه سيفقد ملكه المقترح لا محالة ويرجع بخفى حنين .

ومهما يكن من أمر فقد غضب يوحنا من تصرفات ريموند وجوسلين ولم يستمر فى قتال المسلمين وأدخر قواته وإتجه إلى أنطاكية ودخلها طبقا لاتفاق عام ١١٣٧ م فى موكب مهيب وأقام فى قلعتها وتصرف فى المدينة كما لو كان صاحبها وأسبغ هداياه على الجميع وطالب باستلام البلاد طبقاً للاتفاق المعقود مع ريموند حسبما تشير بذلك الحوليات المعاصرة ، وليس إلى معاهدة ديفول التى لم تذكر فى هذا الوقت ، سواء فى المصادر البيزنطيةأو الصليبية(٢). ومن ذلك يتضح أن اتفاق بوهمند الأول أثناء مروره عبر آسيا الصغرى مع الامبراطور الكسيوس قد ألغاه اتفاق معاهدة ديفول بين بوهمند والكسيوس وأنه إذا كان يوحنا طالب حتى عام ١١٣٧ بملكية أنطاكية بموجب معاهدة

(١) William of Tyre, op. cit., II, pp. 95—6; Vitry, History of Jerusalem, p. 24; Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 107.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 97, Cinnamus, op. cit., 19; See Also, Otto of Freising, op. cit., p. 473.

ديفول ، فان اتفاق ١١٣٧ م قد حل محل معاهدة ديفول وأصبح الأساس الذى يطالب يوحنا بموجبه ملكية المدينة (١) .

وهكذا تأزم الموقف بين يوحنا وبين ريموند خاصة وأن الامبراطور طالب أن يتم تسليم المدينة فى حضوره ، وهنا تدخل جوسلين كونت الرها وأشار إلى أن مثل هذا الأمر يتطلب الرجوع فيه إلى النبلاء الصليبيين فى المدينة . فوافق الأمبراطور على ذلك وترك جوسلين للاتصال بهم ، فى الوقت الذى احتجز فيه إلى جواره ريموند شبه أسير (٢) . وكان فى ذلك فرصة وكسبا للوقت الذى استغله جوسلين وتمكن من اثارة أهالى المدينة ضد الامبراطور وطلباته ، وقاموا بثورة عارمة حملوا فيها السلاح ودارت مجزرة رهيبة بين القوات الصليبية والقوات البيزنطية التى كانت بداخل أنطاكية وضرد الصليبيون البيزنطيين إلى حيث يقيم الامبراطور ومعه ريموند ، وقد انزعج يوحنا لهذه الأحداث واستدعى ريموند والنبلاء وأبلغهم أنه عدل عن استلام المدينة وطلب منهم العمل على تهدئة الصليبيين . وترك الأمور على ما هى عليه ووعد بالرحيل عن المدينة فى اليوم التالى . وهكذا أضطر يوحنا للرحيل والجلاء عن أنطاكية بقلب جريح فى الوقت الذى ظن فيه أنه أصبح سيدا للمدينة . (٣)

ولم يكن يوحنا هو الرجل الذى تخدعه مثل هذه التمثيلية ، وفى الوقت نفسه أحس ريموند وجوسلين بغضب الامبراطور فقاموا بتمثيلية أخرى وأرسلوا مندوبين عنهما إلى الامبراطور الذى كان لايزال معسكره مضروبا حول أسوار المدينة وقدموا له ولاء الأمير ريموند ورغبته فى تسليم المدينة

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ط ص ٥٩١ .

(٢) William of Tyre, op. cit., II, pp. 100—101.

(٣) Brehier, op. cit., p. 325.

والقلعة، ولكن يوحنا — رغل كل ما حدث — لم يكن راغبا فى اعلان القطيعة بينه وبين الصليبيين لذلك قبل يوحنا العرض المقدم منهم ولكنه اعتذر عن دخول المدينة وتعلل ببعض الأمور الداخلية فى الأمبراطورية ، وعاد إلى بلاده بعد أن أصبحت مسألة أنطاكية شغله الشاغل . وقد حانت له الفرصة مرة أخرى على أثر رسالة عاجلة أتت اليه من ريموند وشعب أنطاكية تطالبه بالحضور إلى المدينة (١) . وربما ترجع أسباب استدعاء الامبراطور إلى الهزيمة التى أنزلتها قوات زنكى بقوات أنطاكية على ضفاف نهر العاصى فى عام ٥٣٦ هـ / ١١٤٢ م (٢) ، أما المؤرخ البيزنطى نيكتاس فيشير إلى أن يوحنا قد تحرك من تلقاء نفسه إلى أنطاكية لاخضاعها لنفوذه وأن ظهوره فى الشام كان مفاجأة للصليبيين (٣) ولكن الأحداث التالية تشير بوضوح إلى أن استدعاء يوحنا كان بسبب مساعدتهم ضد المسلمين .

على أية حال فقد سار يوحنا على رأس قوات ضخمة إلى الجنوب فى العام نفسه وعطف على تل باشر — وكانت تتبع أمير الرها فى ذلك الوقت — فاندهش جوسلين لوصول مثل هذه القوات وطلب الأمبراطور منه بعض الرهائن ، فاضطر جوسلين إلى ارسال أبنته ايزابيلا Isabella ، وأتجه يوحنا بعد ذلك وعسكر عند قلعة بغراس Gaston الواقعة شمال أنطاكية والتى كان يسيطر عليها الفرسان الداوية ، ومن هناك أرسل إلى ريموند أمير أنطاكية يطالبه بتسليم المدينة لاتخاذها قاعدة عسكرية لقواته حتى يتمكن من مهاجمة المدن

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, pp. 102, 123; Campbell, The Crusades, p. 176.

(٢) ابن العديم : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٧٦ ، أبوشامة : الروضتين جـ ١ ص ٣٤ .

(٣) Nicetas, op. cit., p. 52.

المجاورة التابعة للمسلمين (١) . ووجد ريموند نفسه فى حرج شديد وراوغ مرة أخرى واستدعى كبار النبلاء ورجال الدين الذين قرروا فى النهاية عدم الموافقة على طلب الأمبراطور ، وعندما أبلغ السفراء هذا القرار إلى يوحنا غضب ، ولكنه كان يتوقع مثل هذا الرفض فهو أمر له سوابقه فى العلاقات الصليبية البيزنطية ، كما أن دخول المدينة وهى ثائرة من طلبات الامبراطور أصبح من الصعب تحقيقه(٢) ، لذلك فضل يوحنا الانسحاب المؤقت وارجاء عملياته العسكرية حتى ينتهى شتاء عام ١١٤٢ م وحلول فصل الربيع فى العام التالى (٣) .

وإن كان هذا هو موقف ريموند أمير أنطاكية من الأمبراطور فان يوحنا رأى أن يسبر أغوار فولك ملك مملكة بيت المقدس (٤) هذا من جانب . ومن جانب آخر فان يوحنا حاول أن يتظاهر بالود إلى الجانب الصليبى . لذلك نجده يقوم بارسال سفارة على مستوى عال من النبلاء البيزنطيين إلى الملك فولك ليعلن رغبته فى زيارة الأراضى المقدسة وتقديم المساعدة العسكرية للملك ضد المسلمين (٥) ، ورغم أن المسلمين كانوا قد أنزلوا هزيمة قاسية بقوات فولك عند عسقلان عام ٥٣٥ هـ / ١١٤١ م (٦) ، فان الملك لم يكن راغب على

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 124.
وتدل هذه العبارة أن الغرض من استدعاء يوحنا هذه المرة هو مساعدة ريموند فى محاربة المسلمين . أنظر :
Archer & Kingsford, The Crusades, p. 192.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, pp. 124—125.

(٣) A.S.C., P. 276 see also, Strogorskey, op. cit., p. 337;

(٤) Michaud, History of the Crusades., I, p. 313; Ludlow, The Age of the Crusades, p. 152.

(٥) William of Tyre, op. cit., II, p. 126.

(٦) ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٢٧٣ .

الاطلاق فى قدوم القوات البيزنطية إلى أراضيه ، لذلك أرسل إلىالامبرطوار انسلم Anselm أسقف بيت لحم ومعه رسالة فحواها أن مملكة بيت المقدس ذات موارد محدودة ولا يمكنها تموين الجيش البيزنطى الكبير وأنه يخشى من حدوث مجاعة بالبلاد ، وأشار أنه يرحب بقدوم الأمبراطور ومعه عشرة آلاف من رجاله فقط لزيارة الأراضى المقدسة (١) ، ومن هذه المراوغة نسطيع القول أن يوحنا تأكد من موقف فولك تجاه الأمبراطورية البيزنطية وأنه غير راض عن وجود القوات البيزنطية فى الشام وعن امتلاك يوحنا لأنطاكية أيضا . وشعر الامبراطور بخيبة أمل كبيرة من موقف ريموندوفولك وخطط لقضاء الربيع فى قيليقية كعادته والعودة مرة أخرى فى الربيع التالى لتأديب الصليبين ولكنه مات هناك فى الوقت الذى أصبح فيه الصراع سافرا بين البيزنطين والصليبيين (٢) ، دون أن يحقق غرضه الكبير الذى غادر من أجله العاصمة هذه المرة وهو اقامة امارة لأبنه المفضل مانويل تضم أرمينيا وأنطاكية وقبرص (٣) أو يضم حتى أنطاكية وهو العمل الذى جاهد طويلا من أجل تحقيقه (٤) .

تعرضنا فى المباحث السابقة للعلاقات بين بيزنطة والسلاجقة والأرمن والصليبين ، ونتناول فى هذا المبحث العلاقات بين بيزنطة والدول والامارات الاسلامية فى مصر والشام . وفى الواقع لقد كان الصراع بين بيزنطة والدولة الفاطمية ملموسا عندما كانت حدود الدولتين متاخمة ، فاذا تتبعنا العلاقات

---

(١) William of Tyre, Ibid.

(٢) Setton, A history of The Crusades, I, p. 530.

(٣) Cinnamus, op. cit., p. 23.

(٤) Odo of Deuil, op. cit., p. 71; Conder, The latin Kingdom of Jerusalem, p. 99.

بين بيزنطة ومصر نجد أنه فى عهد الحاكم ٣٨٦ — ٤١١ هـ / ٩٩٧ — ١٠٢١ م حيث كانت مدينة بيت المقدس فى حوزة مصر ، نلاحظ أن أباطرة بيزنطة كانوا لا يجرؤن على زيارة الأراضى المقدسةعلانية ،ولكن الخليفة الفاطمى الحاكم — رغم ما عرف عنه بالشذوذ أرسل إلى الامبراطور البيزنطى يقول «كن آمنا فان أقصدك بسوء» ولكن الحاكم ما لبث أن خرب المدينة عام ٣٩٨ هـ / ١٠٠٩ م ، وقد ظلت خربه أكثر من ربع قرن من الزمان (١) . وفى عام ١٠٣٧ م / ٤٢٩ هـ ،قامتبيزنطة بارسال كثير من الهدايا وطلبت الصلح والشفاعة واطلاق سراح خمسة آلاف أسير من جانبها مقابل أن يؤذن لها باصلاح كنيسة القيامة (٢) . وهذا يوضح لنا مدى قوة الدولة الفاطمية فى هذه الفترة لدرجة أن الامبراطورية البيزنطية كانت تخطب ودها . ويبدو أن هذه العلاقة الودية ظلت فترة من الزمان حتى أنه تم الاتفاق مع بيزنطة على امداد مصر بالغلال عندما وقعت بها المجاعة (٣) ، وعلى طلب بيزنطة مساعدة مصر إذ تعرضت أراضيها للهجوم من جانب أعدائها . ولكن هذه العلاقات توترت بعد ذلك ودار بعض المعارك البرية والبحرية بين الطرفين كان النصر فيها لبيزنطة . وانتهى الأمر بتجديد الهدنة بين الطرفين عام ٤٣٩ ١٠٤٧ م ، وتبودلت الهدايا بينهما ، ولكن محاولة الامبراطورية البيزنطية التقرب إلى السلاجقة على حساب الدولة الفاطمية أفسد العلاقات بعد ذلك (٤)

---

(١) ناصر خسرو : سفر نامة ص٣٦ .

(٢) أبو الفداء : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٧٠ .

(٣) ابن ميسر : أخبار مصر جـ ٢ ص ٦ — ٧ .

(٤) أبو الفدا : المصدر السابق ص ١٦٧ ، عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر — التاريخ السياسى — ص ١٥٢ — ١٥٣ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام جـ ٤ ص ٢٣٥ .

كما أن تحرك السلاجقة وما تبعه من تغير فى الحدود السياسية بين الدولتين كان له أثره الواضح فى العلاقات البيزنطية الفاطمية ، فظهور السلاجقة وتقدمهم فى الأراضى البيزنطية وفى الشام واستقرارهم فى هذه البقاع أصبح يمثل مناطق حاجزة بين الحدود البيزنطية والفاطمية ، بذلك زال الصدام المباشر بينهما وانشغلت كل من بيزنطة ومصر بالصراع ضد التقدم السلجوقى وظل هذا الوضع قائما حتى قدوم الحملة الصليبية الأولى التى غيرت من موازين القوى فى منطقة الشرق الأدنى الاسلامى (١) . وحاولت بيزنطة الاستفادة من القوى الجديدة التى ظهرت فى المنطقة ولكن هذا التقارب الظاهرى ما لبث أن تكشف وأصبح العداء واضحا بين بيزنطة والصليبيين يساندهم الغرب الأوربى . والذى نود أن نوضحه هنا أن العلاقات بين مصر وبيزنطة لم تكن علاقات مباشرة وانما علاقات يحكمها العداء أو الصفاء الذى يسرد الجسو البيزنطى الصلبى من ناحية والصليبى والاسلامى من ناحية أخرى .

ومن ذلك ما رواه المؤرخ تودبودوس أن الامبراطور البيزنطى الكسيوس قد أشار على الصليبيين بالعمل على التحالف مع الدولة الفاطمية فى مصر ، وأنهم فعلا أرسلوا مبعوثين إلى مصر عندما كانوا يحاصرون مدينة نيقية (٢) ولعل ما دفع الأمبراطور إلى اسداء هذه النصيحة — أن صحت هذه الرواية — هو علمه بالانقسام الذى يسود العالم الاسلامى فى هذه الفترة خاصة بين حكام مصر الشيعيين وحكام الشام السنيين ، وأن فى هذا التحالف ولاشك ضربة للسلاجقة الذين أراد الامبراطور بهذه النصيحة أن يطعنهم من الخلف . وفى

---

(١) جوزيف نسيم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة ص ١٢ — ١٣ .

(٢) Tudebodus, Historia Peregrinsrum, Cf., R.H.C. Occ. Vol III, p. 181.

الواقع لا تمدنا المصادر التى تحت أيدينا بالمزيد عن مشروع التحالف مع الدولة الفاطمية الا أنه يمكن أن نستنتج أن الكسيوس تناول الأوضاع السياسية فى آسيا الصغرى ومنطقة الشرق الأدنى الاسلامى مع القادة الصليبين وقد ظهر فى حديثه ولاشك عدائه الصريح للسلاجقة بخلاف الحال مع الدولة الفاطمية الأمر الذى اعتبره القادة ومنهم بوهمند أن الامبراطور متعاطف مع الدولة الفاطمية. ولذلك عندما قامت الدولة الفاطمية بالتحرك العسكرى ضد الصليبين فى جنوب الشام ، أعتبر بوهمند أن ذلك ناتج عن اتصال الامبراطور البيزنطى بالدولة الفاطمية وهو الذى جعل المؤرخ رينه جروسيه يؤكد هذا الاتصال الأمر الذى دفع بوهمند إلى اعتباره غدرا بهم من قبل الأمبراطور . ولما كان بوهمند يتحين الفرص للتنصل من الوعد الذى قطعه على نفسه . لذلك قام بوهمند على الفور بعزل البطريق الارثوذكى البيزنطى يوحنا الرابع وتعيين البطريك الكاثوليكى برنارد أف فالنس Bernad of Valence أسقف مدينة ارتاح بدلا منه (١) ، وانساق رانسمان وراء هذه الدعاية التى روج لها الصليبيون لتكون ذريعة لهم فى عدم الوفاء بعهدهم قبل بيزنطة وأشار إلى وجود مثل هذه الاتصالات ، وليس ذلك فحسب بل أضاف أن خطابات الكسيوس قد وقعت فى يد الصليبيين ، ولكنه ذكر أيضا أن الفاطميين كتبوا إلى الامبراطور الكسيوس يستفسرون منه عن ابعاد الغزو الجديد وهو الحركة الصليبية ومدى موقفه من هذه الحركة ولكن الامبراطور نفى صلته بالصليبين (٢) وهنا نود أن نشير إلى ملاحظة هامة وهى اذا كان هناك اتصال حقا بين مصر وبيزنطة بشأن الصليبيين ، فلماذا تقوم مصر بالاتصال بالامبراطور

---

(١) Grousset, Histoire des Croisades, I, p. 114.

(٢) Runciman, op. cit., I, pp. 272—3.

البيزنطى الكسيوس للاستفسار عن أبعاد الحركة الصليبية ومدى اتصاله بهذه الحركة ؟ . وإن كان هذا ما رواه المؤرخون الغربيون ، فان المؤرخة البيزنطية انا كونينا مؤرخة هذه الفترة قد صمتت حول هذا الاتصال الأمر الذى يجعل الباحث لا يقطع برأى حول هذا الموضوع . ولكن أنا كومنينا أشارت فى موضع آخر تعاطف والدها الامبراطور الكسيوس مع القائد الصليبى وليم جوردان William Jordan ابن خالة ريموند كونت تولوز ، فعندما كان وليم يقوم بحصار طرابلس ، وهى المدينة التى كان الفاطميون يحاولون استعادتها لسلطانهم ، نجد الامبراطور البيزنطى يكتب إلى حاكم قبرص البيزنطى يوماثيوس فيلوكالس Eumathuis Philocales يطلب منه ارسال أحد رجاله وهو نيكتاس شالينتز Nicetas Chalintze ومعه مبلغ كبير من المال لمساعدة وليم فى حصار طرابلس ، وامداده أيضا بالسفن الحربية اللازمة (١) . حقيقة أن فخر الملك بن عمار لم يكن راغبا فى السيادة الفاطمية واستبسل فى الدفاع عن المدينة وتمكن من أسر احدى السفن البيزنطية واقتادها إلى ميناء طرابلس (٢) ، ولكنه عندما غادر المدينة إلى دمشق لطلب النجدة ، أرسل أهل طرابلس إلى الوزير الفاطمى الأفضل يلتمسون منه المساعدة ، ولكن هذه المساعدة وصلت بعد فوات الأوان وسقطت المدينة فى أيدى الصليبيين (٣) . ومن هذه الرواية يتضح مساعدة البيزنطيين للصليبيين فى الاستيلاء على مدينة طرابلس ، حسب الروايات البيزنطية والاسلامية فى الوقت

---

(١) Anna Comnena, op. cit., pp. 357, 441.

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤١٢ .

(٣) ابن القلانسى : المصدر السابق ص ١٦٠ — ١٦٣ ، أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٥ ص ١٧٠ .

التى صمتت فيه المصادر الصليبية عن امدادنا بأية معلومات حول هذه المساعدة البيزنطية ، ومن ذلك يتضح لنا إلى أى مدى حاولت المصادر الصليبية اتهام الامبراطور الكسيوس بالخيانة والغدر بهم ليكونوا فى حل من الوعود التى قطعوها على أنفسهم وينفردوا بحكم الامارات الصليبية .

ولم تمدنا المصادر المتاحة لنا بعد سقوط طرابلس عام ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م. بالمزيد من التفاصيل حول العلاقات البيزنطية الفاطمية سواء أكانت هذه العلاقات مباشرة أو غير مباشرة ، فالامبراطورية البيزنطية قد شغلها الصراع مع السلاجقة والأرمن والصليبيين فى الجانب الشرقى بالاضافة إلى صراعها مع الغرب ، وفى الوقت نفسه نجد الخلافة الفاطمية بدأت تمر بمرحلة من التدهور لم تلبث بعدها طويلا .

أما عن العلاقات السياسية بين بيزنطة والحكام المسلمين فى الشام فان هذه العلاقات كان يؤثر فيها استنجاد الصليبيين بالامبراطورية البيزنطية لمساعدتهم ضد الخطر الاسلامى الذى كان يتهددهم من وقت لآخر ، وفى الواقع لم يكن الخطر الاسلامى ملموسا طالما وجدت الفرقة بين الحكام المسلمين فى الشام . ولكن هذا الخطر أصبح واضحا بظهور عماد الدين زنكى الذى ترتبط به حركة البعث الاسلامى فى هذه الفترة .

ويرجع عهد عماد الدين زنكى بالمنطقة عندما تولى حكم الموصل والجزيرة فى عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م ، وقد كان زنكى يؤمن بضرورة توحيد القوى الاسلامية فى الشام حتى يتمكن من مواجهة القوى الصليبية ، فبعد أن نظم أموره فى الموصل استولى على نصيبين من الاراقتة ، ثم إتجه إلى حران التى كانت دائما تحت رحمة الصليبيين وشبه محاصرة بهم ، بسبب تعرضها للهجمات

المتكررة من الرها وسروج والبيرة (١) ، ثم استولى فى العام التالى على حلب (٢) التى كانت عرضة للهجمات الصليبية من وقت لآخر ، كما دأن له أمراء بنى منقد فى شيزر بالولاء (٣) ، ومع نهاية عام ٥٣٢ هـ ١١٣٧ م كان عماد الدين يعمل على أمتلاك حمص . وبذلك تمكن من اخضاع شمال الشام لسلطانه فى الوقت الذى كان تاج الملوك بورى يحكم دمشق فى صراع مع عماد الدين ، والمهم أن عدم وفاق حاكم دمشق مع عماد الدين لم يكن عقبة فى سبيل تحقيق أهدافه ، فنى الوقت نفسه كان يعمل على توحيد الشام وكان فى صراع دائم مع الصليبيين . وقد أحس القادة الصليبيون بقوة عماد الدين زنكى خاصة عندما قامت اليس Alice ، أرملة بوهمند الثانى أمير أنطاكية وابنه الملك بلدوين الثانى ملك بيت المقدس فى عام ١١٣٠ م / ٥٢٤ هـ ، بمراسلة عماد الدين زنكى لمساعدتها فى الانفراد بحكم أنطاكية ومناصرتها على الأمراء الصليبيين فى تحقيق أهدافها (٤) ، ذلك مقابل الدخول فى طاعته (٥) .

ورغم عدم وصول الرسالة إلى عماد الدين زنكى الا أن مثل هذا الأمر يوضح لنا مدى ما كان لزنكى من نفوذ فى المنطقة ، وهو ما جعل بلدوين الثانى يسرع إلى أنطاكية عندما سمع هذه الأخبار السيئة حسب تعبير المؤرخ وليم الصورى ويدخل المدينة ويضعها تحت وصايته ، وقد ظل هذا الوضع

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ١ ص ٥٦٤ .
(٢) ابن العديم : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٤١ — ٢٤٢ .
(٣) ابن القلانسى ، المصدر السابق ص ٢٣٩ .
(٤) William of Tyre, op. cit., II, p. 44.
(٥) Runciman, op. cit., II, p. 183.

حتى مات بلدوين فى سنة ١١٣١ م ، وانتقلت الوصاية من بعده بعد صراع إلى فولك الانجوى ملك مملكة بيت المقدس أيضا (١) .

وإذا كانت الأميرة الأنطاكية أليس لم تنجح فى الاتصال بعماد الدين لمساندتها ووقوعها فى صراع مع والدها والنبلاء الآخرين بدلا من انفرادها بحكم أنطاكية ، فنجدها تلجأ إلى طريقة أخرى وهى الاتصال بالامبراطور البيزنطي يوحنا تعرض عليه زواج أبنتها الأميرة كونستاس من أبنه مانويل (٢) ولاشك أن مثل هذا العرض قد لقى قبولا حسنا من قبل الامبراطور . لأن ذلك يعنى دخول أنطاكية فى تبعية بيزنطة وهى ما تسعى اليه جاهدة منذ الحملة الأولى وهو الأمر الذى لا يقره بقية الزعماء الصليبيين ، لذلك سارعوا بتزويج كونستاس من ريموند أف بواتيه . وقد غضب يوحنا من هذا الزواج الذى تم دون استشارته باعتبار أنطاكية تابعة له من الناحية الاسمية وبذلك بات الصدام وشيكا بين يوحنا وريموند ونزل يوحنا إلى الشام بجيشه مهددا أنطاكية ولكن ريموند عمل على استرضاء يوحنا وقدم له يمين الولاء وتم الاتفاق بينهما وفى هذا الاتفاق تجلت أطماع الامبراطورية البيزنطية فى أملاك المسلمين بالشام وفى هذا الاتفاق أيضا تم تحالف بيزنطى صليبى ضد المسلمين بغرض الاستيلاء على حلب وشيزر وكل المناطق المجاورة لها لتكون ملكا للامبراطور البيزنطى الذى يقوم بدوره بتسليمها إلى ريموند أف بواتيه مقابل تسليم الأخير مدينة أنطاكية للأمبراطور وأتفقا على انجاز هذا العمل فى صيف العام التالى ١١٣٨ م (٣) ويبدو أن هذا الاتفاق قد تسربت أخباره إلى أهالى حلب الذين شرعوا

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, pp. 53—4.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ٥٤٣ .

(٣) أنظر ما سبق ص ٧٧ .

ن تحصين المدينة وحفر خنادقها ، كما أن الأمير سوار حاكم حلب من قبل عماد الدين قام بمهاجمة الجيش البيزنطى أثناء عودته من أنطاكية إلى أرمينية وظفر «بسرية وافرة العدد من عسكره ، فقتل وأسر ، ودخل بهم إلى حلب»(١) ورغم ما كان يضمره يوحنا من سوء النية وما كان يبيته من هجوم على حلب فى العام التالى، إلا أنه تظاهر بالود تجاه عماد الدين وأرسل اليه رسولا فأكرمه عماد الدين ورده «ومعه هدية إلى ملك الروم فهود وبزاه وصقور» مع حاجبه حسن ، وقد أخبر الأمبراطور البيزنطى يوحنا رسول عماد الدين بأنه ذاهب لقتال الأرمن (٢) ، وبهذه الطريقة أراد يوحنا خداع عماد الدين حتى يطمئن اليه .

ومن العوامل التى ساعدت على التقارب البيزنطى الصليبى فى هذه المرحلة أن عماد الدين حاصر قلعة بعرين عام ٥٣١ هـ / ١١٣٧ م ، وشدد الحصار على سكانها حتى أكلوا الدواب . «فدخلت القسوس والرهبان إلى بلاد الروم والافرنج مستنصرين على المسلمين» (٣) وربما يكون ذلك من الأسباب التى جعلت يوحنا يتفق مع ريموند لمحاربة المسلمين لا من أجل امتلاك أراضيهم ولكن من أجل ارضاء عامة الصليبيين بعد ما استنجدوا به وبعد احساسه بأنه حامى الممتلكات الصليبية فى الشام ، لذلك أتفق مع ريموند بأن يسلمه ما يفتحه من بلاد المسلمين مقابل الحصول على أنطاكية .

ومع بداية عام ٥٣٢ هـ / ١١٣٨ م ، قام الأمبراطور بارسال مبعوثيه إلى ريموند وجوسلين للاستعداد للقتال لتنفيذ اتفاق عام ١١٣٧ م ، وكان مما

---

(١) ابن العديم : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٦٣ .
(٢) العظيمى : المصدر السابق ص ٤١٣ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ٧٥ .

فعله الصليبيون حتى تسير عملياتهم فى سرية تامة أن قاموا بالقبض على «التجار بأنطاكية والسفار من هل حلب» (١) حتى لا تتسرب أنباء القتال والحشود العسكرية عن طريق هؤلاء التجار إلى القادة المسلمين (٢) . وفى أول أبريل ١١٣٨ م / ١٨ رجب ٥٣٢ هـ غادر يوحنا قيليقية فى الطريق إلى الشام حسب ما ذكره وليم الصورى ولكنه لم يشر إلى مكان تجمع القوات المتحالفة (٣) والواضح أن السرية التى أحاطت بها القوات المتحالفة تحركاتها العسكرية قد نجحت فقد «ظهر ملك الروم بغتة من طريق مدينة البلاط واتخذ طريقه إلى مدينة بزاعه التى حاصرتها القوات المتحالفة سبعة أيام حتى سلمت المدينة بالأمان ولكنهم غدروا بأهلها (٤) ، وأسروا ستة آلاف أو يزيد عن ذلك(٥) وعهد يوحنا بهؤلاء الأسرى إلى أحد القادة البيزنطيين ويدعى توماس Thomas (٦) كما سلم الامبراطور المدينة نفسها إلى جوسلين كونت الرها (٧) . وهنا نتساءل عن تسليم المدينة إلى جوسلين وليس إلى ريموند رغم وجوده فى أرض المعركة ، وفى الواقع لم يشر المؤرخ وليم الصورى ، المعاصر لتلك الأحداث ، عن حصار هذه المدينة مما يزيد المشكلة تعقيدا ، وربما نجد مخرجا لذلك إذا كان المؤرخ البيزنطى كيناموس قد خلط بين ريموند وجوسلين . وعلى أية حال فبعد الانتهاء من هذه الأعمال العسكرية اتجه المتحالفان إلى مدينة حلب ونصب الامبراطور خيمته عند نهر قويق وبدأ القتال يوم الثلاثاء ١١ شعبان

---

(١) ابن العديم : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٦٤ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ١ ص ٥٨٥ .

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 94.

(٤) العظيمى : المصدر السابق ص ٤١٤ .

(٥) ابن العديم : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٦٥ .

(٦) Nicetas, op. cit., pp. 36—7.

(٧) Cinnamus, op. cit., p. 19.

٥٣٢ هـ / ٢٤ أبريل ١١٣٨ م ، ولما كانت المدينة قد استعدت للقتال، فقد رفع يوحنا الحصار عنها بعد يوم واحد عندما تبين له حصانة المدينة (١) .

وفى اليوم التالى اتجهت القوات المتحالفة إلى الاثارب ومعهم أسرى بزاعه فانزعج أهالى مدينة الاثارب «واحرقوا خزائنها» (٢)، فأستولى المتحالفون على المدينة بعد انسحاب الحامية الاسلامية وأقاموا عليها حامية بقيادة القائد البيزنطى توماس أيضا (٣) واتخذت القوات الرئيسية المتحالفة طريقها بعد ذلك إلى معرة النعمان ، وعندما علم الأمير سيف الدين سوار حاكم حلب برحيلهم حمل على الاثارب ونجح فى تخليص معظم الأسرى منتهزا فرصة انتشار الحامية البيزنطية فى المدينة (٤) ولاشك أن أعمال حاكم حلب قد رفعت من الروح المعنوية لقوات المسلمين وهو ما عبر عنه ابن القلانسى بقوله «سر أهل حلب بهذه النوبة سرورا عظيما» (٥) أما الامبراطور يوحنا فقد أتخذ طريقه إلى شيزر بعد ما استولى على كفر طاب واستراح فى جسر الحديد بعد ما هجرها أهلها (٦) ويروى ابن الأثير أن سبب توجه الامبراطور إلى شيزر «أنها ليست لاتابك» زنكى فلا يهتم بحفظها فقد كانت للأمير ابى العساكر سلطان بن منقذ (٧) . والواقع أن يوحنا لم يعمل على مهاجمة أملاك زنكى فقط بل كان يعمل على تنفيذ أتفاق عام ١١٣٧ م الذى يشمل حلب وشيزر والأراضى المجاورة .

---

(١) ابن العديم : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٦٥ .

(٢) العظيمى : المصدر السابق ص ٤١٥ .

(٣) Cinnamus, Ibid.

(٤) ابن العديم : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٦٦ .

(٥) ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٢٦٦ .

(٦) العظيمى : المصدر السابق ص ٤١٥ ، Nicetas, op. cit., p. 38

(٧) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٥٥ .

اتجه يوحنا والقوات المتحالفة إلى شيزر فى ١٦ شعبان ٥٣٢ / ٢٩ أبريل ١١٣٨ م ، وهى المدينة ذات الحصانة الطبيعية ، فاستنجد ابن منقذ بعماد الدين زنكى (١) ، وأتم يوحنا حصار المدينة وبدأ فى ضربها بالمنجانيقات ، وظل أهل المدينة الواثقين من حصانتها يدافعون عنها ببسالة واستمر القتال يسير بضراوة طوال عشرة أيام قام خلالها الامبراطور يوحنابنشاط ملحوظ ، فقد ظهر وسط القوات وعلى رأسه خوذة من الذهب يجمع بعض القوات ويشجع البعض الآخر ، ويثير حمية فريق ثالث ويلهب حماس الرجال فى اعداد آلات القتال وقد أشار إلى ذلك بوضوح وليم الصورى المعروف بعدائه للامبراطور يوحنا (٢) . كما أن عماد الدين قام هو الآخر بدور كبير فى مناوشة المتحالفين وأخذت عساكره تتخطف العساكر البيزنطية والصليبية التى تخرج لطلب المؤن أو للقيام بأعمال النهب (٣) . ولما يئس المتحالفون من الاستيلاء على المدينة رفعوا الحصار بعد ما أحرقوا بعض آلاتهم وتركوا البعض الآخر وقد نقله المسلمون بعد ذلك إلى حلب (٤) .

بعد هذا العرض الموجز لهذه العمليات العسكرية يهمنا أن نوضح أسباب فشل هذه الحملة ، ومن هذه العوامل تراخى الأمراء الصليبيين فى مساندة الأمبراطور يوحنا وهو ما سبق أن أوضحناه (٥) . ومما هو جدير بالذكر أن هذه الحملة وإن كانت تشتمل على قوات بيزنطة صليبية إلا أن العبء الأكبر

(١) ابن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٢ ، العينى : عقد الجمان جـ ١٦ لوحة ٩٩ .

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 95.

(٣) ابن الأثير : نفس المرجع والصفحة .

(٤) ابن العديم : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .

(٥) أنظر ما سبق ص ٧٩.

وليس العبء كله على سبيل التحفظ ، وقع على كاهل القوات البيزنطية (١).

وإذا كان التحالف بين الامبراطور وريموند هو ما جعلنا نطلق عليه التحالف البيزنطى الصليبي فهي الواقع يمكن اعتبارها من الناحية الفعلية حملة بيزنطية .

وعامل آخر يضاف إلى ذلك وهو النجدات الاسلامية ، فقد قام عماد الدين بطلب النجدة العاجلة من الخليفة العباسى ولكن الخليفة رفض فى أول الأمر ثم وافق على ذلك على كره منه ، ومن هذه المعلومة التاريخية نستنتج أن قوات عماد الدين لم تكن كافية لمواجهة القوات الصليبية والبيزنطية ، وحتى تأتى إليه النجدات التى لم يكن يعلم ما يدور بأمرها قام بعمل آخر يمكن أن نطلق عليه نوعا من الحرب النفسية ان جازت هذه التسمية فى هذه الفترة من الزمان . ذلك أن عماد الدين راسل المتحالفين وهم فى مواقعهم الحصينة عند مدينة شيزر يقول لهم «أنكم قد تحصنتم منى بهذه الجبال ، فانزلوا منهـا إلى الصحراء حتى نلتقى ، فان ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم ، وإن ظفرتم بى استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها ... فأشار الفرنج بالنزول إليه وقتاله» ولكن الامبراطور يوحنا خاف وأجاب «أتظنون أنه ليس له من العسكر الا ما ترون ؟ وإنما يريد أنكم تلقونه فيجىء اليه من نجدات المسلمين ما لأحد عليه» وفى الوقت نفسه كان يراسل الامبراطور يوحنا يخوفه من الصليبيين والحال نفسه مع الصليبيين ويقول لهم أن الأمبراطور «ان ملك بالشام حصنا واحدا ملك بلادكم جميعا ، فأستشعر كل من صاحبه» (٢) . ولقد تحققت

---

(١) Nicetas, op. cit., 39.

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ٥٦ ، ابن واصل : المصدر السابق ج ١ ص ٨١ .

مخاوف يوحنا من النجدات الاسلامية عندما بلغه أن قرا أرسلان بن داود بن سكمان صاحب حصن كيفا قد عبر الفرات فى جموع عظيمة لذلك أحرق المتحالفون «آلات الحصار ، ورحلوا عن شيزر» (١) .

ومن العوامل التى أدت إلى رفع الحصار عن شيزر ما قام به ابن منقذ . عندما رأى امارته تتعرض لمثل هذا الخطر ، فراسل الامبراطور سرا وعرض عليه تعويضات مجزية عن نفقات الحرب ولكن هذا العرض الذى رفضه الامبراطور أكثر من مرة فى أول الامر (٢) ، عاد وقبله بعد ما تبين له عدم إهتمام الصليبيين وتقصيرهم فى مساعدته لتحقيق مشروعاته (٣) .

وثمة عامل آخر يمكن اضافته إلى هذه العوامل وهو أن يوحنا خرج بجيشه من أجل العمل على ضم أنطاكية إلى أملاك بيزنطة لا من أجل فقدان بعض أملاك الأمبراطورية ، فقد انتهز مسعود سلطان سلاجقة الروم فرصة تواجد يوحنا بعيدا عن الامبراطورية وانشغاله بأمر الصليبيين وعماد الدين زنكى وقام بمهاجمة مدينة أدنة ، ولاشك أن مثل هذه الأنباء قد أزعجت الامبراطور وحملته على فك الحصار والشروع فى العودة إلى أراضى الامبراطور لحمايتها من السلاجقة (٤) .

ويضاف إلى ذلك الدور المريب الذى لعبه جوسلين كونت الرها فى هذه المرحلة ، فقد كان يخشى أن يصبح ريموند بعد ذلك قوة يخشى بأسها على

---

(١) المظيبى : المصدر السابق ص ٤١٦ ، ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٨ .
القلانسى : المصدر السابق ص ٢٦٦ ، عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس ص ١٤٦ .

(٢) Nicetas, op. cit., p. 40; Cinnamus, op. cit., pp. 18—20.

(٣) William of Tyre, op. cit., II, pp. 96—7; Vitry, op. cit., p. 24.

(٤) أنظر ما سبق ص ٥٠٦-٥٠٧.

ممتلكاته وحاول الايقاع بين الأمبراطور يوحنا وبين ريموند، وقد أتت هذه السياسة أكلها عندما انسحب يوحنا من شيزر وعاد ليطالب بأنطاكية وقلعها(١).

بهذه العوامل مجتمعة وهى عدم قيام الصليبيين بواجباتهم العسكرية وانصرافهم عن مساندة الامبراطور ، وخوفه من القوات الاسلامية وما تصل اليها من نجدات ، والدور الذى لعبه عماد الدين زنكى من إرهاب الامبراطور وايقاع الخلاف بينه وبين حلفائه الصليبيين ، والأموال التى بذلها ابن منقذ ، ومهاجمة مسعود أملاك الأمبراطورية ، انسحب يوحنا من أمام شيزر ، وتمكن المسلمون بعد ذلك من استرداد جميع الأراضى التى فتحها يوحنا . وعاد إلى أنطاكية لمحاولة ضمها إلى أملاك الأمبراطورية . وبعد فشله عاد إلى أرمينية التى أمكن السيطرة عليها واخضاعها لسلطانه ، ولما كانت أنطاكية شغله الشاغل طوال حياته فقد عاد إليها مرة أخرى عام ١١٤٢ م ولكنه فشل أيضا هذه المرة فانسحب إلى قبليقية ليستعد لمهاجمتها فى ربيع العام التالى ولكنه مات هناك وخلفه ابنه مانويل الأول (٢) .

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 97.

(٢) Michel le Syrian, op. cit., pp. 338—9.

# الفصل الثانى

## جهود مانويل للمحافظة على النفوذ البيزنطى منذ توليته العرش حتى نهاية الحملة الصليبية الثانية

## (١١٤٣ ـ ١١٤٨ م / ٥٣٧ ـ ٥٤٣ هـ)

١ ـ مانويل الأول : الظروف التى تولى فيها عرش الامبراطورية ، صفاته .

٢ ـ تمرد ريموند أف بواتيه على السيادة البيزنطية .

٣ ـ هروب الأمير ثوروس واعادة تأسيس الامارة الأرمينية .

٤ ـ حروب مانويل مع الأتراك السلاجقة .

٥ ـ سقوط الرها وموقف مانويل من الامارة .

٦ ـ قيام الحملة الصليبية الثانية وموقف مانويل من المشروع .

٧ ـ موقف مانويل من الملك كونراد .

٨ ـ موقف مانويل من الملك لويس .

٩ ـ فشل الحملة .

١٠ ـ نتائج فشل الحملة بالنسبة للامبراطورية البيزنطية .

عندما لفظ يوحنا كومينينوس أنفاسه الأخيرة آل عرش الأمبراطورية البيزنطية إلى ابنه الأصغر مانويل الأول كومنينوس ، الذى كان يبلغ من العمر آنذاك حوالى عشرين عاما (١) . ويستحسن فى هذا الموضع من البحث التعرف على الظروف التى تولى فيها مانويل حكم الامبراطورية والتعرف أيضا على شخصية الامبراطور الذى حكم الامبراطورية طوال سبعة وثلاثين عاما وهى الفترة موضوع هذهالدراسة :

كان مانويل الابن الرابع للأمبراطور يوحنا ، فكان الأول الكسيوس وهو الذى عهد له والده بولاية العرش قبل وفاته ببضع سنوات ، ولكن الكسيوس هذا مات فى أضاليا عام ١١٤٢ م أثناء تقدم والده فى حملته على أنطاكية ،والابن الثانى هو أندرونيكوس وقد مات هو الآخر على ظهر السفينة التى كانت تقل جثمان أخيه فى طريقها إلى العاصمة فقد كان مرافقا للجثمان ، والابن الثالث هو اسحق وكان على ظهر السفينة ذاتها وعاد إلى القسطنطينية وظل بها حتى علم بنهاية أبيه (٢) ، وبذلك أصبح اسحق صاحب الحق الشرعى فى عرش الأمبراطورية .

ولكن ظروف تولى مانويل العرش ترجع إلى أنه ظل مرافقا لوالده فى حملته على أنطاكية ، وعندما عاد يوحنا إلى قيليقية — لقضاء الشتاءوالاستعداد للسير إلى أنطاكية مرة أخرى مع حلول ربيع عام ١١٤٣ م — كان يمارس هوايته المفضلة وهى الصيد . وحدث أن جرح نفسه بسهم مسموم (٣) ،

---

(١) Cinnamus, op. cit., p. 21, William of Tyre; op. cit., II, P. 123; Joseph ben Joshua, op. cit., I, pp. 109—110.

(٢) Nicetas, op. cit., p. 51; Cinnamus, op. cit., p. 24; William of Tyre, op. cit., II, pp. 123, 128; Chalandon, op. cit., p. 183.

(٣) Otto of Freising, op. cit., 438.

فاضطر إلى العودة إلى معسكره وتبين له أنه هالك لا محالة . وقد نصحه الأطباء ببتر ذراعه ولكنه فضل الموت على الحياة بذراع واحد . وفى هذا الوقت فكر فى عرش الأمبراطورية ومن يخلفه على هذا العرش فلم يبق غير اسحق وهو الأحق بالعرش ، والابن الأصغر وهو مانويل المفضل عنده المرافق له فى هذه المحنة . ولما كان يوحنا يتوسم فى ابنه مانويل خيرا ويتنبأ له بأن يصبح رجلا عظيما يستطيع أن يتحمل مسئولية الامبراطورية ، يضاف إلى ذلك أن مانويل كان محبوبا من كل رجال جيش الامبراطورية ، لذلك أنتاب الامبراطور المحتضر عدة أفكار حول موضوع وراثة العرش ، وانتهى الأمر بأن عين مانويل خليفة له وما لبث أن لفظ أنفاسه الأخيرة فى أبريل ١١٤٣ م/رمضان شوال ٥٣٧ هـ فى مدينة المصيصة (١) .

ولم يكن إعتلاء مانويل للعرش على هذه الصورة بالأمر الميسور خاصة وأنه لا يستحق وراثة العرش من الوجهة الشرعية ، يضاف إلى ذلك وجوده بعيدا عن العاصمة التى يوجد بها أخيه اسحق ، كما أنه كان يخشى عدم موافقة الشعب البيزنطى على إختياره إمبرطورا وأن يلعب كل من عمه إسحق كومنينوس وأخيه اسحق أيضا دورا فى هذه المرحلة للاستيلاء على العرش(٢) . ولما كان على مانويل أن يتصرف بسرعة قبل وصول خبر وفاة والده إلى العاصمة . لذلك اكلف أكسوخوس Axouchos — التركى الأصل — صديق والده والوزير الأول فى الامبراطورية ، الذى كان موجودا معه

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, pp. 128—9; Odo of Deuil op. cit., p. 71; Jesephe ben Joshua, op. cit., I, pp. 109—110, Otto of Freising, op. cit., p. 438, Norwich, The Kingdom in the Sun, pp. 113—114.

(٢) Cinnamus, op. cit., p. 32.

بالتوجه إلى العاصمة على الفور قبل وصول خبر الوفاة ، وخول لهمن السلطات ما يمنع أية محاولة لاغتصاب العرش (١) ، والوقت نفسه ظل مانويل فى قيليقية حيث أعد مراسم جنازة والده وأقام ديرا فى المكان الذى مات فيه ، وما لبث أن شحن الجثمان وأتخذ طريقه نحو العاصمة بعد مضى شهر تقريبا(٢).

نجح اكسوخوس فى تنفيذ المهمة الموكولة اليه ودخل العاصمة قبل أن يتسرب اليها خبر الوفاة وألقى القبض على اسحق شقيق الامبراطور مانويل وسجنه فى أحد الأديرة ،كما اعتقل أيضا اسحق عم الامبراطور — الذى سبق أن ثار على أخيه يوحنا وانضم إلى السلاجقة لبعض الوقت — وبذلك ضمن اكسوخوس عدم إثارة الفتنة من جانبهما ، ولكن فتنة أخرى جاءت من قبل يوحنا روجر John Roger — النورمانى الأصل — زوج الأميرة ماريا Maria شقيقة مانويل ، ولكن هذه الفتنة كانت محدودة وتمكن اكسوخوس من القضاء عليها بسهولة خاصة أن الأميرة ماريا ساندت أخيها مانويل (٣) .

وما لبث أن وصل مانويل إلى العاصمة ووجد أن الظروف كلها قد تهيأت لتقبله امبراطورا للعرش البيزنطى . ولكى يدعم مانويل من مركزه كامبراطور قام بشغل منصب بطريك القسطنطينية الذى خلا بموت ليونستيبس Leonstyppes وعين ميخائيل كوركوس Michael Kourkous خلفا له ، وأعد على الفور احتفالات التتويج للحصول على اللقب الامبراطورى وفى هذه الاحتفالات قام مانويل بتوزيع الأموال على كافة طوائف الشعب سواء كانوا من رجال الدين و الجيش أم العامة لكسب رضائهم.ويبدو أن

(١) Nicetas, op. cit., p. 66.
(٢) Cinnamus, op. cit., pp. 29—31.
(٣) Chalandon, op. cit., p. 189; Finlay, op. cit., p. 146.

مانويل شعر أثناء هذه الاحتفالات بقوة مركزه فقام بأطلاق سراح عمه وأخيه اللذين شاركاه حفل التتويج (١) .

صفات وشخصية مانويل

هذا ما كان بشأن الظروف التى تولى فيها الامبراطور مانويل عـرش الامبراطورية أما مانويل نفسه فقد كان ذو شخصية جذابة طويل القامة فحى اللون له هيبة ووقار (٢) ، قوى البنية محبا للفروسية والصيد وذو كفاءة عالية فى تسديد الرماح كما كان يتميز بالصبر والجلد فى الحروب (٣) . يضاف إلى ذلك أنه كان مثقفا ذواقا للآداب كثير الاطلاع واهتم بدراسة الجغرافيا والعلوم الطبيعية والفنون(٤) ،وكانت المناقشات الفلسفية واللاهوتية من أحب الأمور اليه ، وكان يشكل حلقات وندوات لمناقشة بعض النقاط المذهبية والفلسفية يشترك فيها بنفسه داخل القصر ويدعو اليها رجال الدين ومن ذلك استدعائه القسيسين الأرمينيين جريجوار بهلافونى Gregoire Bahlavouni ونرسيس سكنورهالى Nerses Schnorhali فى عام ١١٦٥ م / ٥٦٠ — ٥٦١ هـ وطلب منهما شرح العقيدة الأرمينية،ودارت مناقشات عديدة كان مانويل يقصد من ورائها اقناع الأرمن بأتباع المذهب الأرثوذكسى وتوحيد الكنيستين (٥) ، كما كتب أيضا إلى المؤرخ ميخائيل السريانى بهدف توحيد المذهب السريانى والأرثوذكسى (٦) . ويروى عن مانويل أنه منع الكنيسة

---

(١) Cinnamus, op. cit., p. 33; Nicetas, op. cit., p. 70.

(٢) Schlumberger, Sceaux byzantins Inedits, Cf. R.E.G. (1900) t. XIII p. 479.

(٣) Prodromus, The., Poemata Seletions, Cf. R.H.C. Grecs. Vol. II, pp. 193—4.

(٤) Cinnamus, op. cit., p. 290.

(٥) Vatran le Grand, Abrege d'Histoire, p. 435.

(٦) Michal le Syrien, op. cit., p. 366.

البيزنطية من لعنة إله محمد (صلعم) وأكتفى بلعن محمد ومبادئه (١) . وإذا كان هذا هو مسلك الامبراطور فى بداية حكمه إلا أنه اختلف عن هذه الصورة فى أخريات حياته ، فكثيرا ما كان يستعمل سلطته فى المناقشة وأنه كان ينزل الأذى بمعارضيه (٢) ، ومن الضرورى أن تترك هذه السياسة أثرها فى نفوس رجال الدين الذين كانوا يشكلون قوة لها وزنها فى المجتمع البيزنطى .

وإلى جانب ذلك كان مانويل يعتقد فى التنجيم ويروى عنه أنه عندعودته من قيليقية مرافقا لجثمان والده فى طريقه إلى العاصمة مر بمدينة خونية Chonae حيث تنبأ له مطران المدينة بمستقبله ، كما أنه عندما حضرته الوفاة لم يصدق احتمال موته لأن المنجمين تنبأوا له بأنه سيعيش أربعة عشر سنة أخرى ولذلك لم يتخذ أى قرار لتنظيم أمور دولته (٣) ، والأهم من ذلك أنه كان يعتقد فى قول المنجمين عند دخول المعارك الحربية ، وكان لا يدخل معركة إلا إذا أشار عليه المنجمون بالتقدم ، وهو اعتقاد سار عليه والده من قبل (٤) ، وكان لمثل هذه الأمور أثرها الواضح على سياسة الامبراطورية داخليا وخارجيا.

كذلك كان الأمبراطور مانويل على معرفة ببعض الأمور الطبية ، ومن ذلك رعايته لكونراد الثالث Conrad III ملك ألمانيا ١١٣٨ — ١١٥٢ م/ ٥٣٣ — ٥٤٧ هـ عندما سقط مريضا فى مدينة افسوس Ephesus أثناء تقدمه فى آسيا الصغرى مع الحملة الصليبية الثانية (٥) ، وكذلك ما قام به من الرعاية

---

(١) Finlay, op. cit., III, pp. 149—150.

(٢) Nicetas, op. cit., p. 280; Adeney, The Greek and Eastern Churches, p. 247.

(٣) Nicetas, op. cit., pp. 284—6.

(٤) Nicetas op. cit., p. 199.

(٥) Conrad III, Letter to Wibald, Cf. R.H.G.F.XV, p. 533.

الطبية لبلدوين الثالث Baldwin III ملك مملكة بيت المقدس (١١٤٤ — ١١٦٢ م / ٥٣٩ — ٥٥٨ ﻫ) عندما سقط من على فرسه وكسرت ذراعه أثناء احدى رحلات الصيد بأنطاكية (١) . ولاشك أن مثل هذه الرعاية قد تركت أثرها الواضح فى علاقة مانويل بكل من كونراد وبلدوين كما سيتضح فيما بعد.

كما كان مانويل يكن اعجابا خاصا بالحضارة الغربية التى أصبحت متفوقة فى هذا الوقت إلى حد ما على الحضارة البيزنطية ، وقد عرفت بعض جوانب الحضارة الغربية عن طريق الاتصال باللاتين الذين كانوا فى خدمة الامبراطورية وكان يحلو للامبراطور أن يحيط نفسه بهم ، كما أسند اليهم بعض الأعمال الهامة مثل قيادة الوحدات العسكرية وتولى المناصب الرئيسية فى الدولة وارسال بعضهم فى مهام دبلوماسية للدول الأخرى ، يضاف إلى ذلك ما أسنده إلى بعضهم من أعمال الترجمة . والشواهد على ذلك كثيرة منها أن الكونت الايطالى الكسندر أف جرافينا Alexandre of Gravina كان قائدا لاحدى الوحدات العسكرية (٢) وأن قنسطنطين كولمان Constantine Colman وهو هنغارى كان حاكما على اقليم قيليقية (٣) وأن ميشيل أف اوترانتو Micheal of Otranto وهو ايطالى كان مبعوثا للامبراطور لدى الصليبيين ومعه الكسندر أف جرافينا (٤) ، يضاف إلى ذلك أحد الايطاليين أيضا وهو ثيوفيلاكت Theophylacte الذى كان يشغل وظيفة رئيس المترجمين بالبلاط البيزنطى (٥) . وأخيرا بلدوين الانطاكى الذى كان يعمل بالقوات

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 280; King, The Kinghts Hospitallers, p. 190.

(٢) Chalandon, op. cit., pp. 226—7.

(٣) Cinnamos, op. cit., p. 247.

(٤) William of Tyre, op. cit., p. 347.

(٥) Cinnamos, op. cit., p. 208.

البيزنطيـــة . ولقد كان لتوغل هؤلاء الأجانب في الحكومة البيزنطية أسوأ النتائج على الامبراطورية التي ستظهر آثارها بعد حكم مانويل .

والحقيقة أن ما أوضحته عن احاطة مانويل نفسه بالعناصر اللاتينية هـو الجانب المعروف في حياة مانويل وأشارت إلى المراجع الحديثة ولكن هنـاك جانبا غير معروف عن الامبراطور البيزنطي وهو أنه عين بعض الأتراك لقيادة بعض القوات البيزنطية. كما أنه كـــان معجبا بالفروسية والشهامة العربية . وشاهدنا على ذلك أن الامبراطور مانويل عين قائدا من أصل تركي يدعى برسق Bursuk لقيادة القوات البرية التي هاجمت أنطاكية في عام ١١٤٣ م بعد ما تمرد ريموند أف بواتيه على النفوذ البيزنطي ، كما أن برسق هذا أرسل من قبل الامبراطور مانويل لمقابلة الملك كونراد أثناء قدومه على رأس قواته في الحملة الصليبية الثانية (١) ، أما إعجاب الامبراطور بالفروسية والشهامة العربية فرجع إلى نور الدين اختلف مع أخيه نصرة الدين (أمير أميران) فلجأ نصرة الدين إلى الامبراطور مانويل(٢) ، الذي أكرم وفادته وعين بعض رجاله لخدمته فشق ذلك على بعض الأمراء البيزنطيين و اشتكوا للامبراطور ، فلما بلغ ذلك نصرة الدين طالب بمبارزة من تكلم في حقه و تم الاتفاق على ذلـك ولكن نصرة الدين عدل عن هذه الفكرة عندما علم من التقاليد البيزنطيـــة أن المنتصر في مثل هذه المبارزات يأخذ زوجة المهزوم وجميع ما يملكه من

---

(١) أنظر ما يلي ص ١١٠ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك (مخطوط) المجلد السادس لوحة ١٥ أ وقد أوردها في احداث عام ٥٥٤ هـ/١١٥٩ م ، ابن الجوزى مرآة الزمان جـ ٨ ق ١ ص ١٥٧ ،وقـد سجلها في احداث عام ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م عند ذكر وفاته .

مال وسلاح . ولما كانت المبارزة قد تقررت واعدت الترتيبات اللازمة لها فقد أصبح لا مفر منها.وفي اليوم المحدد خرج الجميع لمشاهدة المبارزة وحضر نصرة الدين بملابسه العادية.فلما شاهد ذلك الامبراطور مانويل طلب منه ارتداء زى المبارزة ولكن نصرة الدين رفض ذلك في الوقت الذى ارتدى فيه الأمير البيزنطي لباس المبارزة.ولا أطيل في التفاصيل فقد انتهت المبارزة بفوز نصرة الدين وحملت إليه زوجة الأمير البيزنطي ومتاعه ولكن نصرة الدين رفض قبول ذلك فعظم أمره عندمانويل،وكان ذلك سببا في مزيد من حقد الأمراء البيزنطيين عليه،واشتكوا إلى الامبراطور وخيروه بين نصرة الدين وبينهم ، فلما علم نصرة الدين بذلك طلب من مانويل عهدا بالأمان وأن يغادر العاصمة البيزنطية فوافق مانويل وأمده ببعض الأموال . ولما كان نصرةالدين قد شاهد جامع القسطنطينية مخربا (١) فقد طلب من الامبراطور اعادة عمارته فوافق مانويل على طلبه وتم فرشه بالحصير وعلقت به القناديل. كما أن نصرة الدين قد لاحظ وجود تمثال في القسطنطينية صنعه البيزنطيون وشبهوه بالنبي محمد (صلعم) وكان المواطنون البيزنطيون يسخرون منه ويستهزؤن به. فطلب نصرة الدين من الامبراطور ازالة التمثال فوافق مانويل على طلبه أيضا (٢) .

---

(١) يلاحظ أنه كان يوجد في هذا الوقت مسجدان بالقسطنطينية تم بناء الأول عام ٧١٧ م والثاني أقيم في عهد الامبراطور قسطنطين مونوماخوس (١٠٤٢ — ١٠٥٥ م) أنظر :

Rice, T. Everday life in Byzantium, p. 83.

(٢) ابن الفرات : المصدر السابق ، نفس المجلد لوحة ٢٨ أ — ٢٨ ب وهو المصدر الوحيد الذى انفرد بذكر هذه المعلومات ، وعلى ما يبدو أن نصرة الدين لجأ بعد خروجه من القسطنطينية إلى السلطان السلجوق «قلج ارسلان» وأن السلطان اصطحبه معه في عام ١١٦٢ م عندما زار القسطنطينية أنظر : Gregoire le Pretre, op. cit., p. 199.

وانتهى الأمر بأن عفى عنه نور الدين أنظر : ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٣٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٤٦ .

وقد يكون وراء ذلك بعض الدوافع السياسية ولكنها توضح لنا جانبا من شخصية الامبراطور مانويل .

ومما يعرف عن مانويل أيضا أنه تزوج مرتين ، ويرجع الزواج الأول إلى والده الذى أراد أن يدعم روابط الامبراطورية مع المانيا ضد النورمان فى جنوب ايطاليا إعداء الأمبراطورية، واقترح زواج ابنه مانويل من برتا أف سالزباخ Bertha of Salzbach شقيقة زوجة كونراد الثالث ملك ألمانيا. وقد اعدت الترتيبات الأولى عام ١١٤٢ وقد تأخر الزواج بعض الوقت لأن مانويل كان لا يميل اليها ، ونظرا لبعض الدوافع السياسية وتحت تأثيرها تم هذا الزواج فى عام ١١٤٦ م ، وحملت برتا إسم الامبراطورة ايرين Irene ؛ ورغم جمالها الطبيعى إلا أنها كانت لا تعتنى بزينتها ، وربما كان ذلك من أسباب انصراف مانويل عنها (١) . حتى أنه ملأ القرن الثانى عشر بمغامراته الشهيرة كان أهمها وأسوأها علاقته الآثمة بأبنة أخيه الأميرة ثيودورا Theodora. ولقد كان لسلوك مانويل هذا أثره على سلوك رجال البلاط الذين ساروا على نهجه فى علاقاتهم الغرامية، يضاف إلى ذلك اعتماد مانويل على الوزير السكير يوحنا كاماراتوس John Kameratos وهو المهرج الذى دبر أمور الدولة لبعض الوقت (٢) .

ولكنه يمكن القول رغم هذا أن مانويل كان ذكيا محبوبا كريما، كما كان متعلما مثقفا وكانت له خصائص الفارس الغربى ، كما كان محبا للحياة والترف وسياسيا نشطا طموحا (٣) وأنه اعتمد على بعض العناصر الغربية والشرقية فى

(١) Nicetas, op. cit., p. 266.

(٢) Hutton, Constantinople, p. 99.

(٣) عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٣٤ — ١٣٥ .

إدارة دولته، كما أنه كان معجبا بالحضارة الغربية ويقدر الفروسية والشهامة العربية حق قدرها .

فى الوقت الذى كان مانويل مشغولا فيه باعداد جثمان والده فى المصيصة ليتخذ طريقه إلى العاصمة ليجلس على عرش الامبراطورية . قام ريموند أف بواتيه بالتنصل من العهود التى قطعها على نفسه مع يوحنا وهاجم بعض القلاع البيزنطية فى قيليقية . ولما كان هذا يمثل تهديدا خطيرا لمركز مانويل الذى لم يكن توج بعد ، لذلك كان على مانويل أن يتصرف بسرعة لكى يدعم مركزه وليدعم النفوذ البيزنطى فى الشرق ، فقام باعداد قوة برية وأخرى بحرية لتأديب ريموند أمير أنطاكية . وتولى قيادة القوات البرية قائد من أصل تركى هو برسق Bursuk يعاونه الاخوان Kontostephanos . وتولت هذه القوة مطاردة ريموند وقواته من قيليقية وتبعتها حتى مدينة أنطاكية وألقت الحصار عليها وضربتها بالمنجانيق، ولم تفلح محاولات ريموند فى دفع القوات البيزنطية ، أما القوات البحرية فقد تولى قيادتها ديمتريوس براناس Demetrius Branas وأقلعت حيث رست على شواطىء أنطاكية دون مقاومة وأحرقت الزوارق التى وجدتها على الساحل، وأسرت عددا كبيرا من السكان ونهبت المدينة فى الوقت الذى كان فيه ريموند مشغولا بأمر القوات البرية. وظل الأسطول البيزنطى حوالى عشرة أيام على هذه الصورة ، وبعد أن حصل على المؤن المطلوبة لقواته من المدينة أبحر إلى جزيرة قبرص فى الوقت الذى عادت فيه القوات البرية إلى الشمال (١) . ويبدو أن هذه القوات كانت مكلفة فقط

---

(١) أنظر : Cinnamus, op. cit., p. 33—35.

وهو الوحيد الذى أشار إلى هذه المعلومة التاريخية ولم يتعرض لها المؤرخ البيزنطى المعاصر له وهو نيكتاس كما لم يشر اليها المؤرخ الصليبى وليم الصورى ، ومما يجعلنا نميل إلى الأخذ بها=

بأعمال المطاردة والردع لا عملية الغزو الشامل ؛ لأن ما كان يشغل بال مانويل في هذا الوقت هو الحصول على العرش البيزنطى، وهذا ما حمله يحجم عن عملية الاستيلاء التام على مدينة أنطاكية ، فقد كان عليه أن يعود بسرعة إلى العاصمة البيزنطية للسيطرة على الموقف هناك لعلمه بوجود طامعين في العرش. وربما وجد مانويل أن عملية الاستيلاء التام على أنطاكية ستجلب له المتاعب من قبل الامارات الصليبية الأخرى وهو ما كان يخشاه قبل الحصول على التاج الامبراطورى . ولعل عماد الدين زنكى ارتاح لمثل هذا التمرد الذى قام به ريموند أف بواتيه وعملية التأديب التى قامت بها القوات البيزنطية لامارة أنطاكية . فقد اطمأن إلى عدم تقارب وجه النظر البيزنطية والصليبية على الأقل فى هذه الفترة وحتى لا يكون هدفا لتحالف صليبى بيزنطى كما حدث عام ١١٣٨ م .

ومن القلاقل التى واجهت الأمبراطور مانويل هو اعادة تأسيس الامارة الأرمينية فى قيليقية مرة أخرى على يد ثوروس الثانى Thoros II ١١٤٤ — ١١٦٧ م / ٥٣٩ — ٥٦٣ هـ ، ومعلوماتنا عن هذه الأحداث التاريخية مستقاة من المصادر الأرمينية المعاصرة والمتأخرة زمنيا، ولكنها فى الواقع وردت موجزة ومبعثرة ومختلطة بالأساطير التى أضفت على الأمير ثوروس نوعا من البطولة . فقد روى المؤرخ سمباد فى أحداث عام ٥٩٠ من السنة الأرمينية (١٤ فبراير ١١٤١ — ١٣ فبراير ١١٤٢ م / ٥٣٥ — ٥٣٦ هـ) أى قبل وفاة الامبراطور يوحنا ، أن ثوروس استطاع أن يهرب من سجنه فى القسطنطينية وتمكن من الوصول إلى مدينة فاهجه متخفيا واستطاع أن يجمع حوله بعض

= هو ما ألمح به المؤرخ أودو أف ديل عن هذه الحملة عندما تعرض للولاء الذى قدمه ريموند أف بواتيه للامبراطور مانويل بعد ذلك أنظر :

**Odo of Deuil**, op. cit., pp. 70 n. 22 & 71.

كبار الشخصيات الأرمينية الدينية والعلمانية، ثم ما لبث أن استولى على المدينة وبعض القلاع الأخرى (١) . كما سجل فاهرام الرهاوى أن ثوروس كان مع الأمبراطور يوحنا فى قيليقية أثناء حملته على أنطاكية، وقد انتهز فرصة موت الامبراطور وهرب عن طريق البحر حتى وصل إلى مدينة أنطاكية ومنها اتخذ طريقه إلى قيليقية ثم ما لبث أن تقابل مع أخيه إستيفانى وتمكنا من حشد جهودهما واستولا على بعض القلاع ، ثم عاد المؤرخ نفسه ليناقض نفسه ويسجل أن مما ساعد ثوروس على الهرب هو أنه أثناء اقامته فى العاصمة البيزنطية كان على علاقة باحدى الأميرات البيزنطيات التى سعته بالمال الكثير الذى حمله معه عند عودته إلى أرمينة . واستطرد بعد ذلك ليشير أن ثوروس بعد عودته إلى قيليقية تقابل مع أحد القساوسة وأخبره بأمره . ولما كان الأرمن فى هذا الوقت يعانون من مساوىء الحكم البيزنطى فقد رحب الأرمن بقدومه وساعدوه حتى تمكن من الاستيلاء على مدينة فاهجه (٢) .

وأوجز كل من المؤرخ صموئيل الآنى والمؤرخ جريجوار أحداث هروب ثوروس فقد سجل الأول أن ثوروس استطاع أن يهرب من الأسر بعد وفاة أبيه ولجأ إلى البطريك السريانى أثناسيوس الثامن Athanasius VIII (١١٣٨ — ١١٦٧ م / ٥٣٣ — ٥٦٢ هـ) فى مدينة عين زربه ؛ وقد ساعده البطريك وأعطاه حصانة وعشرة رجال وسار به ليلا متخفيا حتى أوصله إلى قلعة أمودا Amouda (٣)، ثم ما لبث ثوروس أن استعاد بلاده (٤) . أما

(١) Sempad, op. cit., p. 618.

(٢) Vahram d'Edesse, op. cit., pp. 503—4.

(٣) أمودا : كانت هذه القلعة عند مخاضة العلوى التى تقع على نهر سيحان فى قيليقية لحماية المخاضة وكانت تحتوى على أربعة طوابق وبالطابق السفلى خزان للمياه يملأ بمياه الأمطار عن طريق مواسير تمر عبر الأسوار . أنظر : أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٦٣ .
Fedden, R. and Thomson, J., Grusaders Castles, pp. 36, 44.

(٤) Samuel d' Ani, Chronographie, pp.452—3.

المؤرخ جريجوار فقد روى أن الأمير ثوروس عاد إلى بلاده ولم يتمكن من استعادة أملاك أجداده فحسب بل استطاع أن يعيد أيضا بلاد وقلاع عظيمة لم تكن فى حوذة أجداده من قبل (١) .

وفيما يتعلق بالمعومات التى أوردها المؤرخ ميخائيل السريانى فقد أورد أن ثوروس عاد إلى بلاده بعد ما نجا من الأسر بعد وفاة أبيه واتجه إلى البطريك اثناسيوس الذى أعطاه حصانة واثنى عشر رجلا وأدخله ليلا إلى قلعة أمودا ، وفى صباح اليوم التالى رفع ثوروس علمه الخاص به ووضعه على أسوار القلعة فلما شاهد السكان هذا العلم اطمئنوا وفرحوا بعودة أميرهم ، ثم ما بث أن انتشر خبر عودته إلى كافة الجهات المحيطة ثم تمكن بمعاونة المواطنين الأرمن من اعادة كل المنطقة إلى ملكه.وإلى هنا تبدو رواية ميخائيل السريانى مقبولة إلى حد كبير ولكنه عاد وسجل ما يشبه الأساطير وأورد أن الأمير ثوروس عند عودته من رعبان : الذى يبدو أنه كان على علاقة طيبة بصاحبها الأمير الصليبى سيمون Simon : على رأس كوكبة من الفرسان عدتها اثنى عشر فارسا اشتبك مع الأتراك السلاجقة فى معركة وقتل منهم ثلاثة آلاف . ثم أغار بعد ذلك على اقليم كبادوكيا الذى كان تحت حكم آل دانشمند وعاد بكثير من الأسرى (٢) .

ومن الصعب تحديد تاريخ معين لعودة ثوروس إلى بلاده ، إلا أنه يمكن القول أن هروب ثوروس من القسطنطينية جاء فى أعقاب وفاة الامبراطور يوحنا وانشغال السلطات البيزنطية بأمر العرش ، كما نود أن نوضح أن عودة

---

(١) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 167.

(٢) Michel le Syrien, op. cit., pp. 341—5.

ثوروس إلى قيليقية لم تتسم بثورة عامة قام بها الأرمن ضد الحكم البيزنطى ، فقد ظل بعض الأمراء الأرمن يفضلون العمل تحت لواء الامبراطورية البيزنطية على العمل تحت حكم ثوروس ، وظلوا لفترة طويلة من الاتباع المخلصين للامبراطورية ، والدليل على ذلك ما نشهده من وجود عدد كبير من الزعماء والرؤساء الأرمن فى صفوف الجيش البيزنطى الذى حارب ثوروس فى وقت لاحق (١) ويؤكد ذلك أن المصادر لم تشر إلى أى عمل عسكرى من جانب الامبراطور مانويل ضد ثوروس فى هذه الفترة مما يدل على أن هروب ثوروس وعودته إلى بلاده كان لا يشكل أية خطورة على الكيان البيزنطى فى أرمينية فى هذا الوقت على الأقل . ومن الواضح أيضا أن الأتراك السلاجقة وآل دانشمند لم يرحبوا بعودة ثوروس إلى أرمينية ليقيم فيها دولة ربما تخشى منها فيما بعد ، بدليل ما نجده من حروب بينه وبينهم مع بداية عودته إلى أرمينية (٢) . وإذا كان هذا هو الحال مع السلاجقة وآل دانشمند ، فيمكن القول أنه كان على العكس مع ريموند أف بواتيه أمير أنطاكية الذى وجد فى إعادة تأسيس امارة الأرمن وهى العدوة القديمة للامبراطورية البيزنطة ما يجعلها دولة حاجزة بينه وبين القسطنطينية التى تحاول من وقت لآخر بسط النفوذ البيزنطى على الامارة .

أما فيما يتعلق بعودة الأمير ثوروس وشروعه فى تكوين الامارة الأرمينية مرة أخرى وأثر ذلك على امارة حلب وصاحبها عماد الدين زنكى . ففى تصورى أن قيام مثل هذه الامارة يجعل امارة حلب فى مأمن إلى حد ما من هجوم سريع للقوات البيزنطية ، وتعطى لعماد الدين بعض الوقت للتعامل مع

(١) Sempad, op. cit., p. 619.

(٢) Michel le Syrien, op. cit., pp. 342—344.

القوات الصليبية بالشام خاصة مع امارة الرها وامارة أنطاكية أيضا — الذى تمرد أميرها من وقت ليس ببعيد على السيادة البيزنطية — وهما الامارتان اللتان سبق لهما التحالف مع الامبراطور يوحنا .

وإذا كان مانويل أكتفى بتأديب ريموند أف بواتيه ولم يلق بالا بعودة ثوروس إلى بلاده، فان تحركات الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى جرت الأمبراطور وأدخلته فى صراع حربى مع القوات السلجوقية ، وقد ساعد على ذلك تغير الموقف الخاص بالمسلمين فى آسيا الصغرى ، فقد توفى الأمير محمد ابن غازى بن دانشمند صاحب ملطية فى عام ٥٣٧ هـ / ١١٤٣ م (١). ولم ينعم أبنه ذوالنون بالحكم بعد أبيه ،فقد نازعه عمه باغى أرسلان (٢) ، ونتج عن ذلك نشوب الصراعات الداخلية فى امارة آل دانشمند التى انتهت بتقسيم الامارة إلى ثلاثة أقسام ، وحكم محمد ذوالنون قيصرية ، وسيطر ياغى أرسلان على سيواس ، واستقر عين الدولة بن غازى فى ملطية (٣) ولاشك أن هذه الصراعات قد فتت فى عضد الامارة وأرهقت قواتها ومواردها ، وكانت فرصة استغلها مسعود سلطان قونية لمحاولة السيطرة عليها وادخالها تحت سلطانه حتى يوسع حدود أملاكه ويصل بحدودها الشرقية إلى نهر الفرات (٤) .

ومن الواضح أن بداية الأعمال العسكرية التى قام بها السلاجقة ضد آل دانشمند كانت فى أعقاب موت الامبراطور يوحنا كومنينوس ، وكان أول ما قام به السلطان مسعود هو حصار مدينة ملطية فى عام ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ —

---

(١) العينى : المصدر السابق جـ ١٦ لوحة ١٣٤ ، ابن خلدون : المصدر السابق جـ ٥ ص ١٦٥ .

(٢) المظيمى : المصدر السابق ص ٤٢١ .

(٣) Michel le Syrien, op. cit., p. 351; Gegoire le Pretre, op. cit., p. 176
زامباور : المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

(٤) Chalandon, op. cit., p. 244.

١١٤٤ م ، وحاول أمراء آل دانشمند الاتحاد معا لصد أخطار السلاجقة . ولكنهم كانوا يدركون أنهم غير قادرين على صد قوات السلطان مسعود ، لذلك لجأوا إلى التحالف مع الامبراطور البيزنطى مانويل للدفاع عن أنفسهم (١) . وبهذا التحالف وقعت سلطنة قونية بين شقى الرحى ، واتسمت بداية حكم مانويل بالتحالف مع الأمراء الدانشمنديين وتفرغه لمهاجمة الأتراك السلاجقة . كما أن الأمبراطور البيزنطى قد ضمن بقيام هذا التحالف وجود بعض التسهيلات فى وادى الفرات (٢) ، والعمل على مواصلة سياسة أبيه فى ضرب السلاجقة وتقليص نفوذهم فى آسيا الصغرى (٣) .

وإذا كانت الظروف الخارجية قد هيأت الفرصة للامبراطور مانويل لضرب السلاجقة ، فان الظروف الداخلية لم تساعده فى الوقت نفسه على القيام بهذا العمل ، فقد أخرت المتاعب الداخلية للامبراطورية اعداد القوات البيزنطية لبعض الوقت . ولكن مانويل ما لبث أن تفرغ منها حتى انتهز فرصة تقدم السلاجقة فى اقليم ملاجنة Milagna وهى مناطق الرعى الواقعة فى الاقاليم البيزنطية خاصة فى فصل الربيع ، وهى نفس مناطق الرعى لخيول الامبراطورية ، حتى استعد مانويل لمهاجمة السلاجقة ، وكانت حملته الأولى على ما يبدو فى ربيع عام ١١٤٥ م / ٥٣٩ هـ ، والواضح أن هذه الحملة لم تتعد مطاردة السلاجقة من مناطق الرعى بدليل أن الامبراطور عاد إلى العاصمة بسرعة ولم تتعد قواته هذه المناطق . ويرجع سبب عودته بهذه السرعة إما لمرض ألم به أو بسبب تدهور الحالة الصحية لأخته ماريا التى كانت مريضة

(١) Cinnamus, op. cit., pp. 39—40.
(٢) Runciman, op. cit., II, p. 264.
(٣) Deihl, op. cit., p. 149.

فى هذا الوقت (١) . وقد ترتب على هذا الانسحاب السريع عدة نتائج منها ، أن السلاجقة ربما احسوا بأن مانويل ليس على استعداد للدخول فى حرب طويلة معهم ، أو ربما فكروا أن هذا الانسحاب يرجع إلى قيام بعض الاضطرابات فى داخل العاصمة لذلك تشجعوا على مهاجمة الامبراطورية . ومن العوامل التى شجعتهم على الاقدام على هذا العمل هو ازدياد نفوذ المسلمين فى الشام على حساب الصليبيين ، واستعادة مدينة الرها قبل ذلك بقليل (٢) .

كان تقدم السلاجقة فى ثلاثة أقسام اختص كل قسم منها بمنطقة ، فاستهدفت الأولى المنطقة الشمالية الغربية من آسيا الصغرى هى منطقة وادى نهر سانجاريوس Sangarios والتقدم حتى مدينة بيثكاس Pithekas الواقعة بين مدينة نيقية ومدينة ملاجنة . أما القسم الثانى فكان هدفه المنطقة الغربية والاستيلاء على مدينة براكانا Prakana . أما القسم الثالث فأتجه إلى الساحل الغربى لآسيا الصغرى وهاجم المدينة الساحلية افسوس (٣) . ولاشك أن تحرك السلاجقة وانتشارهم فى ربوع آسيا الصغرى قد أثار فزع الامبراطور الذى بدأ يستعد لدفعهم .

ولم يكن مانويل على استعداد لتوزيع قواته فى آسيا الصغرى لمواجهة القوات السلجوقية ، وفضل تجميع قواته فى المنطقة الواقعة غرب نهر سانجاريوس ومطاردة القوات السلجوقية المنتشرة فى هذه المنطقة . وفكر الامبراطور فى مهاجمة مدينة قونية العاصمة حتى يضطر السلاجقة إلى سحب قواتهم المنتشرة فى الأراضى البيزنطية للدفاع عن العاصمة ، وبدأ مانويل وهو الفارس المغرور

---

(١) Nicetas, op. cit., p. 71; Cinnamus, op. cit., p. 36.

(٢) أنظر مايلى ص ١٢٦ وما بعدها .

(٣) Cinnamus, op. cit., p. 38; Nicetas, Ibid..

بنفسه، وبما تحت يده من قوات وأرسل إلى السلطان مسعود يعلن تحديه للسلاجقة. وقد قبل مسعود التحدى وتحددت منطقة فيلوميلون ميدانا للمعركة المقبلة (١). وربما يرجع السبب فى اختيار هذه المنطقة إلى أنها أصبحت خالية من السكان بعد ما هجرها أهلها من كثرة الحروب التى دارت بين السلاجقة والبيزنطيين من قبل (٢).

وفى ربيع عام ١١٤٦ م / ٥٤١ هـ استعد مانويل للمعركة واتخذ طريقه إلى فيلوميلون عبر مدينة ضروليوم، والحقيقة أن المصادر البيزنطية وهى المصدر الوحيدة التى تمدنا بالمعلومات التاريخية عن الصراع البيزنطى السلجوقى فى هذه الفترة، قد أفاضت فى تصوير أنواعا من البطولة والفروسية الشخصية للامبراطور مانويل أكثر من امدادنا بالتفاصيل التاريخية التى تهمنا فى هذا الموضع، الا أننا يمكن أن نستشف منها أن السلاجقة حاولوا ايقاع الجيش البيزنطى فى بعض الكمائن أثناء مروره فى المناطق الوعرة، ولكن مثل هذه المحاولات باءت بالفشل ونتج عنها قتل بعض القوات السلجوقية. ثم انسحب السلاجقة إلى عاصمتهم قونية حتى تعيد تنظيم قواتها مرة أخرى استعدادا لمواجهة أخرى مع القوات البيزنطية (٣).

ولاشك أن انسحاب السلاجقة أمام القوات البيزنطية قد أعطى الفرصة لقوات مانويل أن تتقدم دون صعوبات تذكر حتى وصلت إلى قونية. وفى الوقت نفسه قام السلطان مسعود بتقسيم قواته إلى أربع مجموعات، الأولى واختصت بحماية العاصمة، والثانية اتخذت مواقعها فى شمالى العاصمة جنوب

---

(١) Cinnamus, op. cit., pp. 40—41.

(٢) Finlay, op. cit., III, p. 188.

(٣) Cinnamus, op. cit., p. 42.

بحيرة تاتا (١) Tatta ، ويبدوأنها اختصت بعمل الكمائن خلف خطوط العدو ، والثالثة فقد عسكرت فى ضواحى المدينة ، وأما الرابعة فقد أرسلت لملاقاة الجيش البيزنطى أثناء تقدمه إلى العاصمة ومناوشة القوات البيزنطية فى الوقت الذى تولت فيه المجموعة الثانية الهجوم على مؤخرة الجيش البيزنطى ، والواضح أن القوات السلجوقية انزلت خسائر جسيمة بالقوات البيزنطية ، ولم يجد مانويل بدا من الخروج من هذا المأزق وتلك الكارثة التى حلت بقواته الا أن يأمر أحد فرسانه ليعلن وقوع مسعود أسيرا فى أيدى القوات البيزنطية ، ولاشك أن مثل هذا الخبر قد فت فى عضد القوات السلجوقية فانسحبت بكاملها داخل أسوار العاصمة قونية (٢) .

وهكذا تمكنت القوات البيزنطية بعد ذلك من تطويق العاصمة والقيام بأعمال السلب فى ضواحى المدينة ولم يكن بوسع القوات السلجوقية الا مناوشة الجيش البيزنطى عبر أسوار المدينة ، ولم تتمكن القوات البيزنطية من النيل من العاصمة ، وطال أمد الحصار فأمر مانويل رجاله بالاستعداد للانسحاب . ويرجع ذلك إلى أن الامبراطور أصدر أوامره بالتراجع لأنه تلقى معلومات تفيد بتحرك حملة صليبية إلى الشرق (٣) . ويرى شالندون عدم الأخذ بهذا السبب لأن الحملة تقررت فى الحادى والثلاثين من مارس ١١٤٦ م ولم يكن هناك وقت كاف ليصل إلى مسامع مانويل خبر الحملة (٤) ، والحقيقة أن الحملة تقررت فعلا فى نهاية مارس فى اجتماع فيزلاى Vezely ، ولكن فكرة الحملة ذاتها أعلنت فى أول ديسمبر عام ١١٤٥ م ، ولم يكن اجتماع

(١) Nicetas, op. cit., p. 72.
(٢) Cinnamus, op. cit., pp. 42—44.
(٣) Cinnamus, op. cit., pp. 45—46.
(٤) Chalandon, op. cit., p. 254.

فيزلاى إلا للدعاية للحملة واعداد الترتيبات والاستعداد لقيامها (١) . وفى تصورى أن المدة من أول ديسمبر ١١٤٥ م حتى تحرك مانويل فى ربيع عام ١١٤٦ م ، يضاف إلى ذلك فترة الحرب ذاتها كانت كافية لوصول خبر الحملة إلى مانويل ، ومن الجائز أيضا أن خبر الحملة وصل إلى مانويل أثناء المعارك وليس قبلها لأنه لو علم بأمر الحملة قبل المعركة لأنسحب عائدا إلى العاصمة .

غادر مانويل والقوات البيزنطية ضواحى قونية وقفل عائدا إلى بلاده وأجتاز فى طريق عودته بعض الممرات الوعرة لذلك كانت مسيرة الجيش البيزنطى بطيئة وغير منتظمة ، وكان فى ذلك المأزق فرصة للقوات السلجوقية التى تجيد حروب الممرات فانقضت على القوات البيزنطية وأنزلت خسائر ملموسة فى القوات التى كانت تحت قيادة كريتوبولس Kritopolos الذى كان يتولى قيادة الجزء الأوسط من الجيش البيزنطى ، ولاشك أن هذه الضربة قد قسمت الجيش البيزنطى إلى قسمين وسببت حالة من الذعر والفوضى والارتباك فى مؤخرة القوات البيزنطية وأحسوا أنهم هالكين لا محالة . فانتشرت هذه القوات فى شكل فوضوى للبحث عن الملاجىء التى تحميها من السلاجقة . ولم يجدوا غير أمتعتهم يتخذونها ستارا لهم (٢) ، وحاول مانويل اعادة تنظيم قواته مرة أخرى ولكنه فشل فى اعادة القوات إلى مواقعها بسبب كثافة الغارات التى شنتها القوات السلجوقية مستغلة حالة الفوضى التى انتشرت فى صفوف الجيش البيزنطى ، ولم ينجح مانويل فى صد الغارات السلجوقية إلا

---

(١) Odo of Deuil, op. cit., p. 7; William of Tyre, op. cit., II, p. 164 n. 33;
أنظر أيضا سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٢٠ .

(٢) Cinnamus, op. cit., pp. 44—47.

بصعوبة بالغة وبعد أن تكبد خسائر فادحة فى صفوف قواته (١) .

ويبدو أن الأمبراطور مانويل وهو الفارس الذى تألق من قبل فى حروبه مع السلاجقة أثناء انسحابهم إلى قونية ، قد رأى عدم الانسحاب بهذه الصورة المهينة وأراد أن يرفع من روح قواته المعنوية ويحافظ على هيبته وسط القادة البيزنطيين ، فأرسل إلى مسعود يعلن التحدى واستعداده للحرب مرة أخرى ، ويوجه إليه اللوم على مهاجمة الكمائن لقواته وانه لم يجرؤ على الدخول مع القوات البيزنطية فى معركة منظمة ، وحدد ربيع عام ١١٤٧ م / ٥٤١ هـ ، موعدا للقتال (٢) .

وهنا تجدر الاشارة إلى أنه إذا كان مانويل وهو الفارس الذى شبهته المصادر البيزنطية بالرجل الأسطورة الذى يدخل المعركة بمفرده ضد مجموعة من القوات المعادية ويتغلب عليها (٣) ، نراه يلقى اللوم على السلطان مسعود لأن القوات السلجوقية هاجمت القوات البيزنطية عند انسحابها عن طريق الكمائن وليس عن طريق الصفوف المنظمة . وهنا أود أن أسجل أن مانويل نفسه لجأ إلى اعلان خبر وفاة مسعود ، وهو أمر لم يحدث إنما أراد بذلك أن ينزل الارتباك فى صفوف السلاجقة الذين تغلبوا على قواته — فى حرب منظمة كما أراد — وهو نوع من السلوك الذى لا يجب أن يتحلى به الفرسان والاباطرة إلا إذا كانت الحرب خدعة فلتكن خدعة للطرفين .

وتعليقا آخر على رغبة مانويل للقتال وتحديد ربيع عام ١١٤٧ م موعدا للحرب ، نقول أن مانويل انسحب من أمام قونية عندما بلغه نبأ قدوم حملة

(١) Cinnamus, op. cit., p. 57.

(٢) Cinnamus, op. cit., p. 58.

(٣) Cinnamus, op. cit., 40; Prodromus, op. cit., p. 749.

صليبية (١) ، إذاً فالامبراطور مانويل لم يتمكن من مواصلة القتال عندما علم بأخبار الحملة ، وبالتالي فهو لا يستطيع محاربة السلاجقة إلا بعد أن يحدد موقفه من الحملة ، فاذا تكشف الأمر عن موقف عدائي فلا قبل له بالحملة والسلاجقة معا ، وعلى ذلك يكون الأمبراطور مانويل قد خطط مسبقا لقيادة الحملة بالتحالف مع قادتها أو استغلالها لحرب السلاجقة في العام التالي . ولعلنا نجد تفسيرا لذلك من الخطاب الذي أرسله مانويل إلى البابا يوجين الثالث Eugenius III (١١٤٥ — ١١٥٣ م) في صيف عام ١١٤٦ م أي أثناء وجود مانويل في آسيا الصغرى أو عقب عودته إلى العاصمة مباشرة يعلن فيه رغبته في تشريف الصليبيين له كما سبق أن شرفوا جدة الكسيوس من قبل (٢) ولعل في هذه العبارة ما يفيد إلى أي مدى كان الأمبراطور مانويل يحاول استغلال الحملة لصالحه في منطقة الشرق الأدنى الاسلامي أو في آسيا الصغرى على الأقل مثل جدة الكسيوس . وإذا كان ذلك كله اجتهادا من جانب الباحث لموقف مانويل من الحملة قبل قدومها ، فان علاقة الأمبراطور بالحملة ذاتها وما صحب من أحداث ستحدد موقف الامبراطور بوضوح .

والمهم أن السلطان مسعود بعد ما تلقى رغبة مانويل للحرب في ربيع عام ١١٤٧ تمهل بعض الوقت في الرد على الامبراطور حتى تتكشف له الأمور . وفي الوقت نفسه أصدر الأمبراطور البيزنطي أوامره لقواته بالراحة لبعض الوقت من عناء الحرب ، ولكنها لم تكد تخلد إلى الراحة حتى ظهرت بعض القبائل السلجوقية الرعاة التي أغارت على الأراضي البيزنطية في وادي نهر

---

(١) أنظر ما سبق ص ١١٩ .

(٢) Maneul, letter to the Pope Eugenius III dated 1146, cf., R.H.G.F., XV, pp. 440—441.

الماندر (١) ، وقد وجد مانويل فى غارة هؤلاء الرعاة فرصة لاستعادة هيبته وتأكيد سلطاته على أراضيه ، فقام مانويل بمطاردتهم حتى أجلاهم عن المنطقة ، ولكنه ما لبث أن اتخذ طريقه بعد ذلك مباشرة إلى عاصمته ، ولعله كان يخشى من ظهور قوات سلجوقية تعترض طريقه فتنال من قواته وهى فى حالة من الارهاق ، أو ربما يكون ذلك مرجعه إلى أنه رأى تدبير أموره مع الحملة القادمة . وقد نجح مانويل فى الوصول إلى عاصمته عن طريق الساحل الغربى لآسيا الصغرى آمنا بعد أن تلقى عرضا بالصلح من السلطان مسعود أثناء عودته إلى القسطنطينية (٢) . ولعل ما دفع مسعود إلى طلب الصلح هو أخبار قيام الحملة الصليبية ، فقد روى المؤرخ وليم الصورى بعد حوالى سنة ونصف من هذه الأحداث أن سلطان قونية كان على علم بقدوم الحملة منذ وقت طويل (٣) ، وربما يكون طلب مسعود للصلح هو خوفه من تحالف بيزنطى صليبى كما حدث فى الحملة الأولى ، فأراد بهذه الهدنة أن تتاح له فرصة اعداد قواته لمواجهة القوات الصليبية القادمة سواء انضمت اليها القوات البيزنطية أم لا .

قبل مانويل عرض الصلح الذى قدمه السلطان مسعود ، وكان لأخبار قدوم الحملة الصليبية أثرها الواضح فى موافقة مانويل على ذلك (٤) . وهناك سبب آخر يمكن اضافته لموافقة مانويل على عرض السلطان ، وهو أن الأمبراطور مانويل كان عليه أن يعود إلى العاصمة بسرعة ؛ فانه كان لا يطمئن إلى موقف عمه اسحق منه وكان الأخير يتمنى أن يلقى مانويل مصرعه أثناء حروبه مع السلاجقة . وبالفعل فعندما سرت شائعة عن موت مانويل ، أسرع اسحق إلى

(١) Nicetas, op. cit., pp. 59—61.
(٢) Cinnamus, op. cit. p. 59.
(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 166.
(٤) Cinnamus, op. cit., p. 59.

خيمة الأمبراطور ليتولى زمام السلطة ، ولكن أمله خاب عندما وجد الأمبراطور مانويل يدخل خيمته (١) . ولم يتصرف مانويل فى حينه بل كتم ما فى نفسه حتى نهاية المعارك ، لذلك نجده يقوم بعد عودته إلى العاصمة باقالة البطريك كوزموس Kosmos المساند لعمه،وذلك بهدف اضعاف قوة الأخير (٢) .

وربما كان من العوامل التى شجعت مانويل على عقد الهدنة . ذلك الدمار الذى ألحقه السلاجقة بالمدن البيزنطية ، فقد ترك لنا المؤرخ الفرنسى المعاصر أودو أف ديل الذى صاحب الحملة الصليبية الثانية وصفا للخراب الذى حل بمدينة نيقوميديا من جراء الغارات السلجوقية (٣) وهى المدينة ذات الموضع الاسراتيجى باعتبارها من المدن القريبة من العاصمة البيزنطية والتى لا تبعد كثيرا عن بحر مرمرة والبحر الأسود .

لهذا كله عقدت الهدنة بين بيزنطة والسلاجقة وأتفق على أن يقوم السلاجقة باعادة مدينة براكانا وسائر المدن البيزنطية الى فتحها السلاجقة فى حروبهم الأخيرة (٤)،ولم تمدنا المصادر البيزنطية بمدة الهدنة وانما أشار اليها المؤرخ أودو أف ديل وذكر أن مدتها اثنى عشر سنة (٥) ، وهو المصدر الوحيد الذى أشار اليها ، والواقع أن ما يجعلنا نطمئن إلى ذلك أن الهدنة عقدت فى صيف عام ١١٤٦ م (٦) وأن الحرب بين السلاجقة والبيزنطيين لم تتجدد إلا

(١) Cinnamus, op. cit., p. 53.
(٢) Chalandon, op. cit., p. 257
(٣) Odo of Deuil, op. cit., p. 89.
(٤) Runciman, op. cit., II, p. 266.
(٥) Odo of Deuil, op. cit., p. 55.
(٦) أرسل مانويل فى خطابه إلى لويس المؤرخ بعام ١١٤٦ م أنه فى هدنة مع السلاجقة أيظر : R.H.G. F. XVI, P. 9.

فى عام ١١٥٨ م / ٥٥٤ هـ . وهكذا انتهت المراحل الأولى من الحـــروب البيزنطية السلجوقية فى عهد الأمبراطور مانويل وانتظرت الامبراطوريـــة البيزنطية وجميع دول الشرق فى خوف أو فى أمل قدوم الحملة الصليبيـة المعروفة بالثانية (١) .

وإذ كانت بداية حكم الأمبراطور مانويل تميز بتمرد ريموند أف بواتيه أمير أنطاكية وهروب ثوروس من الأسر ومحاولته اعادةتأسيس امارةأرمينية ، يضاف إلى ذلك الحروب التى دارت بين الأمبراطورية البيزنطية والسلاجقة ، فقد تميزت بداية حكم مانويل بضعف الامارات الصليبية بشكل ملحوظ ، فقد مات فولك الانجوى فى العاشر من نوفمبر ١١٤٣ م / آخر ربيع ثانى ٥٣٨ هـ . وخلفه أبنه بلدوين الثالث Baldwin III (١١٤٣ – ١١٦٢ م / ٥٣٨ – ٥٥٨ هـ) . ولما كان بلدوين فى الثالثة عشر من عمره فقد تولت أمه مليسند Melisend أمر الوصاية على المملكة (٢) . اما إمارة الرها فقد حكمها جوسلين الثانى وهو الذى ورث عن أبيه الثروة والجاه ولكنه ما لبث أن أسلم نفسه لشهواته وأهمل أمر الدفاع عن الامارة (٣) . وتراخى فى دفع مرتبات الجنود وطابت له الاقامة فى تل باشر (٤) ، يضاف إلى ذلك عـدم الوفاق بين الصليبيين عامة ، وهم الذين أصبح كثيرون منهم لا يهتمون بأمر الحركة الصليبية على العكس من الصليبيين الأوائل (٥) ، وبين جوسلين

---

(١) Setton, op. cit., I, p. 514.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 135 & n. 31.

(٣) Vitry, op. cit., p. 93.

(٤) Fabri, The Book of Wandering, II, Part I, p. 323; Michaud, History of the Crusades, I, p. 321.

(٥) Woodhouse, The Millitary Religious Order of the Middle Ages, pp. 33—4.

وريموند أف بواتيه بصفة خاصة (١) ، وهما أميران أنطاكية والرها اللذان يتوليا أمر حماية الامارات الصليبية من الشمال .

أخذ عماد الدين زنكي يرقب هذا الموقف بعد ما أراحه موت الأمبراطور البيزنطى يوحنا وهو الذى كان من أشد أعدائه بأساً وقوة (٢) . وانشغال الامبراطور الجديد مانويل بأمر العرش وصراعه مع أمير أنطاكية . يضاف إلى ذلك موقف الامبراطور مانويل من الأمير الأرمينى ثوروس . فلقد هرب ثوروس وشرع فى اقامة الامارة الأرمينية فى الوقت الذى وقف منه مانويل موقفا سلبيا ولم يقم بأى عمل لمقاومة ثوروس . ومن ناحية أخرى فان قيام الامارة الأرمينية المعادية للامبراطورية البيزنطية أصبح بمثابة خط دفاع أمامى عن الممتلكات الاسلامية فى الشام .

لكل هذه العوامل مجتمعة خطط عماد الدين زنكى لضرب الامارات الصليبية فى الشام وإتخذ مدينة الرها هدفا له ، ويرجع اختيار زنكى هذه المدينة لعاملين مباشرين : أولهما أن زنكى كان فى هذا الوقت فى صراع مع الاراتقة واستولى على بعض حصونهم ، لذلك لجأ الأراتقة إلى طلب النجدة من جوسلين وسلموه مقابل ذلك قلعة بابولا Babule التى تقع قرب جرجر Garger ، واستعد جوسلين فعلا لمساعدتهم ضد زنكى (٣) ، وثانيهما أن السلطان مسعود السلجوقى ٥٢٧ — ٥٤٧ هـ / ١١٣٢ — ١١٥٢ م فى بغداد كان فى نزاع مع عماد الدين ، فلما استقر الأمر بينهما ، طلب السلطان مسعود من عماد الدين زنكى أن يحضر إلى بغداد ليكون فى خدمته ، ولم يكن زنكى

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 140.

(٢) Runciman, op. cit., II, 255.

(٣) A.S.C., p. 280.

راغبا فى ذلك فاعتذر للسلطان عن تلبية طلبه وعلل عذره بانشغاله بأمـــر الصليبيين المتأخمين لممتلكاته، فقبل مسعود عذره وشرط عليه فتح الرها» (١) .

وفى الواقع لم يكن عماد الدين زنكى فى حاجة إلى شرط السلطان مسعود لفتح الرها فقد كان «لها طالبا وفى تملكها راغبا ولانتهاز الفرصة منها مترقبا لا يبرح ذكرها»(٢)، وبدأ يخطط لمهاجمة المدينة ، ولكى يوهم الصليبيين بأنه سوف لا يقصد بلادهم فى القريب العاجل حتى يطمئنوا إلى جانبه ، شغل نفسه بالحرب مع الأراتقة . ولم يدخل معهم فى حرب بالمعنى المفهوم، وهو القائد المحنك الذى لا يرهق قواته قبل الدخول فى معركة كبرى . وإذا كان عماد الدين قصد بلاد الأراتقة «فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم ويطلبها وسواها يروم»(٣). كما أن عماد الدين كان يعلم أن جوسلين أمير الرها يفضل الاقامة فى تل باشر حيث تروق له الحياة هناك وينصرف لشهواته (٤) ، لذلك خصص له بعضا من رجاله على رأسهم فضل الله بن جعفر نائبه على حران لمراقبة تحركاته. وانخدع جوسلين بحيلة عماد الدين وظن أنه «لا فراغ له اليه وأنه لا تمكنه الاقدام عليه» (٥). فغادر الرها إلى تل باشر كعادته ، فجاءت «عيون اتابك اليه فأخبرته» (٦) . ويبدو أن زنكى أراد أن يؤمن ظهره فى هذه الفترة ويريح نفسه من الأراتقة ويتفرغ للعمل الخطير المقدم عليه فعقد الهدنة مع بنى أرتق(٧) ،

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٦٥ .

(٢) ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٢٧٩ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ٦٧ ، أبو شامة : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٧ أنظر أيضا العينى : المصدر السابق جـ ١٦ لوحة ١٤١ — ١٤٣ .

(٤) William of Tyre, op. cit., II, pp. 140—1.

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق ص ٦٧ .

(٦) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٩٨ .

(٧) A.S.C., p. 280.

ثم مالبث أن نادى العسكر بالرحيل ، فتبعته العساكر يتلو بعضها بعضا «عازمين على أن يؤدوا من الجهاد سنة وفرضا» (١)،وألقى الحصار على المدينة، وكان زنكي لما شاهد الرها ورآها تجمع بين «الحصانة والحسن» راسل أهلها ليسلموا إليه المدينة سلما ، مقابل ما بذل لهم من الأمن والأمان ولكنهم رفضوا فأمر زنكي بنصب المنجانيقات ونقب الأسوار (٢)،ويلاحظ أن زنكي كان يعمل للاستيلاء على المدينة فى أقصر وقت ممكن قبل أن تصل النجدات اليها. لذلك كانت قواته تعمل طوال النهار وتراقب بالليل ولم تعط لأهل المدينة فرصة للراحة (٣).وحاول جوسلين وبعض قواته دخول المدينة ،ولكن شدة الحصار لم تمكنه من بلوغ هدفه ، وظل زنكي محاصرا للمدينة ولم تنجح المحاولات المستميتة التى بذلها أهل المدينة من الأرمن والسريان والنصيبيين فى حفظ المدينة.وانتهى الأمر بأن استولى عليها زنكي وعلى قلعتها عنوة بعد ثمانية وعشرين يوما وسقطت فى الثامن والعشرين من جمادى الآخر ٥٣٩ هـ / الخامس والعشرين من ديسمبر ١١٤٤ م (٤) .

وكان جوسلين قد راسل ريموند أف بواتيه أمير أنطاكية يتضرع إليه لمساعدته فى محنته،وأن يتقدم بقواته لمساندته فى إنقاذ الرها.ولكن ريموند اعتذر عن تلبية طلبه (٥) ، وربما يكون ذلك بسبب عدم الوفاق بين الأميرين أو خوف ريموند من تحول عماد الدين اليه بعد الرها . وكل ما قامت به الامارات

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٦٨ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ص ٦٩ .

(٣) Jeseph ben Woshua, op. cit., I, p. 111.

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ص ٦٩ .

(٥) William of Tyre, op. cit., II, pp. 144—5 & n. 15.

الصليبية لمساعدة جوسلين جاء من قبل مليسند الوصية على مملكة بيت المقدس ، فعندما علمت بذلك طلبت من بعض القادة الصليبيين التقدم لانقاذ الرها ، ولكن هذه النجدة وصلت بعد فوات الأوان (١) . وضاعت الرها واستعادها المسلمون ولقد «كان فتحا عظيما» (٢) واستحق كما يرى المؤرخ ابن الأثير أن يسمى فتحها «فتح الفتوح» (٣) .

وأفاضت المصادر الغربية والصليبية واليهودية فى الأعمال الوحشية التى أنزلها رجال زنكى بالمدينة (٤) ، وتناسوا أن زنكى لما دخل الرها أمر باعادة ما أخذ من السبايا والأموال وأنه أعاد المدينة إلى ما كانت عليه (٥) ، وأنه أحسن إلى الرعية «وكتب إلى النصارى امانا» (٦) ، حقيقة أن زنكى خرب الكنائس الثلاثة التى كان يستعملها الصليبيون الكاثوليك واستخدم حجارتها فى اصلاح سور المدينة ، أما باقى الكنائس التى تتعلق ببقية الطوائف الأخرى فقد قام باصلاحها ، كما أصلح المسجد الذى كان يتخذه أسقف المدينة مقرا له (٧) ، كما أن زنكى أحاط جميع سكان المدينة بعطفه ورعايته وأنه صرح لأهالى المدينة الذين غادروها تحت تأثير الاضطهاد الدينى الذى تعرضوا له من قبل الصليبيين الكاثوليك ، صرح لهم بالعودة إلى المدينة.يضاف إلى ذلك

---

(١) Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 111.

(٢) أبو شامة : المصدر السابق جـ ١ ص ١٣٧ .

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٦٧ .

(٤) William of Tyre, op. cit., II, p. 143; Roger of Hovenden, op. cit., II, 249; Otto of Freising, op. cit., pp. 439—440: Joseph ben Joshua, op. cit., I, 111.

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق ص ٦٩ .

(٦) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٥ ص ٢٧٥ .

(٧) A.S.C., pp. 289.

العفو الذى غمر به زنكى رجال قلعة المدينة الذين ظلوا يقاوموا حتى النهاية. وبذلك كسب زنكي محبة أهل المدينة واطمأنوا على مصائرهم (١) وليس أدل على ذلك مما رواه المؤرخ السريانى المجهول وهو من أهل المدينة أن نور الدين زنكى قام بزيارة المدينة بعد سنة من سقوطها للاستفسار عن حاجة أهل المدينة فخرجت اليه كل طوائف أهل المدينة لاستقباله . كما أن نور الدين عندما علم بمرض مطران المدينة بادر بالاستفسار عن صحته (٢) .

ترتب على استرداد الرها عدة نتائج ، منها أنها كانت أول هزيمة عملية ضد أول امارة أقامها الصليبيون فى منطقة الشرق الأدنى الاسلامى . وإزالة الخطر الذى يهدد طريق القوافل الاسلامية التى تمر عبرها إلى شتى البقاع . وشجع المسلمين فى الانقضاض على بقية امارة الرها (٣) . وليس ذلك فحسب فان سقوط مدينة الرها قد غير موازين القوى فى منطقة الشرق الأدنى الاسلامى ودفع المسلمين إلى محاولة استعادة أراضيهم بعدما لمسوا ضعف الكيان الصليبي ، «فقد صارت عقود الفرنج فى ذلك الحين تنفسخ وأمورها تنتسخ ومعاقلها تفرع وعقائلها تفترع» (٤) ومن ذلك أن زنكى أتجه إلى سروج فى الشهر التالى لسقوط الرها ، وهى من القلاع الصليبية الحصينة الواقعة فى شرق نهر الفرات واستولى عليها ، ثم تقدم إلى البيرة ذات الموقع الاستراتيجى الهام ومن أمنع الحصون الصليبية التابعة لجوسلين وضيق عليها الحصار وأشرف على فتحها ، ولكن خبر مقتل نصير الدين نائبه فى الموصل أضطره لرفع الحصار

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٦٠٧ .

(٢) A.S.C., Ibid.

(٣) حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٣٤ .

(٤) الأصفهانى : المصدر السابق ص ٢٠٥ .

والعودة إلى الموصل . وبعد رحيل زنكى خاف أهل البيرة — من الصليبيين — عودته مرة أخرى فسلموا المدينة إلى حسام الدين تمرتاس بن ابلغارى صاحب ماردين (١) .

وهكذا ضاعت البيرة سلما بعد أن ضاعت الرها حربا وبقى من الامارة سميساط ومرعش وذلوك وقورس وجرجر وعين تاب والرواندان وبهنسى وحصن منصور وقلعة الروم (هروجملا) وتل باشر الذى اتخذها جوسلين الثانى مقرا له (٢) .

ورغم الخطر الذى بات يتهدد الصليبيين فلم يظهروا شيئا من التعاون فيما بينهم ، يضاف إلى ذلك أن جوسلين لم يغفر لأمير أنطاكية ريموند عدم تعاونه معه أثناء القتال على الرها وفى الوقت نفسه رفض ريموند الوفاق مع جوسلين (٣) بعكس الحال مع مملكة بيت المقدس التى أظهرت تعاطفها والوقوف إلى جانب جوسلين .

وأدرك ريموند أف بواتيه أمير أنطاكية وهى الامارة المتأخمة لأملاك عماد الدين مدى الخطر الذى بات يتهدده بعد سقوط الرها ، وخاصة بعد ما لمس حالة الضعف التى أنتابت الامارات الصليبية يضاف ، إلى ذلك احساسه بتباعد الأمراء الصليبيين عنه بعد موقفه من جوسلين . وتلفت حوله ليجد سندا له فى امارته ، فلم يجد غير الامبراطورية البيزنطية التى تمرد عليها بالأمس ليتوجه اليها ذليلا يطلب المساعدة . لذلك قرر ريموند أن يذهب للعاصمة البيزنطية

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٦٩ — ٧١ ، أبو شامة : المصدر السابق جـ ٥ ص ٤٠ — ٤١ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٢٩ .

(٢) A.S.C., p. 342.

(٣) Runciman, op. cit., II, p. 238.

متوسلا يلتمس الحماية والمساعدة ، وتوجه فى عام ١١٤٥ م / ٥٣٩—٥٤٠ ه إلى الأمبراطور البيزنطى مانويل ، ولكن الامبراطور لم ينس مواقف ريموند من والده الأمبراطور يوحنا فى عام ١١٣٧ م ، وعام ١١٣٨ م . وعام ١١٤٢ م ، لذلك طلب من الأمير ريموند التوجه أولا لزيارة قبر والده فى دير بانتوكراتور Pantokrator — الموجود فى العاصمة والذى بناه يوحنا بنفسه — للترحم عليه ويسأله العفو على انتهاكه للعهود التى قطعها معه . وقام ريموند بعمل ما أشار به مانويل ،وعاد إلىالأمبراطور ليقدم له فروض الولاء والطاعة وليقسم له باعتباره أميرا لأنطاكية أن يكون تابعا وواليا للامبراطورية البيزنطية ، وبعد هذه المواقف المهينة والمذلة للأمير ريموند تمخض هذا كله عن وعد من قبل الامبراطور بالحضور فيما بعد إلى الشام لتقديم المساعدة للصليبيين (١) .

وفى الواقع لم يكن مانويل يستطيع مغادرة العاصمة وخلفه جيش الامبراطورية ويتوجه إلى الشام لمساعدة الصليبيين فى هذه الفترة بالذات . فانه كان قد تحالف مع آل دانشمند ضد سلاجقة قونية ، ويستعد لمنازلة السلاجقة ، كما كان مشغولا بأمر زواجه من برتا أف سالزباخ وما سيترتب على هذا الزواج من تحالف مع كونراد الثالث ملك ألمانيا ضد روجر الثانى ملك صقلية ١١٢٧ — ١١٥٤ م / ٥٢١ — ٥٤٩ ه . لذلك لم يكن من المعقول أن يترك مانويل العاصمة ويذهب إلى الشام لمساعدة الصليبيين ضد زنكى

---

(١) Cinnamus, op. cit., 35; Odo of Deuil, op. cit., p. 71.
أنظر أيضا : عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٤٩ ، سعيد عبد الفتاح عاشور : المصدر السابق ج ١ ص ٥٩٢ . ولم يشر المؤرخ وليم الصورى إلى خضوع ريموندللامبراطور البيزنطى مانويل .

تاركا دولته فريسة للسلاجقة والنورمان ، الذين يتربصون بالامبراطورية البيزنطية ، فى هذه الفترة بالذات والطامعون فى العرش البيزنطى يحومون حوله.

والحقيقة أن الصليبيين كانوا يكرهون الامبراطورية البيزنطية وتدخلها فى أمورهم ، ولم يلجأوا اليها إلا فى أوقات المحن والأزمات ، وحقيقة أخرى هى أن الصليبيين تذكروا أن الامبراطور يوحنا كان يعتبر الرها — مثل أنطاكية — من أراضى الأمبراطورية ولقد بدأ هذا واضحا من تصرفات يوحنا مع جوسلين أثناء حملة الامبراطور ضد شيزر وحلب فى عام ١١٣٨ م ، وذلك عندما أرسل يوحنا إلى كل من ريموند وجوسلين يأمرهما باعداد القوات والالآت الحربية استعدادا لمهاجمة زنكى ولم يكن بوسع جوسلين سوى تنفيذ ما طلبه الأمبراطور (١) ، يضاف إلى ذلك أن الأمبراطور يوحنا عندما استولى على مدينة بزاعة من المسلمين فى هذا الوقت سلمها لكونت الرها جوسلين وليس إلى الأمير ريموند حسب ما أتفق عليه من قبل (٢) ، وأخيرا ما قام به الأمبراطور عندما تقدم إلى أنطاكية فى سبتمبر عام ١١٤٢م وعسكر عند تل باشر وطلب من جوسلين تقديم بعض الرهائن • وامتثل جوسلين وأرسل اليه أبنته ايزابيلا ، وقد روى وليم الصورى تفسيرا لذلك فقال أن السبب الوحيد لأعمال الأمبراطور هذه هو العمل على احتواء جوسلين بقدر مايستطيع وأن يجعله أكثر اخلاصا فى تنفيذ أوامر الأمبراطور (٣) .

عادت هذه الأحداث إلى أذهان الصليبيين . وهى الأحداث التى كرهوها بالأمس ونددوا بالأمبراطور يوحنا من أجلها ، لتكون وثيقة لديهم بعد سقوط

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 94.

(٢) Nicetas, op. cit., p. 37.

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 124.

الرها — أى فى محنتهم — يطالبوا الامبراطور البيزنطى بموجبها الحضور إلى الشام على الفور ومحاربة زنكى ، وأن عدم حضوره يعتبر جريمة فى حق الصليبيين بصفة عامة وفى حق امارة الرها بصفة خاصة ، وكان يجب عليه التدخل لانقاذها قبل أن تسقط تماما فى أيدى الصليبيين (١) ، ولعلنا نشعر فى قصيدة الشاعر الأرمينى سانت نرسيس — التى كتبها عن سقوط الرها زفرة أسى واضحة لما أصاب مدينة الرها ولتخلى الأمبراطور البيزنطى مانويل عن مساعدتها وانقاذها من أيدى المسلمين (٢) .

ورغم كل هذه الظروف فقد حاول جوسلين استعادة مدينة الرها . وانتهز فرصة مقتل عماد الدين زنكى وهو يحاصر قلعة جعبر ، وراسل من بالمدينة من الأرمن الذين يميلون اليه لكون أمه أرمينية «ووعدهم يوما بعينه يصل اليهم (٣). وفى السادس عشر من جمادى الأولى ٥٤٠ هـ / الخامس من نوفمبر ١١٤٥ م تجمع جوسلين ومعه تابعه بلدوين صاحب مرعش وكيسون وقواتهم فى دلوك واتجهوا إلى المدينة وتمكنوا من دخولها . وحاصروا قلعة المدينة بمن فيها وبدأوا فى قتالهم ، ولما بلغ نور الدين — الذى خلف والده فى حلب — هرع إلى المدينة ، فلما علم جوسلين بوصوله فر إلى سميساط (٤) فدخل نور الدين المدينة وقضى على هذه المحاولة وقتل بلدوين (٥) . وانتقم نور الدين من أهل

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 208.

(٢) Saint Nerses, op. cit., p. 230 & n. I.

(٣) ابن الجوزى : المصدر السابق ج ٨ ق ١ ص ١٩١ — ١٩٢ ، أنظر أيضا : ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٢٨٨ ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١١٤ .

(٤) عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر :

(٥) Le Doctor Basil, Oraison Funebre de Baudouin, cf. R.H.C. Arm., I, p. 204.

المدينة لغدرهم به ، وفى هذه المرة لم تفرق القوات الاسلامية بين الصليبيين الغربيين والمسيحيين المحليين والأرمن والسريان ، وانما أعملوا السيف فى الرجال وساقوا النساء والأطفال إلى حلب وبذلك خلت مدينة الرها من أهلها ولم يبق منهم إلا القليل (١) .

وإذا كان سقوط الرها لم يدفع الامبراطور البيزنطى مانويل إلى القيام بأى عمل عسكرى ضد المسلمين فى الشام ، فمما لاشك فيه أن سقوط المدينة كان له رد فعل عنيف فى الامارات الصليبية ،وليس ذلك فحسب بل لـقد سقط سقوط الصاعقة على رأس العالم الغربى (٢) . لأن امارة الرها كانت أول امارة لاتينية يؤسسها الأجانب الدخلاء فى الأراضى المقدسة وأول امارة يستردها المسلمون ، فجاء سقوط هذه الدعامة إيذانا بترنح البناء الصليبى الكبير الذى نجح الصليبيون الأوائل فى اقامته بالشرق . ولم يغب عن بال الغرب الأوربى الخطورة التى ترتبت على ضياع الرها ، لذلك حاول زعماء الغرب الأوربى الاسراع إلى ترميم ذلك البناء وسنده وهبوا لنجدة الامارات الصليبية بالشام حتى لا تقع غنيمة باردة فى يد القوة الجديدة بقيادة نور الدين زنكى الذى أخذ على عاتقه مهمة توحيد المسلمين للقضاء على الصليبيين وتنقية الشرق الأدنى الاسلامى من الدخلاء (٣) .

كان سقوط الرها السبب المباشر فى قيام الحملة الصليبية المعروفة بالثانية لمساندة الصليبيين فى الشام ، والامبراطورية البيزنطية لها أطماع فى الامارات

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المصدر السابق ج ٢ ص ٦١٣ — ٦١٤ .

(٢) Adison, C., The History of the Knights Templars, p. 38.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المصدر السابق ج ٢ ص ٦٢١ .

الصليبية خاصة فى أنطاكية . لذلك كان على الامبراطور البيزنطى مانويل أن يرنو ويفكر فى أمر هذه الحملة ليرى ما ستفعله وأثرها على النفوذ البيزنطى المراد دعمه فى أنطاكية بالذات . وهنا تجدر الاشارة إلى أن الباحث سوف لا يتناول أحداث الحملة بكافة تفاصيلهاوسيكتفى بالتركيز على الأحداث التى تتعلق بجوانب هذا البحث وموقف الامبراطور مانويل من الحملة حتى لا يكون هناك استطرادا أو خروجا على محور البحث .

وأقدم نص فى المصادر المتاحة لنا يتعلق بالرغبة فى قيام هذه الحملة هو خطاب البابا يوجين الثالث الذى وجهه إلى لويس السابع ملك فرنسا فى أول ديسمبر ١١٤٥ م / الثالث عشر من جمادى الآخرة ٥٤٠ ه (١) . فقد تناول البابا فى رسالته هذه ذكر سقوط الرها وماله من أسوأ الأثر على الكيان الصليبى فى الشام ، وأبدى رغبته فى ارسال حملة صليبية إلى الشرق . ولم يرد فى النص ما يفيد أنه طلب من الملك لويس قيادة الحملة (٢) . وربما يرجع اختيار البابا للملك الشاب الذى يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاما . أن لويس نذر القيام بحملة صليبية إلى الشرق كنوع من الندم والتوبة على ما اقترفت يداه فى حق مدينة فترى Vitry ،وهى المدينةالخشبية التى أضرم فيها النار أثناء صراعه مع كونت شامبانى وأحرقها بما فيها من الأحياء وعدتهم ثلاثة عشر ألف نسمة سنة ١١٤١ م / ٥٣٥ — ٥٣٦ ه (٣) .

---

(١) عن النص الكامل لخطاب البابا أنظر :
Eugenius III, letter to louis VII, Cf.R.H.G.F.,XV, pp. 429—430.

(٢) لمزيد من التفاصيل أنظر : Otto of Freising, The deeds of Frederick Barbarossa, pp. 71—73; Brundage, J., Crusades, A Documentary Survey, pp. 86—88.

(٣) Tout, T., The Empire and the Papacy, p. 284,.

وعندما تسلم لويس خطاب البابا أعلن فى الخامس والعشرين من ديسمبر ١١٤٥ م الثامن من رجب ٥٤٠ ﻫ عزمه على حمل الصليب والتوجه إلى الأراضى المقدسة ، ولكن هذه الرغبة قوبلت بالفتور فى دوائر البلاط الفرنسى كما عارضها سوجر Suger رئيس دير سانت دنيس Denis ، ولكن رغبة الملك ومساندة البابا أدت إلى اجتماع فيزلاى لاعلان الحملة والدعاية لها، وهو ماتولاه بعض رجال الدين وعلى رأسهم برنارد Bernard رئيس رهبان دير كليرفو Clairvaux (١) . وانتشر خبر قيام الحملة فى الآفاق ونادى البعض فى غمرة هذه الأحداث بثلاث حملات ، أحدهما للعمل فى الأندلس والثانية ضد الوثنيين فى شمال نهر الألب ، والثالثة إلى بيت المقدس (٢) . وما يهمنا أن برنارد نجح بعد ما بذل جهدا كبيرا فى اقناع كونراد الثالث ملك ألمانيا (٣) بالتوجه إلى الأراضى المقدسة (٤) .

بدأ الاستعداد لقيام الحملة ،وأرسل لويس من جانبه خطابين أحدهما إلى روجر ملك صقلية والآخر إلى الامبراطور مانويل يخبرهما بالحملة المزمع قيامها ليعرف من كل منهما مدى المساعدة التى يمكن تقديمها للحملة .وبالنسبة لروجر ملك صقلية فقد أجاب معلنا رغبته الشديدة ورغبة نبلائه للمساهمة فى هذا المشروع ، وأرسل سفراء من لدنه إلى الملك لويس لترتيب أمر نقل

(١) Odo of Deuil, op. cit., p.p. 7—9.

(٢) Otto of Freising, op. cit., p. 74.

(٣) اتخذ كونراد لنفسه لقب امبراطور خاصة فى مراسلاته مع الأباطرة البيزنطيين حتى يكون ندا لهم ويبدو أن ذلك هو السبب فى اضفاء لقب امبراطور على كونراد ، والواقع أن كونراد مات فى ١٥ فبراير ١١٥٢ م وهو فى طريقه إلى روما للحصول على التاج الأمبراطورى أنظر :

(٤) Folzy, R., The Concept of The Empire, p. 105. Otto of Fresing, op. cit. p. 75.

الصليبيين بالطريق البحرى ودراسة الاحتياجات الأخرى التى يمكن المساهمة بها، ووعد بأن يذهب بنفسه أو يرسل ابنه مع قوات الحملة (١)، ولكى يقنع الملك لويس بوجهة نظره فقد ندد بالامبراطورية البيزنطية وركز على خيانة الأباطرة البيزنطيين للحركة الصليبية التى ورثوها عن الامبراطور الكسيوس (٢).

وفى الحقيقة كان النورمان يملكون أسطولا كبيرا يمكنه الاسهام بنجاح فى نقل القوات الصليبية، ولكن روجر كان يهدف من وراء تقديم هذه المساعدة إلى تحقيق هدف آخر، فقد كان روجر يطالب بأنطاكية باعتباره وريثا لبوهمند الأول. وبذلك أصبح قدومه إلى الشرق يثير مشكلة مع ريموند أف بواتيه صاحب أنطاكية، ولما كان ريموند هذا خال الملكة اليانور Eleanor زوجة لويس، فقد أصبح الأمر واضحا فى عدم قبول أية مساعدة من روجر حتى لا تكون زريعة له للتدخل فى امارة أنطاكية. حتى لو كان انضمام روجر هو العامل الأول فى انجاح الحملة (٣). يضاف إلى ذلك أن روجر كان فى حالة عداء مع كونراد ومع مانويل وهما اللذان أصبحا حليفان فى هذه الفترة. وعلى ذلك فان قدوم روجر يثير المشاكل مع كونراد أثناء سير الحملة بحرا ومع مانويل إذا ما قدمت بعض القوات عن طريق البر عبر القسطنطينية، وحتى إذا نقلت الحملة كلها عبر البحر فان المشكلة قائمة نظرا لادعاء مانويل السيادة على أنطاكية. وبذلك أصبحت مشكلة أنطاكية تسير فى ثلاثة اتجاهات، اتجاه روجر فى وراثة أنطاكية واتجاه مانويل فى فرض سيادته على أنطاكية، وثالثا رغبة ريموند فى دعم استقلاله التام بالامارة

(١) Odo of Deuil, op. cit., p. 11.
(٢) Ludlow, J.M., op. cit., p. 168.
(٣) Belloc, The Crusade p. 242, Runciman, op. cit., II, p.p. 251—2.

بعيدا عن مانويل وروجر ،ويبقى بعد ذلك موقف لويس الذى سيصبح حرجا للغاية باعتباره طالبا المساعدة من روجر وصهرا للأمير ريموند .

وهنا نتساءل وكل هذه الأمور كانت معروفة لجميع القيادات فى أوربا والشرق فى ذلك الوقت ، لما أرسل لويس إلى روجر يطلب منه المساعدة ؟ والواقع أن لويس ربما قصد الوقوف على رغبة روجر الحقيقية من وراء هذه المساعدة ، أو ربما قصد لويس من وراء ذلك ممارسة نوعا من الضغط على مانويل حتى يحصل منه على أكبر قدر من التسهيلات عند مرور الحملة عبر أراضي الامبراطورية ،وهو الطريق البرى الوحيد البديل للطريق البحرى . والباحث يميل إلى الأخذ بالرأى الثانى خاصة وأن لويس أرسل فى الوقت نفسه خطابه إلى الامبراطور مانويل أثناء حروب الأخير مع السلاجقة فى صيف عام ١١٤٦ م (١) .

ويبدو أن مانويل كان يعلم بأمر الاتصال مع روجر – لأن مانويل كان بامكانه التعلل بحروبه مع السلاجقة ويطالب بارجاء الحملة أو عدم امكانه تقديم المساعدة للحملة – لذلك أرسل مانويل رده إلى لويس متضمنا أسلوبا رقيقا وخاطبه مخاطبة الاخوة وقدم له وعودا مشجعة فى الوقت الذى تحفظ مانويل فى خطابه وأشار أنه عقد الهدنة مع السلاجقة وأنه لا يستطيع المساهمة بقواته التى يدخرها خشية أن يقوم السلاجقة بخرق الهدنة (٢) ، كما أرسل الامبراطور مانويل إلى البابا يوجين خطابا فى أغسطس ١١٤٦ م / صفر – ربيع أول ٥٤١ هـ يعلن فيه استعداده لاستقبال الصليبين وتشريفهم اياه كما سبق أن شرفوا جده الكسيوس من قبل (٣) .

(١) Odo of Deuil. op. cit., p. 11.
(٢) Manuel, Letter to Louis VII, Cf., R.H.F.G., XV p. 9.
(٣) aWnuel, Letter to The Pope Eugenius, Cf., R.H.G.F. XV, p.p. 440—441.

ولعل فى خطاب مانويل إلى البابا اشارة واضحة إلى الولاء الذى قدمه القادة الصليبيون إلى الامبراطور الكسيوس من قبل ؛ وبالتالى فهو يطالب بالولاء نفسه خاصة وأنه لم يطلب مساعدة من الغرب الأوربى . ولست أدرى لماذا لم تتنبه القيادات فى أوربا إلى مثل هذه الاشارة ، أو ربما فطنت اليها ووجدت أن قيادة الحملة فى هذه المرة ،وهى التى تضم لويس وكونراد تختلف عن قيادة الأمراء للحملة الأولى ؛ فالقيادة الآن مساوية لمركز الامبراطور وأن ذلك يغير الموقف ، أو لعلها وجدت أن ذلك أخف ضررا من اشتراك روجر فى الحملة ، وترجيح آخر وهو أن البابا أخفى أمر هذه العبارة على لويس وكونراد وهو ،أمر خطير لأن ذلك يعنى أن البابا يود أن تقوم الحملة ويسجل له ذلك الجهد ، أما أن تنجح أو تفشل فهو أمر تقع مسئوليته على كاهل القيادات وليس على كاهله .

على أية حال اتخذت الحملة قرارها بالسير برا عبر القسطنطينية بعد أن نبذت مشروع روجر الذى غضب لهذا التصرف وقام فى خريف عام ١١٤٧م منتصف ٥٤٢ هـ — أى قبل وصول أية قوات صليبية إلى العاصمة البيزنطية — وهاجم الامبراطورية البيزنطية واستولى على جزيرة كورفو Corfu وبعض المدن الصناعية الأخرى ونقل عمالها إلى بالرمو Palermo فى صقلية . مما كان له أسوأ الأثر على الاقتصاد البيزنطى (١) ، وليس ذلك فحسب فالأهم أن الامبراطو مانويل قد أنهى الحرب مع السلاجقة بعقد الهدنة حتى يتفرغ للحملة وربما كان يرى قيادتها أو استغلالها لتحقيق بعض أطماعه فى الشرق ؛

---

(١) Heyd, Histoire du Commerce du Lavant, pp. 198—9; Brown, H.F., Studies in the History of Venice, p. 74.

أنظر أيضا : ابن الفرات : تاريخ الأمم والملوك (مخطوط) جـ ٥ لوحة ٢٦ ب .

أما الآن وبعد مهاجمة روجر للأمبراطورية فيبدو أن موقف مانويل قدتذبذب بعدما انشغل بأمر هذا الخطر الجديد. فهل كان عليه أن ينقض يده من الحملة حتى يتفرغ إلى الخطر النورماني أم لا يلقى بالا إلى الخطر النورماني ويهتم بأمر الحملة ؟ ، هذا ما ستوضحه لنا الأحداث التالية .

نعود إلى الحملة التي تحدد لها الخامس عشر من يونية ١١٤٧ م / السادس عشر من المحرم ٥٤٢ ﻫ موعدا للرحيل (١) وتقدم كونراد على رأس قواته التي بلغت ما يقرب من سبعين ألفا من الفرسان بالاضافة إلى المشاة، ويلاحظ أن قواته لم تسر مع القوات الفرنسية فى وقت واحد للتغلب على مشاكل التموين لهذه الاعداد الضخمة (٢) . وعندما بدأت القوات الألمانية تصل إلى مشارف الحدود البيزنطية فى أوربا ، انزعج مانويل الذى كان يترقب أخبار الحملة من هذه الأعداد الضخمة، وشرع فى تحصين العاصمة، وبدأ فى الاتصالات الدبلوماسية للتعرف على نوايا الحملة تجاه الامبراطورية، وأرسل سفارة مكونة من ديمتريوس Demetrius ومايروس Mairus ، وطالبت السفارة الملك كونراد — رغم كونه حليفا للأمبراطور — أن يقسم بالعمل على مراعاة مصالح الامبراطورية فأقسم كونراد ، وبذلك تأكد المبعوثان من حسن نية الملك الألماني ووعداه بالمساعدة أثناء عبوره أراضى الامبراطورية(٣) وبدأت الأمور تسير سيرا طبيعيا .

ولكن المتاعب بدأت عندما قامت القوات الألمانية بنهب القرى بعد ما عبروا مدينة صوفيا Sofia ، وعندما اشتكى المواطنون البيزنطيون للملك

---

(١) Odo of Deuil, op. cit., p. 15.
(٢) Roger of Wendover, op. cit., I, p. 449.
(٣) Cinnamus, op. cit., pp. 66—9.

أجاب بأنه ليس بوسعه أن يحكم هؤلاء الرعاع ، يضاف إلى ذلك المذبحة التى قام بها الألمان فى أهالى مدينة فيليوبولس Philippolis وإضرامهم النار فى ضواحى المدينة التى أغلقت أسوارها ، ولا يمكن وصف ذلك الا بأنه عمل بربرى ارتكبته القوات الألمانية الثملة فى حق المواطنين البيزنطيين (١) ، وسيكون لهذه المعاملة أسوأ الأثر فى معاملة المواطنين للصليبيين فى المراحل المقبلة (٢) . ولما علم مانويل بهذه الحوادث أرسل على الفور قائده برسق التركى ومعه بعض القوات لاصطحاب الصليبيين لمنع الصدام بين المواطنين والصليبيين وقد نجح برسق فى مهمته ، والواضح أن مانويل رأى عدم قدوم القوات الألمانية إلى القسطنطينية بعد ما قاموا بهذه الأحداث ، لذلك أرسل إلى كونراد وهو فى مدينة أدريانوبل Adrianople ، يعرض عليه أن يتخذ طريقه إلى آسيا الصغرى عبر مدينة سيستوس Sestos التى تقع على بوغاز الدردنيل ، ولكن كونراد رفض ذلك وأتخذ طريقه إلى القسطنطينية (٣) .

ولما وصل كونراد العاصمة فى العاشر من سبتمبر ١١٤٧ م / الثانى عشر من ربيع ثانى ٥٤٢ هـ أكرم مانويل ضيافته — دون أن يتقابلا — ثم توترت العلاقات مرة أخرى عندما قام الألمان بأعمال العنف ضد المواطنين البيزنطيين فى الوقت الذى لم يأخذ فيه كونراد أى اجراء لوقف هذه الأعمال . وعندما طالبه مانويل بالتدخل للسيطرة على الموقف غضب وهدد بالعودة فى العام التالى لمهاجمة القسطنطينية وتأزم الموقف بين العاهلين ، ولم تنفرج الأزمة إلا بعد ماتدخلت زوجة مانويل ونجحت فى التوفيق بين زوجها وبين زوج

---

(١) Odo of Deuil, op. cit., 43—47.

(٢) Oman, op. cit., I, p. 25; Finly, op. cit., III, p. 165.

(٣) Cinnamus, op. cit., pp. 69—74; Odo of Deuil, op. cit., p. 47, 49.

أختها . ومالبث أن تخلص مانويل من كونراد وقواته عندما وصلت طلائع القوات الفرنسية الصليبية ووقعت بعض المصادمات والشغب بين القوات الألمانية والفرنسية ، الأمر الذى دفع كونراد إلى عبور البسفور بقواته منعاً لمزيد من الصدام (١) وبعد عبور القوات الألمانية اتجهت إلى خلقدونية ، ويبدو أن العلاقات بين مانويل وكونراد قد تحسنت فى هذه المرحلة بدليل ما قدمه الامبراطور مانويل من الهدايا إلى الملك الألمانى ، ويبدو أيضا أن مانويل حاول تقوية الروابط مع الحملة فى هذه المرحلة أيضا ، فعرض على كونراد استبقاء بعض القوات الألمانية فى العاصمة مقابل ما يقدمه مانويل من قوات بيزنطية لصفوف الحملة ولكن كونراد رفض هذا العرض (٢) . ولعل مانويل قصد من وراء هذا العرض عدم عزل الامبراطورية البيزنطية عن مساندة الحركة الصليبية سواء أكان جادا فى عرضه أم لا ، أو ربما أراد بضم بعض قواته لقوات الحملة أن ينسب للامبراطورية البيزنطية جزء من النجاح الذى توقعه للحملة نظرا لاعدادها الضخمة ، وتظل على الأقل ادعاءات السيادة البيزنطية على أنطاكية باقية ، وإذ كان المؤرخ فازيليف يرى أن مانويل كان يعمل على قيادة الحملة (٣) ، فالرد على ذلك أن مانويل لم يكن يجرؤ على ترك العاصمة البيزنطية بعد ما هاجم روجر أراضى الامبراطورية منذ قليل ، يضاف إلى ذلك أن مانويل لو أراد ذلك لما طلب من كونراد الابتعاد عن العاصمة نهائيا والعبور إلى آسيا الصغرى بجيشه عن طريق الدردنيل . أما عن رفض كونراد لعرض الامبراطور مانويل فقد جانب كونراد الصواب فى ذلك ، لأن كونراد إذا كان قد ترك عددا من القوات مساويا للقوات البيزنطية لكى

---

(١) Odo of Deuil, op. cit., pp. 49—51; Cinnamus, op. cit., 79.

(٢) Nicetas, op. cit., p. 87; Cinnamus, op. cit., p. 82.

(٣) Vasiliev, History of the Byzantine Empire, II, 71.

تنضم إلى صفوف الحملة ، فلاشك أن ذلك كان فى صـــالحه لأن القوات البيزنطية تعلم المسالك والطرق إلى الشام ومتمرسة على القتال ضد السلاجقـة ومسلمى الشام بعكس القوات الألمـانية ، والحقيقة أن كونراد أعتقـد فى نجاح القوات الألمـانية بمفردها — حتى بدون القوات الفرنسية — وهذا ما دفعه إلى الاسراع فى التوجه إلى الشام قبل أن يلحق به لويس وقواته (١) . لذلك رفض العرض البيزنطي حتى ينسب له بمفرده دون أية قيادة أخرى ما تحققه الحملة من نجاح .

استعد كونراد للتوجه إلى الشام وكان كل ما طلبه من مانويل امـداده ببعض المرشدين ليصحبوه فى الطريق عبر الأناضول ، فقدم إليه مانويـــل المرشدين ، وفى الوقت نفسه نصح الامبراطور الملك كونراد بأن يتخذالطريق الساحلى الغربى لآسيا الصغرى ثمالساحل الجنوبى ليصلإلى أضاليا (٢) .وهى الطرق التى تقع تحت سيطرة الامبراطورية البيزنطية ، كما أشار عليه أيضا باعادة كافة الصليبيين الزائدين على الحاجة إلى أوطانهم حتى لا يتسببوا فى ارباك صفوف ،الحملة ولا يكونوا عبئاعليها فى اعاشتهمأو غير ذلك (٣) .

ولكن كونراد لم يأخذ بهذه النصائح الهامة التى قدمها له الامبراطـــور واصطحب كافة القوات واختار أقصر الطرق ليصل إلى الشام (٤)،وهـو الطريق الذى يستغرق حوالى ثلاثة أسابيع والذى تقع عنده العاصمة السلجوقية قونية على بعد مسيرة اثنا عشر يوما من خلقدونية (٥) ، ولم يكن يدرى أنه

---

(١) Finlay, op. cit., p. 166.

(٢) Odo of Deuil, op. cit., p. 51.

(٣) Odo of Deuil, op. cit., p. 53.

(٤) Setton, op. cit., I, p. 495; Finlay, op. cit., III, p. 166.

(٥) Anderson, J., Road System of Eastern Asia Minor Cf., The Journal of Hellenic Studies, Vol. XVII, 1879, pp. 39—40.

باختياره لهذا الطريق قد خطط لفشل الحملة (١).وأتجه كونراد حتى وصل إلى مدينة نيقية وهناك أعاد النظر فى خط سير الحملة فقسم جيشه إلى قسمين ، أحدهما وهو القسم الرئيسى وتولى كونراد قيادته بنفسه عبر الطريق الذى أختاره من قبل ، أما القسم الآخر وهو غير المسلح فقد عهد به إلى أوتو أف فرايزنج وأختار له الطريق الأوسط وهو الذى يمر بمنطقة فلادليفيا ولاودكيا الغربية ثم إلى أضاليا (٢)،وبعد ما زود كونراد جيشه بالمؤن التى تكفيه لمدة ثمانية أيام فقط ، أصدر أوامره لقواته بالتقدم ، وكانت الرحلة شاقة ومرهقة وما أن أشرف اليوم الثالث حتى كان الضيق قد لحق بهم من وعورة الطريق عبر الممرات والجبال (٣) ، وفى هذه المرحلة يسجل المؤرخ البيزنطى نيكتاس أن هناك من يقول أن الأمبراطور أمر بخلط مايباع من الدقيق بالجير ،وأن المواطنين البيزنطيين تعاملوا مع الألمان بعملة أقل وزنا من الوزن المعتاد وأن الامبراطور أثار الأتراك السلاجقة ضد القوات الألمانية ،وأنهطلب من المرشدين تضليل الحملة والهرب.ويضيف المؤرخ نفسه أنه لا يدرى عما إذا كان ذلك صحيحا أم لا (٤) . ويروى المؤرخ الفرنسى أودواف ديل أن الصليبيين كانوا تواقين لليوم الذى يصلوا فيه إلى قونية قبل أن يهلك الجيش الألمانى ، وفى اليوم الرابع لمغادرتهم نيقية اكتشفوا هروب الدليل عند مطلع الفجر ، واكتشف ذلك حاملوا أعلام الملك الذين كانوا على علاقة سيئة بالدليل ، وفجأة تبين للصليبيين أن السلاجقة منتشرون على قمم الجبال المحيطة بهم ، وأن الألمان قد أصابهم اليأس لأن الدليل البيزنطى قد هرب قبل ما

---

(١) Strogorsky. op. cit., p. 339.
(٢) Cinnamus, op. cit., pp. 80—81.
(٣) Odo of Deuil, op. cit., p. 91.
(٤) Nicetas, op. cit., pp. 88—89.

ينال ما يستحقه على جريمته (١) . أما وليم الصورى قد روى أن المرشدين اختاروا الطريق للحملة وهو الطريق الذىأصبحت فيه تحت رحمة السلاجقة وقد أنتاب الحملة مزيدا من الصعاب ، لذلك استدعى الملك كونرادالمرشدين ليسألهم عن الموعد الذى سيصلون فيه إلىقونية،وأجاب المرشدون بأن ذلك على مسيرة ثلاثة أيام من مواقعهم ثم ما لبث أن هرب المرشدون فى الليلة نفسهاوبدون المرشدين وجد كونراد جيشه فى ضياع وأشار بعض القادة الصليبين بالعودة والبعض الآخر بالتقدم فى الوقت الذى عانى فيه الصليبيون من نقص الامدادات فأكلوا الدواب ثم ما لبث أن انقض عليهم السلاجقة من كل جانب، وأضاف أن ذلك كله مرجعه إلى خيانة البيزنطين (٢) :

وحول ما رواه نيكتاس رغم تحفظه أصبح الآن مرفوضا وهو مالم تشر إليه المصادر المعادية للامبراطور مانويل . وقد حسم هذا الأمر كله الخطاب الذى أرسله كونراد إلى ويبالد أسقف كورفرى Corvery .وفيه سجل كونراد أنه اختار هذا الطريق بنفسه ليصل إلىالشام بأسرع وقت.وأنه قد حصل على المؤن الكافية قبل رحيل قواته من نيقية. كما أنه لم يعلق على المرشدين أهمية تذكر ،ولم يشر إلى خيانتهم كما أنه لم يربط بين هروب المرشدين وبين ظهور الأتراك السلاجقة (٣) ، ويمكن القول أيضا أن مؤن القوات الصليبية الألمانية قد نفذت عند فيلوميليوم Philomelium . وهى النقطة التى بدأ فيها السلاجقة فى مهاجمة الصليبيين بعد ما قطعوا الطريق عليهم ، وعندما وجدوا أنفسهم يموتون جوعا فى بلاد يجهلونها أتهموا المرشدين بالخيانة ، ولم

---

(١) Odo of Deuil, op. cit., pp. 91—93.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, pp. 168—172.

(٣) Conrad III, letter to Wibald, Cf., R.H.G.F.,XV, p. 533.

ينتظر المرشدون خوفا من التهديد فهربوا ثم وقعوا فى أيدى السلاجقة ،وقد عرف منهم السلطان مسعود الحالة السيئة التى يمر بها الصليبيون، لذلك سقط الجيش الألمانى غنيمة باردة فى يد السلاجقة (١) .

وهكذا ارتبك الصليبيون واختلت القيادة وحاولوا الاحتماء فى شعاب الجبال ولكن السلاجقة أحاطوا بهم وأمطروهم وابلا من السهام، يساعدهم فى ذلك حركاتهم السريعة على ظهور الجياد فى الوقت الذى لم يتمكن فيه الصليبيون من امتطاء خيولهم لما أصابها من الضعف بسبب قلة الطعام ، وعندما رأى السلاجقة أن الصليبيين لا يحملون أقواسا انقضوا على المؤخرة والمقدمة والوسط وسادت الفوضى جميع الصفوف الصليبية مما ساعد على أنزال خسائر فادحة فى صفوف الألمان، حتى يمكن القول بأن هذه المعركة كانت مذبحة قتل فيها تسعة أعشار الجيش الألمانى وأصيب كونراد نفسه بجرحين أحدهما فى رأسه(٢). ولاشك أن سقوط الملك القائد جريحا وسط قواته وهى فى هذه الحالة قد ساعد على مزيد من الفوضى والاضطراب فى صفوف القوات الألمانية .

وحاول كونراد أن يعيد تنظيم فلول قواته وهو جريح ولكنه فشل فى ذلك، وكل ما كان بوسعه أن يفعله هو الانسحاب بأسرع وقت إلى نيقية، وكان انسحابا اتسم بالفوضى فأستغله السلاجقة فى إضافة المزيد من الخسائر إلى القوات الألمانية الهاربة ، وبهذه الكارثة نستطيع القول أن الجيش الألمانى الصليبى قد إنتهى أمره وكانت رحلته عبر آسيا الصغرى وبالا عليه (٣) مما سيكون له أسوأ الأثر على نتائج الحملة بأكملها .

---

(١) Oman, op. cit., I, p. 245.

(٢) Odo of Deuil, op. cit., pp. 94 n. 14,95.

(٣) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ١٥٦ .

هذا ما كان من أمر القوات الرئيسية التى قادها كونراد ، أما القسم الآخر الذى تولى قيادته أوتو أف فرايزنج الذى أتخذ طريقه إلى لاودكيا الغربية فقد تعرض هو الآخر لهجمات مماثلة من السلاجقة، مما أدى إلى هلاك عدد كبير من القوات. يضاف إلى ذلك ما تعرض له من المجاعة بسبب نقص الامدادات ، وقد وصلت البقية الباقية إلى أضاليا وهى فى حالة من الأعياء الشديد (١) .

ومن الملاحظ أن المؤرخين لم يتحدثوا عما فعله المرشدون مع هذه المجموعة أو ينسبوا الكارثة التى حلت بهم أيضا إلى مانويل أو البيزنطيين على وجه العموم . وفى تصورى أن الأدلاء ظلوا مع هذه المجموعة حتى النهاية ، لأنه لو تركوها مثلما حدث مع الجيش الرئيسى لأشار إلى ذلك المؤرخون بكل وضوح ، ومع ذلك فقد تعرض هذا القسم أيضا لهجوم السلاجقة، إذاً فالمسألة لا تتعلق بهروب المرشدين فالنتيجة كما رأينا كانت واحدة سواء هرب المرشدون أم لا ، ذلك لأن السلاجقة يعلمون بالنتائج التى حلت بهم من قوات الحملة الأولى وتحالفهم مع البيزنطيين ، ويعلمون أن القوات الصليبية ذاهبة لقتال أخوانهم فى الشام ، ورغم عدم وجود تحالف بين السلاجقة ومسلمى الشام ، فالسلاجقة يدركون أن هذه القوات أتت إلى الشرق بسبب استرداد المسلمين للرها وأنها ستعمل على استعادتها وعلى دعم الوجود الصليبى فى الشام ، والرها تقع خلف الممتلكات السلجوقية فاذا ترك السلاجقة هذه القوات الضخمة تتجه إلى الشام سليمة وكاملة لقضت على القوات الاسلامية هناك وتتمكن من طعنهم من الخلف بعد ذلك ، وستكون الكارثة أعم إذا ما اتحدت هذه القوات مع القوات البيزنطية والشواهد على ذلك كثيرة ، وبذلك يقعون

---

(١) Odo of Deuil, op. cit., p. 115; Roger of Wendover, I, p. 500.

بين شقى الرحى . وعلى ذلك يتضح أن السلاجقة حاولوا إنزال أقسى أنواع الضربات وألحاق أكبر الخسائر بالقوات الصليبية مهما كانت الظروف دون حاجة إلى إنتظار أوامر الامبراطور مانويل .

أما القوات الفرنسية وعلى رأسها لويس السابع فقد خرجت متأخرة حوالى الشهر من رحيل الملك كونراد . كانت القوات الفرنسية مساوية تقريبا فى اعدادها للجيش الألمانى واصطحب لويس معه زوجته اليانور وريثة مقاطعة اكويتين Aquitaine ، وكانت القوات الفرنسية أيضا أكثر تنظيما من الجيش الألمانى (١) . ورغم ذلك فقد حدثت بعض الاضطرابات مع المواطنين البيزنطيين فى المقاطعات التى مروا بها ، وكما فعل مانويل مع كونراد فقد أرسل مانويل أيضا إلى لويس السفيرين اللذين سبق أن أرسلهما إلى الملك كونراد وتقابلوا مع لويس عند مدينة راتسبون Ratisbon ولكن الأمر اختلف مع لويس ، فقد طلب منه المبعوثان أن يؤكد لهما أنه سيتصرف كصديق للامبراطور البيزنطى أثناء مروره عبر الأراضى البيزنطية ، والأهم من ذلك أنهما طلبا من الملك لويس أن يتعهد لهما بأن يعيد إلى الامبراطور مانويل جميع الأراضى التى استولى عليها السلاجقة والتى كانت تابعة من قبل للبيزنطيين ، وبعد جدل طويل بين الملك لويس وباروناته ، أقسم بعضهم نيابة عن الملك على الشرط الأول ، أما الشرط الثانى فأرجىء أمره حتى يتقابل الملك لويس مع الامبراطور مانويل (٢) . وهنا يمكن القول أن مانويل حاول استغلال القوات الفرنسية لصالحه دون أن يبذل أى جهد من جانبه وأن يوسع

---

(١) عن تنظيم الجيش والنصائح التى قدمها البابا للملك لويس حول تسليح الجيش أنظر :
Eugenius III, letter to louis, cf., R.H.G.F., XV, p. 430.

(٢) Odo of Deuil, op. cit., pp. 25—29.

حدود ممتلكاته فى آسيا الصغرى ، دون أن يعرض قواته لأخطار الحرب .

تأزم الموقف بين مانويل ولويس ، وأتخذ الأخير الطريق الذى اتخذه كونراد من قبل وكان لذلك أثرين على الجيش الفرنسى ، أولهما أن القوات الفرنسية استفادت بالمنشآت التى أقامها كونراد خاصة الكبارى ، وثانيهما أن مواطنى المقاطعات البيزنطية عاملوا القوات الفرنسية بكل حذر بعد ما تلقوا دروسا قاسيا على أيدى قوات كونراد (١).وعندما وصل لويس إلى مدينة ادريانوبل أرسل اليه مانويل يشير عليه بعبور الدردنيل عند مدينة سيستوس ولكن لويس رفض طلب الامبراطور (٢) . وهنا تجدر الاشارة إلى أن مسألة اعادة القوات الفرنسية للأراضى التى استولى عليها السلاجقة قد أرجأت حتى يتقابل الملك لويس مع الامبراطور مانويل ، وأن عرض مانويل بعبور لويس وقواته للدردنيل يعنى أن مانويل ولويس سوف لا يتقابلان . ولعل مانويل قد أقلع عن فكرة استغلال القوات الفرنسية ،ولمزيدمن الدقة فى تحليل موقف مانويل من الملك لويس نترك هذه النقطةمؤقتا وستفسرها لناالأحداث التالية .

بعد ما رفض لويس عبور الدردنيل واصل مسيرته فى طريقه إلى القسطنطينية ليضع مانويل أمام الأمر الواقع مثلما فعل كونراد ، ووصلت طلائع القوات الفرنسية إلى العاصمة البيزنطية ولحقوا ببعض القوات الألمانية التى لم تكن عبرت البسفور حتى ذلك الوقت ،ونتج عن ذلك بعض المناوشات بين القوتين (٣) . وقد وصل لويس نفسه فى الرابع من أكتوبر ١١٤٧ م /

(١) Odo of Deuil, op. cit., p. 33.

(٢) Odo of Deuil, op. cit., p. 47.

(٣) Odo of Deuil, op. cit., p. 47—49.

السابع من جمادى الأولى ٥٤٢ هـ ، وهناك لاحظ طلائع قواته وقد انتابها الضيق أثر سماعها أخبار الهدنة التى سبق أن عقدها مانويل مع السلاجقة . وقد استغل ذلك بعض رجاله الساخطين على الامبراطورية البيزنطية وأشاروا على الملك بالتحالف مع روجر ضد مانويل، ولكن لويس لم يستمع اليهم . ولعل فى حسن استقبال مانويل للملك لويس فى العاصمة واصطحابه لزيارة معالم القسطنطينية قد طمأن لويس إلى حد كبير . ولما كان مانويل لا يحبذ بقاء القوات الفرنسية حول العاصمة فقد طلب من لويس الاسراع فى نقل القوات الفرنسية عبر البسفور إلى خلقدونية ولكن لويس عارض هذه الفكرة، وتعلل بأنه فى انتظار القوات الصليبيةالقادمة من ايطاليا — التى رست بهم السفن فى مدينة دورازو (١) .

وفى هذا الوقت سرت شائعة تفيد أن الصليبيين الألمان حققوا نصرا كبيرا على السلاجقة فى آسيا الصغرى وأنهم قتلوا ما يقرب من أربعة عشر ألفا من السلاجقة دون خسارة من جانبهم ، ويتهم بعض المؤرخين الامبراطور مانويل بأنه مصدر هذه الشائعة التى نتج عنها إثارة حمية الفرنسيين ونادوا بالعبور إلى آسيا الصغرى لعلهم يفوزون بجانب من هذا النصر، وطالبوا الملك لويس باللحاق بجيش كونراد ، وقد أذعن لويس لهذا الرأى وظل هو بالعاصمة البيزنطية لبعض الوقت (٢) . والباحث يرجح أن يكون الامبراطور مانويل مصدرا لهذه الشائعة خاصة وأنه لم تكن لديه سوى رغبة واحدة وهى أن يتخلص بسرعة من القوات الفرنسية حتى لا يتحرج موقفه إذا تغلب الرأى

---

(١) Odo of Deuil, op. cit., p. 73.
(٢) Ibid.

الذى يطالب بالتحالف مع الملك روجر ضده ، أو إذا أدت أى حادثة غير متوقعة إلى صدام بين الفرنسيين والبيزنطيين (١) هذا إلى جانب أن الأمبراطور البيزنطى كان يتشكك فى نوايا لويس الذى سبق له الاتصال بالملك روجر ودخل معه فى مفاوضات بشأن نقل الحملة بالطريق البحرى (٢) ، بالاضافة إلى رفض لويس التعهد برد الأراضى التى يفتحها وكانت من قبل تابعة للامبراطورية البيزنطية .

ومهما يكن من أمر فقد تخلص مانويل من القوات الفرنسية التى أتجهت إلى خلقدونية ، وهناك حدث ما كان يخشاه مانويل فبدأت حوادث السطو على مناضد الصرافين وما يصاحبها من أعمال العنف فهرب المواطنون البيزنطيون للنجاة بأرواحهم ، والحقيقة أن الملك لويس لم يرض عن هذه الأعمال فأمر بعقاب المسئولين واعادة كافة المسروقات إلى أصحابها . ويبدو أنه لم يتمكن إلا من اعادة جانب قليل منها ، لذلك تحملت خزانة الملك الجزء الأكبر من قيمة هذه المسروقات (٣). ورغم بساطة هذه الحادثة بالمقارنة بما حدث من قبل ، الا أن الأمبراطور مانويل غضب غضبا شديدا رغم ما قام به لويس من رد اعتبار المواطنين البيزنطيين ، وأمر بالغاء الأسواق التى تمد الفرنسيين بالمؤن . وكان رد الفعل الطبيعى أن يقوم الفرنسيون بنهب المنطقة ، وعلى الفور أرسل لويس إلى مانويل يطلب منه إعادة اقامة الأسواق لتجنب هذه الأحداث ، ولكن مانويل اشترط لذلك بعض الشروط يهمنا منها ، أن يحضر الملك لويس بنفسه إلى قصر الامبراطور وأن يقسم بارونات الملك يمين الولاء والطاعة

---

(١) Chalandon, op. cit., pp. 298—9.
(٢) Vasiliev, op. cit., II, p. 72.
(٣) Odo of Deuil, op. cit., p. 75.

للأمبراطور، مقابل أن يتعهد مانويل باعادة اقامة الأسواق وامداد الفرنسيين بالمرشدين اللازمين يضاف إلى ذلك شرطا فى غاية الأهمية بالنسبة لموضوع البحث وهو أن يكون من حق القوات الفرنسية نهب البلاد البيزنطية التى ترفض أن تقدم لهم الامدادات أو ما شابه ذلك من سبل الاعاشة بشرط عدم احتلال هذه المدن ، هذا إلى جانب ما وعد وبه الأمبراطور مانويل من الهدايا لكبار الشخصيات الفرنسية (١) . وهنا تجدر الاشارة إلى أن مانويل لم يتعرض فى هذه الشروط أو بعد ذلك إلى مسألة اعادة القوات الفرنسية للأراضى التى تستولى عليها من السلاجقة والتى كانت من قبل تابعة للأمبراطورية، مما يشير إلى أن مانويل قد أقلع عن هذه الفكرة (٢) أو أن هذه الرواية باطلة من أساسها لعدم وجود ما يساندها فى المصادر الأخرى .

والباحث المدقق فى هذه الشروط يستنتج منها أنها كانت فى صالح الصليبيين أكثر مما هى فى صالح الأمبراطورية البيزنطية ، ففى الواقع أن كلها مزايا للفرنسيين عدا أن يقسم الأمراء يمين الولاء للأمبراطور وهو أمر أصبح شكليا بعدما تعهد لويس — والأمراء تابعين له — أن يتصرف كصديق أثناء عبوره الأراضى البيزنطية. ورغم هذا ثار بعض المعارضين ، ولكن البعض الآخر وجد أنه لا يوجد فى مطالب الامبراطور ما يدعو للثورة . وبينما تدور المناقشات حول مطالب مانويل وصلت بقية القوات الصليبية التى رست فى دورازو إلى القسطنطينية فأكرم مانويل وفادتها وسهل لها عملية العبور للحاق باخوانهم ، وكان لذلك تأثيراً واضحاً على سير المناقشات التى مالت إلى جانب

---

(١) Odo of Deuil, op. cit., pp. 77—79.

(٢) أنظر ما سبق ص ١٤٩ .

مطالب مانويل فأتجه ، لويس وباروناته إلى الأمبراطور البيزنطى حيث اجتمعوا به وأقسم النبلاء الفرنسيون للامبراطور يمين الولاء وتم الأتفاق على الشروط التى وضعها مانويل (١) . ولعل فى عرض الامبراطور البيزنطى الذى أباح للقوات الفرنسية نهب المدن التى لا تقدم الامدادات للقوات الصليبية رد مسبق على أى اتهام يوجه للأمبراطور يتعلق بقلة المؤن التى قدمها مانويل للصليبيين الفرنسيين .

ومع بدايات شهر نوفمبر ١١٤٧ م / بدايات جمادى الآخرة ٥٤٢ ﻫ وبينما كانت القوات الفرنسية تستعد للرحيل علموا بالكارثة التى حلت بالقوات الألمانية فقد وصل فريدريك أف سوابيا (٢) Frederick of Suabia ابن عم كونراد الذى كان يصاحبه فى الحملة — يطلب مقابلة الملك لويس ليبلغه بالكارثة (٣) ، وأسرع لويس إلى كونراد بناء على طلبه لمواساته ومساعدته ، وفى هذه المقابلة تم الأتفاق بين الملكين على أن يسلكا الطريق الساحلى — الذى سبق أن أشار به مانويل على كونراد قبل الكارثة — وتقدم لويس بقواته على أمل أن يلحق به كونراد بعد إعادة تنظيم قواته . وفى الوقت نفسه أيضا عادت بعض القوات الألمانية إلى القسطنطينية بعد ما قاست من محن (٤) . ولحق كونراد وقواته بجيش لويس ، ومن الملاحظ أن القوات

---

(١) Odo of Deuil, op. cit., p. 79—83.

(٢) هو ابن الامبراطور فريدريك بارباروسا ١١٥٢ — ١١٩٠ م ، وقد قدم مع والده إلى الشرق مع جنود الحملة الصليبية الثالثة وتولى قيادة القوات الألمانية بعد ما غرق والده فى أحد الأنهار الصغيرة فى قيليقية . أنظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : المصدر السابق ج ٢ ص ٨٥٠ — ٨٥١ .

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 173.

(٤) Odo of Deuil, op. cit., p. 91.

الفرنسية لم تكن على وفاق مع القوات الألمانية الذين تعرضوا للسخرية من جانب قوات الملك لويس (١) .

ويبدو أن الملك كونراد لم يعد يحتمل أكثر من ذلك وهو الملك المتطلع إلى اللقب الامبراطوري وسليل الامبراطورية الرومانية ، فما أن وصلت القوات مدينة أفسوس حتى اعتلت صحته ولم يتمكن من مواصلة الرحلة . والواقع أن الامبراطور مانويل كان على أتصال دائم بالقوات الصليبية . فعندما علم بمرض الملك كونراد أرسل إليه الهدايا واستدعاه للعاصمة وأولاه اهتماما بالغا وقام مانويل بنفسه بعلاج الملك كونراد (٢) . وانتظر لويس عودة الملك الألماني ، ولما طالت غيبته عزم على مواصلة الرحلة . ومما هو جـدير بالذكر أن الأمبراطور مانويل أبلغ الملك لويس وهو فى مدينة افسوس بوجود بعض القوات السلجوقية على مقربة منه ونصحه بالتزام السير بمحاذاة الساحل وبعدم الأشتباك مع السلاجقة كلما أمكن ذلك.وأضاف مانويل إلى نصائحه أنه من الصعب كبح جماح المواطنين البيزنطيين إذا ما تعرضوا للأذى من قبل الصليبيين (٣).ولعل فى ذلك ما يوضح أن الأمبراطور مانويل لم يكن متحالفا مع السلاجقة ضد الصليبيين يضاف إلى ذلك أن مانويل قد راعى المصالح الصليبية إلى حد كبير .

وازاء هذه النصائح طلب لويس من قواته أن تظل متقاربة من بعضها البعض وفى حالة من التيقظ ،وتقدمت القوات حتى وصلت إلى غربى مدينة أنطاكية — بسديا فى أول يناير ١١٤٨ م / السابع من شعبان ٥٤٢ هـ ، وهنا

---

(١) Cinnamus, op. cit., p. 84.

(٢) Jeseph ben Joshua, op. cit., I, pp. 133—134.

(٣) Odo of Deuil, op. cit., pp. 103—105.

ظهر السلاجقة وقاموا بمناوشة القوات الصليبية ولكنهم ردوا على أعقابهم. وتقدم الصليبيون حتى وصلوا إلى مدينة لاودكيا الغربية الواقعة على أحدروافد الياندر فوجدوها خالية من السكان الذين هجروها خشية أن ينهبها الصليبيون ، لذلك تعذر عليهم الحصول على المؤن ، وكان على الملك لويس مواصلة المسيرة إلى أضاليا رغم افتقاره إلى الأقوات فى أشق مرحلة من الرحلة نظرا لوعورة الطريق وظروف الشتاء القاسية ، يضاف إلى ذلك عامل هام وهو رؤية القوات الفرنسية لجثث القوات الألمانية التى كان يقودها أوتو أف فريزانج متناثرة على الطريق وهو مشهد يوحى بما ينتظرهم من مصير ، لذلك أصدر لويس عدة تعليمات لحفظ النظام (١) . وكعادة الفرنسيين وضع لويس الجنود الأشداء فى المقدمة والمؤخرة (٢) ، وتولى لويس بنفسه قيادة المؤخرة كما تولى عم الملك الكونت مايورين Maurienne والبارون جوفرى أف رانكون Geoffery of Rancon قيادة المقدمة التى عهد لها بحماية مخارج احدى الممرات فى منطقة جبلية ترتفع حوالى ثلاثة آلاف وثمانمائة قدم (٣) ، ولكن عم الملك آثر الراحة فى هذا اليوم فأهمل ما عهد به اليه وحذا حذوه القادة الآخرين فنزلوا إلى الوادى (٤) . وفى وسط هذه الظروف أنقض السلاجقة على القوات الصليبية وأمطروهم وابلا من السهام فدبت الفوضى فى صفوفهم ، وتهاوت الخيول المصابة بمن عليها إلى سفوح الجبال جارفة معها بعض الخيول الأخرى بفرسانها وما فى طريقها من الأمتعة والمشاة . وتشجع السلاجقة

(١) Odo of Deuil, op. cit., pp. 111—115.

(٢) Roger of Wondover, op. cit., I, 501.

(٣) Oman, op. cit., I, pp. 246—7.

(٤) عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر :
Walker, G. H., Eleanor of Aquitaine & The Disaster at Cadoms, Cf. American Historical Review, July 1950, pp. 857—861.

وأنزلوا مزيدا من الخسائر فى صفوف الصليبيين ، ثم إستداروا إلى المؤخرة ، وقد أفاض المؤرخ أودو أف ديل فى وصف هذه المعارك ، والخلاصة أن الملك لويس تعرض للموت والأسر أكثر من مرة ولم ينقذ حياته إلا حلول الظلام،وانسحاب السلاجقة بعض ما كبلدوا الصليبيين خسائر فادحة ، وقد عقد لويس النية على محاكمة المسئولين الذين تسببوا فى هذه الكارثة ولكن شيئا من ذلك لم يحدث لأن عم الملك كان أول المسئولين (١) .

لم ينم الفرنسيون هذه الليلة ومع حلول الصباح بدأ الملك لويس فى اعادة تنظيم قواته لمواصلة الزحف إلى مدينة أضاليا ، وساعده فى قيادة القوات ايفرارد أف بارس Everard of Barres رئيس الفرسان الداوية الذى كان يرافق الحملة ، ووضعت تعليمات صارمة للحفاظ على ترابط القوات فى هذه الظروف السيئة (٢) . يضاف إلى ذلك عامل الجو فقد كان تحرك القوات فى وقت الشتاء والأمطار تسقط بغزارة والثلوج تغطى قمم الجبال (٣) . وقد تغلب القادة على نقص المؤن بذبح الخيول التى عجزت عن السير ، وترك الصليبيون بعض أمتعتهم وحرقوا بعضا آخر ، وواصلوا مسيرتهم ، وأثناء زحفهم تعرضوا أيضا لغارات يومية من السلاجقة ولكنها لم تكن بالغارات القوية وبلغوا أضاليا فى العشرين من يناير ١١٤٨م/السابع من شعبان ٥٤٢ هـ(٤).

وعندما وصل لويس وقواته إلى أضاليا وجدوا فى انتظارهم لاندولف

---

(١) Odo of Deuil, op. cit., pp. 115—123.

أرسل لويس إلى سوجر عن هذه الأحداث عندما وصل بعد ذلك إلى أنطاكية وأبلغه أن سبب هذه الكارثة ترجع إلى أخطاء الصليبيين وإلى خيانة الامبراطور مانويل أنظر :

Louis VII, letter to Suger, Cf., R.H.G.F., XV, p. 496.

(٢) Odo of Deuil, op. cit., p. 125.

(٣) Oman, op. cit., I, p. 251.

(٤) Louis, letter to Suger, Ibid.

Landolph حاكم المدينة ، وهناك حصل الصليبيون فى أول الأمر على المؤن اللازمة لهم بأسعار مرتفعة حتى اضطروا لبيع بعض الدواب للحصول على أثمانها ، وعلى حد قول أودو أف ديل أن ذلك كان بسبب جدب المنطقة وتعرضها منذ وقت قريب لغارات السلاجقة يضاف ، إلى ذلك الأعداد الضخمة للقوات الفرنسية ومن كان فى انتظارها من القوات الألمانية التى قادوها أوتو أف فريزانج ، وأضاف المؤرخ نفسه أن البيزنطيين لما شاهدوا سوء الحالة الاقتصادية للقوات الصليبية باعوا لهم ما يحتاجون دون الحصول على أرباح وفى الوقت نفسه اشترى البيزنطيون ما باعه الصليبيون بأثمان مرتفعة (١). ولعل فى عبارة المؤرخ أن المنطقة تعرضت منذ وقت لغارات السلاجقة الرد الكافى على الذين زعموا أن الأمبراطور مانويل تحالف مع السلاجقة ضد الصليبيين ، فلو كان هناك مثل هذا التحالف لما تعرضت منطقة بيزنطية لغارات السلاجقة. يضاف إلى ذلك أن البيزنطيين أبلغوا الصليبيين فى بداية وصولهم إلى أضاليا وعندما فكروا فى استكمال الرحلة عن طريق البر ، أبلغوهم أن الطريق صعب وشاق وأنه يحتاج إلى مسيرة طولها أربعين يوما تتخللها أراضى مجدية ليس بها مؤن ويسيطر عليها السلاجقة (٢) ، وهى نصيحة أخرى تدل على حرص البيزنطيين على المصالح الصليبية ، ولو كان البيزنطيون يعملون على تحطيم الحملة لتركوا الصليبيين يقعون وهم فى طريقهم البرى إلى الشام فريسة للقوات السلجوقية خاصة بعد ما بلغ بهم الأرهاق ذروته .

لذلك قرر لويس اكمال الرحلة عبر الطريق ، البحرى وساعده حاكم المدينة فى تدبير بعض السفن لنقل القوات وقدم له سفينة لنقله وحاشيته دون مقابل .

---

(١) Odo of Deuil, op. cit., pp. 133—135.

(٢) O do of Deuil, op. cit., p. 131.

أما باقى القوات التى أبحرت على السفن التى أمكن تدبيرها ، فكان ذلك نظير أربعة ماركات (١) عن كل فرد ، ولما كانت السفن غير كافية لنقل جميع القوات فقد أبحر البعض وظل البعض الآخر فى أضاليا لتدبير أمر نقله إلى أنطاكية (٢) . أبحر الملك لويس بعد ما ظل فى أضاليا ما يقرب من خمسة أسابيع تعرضت قواته خلالها لبعض الغارات السلجوقية فوصل ميناء السويدية فى التاسع عشر من مارس ١١٤٨ م / الخامس والعشرين من شوال ٥٤٢ هـ . وقد ظلت القوات الباقية فى أضاليا تحت رحمة القوات السلجوقية وتمكن حاكم المدينة من تدبير بعض السفن الأخرى التى أبحر عليها كبار الصليبيين ، وتركوا الباقين تحت رحمة السلاجقة الذين هاجموا المدينة بما فيها من البيزنطيين الصليبيين وأنزلوا خسائر فادحة بالقوتين ، وساعدهم على ذلك انخفاض أسوار المدينة (٣) وتنفى هذه الحادثة بشكل قاطع مزاعم المؤرخين الذين أشاروا إلى أن الامبراطور مانول تحالف مع السلاجقة لضرب القوات الصليبية ، وبمعنى آخر أن مانويل عمل على القضاء على الحملة حتى لا يزداد النفوذ الصليبى فى منطقة الشرق الأدنى الاسلامى وتظل المنطقة منطقة نفوذ للامبراطورية البيزنطية .

بقيت القوات الصليبية التى ظلت فى أضاليا تموت جوعا فضلا عن غارات السلاجقة المتكررة وانتشار الأمراض نتيجة وجود الجثث المتعفنة

---

(١) المارك : كان هناك نوعان من عملة المارك : احدهما من الذهب والآخر من الفضة وكل مارك ذهبى تتراوح قيمته من ثمانية إلى عشرة ماركات فضية التى يزن الواحد منها ٢,٣ جرام وبذلك تصبح قيمة المارك الذهبى على أقل تقدير ما يساوى ١٨,٤ جرام ، وعلى أقصى تقدير ما يساوى ٢٣ جرام من الفضة . أنظر الجمعية التاريخية : بحوث فى التاريخ الاقتصادى ترجمة توفيق اسكندر ص ٢١ وحاشية (٣) وص ٢٥ وحاشية (٢) .

(٢) Odo of Deuil, op. cit., p. 137.

(٣) Odo of Deuil, op. cit., pp. 137—141.

حولهم ونفاذ مواردهم ، لذلك فكر الصليبيون فى السير برا بدلا من هـذا الانتظار المميت فساروا عبر طرسوس وهناك ،قطعهم السلاجقة أربا ودخل بعضهم فى خدمة البيزنطيين أو فى خدمة السلاجقة.ولم يصل منهم إلى أنطاكية إلا النصف تقريبا ، وقد قدرهم بعض المؤرخين بحوالى ثمانية آلاف (١) . أما الملك كونراد فقد ظل فى العاصمة البيزنطية وأشرف الامبراطور مانويل على رعايته الطبية طوال فترة الشتاء،ومع حلول ربيع عام ١١٤٨ م أستعد للرحيل ومن معه بعد ما قدم له مانويل الهدايا له ولحاشيته وأبحر بعد ما أعده له الامبراطور البيزنطى السفن اللازمة فوصل إلى عكا ومنها توجه إلى بيت المقدس حيث وصلها فى الأسبوع الثانى من أبريل من العام نفسه / السابع عشر — الثالث والعشرين من ذى القعدة ٥٤٢ ﻫ (٢) .

أما لويس السابع فقد هبط فى ميناء السويدية بعد ما يقرب من ثلاثة سنوات وثلاثة أشهر من سقوط الرها وبعد ما تمكن نور الدين من انتزاع عدة حصون أخرى شرقى نهر العاص . وقد أستقبله ريموند أف بواتيه بالأفراح والاحتفالات الرائعة ، فقد كان يأمل فى تسخير الحملة لصالحه بحكم روابط الصلة العائلية مع الملك لويس ويرى أن تقوم الحملة بمهاجمة حلب والقضاء على نور الدين باعتباره خليفة القوة التى استولت على الرها والمهددة لأوضاع الصليبيين فى أنطاكية (٣) ولم يكن ريموند أف بواتيه وحده هو الذى حاول استغلال الحملة لصالحه ، بل رأى كل واحد من الأمراء الصليبيين فى حملة لويس وكونراد فرصة يمكن إستغلالها لصالحه . وكان جوسلين يعتقد أن

---

(١) Oman, op. cit., I, p. 248; Campbell, op. cit., pp. 223—4; op. cit., p.44

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 181; Runciman, S., Byzantine Civilisation, p. 237.

(٣) William of Tyre, op. cit., I, pp. 179— 180.

سقوط الرها هو الدافع الأول لقيام الحملة ، وعلى ذلك فان المهمة الأساسية للحملة هى استرداد الرها ، أما ريموند الثانى أمير طرابلس الذى أراد أن يستغل الرابطة التى تربطه بالملك الفرنسى عن طريق أمه الفرنسية فى تسخير الحملة لاسترداد قلعة بارين (١) التى أستولى عليها المسلمون عام ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ — ١١٤٠ م (٢) .

وهكذا وجد لويس نفسه فى وسط مجموعة من الأمراء المنشقين على أنفسهم تطحنهم الأهواء المتعارضة . وفى الوقت نفسه كره الاقامة فى أنطاكية لما أشيع عن العلاقة المشينة بين زوجته وبين خالها الأمير ريموند ، فأعلن أنه لا يمكنه القيام بأى عمل عسكرى قبل التوجه إلى بيت المقدس ، وساعده على ذلك وصول فوشيه Fulcher أسقف بيت المقدس — بعد وصول كونراد إلى بيت المقدس مباشرة — مبعوثا من قبل النبلاء لدعوته إلى بيت المقدس قبل أن يستغله ريموند لصالحه (٣) . فأتجه لويس حيث دعوة وتقابل مع كونراد ، وعقد مجلس ضم العاهلين وبلدوين ملك مملكة بيت المقدس وكبار الشخصيات الدينية والعلمانية (٤) . ولم يحضر ريموند أف بواتيه الذى غضب لرحيل الملك لويس . ولعل موقفه هذا يرجع إلى اعتمادة على مساندة الامبراطور مانويل بعد ما قدم له الولاء والمساعدة التى وعد بها الامبراطور . كما لم يحضر أيضا هذا المؤتمر ريموند الثانى كونت طرابلس بسبب غضبه من أتهامه بقتل الفونس

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٢٩ .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٥٩ — ٦٠ .

(٣) William of Tyre, op. cit., II, pp. 182.

(٤) عن الشخصيات التى حضرت هذا الاجتماع أنظر :

William of Tyre, op. cit., II, pp. 184—185; Roger of Wondover, op. cit., I, p. 500, Vitry, op. cit., p. 22; La Mont., The Lord of Caesarea, Cf. Speculum, Vol., XXII, 1947, p. 148.

Alphonse كونت تولوز ، بينما ظل جوسلين فى تل،باشر وربما بسبب غضبه أيضا من تصرفات لويس ، وكان الأولى به أن يكون أول المجتمعين . ومن الملاحظ أن الأمراء الذين تخلفوا عن حضور هذا المؤتمر أو مجلس الحرب هذا هم أمراء الامارات الصليبية الثلاث التى كانت مهددة تهديدا مباشرا لخطر نور الدين (١) .

وفى هذا المؤتمر طرحت آراء عديدة حول مهمة الحملة ، وفى النهاية أتفق المجتمعون على مهاجمة دمشق (٢) والواقع أن اختيار دمشق هدفا للحملة جاء تحت تأثير أمراء مملكة بيت المقدس . ولم يكن بوسع معين الدين أتر حاكم دمشق أمام هذا الخطر الذى لم يتوقعه ، سوى طلب النجدة من نور الدين ، كما كان أختيار مدينة دمشق أيضا هدفا للهجوم وما اتبعه الصليبيون من خطط لاسقاط المدينة خطأ يضاف إلى أخطاء الحملة ففشلت جهود الصليبيين فى الاستيلاء على دمشق بعد ما عانوا وتحملوا الكثير (٣) وهكذا يمكن القول أنه إذا كانت الحملة قد أتت إلى الشرق لاسترداد مدينة الرها،وتثبيت دعائم الامارات الصليبية فى الشام والحد من نفوذ المسلمين ،فأنها فى النهاية قد فشلت

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ص ٦٣١ .

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 186.

(٣) عن حصار دمشق أنظر : بامخرمه . قلادة النحر ج ٤ ورقة ٢٢٠ — ٢٢١ ، العينى المصدر السابق ج ١٦ لوحة ١٧٧ — ١٨٤ ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٢٩ ، التاريخ الباهر ص ٨٨ — ٨٩ ، ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ق ١ ص ٢٠١ ، ابن منقذ : المصدر السابق ص ٧٠ — ٧١ ، ابن أيبك كنز الدرر وجامع الغرر ج ٦ (الدرة المضيئة فى أخبار الدولة الفاطمية( ص ٥٤٩ — ٥٥٠ ، ابن منقذ المصدر السابق ص ٧٠ — ٧١ ، أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ٥٢ ، أبو الفدا المصدر السابق ج ٣ ص ٢١ ، أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٨٢ . أنظر أيضا :

William of Tyre, op. cit., II, pp. 187—193; Vitry, op. cit., p. 24; Roger of Wendover, op. cit., I, 501.

فشلا زريعا ،ولم تحقق هدفا واحدا من أهدافها ، بل أدت إلى نتائج عكسية أدت إلى إنحطاط هيبة الصليبيين ومكانتهم بالشام وازدياد نفوذ المسلمين بشكل ملحوظ مما سيكون له أبلغ الأثر فى تاريخ الحركة الصليبية كلها (١) .

هذا ما كان من أمر نتائج الحملة بصفة عامة ، أما فيما يتعلق بموقف الأمبراطور مانويل فيمكن القول بأن البيزنطيين اغتبطوا لفشل الحملة (٢) . ومرجع ذلك أن الأمبراطورية البيزنطية كانت ترى أن دعم الوجود الصليبى فى الشام سيكون على حساب ما تدعيه بيزنطة من نفوذ فى المنطقة خاصة فى أنطاكية ؛ بل لعل أهم من ذلك أن الأمبراطور مانويل كان يرى أن مصر — التى كانت ضمن أملاك الأمبراطورية فيما مضى — يجب أن تعود إلى السيادة البيزنطية مرة أخرى وقد حاول مانويل العمل على تحقيق ذلك عندما تحالف مع الصليبيين وهاجما دمياط ، وهو ما سنتعرض له بالتفصيل فى فصل لاحق

فشلت الحملة وأستعد ما بقى من القوات للرحيل ، وعاد كونراد عن طريق القسطنطينية حيث قابله الأمبراطور مانويل بكل حفاوة واستطاع اجتذابه إلى جانبه وتحالف معه ضد الملك روجر (٣) ، وفى الوقت نفسه أبحر لويس من الشام فى طريقه إلى أوربا وقد تعرض أثناء عودته لبعض المتاعب من قبل الأسطول البيزنطى (٤) .

ولما كان لويس يعتقد أن مانويل مسئول عن فشل الحملة ، وأن شعوب

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٣٥ — ٦٣٦ .
(٢) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ١٦١ .
(٣) Ostrogorsky, op. cit., p. 340.
(٤) Joseph ben Joshua, op. cit., I, pp. 140—141.

غرب أوربا تطالب بالانتقام من الأمبراطورية البيزنطية بسبب النتائج الفاشلة التى وصلت إليها الحملة ، لذلك أتفق لويس وروجر على اعداد حملة صليبية ضد بيزنطة . والواضح أن روجر كان يرحب بمثل هذا العمل خاصة وأن مانويل بعد ما فرغ من أمر الحملة تمكن من استعادة مدينة كروفر ونقل الحرب إلى إيطاليا واحتل مدينة انكونا Ancona(١) . وقد تحمس بعض رجال الدين لهذه الحملة . ولكن البابا يوجين عارضها ، كما أن كونراد الثالث حليف مانويل لم يوافق عليها أيضا . لذلك أحبط هذا المشروع (٢) . يضاف إلى ذلك ما كان من أمر البنادقة الذين مالوا إلى جانب مانويل أيضا (٣) ، وهكذا يمكن القول أن من نتائج الحملة أيضا إنشقاق الغرب الأوربى على نفسه . ومهما كان من أمر هذا الأنشقاق فانمانويل إنشغل إلى حدما بأمر الغرب الأوربى ، يضاف إلى ذلك المتاعب التى واجهته فى هذه الفترة من قبل الصرب والبلغار (٤). ولاشك أن كل هذه الأحداث مجتمعة كان لها أبلغ الأثر على سياسة مانويل الشرقية التى لم يعد متفرغا لها . وفى الوقت نفسه زادت قوة المسلمين وأصبح أسمهم يلقى الرعب فى صفوف الصليبيين (٥) . بعد ما قبع جوسلين فى تل باشر ، وبعد ما خذل ريموند من مانويل ومن الحملة وفشل أمراء بيت المقدس فى تحقيق أهدافهم بالاستيلاء على دمشق. وبرز نور الدين ليعمل على توحيد الجبهة الأسلامية والقضاء على الصليبيين بعد ما تبين له عدم جدية الغرب الأوربى فى مساعدة الصليبيين وعدم قيام مانويل بمساعدتهم أو على الأقل لنجدة الرها التى كانت السياسة البيزنطية فى عهد والده تعتبرها جزءا من أملاك الامبراطورية البيزنطية .

---

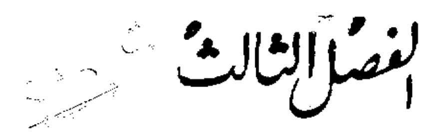
(١) عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٤٣ ، ١٤٧ .

(٢) Setton, op. c it., 1, · 511.

(٣) Finlay, op. cit', III, p' I68.

(٤) Ostragorsky, Ibid.

(٥) Fabri, op. cit., Vol. 2 Part I, p. 326.



# الفصل الثالث

## مرحلة (الدبلوماسية) البيزنطية وفشلها
## (١١٤٩ – ١١٥٦ م / ٥٤٤ – ٥٥١ هـ)

١ – مشروع مانويل لترشيح زوج لكونستانس أميرة أنطاكية وفشله .

٢ – شراء مانويل بعض مدن وقلاع امارة الرها المنهارة .

٣ – استيلاء نور الدين على ما آل إلى الامبراطورية البيزنطية من امارة الرها .

٤ – انتصار الأمير الأرميني ثوروس على القوات البيزنطية .

٥ – تحالف مانويل مع السلاجقة ضد ثوروس وفشل هذا التحالف .

٦ – مانويل يحرض رينو أمير أنطاكية على مهاجمة ثوروس .

٧ – أتفاق رينو وثوروس على مهاجمة جزيرة قبرص التابعة للامبراطورية البيزنطية .

مرحلة الدبلوماسية البيزنطية فى الفترة من ١١٤٩ - ١١٥٦ م / ٥٤٤ - ٥٥١ هـ ، هى مرحلة من مراحل حكم الامبراطور مانويل لعبت فيها الدبلوماسية البيزنطية دورا واضحا فى المنطقة . وقد تميزت هذه الفترة بمحاولة الامبراطور مانويل دعم السيادة البيزنطية فى امارة أنطاكية وفرض هذه السيادة على بعض مدن وقلاع امارة الرها المنهارة سلما ، يضاف إلى ذلك قيام الامبراطور مانويل بالتحالف مع احدى قوى المنطقة أو ضمها إلى جانبه ليضرب بها قوى أخرى فى المنطقة نفسها تكون سياستها معادية للسياسة البيزنطية ، وبذلك يضمن مانويل إنشغال القوتين معا فى وقت واحد ببعضهما عن الصراع مع الامبراطورية البيزنطية ، كما أن صراع القوتين معا يضعفهما معا فى نهاية الأمر مما يعطى للامبراطور مانويل الفرصة لدعم السيادة البيزنطية فيما بعد سواء أكان هذا الدعم سلما أم حربا .

كان سقوط مدينة الرها علامة بارزة تشير إلى ضعف القوى الصليبية فى الشام وأوضحت موقف الامبراطورية البيزنطية فى هذه الفترة من الامارة ، فلم تكن استعادة هذه المدينة نهاية المطاف لآمال المسلمين الذين عملوا منذ بداية حركة البعث الاسلامية التى وضع أساسها عماد الدين زنكى على استعادة الأراضى الاسلامية التى اغتصبها الصليبيون . وكان لسقوط هذه المدينة وفشل الصليبيين فى استعادتها وقدوم الحملة الصليبية الثانية وعودتها دون أن تحقق أى هدف من أهدافها والموقف السلبى الذى ظهرت به الامبراطورية البيزنطية من العوامل التى شجعت نور الدين زنكى على استكمال أهدافه فى استعادة الأراضى الاسلامية من قبضة الصليبيين .

وتميزت أعمال نور الدين بعد رحيل الحملة مباشرة بمهاجمته لامارة أنطاكية التى كانت خاضعة من الناحية الأسمية للامبراطورية البيزنطية ، وكان

ريموند أف بواتيه أمير أنطاكية الذى تمرد بالأمس على الامبراطور البيزنطى مانويل قد أذل نفسه فى عام ١١٤٥ م حين توجه إلى القسطنطينية وقـــدم للامبراطور مانويل فروض الولاء والطاعة أملا فى مساعدة الامبراطوريـة البيزنطية ضد نور الدين زنكى ، ولكن الامبراطور لم يقدم له سوى وعدا بالقدوم إلى الشام فى وقت لاحق . وإذا كان ريموند أف بواتيه قد خاب أمله فى مساعدة الامبراطور مانويل فأنه استبشر خيرا بقدوم الحملة الصليبية الثانية وقد خاب أمله مرة أخرى لعدم قيام الحملة بتحقيق أهدافه أو أية أهداف أخرى ، وهكذا أضاع ريموند سنوات دون أن يحصل على أية مساعدة سواء من جانب الامبراطورية البيزنطية أم الغرب الأوربى ، ورأى فى نهاية الأمر ألا فائدة ترجى من كليهما فى الوقت الذى بدأت فيه الأخطار المحيطة به وبامارة أنطاكية تزداد يوما بعد آخر .

وكانت بداية هذه الأخطار عندما قام نور الدين زنكى فى شهر رجب عام ٥٤٣ / أكتوبر — نوفمبر ١١٤٨ م وتوجهه على رأس قواته «إلى ناحية الأعمال الفرنجية» (١) ، ووصل إلى المكان المعروف باسم يغرى (٢) فى الوقت الذى كان فيه ريموند أف بواتيه فى مدينة جبلة الواقعة على الساحل (٣) ، واستطاع نور الدين احراز النصر على الصليبيين فى أول الأمر وظفر «بعدة وافرة من الفرنج» (٤) ، ولما وصلت هذه الأخبار إلى مسامع ريموند جمع

---

(١) ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٣٠٢ .

(٢) يغرى : يصب فى بحيرة أنطاكية من الشمال ثلاثة أنهار ، النهر الأسود إلى الشرق ونهر عفرين إلى الغرب وفى الوسط نهر يغرى وتقع يغرى على النهر المعروف باسمها وهى إلى الشرق من دربساك . أنظر : لى سترانج فلسطين : فى العهد الاسلامى ص ٨٤ .

(٣) A.S.C., p. 300.

(٤) ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٣٠٢ ، أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ٥٥ .

قواته وسار معه ابن وفا (١)للدفاع عن ممتلكاته،وفاجأ قوات نور الدين ـــ وهزمها.ويضيف المؤرخ السريانى المجهول أن الصليبيين تمكنوا من قتل حوالى ألفين من القوات الاسلامية،ولم يكن بوسع نور الدين أمام ما حل بقواته سوى الهروب إلى حلب مما أعطى الفرصةللصليبيين للاستيلاءعلى معسكر المسلمين.. ثم ما لبث أن عاد ريموند والقوات الصليبية إلى أنطاكية ومعهم الأسرى حيث خرج أهل المدينةليستقبلوابالأفراح ريموند وابن وفاو كافةالقوات الصليبية(٢)، أما نور الدين فقد أقام بحلب عدة أيام يعمل على اعادة تنظيم قواته ويقال أنه لم يعد إلى منزله (٣) .

وحول هذه المعركة فقد روى بعض المؤرخين أن النصر تم فيها لقوات نور الدين (٤) ، والباحث يميل إلى الأخذ بعكس ذلك ، والدليل على أن القوات الأسلامية قد هزمت فى هذه المعركة أن نور الدين بعث بعد قليل من معركة يغرى إلى معين الدين أنر (٥) — القيم بأمر مجيد الدين أبق صاحب دمشق (٦) (٥٣٤ — ٥٤٩ هـ — / ١١٣٩ — ١١٥٤ م) — يستنجده ويوضح

---

(١) بعد مذبحة حلب التى أقامها تاج الملوك بورى (٥٠٧ — ٥١٦ هـ ١١١٣ — ١١٢٢ م) صاحب حلب ضد الاسماعيلية فر بعضهم إلى الصليبيين . أنظر : ابن القلانسى : المصدر السابق ١٨٩ — ١٩٠ ، سليم حسن هشى : الاسماعيليون عبر التاريخ ص ١٠٤ — ١٠٥ ؛ ويبدو أن ابن وفا هذا من الذين فروا إلى أنطاكية ودخلوا فى خدمة الصليبيين . وعن الاسماعيلية أنظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ٥٥٠ — ٥٦٠ .

(٢) A.S.C., p. 300.

(٣) ابن القلانسى : المصدر السابق ص٣٠٢ — ٣٠٣ ، أبو شامة : نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٤) ابن واصل : المصدر السابق ج ١ ص ١١٤ — ١١٥ .

(٥) معين الدين انر بن عبد الله مملوك طغتكين وتولى تدبير أمر مجيد الدين وتوفى عام ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م أنظر ابن القلانسى : المصدر السابق ٣٠٦ .

(٦) عزله نور الدين زنكى عندما استولى على دمشق عام ٥٤٩هـ١١٥٤ ومنحه حمص ثم أخذها =

له ما قام به ريموند أف بواتيه صاحب أنطاكية، ويطلب من معين الدين مساندته «لكف شره» أى شر ريموند . كما أبلغ نور الدين معين الدين أن الحاجة «ماسة إلى معاضدته» ويطلب منه أن يسير بنفسه على رأس قواته لتنضم إلى القوات النورية » ليتفقا بالعسكريين «ضد ريموند» . وأمام هذه الصرخة التى توضح لنا مدى ما لحق بقوات نور الدين من هزيمة على يد قوات ريموند فى موقعة يغرى وخوف نور الدين من ريموند ، سارع معين الدين بندب الأمير مجاهد الدين بزان — أحد مقدمى الأمراء الأكراد — واقامه على رأس عدد كبير من القوات الدمشقية وأمره بالتوجه لمساندة نور الدين (١) .

وبعد ما وصل مجاهد الدين بقواته تجمعت العساكر الاسلامية وعلى رأسها نور الدين ومجاهد الدين واتجهت إلى المنطقة المحيطة بأنطاكية فى أوائل شهر صفر ٥٤٤ هـ/أواسط يونية ١١٤٩ م، وبدأ نور الدين فى حصار قلعة إنب(٢). وعندما وصلت أنباء تحركات القوات الأسلامية إلى ريموند أسرع بجمع الفرسان التى كانت على مقربة منه وكانت قليلة العدد ، ولم يعبأ بالنصائح التى قدمها له فرسانه بعدم مهاجمة المسلمين فى هذا الوقت، واعتمد على شجاعته وعلى ما أحرزه من نصر سابق على القوات الأسلامية . ولما علم

---

= منه وعوضه عنها مدينة بالس فلم يرض بها ورحل إلى العراق وأقام ببغداد حتى توفى عام ٥٦٤ هـ ١١٦٨ م . أنظر : ابن الأثير التاريخ الباهر ص ١٠٨ ، أنظر أيضا اليافعى اليمنى : مرآة الجنان جـ ١ ص ٢٩٥ . ابن قاضى شهبه : الدر الثمين فى مسيرة نور الدين (مخطوط) ورقة ٦٧ ب .

(١) ابن القلانسى : المصدر السابق ٣٠٤ .

(٢) إنب : حصن من أعمال عزاز (اعزاز) من نواحى حلب ، أنظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ١ ص ٣٦٩ .

نور الدين بقدوم ريموند خشي أن يكون قد اصطحب معه جيشا كبيرا (١) فأنسحب نور الدين إلى التلال المجاورة حتى تتكشف له الأمور وانتظر ما يصل إليه من تقارير حول ريموند والقوات التي اصطحبها معه . وما لبث أن علم نور الدين أن القوات الصليبية القادمة قليلة العدد ، كما أنها ليست فى انتظار قوات أخرى تصل اليها بعد قليل (٢) . لذلك بادر نور الدين بالهجوم على ريموند وحاصر معسكره . واشتدت هجمات المسلمين على الصليبيين وكانت من القوة حتى يمكن القول أنهم بدوا وكأنهم يهاجمون مدينة بأسرها . وعندما بزغ فجر السابع عشر من صفر عام ٥٤٤ هـ / التاسع والعشرين من يونية عام ١١٤٩ م ، أيقن ريموند أنه محاصر بالقوات الاسلامية وبدأ يشعر بعد فوات الأوان بعدم فاعلية القوات التي تحت يديه ، ورغم هذا أبدى ريموند شجاعة فائقة وأخذ يحرض على القتال واستعد فرسانه للمعركة . ولكن مثل هذه القوات الصليبية القليلة العدد لم يكن بوسعها مقاومة قوات المسلمين المحيطة بهم من كل جانب ، وما أن بدأت المعركة حتى هرب من الصليبيين ما أمكنه الهرب بعد ما تبين لهم عدم جدوى القتال . أما ريموند فقد مضى فى أرض المعركة مع قلة من الفرسان وظل يحارب حتى قتل فى اليوم نفسه ، ولقى المصير أيضا رينو Renaud حاكم مرعش (٣) — زوج أجنس Agnes — أبنة جوسلين كونت الرها — وابن وفا وعديد من الأمراء الصليبيين (٤) ، وقاد المسلمون الأسرى وحملوا الغنائم وعادوا إلى حلب وقام نور الدين —

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 197.

(٢) A.S.C., p. 301.

(٣) William of Tyre, op. cit., II, 198.

(٤) A.S.C., p. 301.

بارسال رأس ريموند وذراعه الأيمن إلى الخليفة العباسي فى بغداد علامة على هذا الانتصار العظيم (١) .

فقد كان ريموند «عاتيا من عتاه الفرنج وذوى التقدم فيهم والملك» (٢) ، ومما لاشك فيه أن هذا النصر كانت له نتائج إيجابية فى بناء قوة نور الدين ، والجبهة الاسلامية .

وعندما سرت أخبار مقتل ريموند وهزيمة القوات الصليبية عم الحزن جميع أنحاء الامارات الصليبية بصفة عامة وامارة أنطاكية بصفة خاصة لاسيما أن ريموند كان قد اصطحب معه معظم نبلاء المدينة ؛ والمهم أن ريموندخلف وراءه زوجته الشابة كونستاس Constance التى كانت تبلغ من العمر اثنين وعشرين عاما وأولاده القصر أكبرهم بوهمند (٣) وعمره خمس سنوات . وفى هذا الوقت العصيب برز امرى Aimery بطريك المدينة ليتعاون فى إدارة امارة أنطاكية ،وقد ساعدهفى ذلك ما كان لديه من ثروة طائلة مكنته من دفع رواتب القوات ، وكان على بلدوين الثالث ملك مملكة بيت المقدس الذى أصبح وصيا على إمارة أنطاكية ، أن يتوجه إلى الامارة ليتولى تدبير أمورها والدفاع عنها ضد هجمات نور الدين . ولقد كان ذلك عبئا كبيرا على الملك بلدوين ؛ لذلك ناشد الأميرة كونستانس الزواج من أحد الأمراء ليتحمل زوجها المقبل مسئولية امارة أنطاكية ،ولكنها لمتوافق على الزواج من أحد الذين رشحهم بلدوين ، ويضيف المؤرخ وليم الصورى أن البطريك امرى

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, 199; Joseph ben Joshua., I, pp. 141—2.
أنظر أيضا : ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٠٥ .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٩٩ ، أبو الفدا : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٣ .

(٣) هو بوهمند الثالث الذى تولى الحكم فى امارة أنطاكية ١١٦٣ — ١٢٠١ م راجع أيضا ابن قاضى شهبة : المصدر السابق ورقة ٥٧ أ .

هو الذى شجع الأميرة كونستاس على رفض فكرة الزواج حتى لا تضعف سلطته داخل امارة أنطاكية (١). أو ربما يكون ذلك لعدم استحسان كونستاس لأحد الأمراء المرشحين، وهى الأميرة الشابة التى كان من الصعب ارضاؤها(٢).

غير أن كونستاس التى رفضت المرشحين الصليبيين للزواج منها نراها ترسل سفارة إلى الامبراطور البيزنطى مانويل باعتبارها تابعة له من الناحية الاسمية تطلب منه اختيار زوج لها من الأمراء البيزنطيين (٣) ، وكان فى ذلك فرصة ذهبية للامبراطور مانويل إذ وجد أنه بموجب هذا التصاهر تعود امارة أنطاكية إلى حظيرة الامبراطورية البيزنطية تلقائيا مع مضى الوقت بعد ما ناضل الأباطرة البيزنطيون من أجلها ما يقرب من خمسين عاما . لذلك بادر مانويل بترشيح يوحنا روجر John Roger زوج أخته ماريا التى ماتت منذ قليل وكله أمل فى ضم امارة أنطاكية إلى السيادة البيزنطية ؛ يضاف إلى ذلك أن مانويل وجد فى ذلك فرصة لتطويق الأمير الأرمينى ثوروس من الجنوب خاصة وأن نفوذ هذا الأمير بدأ يزداد فى أرمينية يوما بعد يوم على حساب السيادة البيزنطية (٤) . أتجه يوحنا روجر إلى أنطاكية واعتقد مانويل أن أصل يوحنا النورمانى يجعله مقبولا لدى كونستاس ولدى الأمراء الصليبيين بصفة عامة (٥) ؛ ويدل ذلك على أن مانويل كان يشعر بعدم رضاء الصليبيين عن مسلك كونستاس فى التجائها إلى الامبراطورية البيزنطية، وهكذا بنى مانويل هذا الترشيح على أسس عقلية بحتة ونسى مشاعر الأميرة الشابة التى

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, pp. 199—200.

(٢) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ١٦٦ .

(٣) Cinnamus, op. cit., p. 178.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٥٠ .

(٥) Chalandon, op. cit., p. 189.

كان زوجها فارسا شابا ، فقد كان يوحنا يكبر كونستاس بكثير وفقد سحر الشباب وحيويته ؛ لذلك لم يلق هذا المرشح القبول لدى الأميرة التى طلبت منه العودةإلى القسطنطينية،فعاد كاسف البال حزينا وهناك انخرط فى سلك الرهبنة ثم ما لبث أن مات بعد قليل (١) .

وإذا كانت كونستاس قد رفضت يوحنا روجر لكبر سنه أو لأنه لم يرق فى نظرها ، فإنها رفضت أميرا بيزنطيا آخر رشح للزواج منها وهوأندرنيكوس كومنينوس (٢)الذى كان فى مقتبل العمر ويتدفق سحرا وجاذبية(٣) ويدل ذلك على أن الأرملة الشابة لم تكن لديها الرغبة الجادة فى الزواج فى هذه الفترة؛أو ربما يكون ذلك بسبب رغبتها فى اسكات الأصوات الصليبيةالتى تطالبها بالزواج، أو يكون أيضا نتيجة ادراكها أنها تسرعت فى طلب الزواج من أحد الأمراء البيزنطيين وأيقنت أن هذا الزواج سيدخل امارة أنطاكية فى التبعية الكاملة للسيادة البيزنطية ، وهو مالا يرضى عند الأمراء الصليبيون وأن ذلك سيجرها إلى العديد من المشاكل التى وجدت الأميرة أنه من الأفضل الابتعاد عنها . أو ربما أنها تذكرت المذلة التى لحقت بزوجها السابق ريموند أف بواتيه عندما هرع إلى الأمبراطور مانويل بأمل طلب المساعدة ضد نور الدين بعد سقوط الرها . واحتمال آخر وهو أن كونستاس رأت بعد هذه المناقشات أن سلطتها قد رسخت فى الامارة وأنه لا داعى لأية مساعدةمن الأمبراطور مانويل (٤).

---

(١) Cinnamus, op. cit., pp. 122—123, 178.

(٢) هو ابن اسحق كومينيوس عم الامبراطور مانويل وقد تولى عرش الامبراطورية البيزنطية بعد ما عزل الامبراطور الكسيوس الثانى بن مانويل فى عام ١١٨٣ م وحكم حتى عام ١١٨٥ م . عن ذلك المزيد من التفاصيل أنظر :

Bailly, A., Byzance, pp. 341 ff; Baynes, N., The Byzantine Empire, p. 56.

(٣) Schlumberger, op. cit., p. 10.

(٤) Chalandon, op. cit., p. 427.

وهكذا ضاعت أحلام الامبراطور مانويل فى ضم امارة أنطاكية سلما إلى حظيرة الأمبراطورية البيزنطية، وكان عليه أن يناضل مثل ما ناضل جده وأبوه إذا أراد اخضاع أنطاكية للنفوذ البيزنطى .

فاذا انتقلنا إلى امارة الرها وجدنا للسياسة البيزنطية موقفا منها هي الأخرى بعد ما تعرضت لهجمات كل من السلطان السلجوقى مسعود والأراقتة وآل دانشمند ونور الدين . ويروى المؤرخ الأرمينى جرجوار أن السلطان مسعود نزل فى سبتمبر عام ١١٤٩ م / جمادى الأولى ٥٤٤ هـ بقواته واستولى على مرعش (١) بعد ما فر أهلها من أمام القوات السلجوقية (٢). أما ابن أيبك فقد روى أن مسعود استولى عليها بحد السيف (٣). والمهم أن السلطان السلجوقى أتخذ طريقه إلى تل باشر بعدما استولى على مرعش وقد تمكن أثناء زحفه من سحق القوات الصليبية التى اعترضت طريقه، كما استولى على القلاع الواقعة فى الطريق نفسه وهى على ما يبدو عين تاب ودلوك (٤) . وعندما بلغت القوات السلجوقية تل باشر ألقت الحصار عليها ، ولم يكن بوسع جوسلين سوى الاحتماء داخل أسوار المدينة وقد بذل الأمير بازل — أحد القواد الأرمن الذين يدينون بالولاء للأمبراطورية البيزنطية — جهدا كبيرا فى الدفاع عن المدينة(٥)

---

(١) مرعش : مدينة فى الثغور بين الشام وبلاد الروم ، ولها سوران وخندق ، وفى وسطها حصن عليه سور يعرف بالمروانى ، بناه الخليفة الاموى مروان الثانى ابن محمد . أنظر : ياقوت الحموى المصدر السابق ج ٤ ص ٤٩٨ ، وتبعد عن أنطاكية بمسافة ثمانية وسبعون ميلا . أبو الفدا : تقديم البلدان ص ٢٦٢ — ٢٦٣ .

(٢) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 162.

(٣) ابن أيبك : المصدر السابق ص ٥٤٤ .

(٤) عين تاب : قلعة حصينة تقع بين أنطاكية وحلب وهى على بعد مسيرة ثلاثة أيام من حلب وكان يطلق على عين تاب قديما اسم دلوك ولكنه أطلق على احدى القرى التابعة لها . ياقوت الحموى : المصدر السابق ج ٣ ص ٧٥٩ .

(٥) Gregoire le Pretre, loc. cit.,

ويدل ذلك على محاولة الأمبراطور مانويل الدفاع عن بقية امارة الرها حتى لا تسقط فى يد السلاجقة كما سقطت الرها من قبل فى يد عماد الدين ثم فى يد نور الدين بعد ذلك ، ويبدو أن نور الدين لم يكن راضيا عن تدخل السلاجقة فى بقية امارة الرها وما صحب ذلك من تدخل الامبراطورية البيزنطية، لذلك نراه يتدخل بين السلطان مسعود وجوسلين وتوسط فى عقدالصلح بينهما، وأطلق مسعود ما لديه من الأسرى الصليبيين مقابل الفديةالتى قدمها جوسلين، كما قدم جوسلين أيضا عددا من الخيول إلى نور الدين .

ولما كان نور الدين راغبا فى ارضاء السلطان مسعود فقد وهب هذه الخيول إلى رجال مسعود (١) . ومن الملاحظ أنه أثناء قيام السلطان السلجوقى مسعود بمحاربة جوسلين أمير الرها ، قام بلدوين الثالث ملك مملكة بيت المقدس بمساعدة جوسلين وأرسل اليه قوةمن الفرسانلمساندته ضد السلاجقة، لذلك فانه بعدما عقد جوسلين الصلح مع السلطان مسعود وانسحاب القوات السلجوقية أتجه جوسلين إلى مدينة أنطاكية حيث تقابل مع الملك بلدوين وقدم له الشكر على مساندته للامارة ضد الخطر السلجوقى (٢) .

ويبدو أن مهاجمة السلطان مسعود لبعض ممتلكات امارة الرها قد شجع بعض الأمراء المسلمين على مهاجمتها أيضا . ومن ذلك أنه عقب انسحاب القوات السلجوقية قام قرا أرسلان صاحب حصن كيفا (٣) (٥٤٣—٥٧٤هـ/

(١) ابن الفرات : المصدر السابق ج ٥ لوحة ١٦ ب — ١٧ أ .

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 200.

(٣) كان بداية حكم الأراتقة فى هذا الحصن عام ٤٩٥ هـ ١١٠١ م ، أما حصن كيفا فقد ذكره ياقوت الحموى بأنه بلده وقلعة عظيمة تشرف على نهر دجلة وتحتها ربض عامر بالأسواق والفنادق والمساكن الحسنة ولها رساتيق كثيرة وضياع عامرة أنظر ياقوت الحموى ج ٢ ص ٢٧٧ ، راجع أيضا : لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٤٤ — ١٤٥ .

١١٤٨ – ١١٧٤ م) بمهاجمة أملاك الرها وبدأ بالهجوم على مدينة جرجر الذى كان يتولى أمر الدفاع عنها الأمير بازل الذى سبق له الدفاع عن تل باشر ضد الهجمات السلجوقية، وهو الأمير الذى يدين بالولاء للامبراطورية البيزنطية كما توضح من قبل . وقد تمكن قرا أرسلان من أسر بازل ومن معه من الفرسان الذين بلغ عددهم ما يقرب من أربعين فارسا ، وهذه اشارة أخرى إلى قيام الامبراطورية البيزنطية بمساندة جوسلين ضد الهجمات الاسلامية وأن كانت مساعدة غير مباشرة . وبعد ما استولى قرا أرسلان على مدينة جرجر استجاب لطلب أهلها لاخلاء سبيل الأسرى فوافق على ذلك نظير استلامه حصن المدينة، ثم أخلى أيضا سبيل الأمير بازل وعامله وأسرته معاملة طيبة . ثم أتخذ قرا أرسلان طريقه جنوبا إلى سميساط فوصلها بعد ما استولى على المناطق الواقعة بينها وبين جرجر (١) ، وعلى ما يبدو لم يتمكن قرا أرسلان من الاستيلاء على سمبساط واكتفى بالاستيلاء على جرجر وحصن منصور وجاخته Gakhta (٢)

ويروى المؤرخ السريانى المجهول أن عين الدين بن كمشتكين صاحب ملطية (٥٣٧ – ٥٤٥ هـ / ١١٤٢ – ١١٥٠ م) قام أيضا بمهاجمة أملاك جوسلين وأغار على كيسون (٣) والقرى المحيطة بها واستمرت هذه الغارة ثلاثة أيام، وقامت قوات عين الدين بأعمال السلب والنهب والتخريب ومالبثت أن عادت هذه القوات بعدما استولت على ما وقع تحت أيديها من المحاصيل

---

(١) Gregoire le Pretre, pp. 162—3.

(٢) يقع حصن منصور وجاخته بالقرب من جرجر وسميساط : أنظر الخريطة رقم (٣)، وينسب الحصن إلى منصور بن جعونة الذى تولى عمارته أيام مروان الثانى ، أبو الفدا : المصدر السابق ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

(٣) تقع إلى الغرب من سميساط وإلى الجنوب الشرقى من بهنسى ورستاق بهنسى هو رستاق كيسون أنظر : ياقوت الحموى ج ٤ ص ٣٣٣ .

والثروات (١).ويبدو أن هذه الغارة كانت من أجل السلب والنهب لا من أجل الاستيلاء على المدينة .

وتوضح لنا هذه الأحداث كيف أصبحت أملاك جوسلين فى متناول القوى الاسلامية المحيطة بها.وأن الأمر أصبح من الصعوبة بمكان على جوسلين لكى يتولى أمر الدفاع عن بقية ممتلكاته . وكانت جولته الأخيرة مع نور الدين ، ويروى المؤرخون أن نور الدين جمع عساكره وأنجه إلى أرض جوسلين فى مطلع عام ٥٤٥ هـ / أبريل ١١٥٠ م ، ولكن جوسلين استطاع احراز النصر فى أول الأمر على قوات نور الدين وأسر بعض قواته وكان من ضمن الأسرى سلاح دار (٢) نور الدين.فأخذ جوسلين سلاح نور الدين وأرسله إلى صهره السلطان مسعود.فعظم ذلك على نور الدين وهجر الراحة حتى يأخذ بثأره وظل يفكر فى حيلة يحتال بها على جوسلين لأنه كان يعلم باحتماء جوسلين داخل حصونه ، لذلك أتبع معه الحيلة نفسها التى أتبعها والده عماد الدين عندما فكر فى استعادة مدينة الرها ، فأحضر بعض عساكره «وبذل لهم الرغائب أن ظفروا بجوسلين ».فظلوا يراقبونه حتى خرج للصيد كعادته فقبضوا عليه ، وحاول جوسلين أن يفدى نفسه بالمال فوافقت العساكر ولكن الخبر تسرب إلى مجد الدين بن الداية نائب نور الدين فى حلب فأرسل على الفور قوة اقتادت جوسلين إلى حلب (٣) . وحول أمر أسر جوسلين

---

(١) A.S.C., p. 299.

(٢) سلاح دار : أى ممسك أو صاحب سلاح السلطان وله الاشراف على دار السلاح ويختار عادة من الأمراء المقدمين . أنظر القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٨ .

(٣) البغدادى : عيون أخبار الأعيان (مخطوط) جـ ٢ لوحة ٣٧٩ ، ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ١٥٤ — ١٥٥ ، التاريخ الباهر ص ١٠١ — ١٠٣ ، ابن العبرى المصدر السابق ص=

يروى أيضا المؤرخ السريانى المجهول أن جوسلين رأى أنه يتجه إلى أنطاكية ليتولى أمرها بعدمافقدت أميرها ريموندأفـبواتيه فأتجه من عزاز قاصدا أنطاكية ، وفى الطريق برزت له عساكر نور الدين من بين الأشجار وقبضوا عليه دون أن يعرفوه ، وقد عرض عليهم جوسلين أن يخلوا سبيله ويتركوه يعود إلى عزاز نظير مبلغ من المال ، وتم الأتفاق على ستين دينارا ، (١) وبينما تدور هذه المناقشات مر أحد اليهود الذى تعرف على جوسلين وأبلغ عساكر نور الدين بأمره لذلك اقتادوه إلى حلب (٢) .

وما يهمنا أنه بعد ما وقع جوسلين فى الأسر فى السادس من محرم عام ٥٤٥ هـ / الخامس من مايو ١١٥٠ م ، أن امارة الرها فقدت أميرها مثلما فقدت أنطاكية أميرها من قبل . وإذا كانت القوى الاسلامية قد تشجعت على مهاجمة أملاك جوسلين بعد سقوط مدينة الرها ، فلا شك أن المسلمين قد ازدادوا تشجعاً على مهاجمة بقية امارة الرها بعد أسر جوسلين . فى الثانى والعشرين من المحرم من نفس العام / الثانى والعشرين من مايو من العام نفسه

ـــ ٣٦٠ — ٣٦١ ، ابن العديم : المصدر السابق جـ٢ص ٣٠٢ أبوالفدا : المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٤ .

(١) الدينار : كان من الذهب وبعضه حقيقة وبعضه اسمى كالدينار الجيشى . وكانت قيمته لا تلبث على حال والعبرة فى وزنه بالمثقال وضابطه ان كل سبعة مثاقيل تساوى ٢٤ قيراطا وكل قيراط يزن ٧٢ حبة شعير وسط باتفاق العلماء خلافا لابن حزم فأنه قدره بأربع وثمانين حبة وهذا يعنى أن الدينار يساوى ١٧٢٨ حبة من الشعير المتوسط الحجم أو ٢٠١٦ حبة تقديرالابن حزم» . أنظر : القلقشندى جـ ٣ ص ٤٤٠ — ٤٤٣ . وقد قدرت قيمته بحوالى ستون قرشا فى عام ١٩٣٤ . أنظر جوزيف نسيم يوسف العدوان الصليبى على مصر ص ٢٣٢ حاشية (٧)

(٢) A.S.C., p. 301; Michel le Syrien, p. 342.

وعن أسر جوسلين أنظر أيضا : ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٣١٠ ،
William of Tyre, op. cit., II, p. 201.

أيضا وصل السلطان مسعود بقواته إلى مدينة كيسون ، وعلى ما يبدو أن القوات السلجوقية كانت كثيرة العدد لذلك دب الرعب فى سكان المدينة واستسلموا على الفور بعدما حصلوا على الأمان ثم أتجه مسعود بعد ذلك إلى بهنسى التى استسلمت له فى أول صفر / الثلاثين من مايو ، ثم واصل زحفه إلى رعبان التى خضعت له فى الخامس من صفر / الثالث من يونية ، وأخيرا أتجه مسعود إلى تل باشر وظل محاصرا لها مدة طويلة ، ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها فقد دافع عنها أهلها بكل شجاعة رغم ما قام به مسعود وقواته من جهود لاسقاط المدينة (١) ، وفى النهاية عاد مسعود إلى بلاده بعد ما ترك البلاد التى فتحها وهى كيسون وبهنسى ورعبان تحت قيادة أبنه عز الدين قلج أرسلان (٢) . وهكذا ضاع جانب من امارة الرها وآل إلى السلاجقة . ولم تشر المصادر التى تحت أيدينا إلى أية مساعدة سواء كانت صليبية أم بيزنطية قدمت لجوسلين فى هذه المحنة .

وإذا كان نور الدين قد تدخل من قبل للتوسط فى الصلح بين السلطان مسعود وجوسلين عندما هاجم مسعود بقية امارة الرها ، فانه بعد أسر جوسلين وقيام مسعود بمهاجمة بقية امارة الرها نلاحظ عدم تدخل نور الدين للصلح ، بل تدخل بقواته بعد انسحاب مسعود ، وقام فى شهر رجب عام ٥٤٥ هـ / أكتوبر — نوفمبر ١١٥٠ م بجمع قواته ليحصل على ما يمكن الحصول عليه بقية امارة الرها ، وهاجم الصليبيين بالقرب من تل باشر وانتصر عليهم انتصارا

---

(١) ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٣١٠ — ٣١١ ، أنظر أيضا :
Gregoire le Pretre, pp. 164—5.

(٢) أبو الدم الحموى : التاريخ المظفرى (مخطوط) ورقة ١٩٥ .

ساحقا (١) ، ثم ما لبث أن اتجه إلى تل باشر نفسها ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها وذلك بسبب ما قامت به بياتريس Beatrice زوجة جوسلين وما حولها من رجال زوجها المخلصين فى الدفاع عن المدينة (٢)،وما لبث أن رفع الحصار عن تل باشر وأتجه إلى تل خالد (٣) واستولى عليه (٤) .

كما قام الأراتقة أيضا بمهاجمة بقية امارة الرها ، وإذا كان قرا أرسلان صاحب حصن كيفا قام بالهجوم قبل أسر جوسلين فمن الملاحظ فى هذا الوقت أن الأراتقة فى ماردين هم الذين قاموا بالتدخل فى أملاك الرها،ويشير ابن الأزرق الفارقى أن حسام الدين تمرتاش أمير ماردين (٥١٦–٥٤٧ ه/ ١١٢٢ – ١١٥٢ م) ملك مدينة سميساط (٥) ، وعلى ما يبدو أن حسام الدين امتلك هذه المدينة لفترة قصيرة أو ربما هاجمها فقط ، فقد كانت سميساط من المدن التى سلمتها زوجة جوسلين إلى الامبراطور البيزنطى مانويل بعد قليل (٦) . ورغم هذا فما رواه ابن الأزرق ربما يشير إلى ما كان يتطلع اليه حسام الدين فى الحصول على بعض أملاك جوسلين .

وهكذا وقعت بعض ممتلكات بقية امارة الرها فى قبضة الدول الاسلامية المحيطة بالامارة بعد ما استولى قرا أرسلان صاحب حصن كيفا على جرجر وحصن منصور،وجاختة واستولى السلطان مسعود السلجوقى على كيسون وبهنسى ورعبان،واستولى نور الدين على تل خالد بالاضافة إلى مدينة الرها

---

(١) ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٣١١ – ٣١٢ .

(٢) Cahen, op. cit., p. 387.

(٣) تل خالد وهو أحد القلاع القريبة من حلب . ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ ١ ص ٨٦٧

(٤) ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٣١٢ .

(٥) ابن الأزرق الفارقى : تاريخ ميافارقين (ميكروفيلم) أحداث عام ٥٤٥ هـ .

(٦) William of Tyre, op. cit., II, p. 209.

نفسها . والمهم أنه فى هذه المرحلة التى بدأت فيها القوى الاسلامية تهاجم ممتلكات الرها من كل جانب ، نجد أن ياغى أرسلان صاحب سيواس وحليف الامبراطور البيزنطى مانويل قد بدأ يتخلى فى هذا الوقت عن سياسة التقارب إلى الامبراطورية البيزنطية، بعدما وجد تكاتف الحكام المسلمين لتصفية ممتلكات الرها . ومما يشير إلى ذلك ما رواه المؤرخ البيزنطى كيناموس من أن ياغى أرسلان قام بمهاجمة أملاك الامبراطورية البيزنطية (١) ، ولكنه لم يوضح لنا متى تم ذلك وموقف الامبراطور مانويل من هذا الهجوم ، وعلى ما يبدو أن ياغى أرسلان قام بهذا العمل فى هذا الوقت حتى لا يعزل نفسه عن بقية أخوانه المسلمين ، أو ربما وجد أن فى هذا الهجوم تقربيا إلى السلطان مسعود الذى زاد نفوذه فى هذا الوقت بعدما ضم اليه بعض مدن امارة الرها المنهارة وازدياد روابط الصلة بين مسعود ونور الدين بعدما تم التصاهر بينهما .

وبذلك يتضح لنا مدى الخطورة التى باتت تهدد الممتلكات الصليبية فى شمال الشام بأكمله إذا أضفنا إلى ذلك أحوال امارة أنطاكية بعد مقتل ريموند وهو الأمر الذى أثار مخاوف الملك بلدوين الثالث بعدما وقع على كاهله حماية ما تبقى من امارة الرها ، وبعد قيامه بالوصاية على امارة أنطاكية . وحوالى ذلك الوقت أى عام ٥٤٥ هـ / ١١٥٠ ، وبعدما أصبح الملك بلدوين عاجزا عن حماية بقية امارة الرها ، بدأت ملامح التدخل من قبل الامبراطورية البيزنطية فى الشرق ، ويتضح ذلك عندما أرسل الأمبراطور مانويل أحد قواده وهو على ما يبدو توماس — أحد قواد والده الامبراطور يوحنا فى الهجوم على بزاعة عام ٥٣٢ هـ / ١١٣٨ م حاكم قيليقية فى هذا الوقت (٢) ، أرسله

---

(١) Cinnamus, op. cit., p. 101.
(٢) Sempad, op. cit., p. 619.

مانويل ومعه قوة كبيرة من الفرسان إلى بياتريس زوجة جوسلين . وقد دخل توماس مع بياتريس فى محادثات تمهيدية بغرض شراء ما تبقى تحت يديها من مدن وقلاع امارة الرها نظير معاش سنوى ، وقد أوضح توماس للأميرة أن بوسع الأمبراطورية البيزنطية أن تحافظ على هذه المناطق بفضل ما لديها من قوات ،وأن وضع هذه الأراضى تحت السيادة البيزنطية يجعلها فى مأمن من الهجمات المتكررة التى يشنها المسلمون . وأوضح المبعوث البيزنطى أن الامبراطورية البيزنطية بوسعها أيضا بعد أن تستقر فى بقية امارة الرها أن تستولى على الأراضى التى استعادها المسلمون (١) . وتوضح هذه العبارة إلى أى مدى كان يطمع الأمبراطور مانويل فى اعادة امارة الرها إلى ما كانت عليه قبل سقوط مدينة الرها ذاتها وادخالها تحت الحكم البيزنطى ومواجهة يقظة الحكام المسلمين الذين بدأوا يعملون على استعادة أراضيهم . والمهم أنه ازاء ما عرضه المبعوث البيزنطى توماس على الأميرة بياتريس من المال والحماية واستعادة الأراضى ، لم يكن أمام الأميرة الا استحسان ما عرضه الامبراطور مانويل على لسان مبعوثه توماس (٢) . كما لم يكن بوسع بياتريس أن تتصرف بمفردها حول هذا العرض الذى يتعلق بمصير أملاكها لذلك طلبت من توماس عرض الأمر على الملك بلدوين باعتباره وصيا على بقية ممتلكات امارة الرها .

وكان الملك بلدوين قد وصل إلى أنطاكية فى الوقت الذى دارت فيه المفاوضات بين المبعوث البيزنطى والأميرة . لذلك توجه توماس إلى أنطاكية لمقابلة بلدوين . وفى أنطاكية دار جدل كثير فى عدة اجتماعات حضرها

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 208.

(٢) Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 142.

مبعوث الأمبراطور مانويل . وقد شرح توماس وجهة نظر الامبراطور مانويل فى بقية امارة الرها . وانقسم الرأى الصليبى حول عرض مانويل، فقد رأى البعض عدم الموافقة على طلب الأمبراطور البيزنطى وعلل هذا الفريق وجهة نظره بأن الأمر لم يصل من الخطورة إلى الحد الذى يتنازل فيه الصليبيون عن أملاكهم ، أما البعض الآخر فقد وافق على العرض البيزنطى وأيد وجهة نظره بأن ما تبقى من أملاك الرها لا يستطيع الدفاع عن نفسه أمام هجمات المسلمين ،وأنه من الأفضل تسليمه للامبراطور مانويل قبل أن يسقط تماما فى أيدى القوات الاسلامية . وانضم الملك بلدوين إلى جانب الفريق الذى يؤيد تسليم الأراضى للامبراطور البيزنطى ،وأضاف بلدوين أنه لا يستطيع أن يتنقل بين مملكة بيت المقدس وأنطاكية والرها ليتولى أمرهما كما أن القوات التى تحت يديه لا تستطيع الدفاع عن كل هذه الأراضى وأن بقاءها على هذا الحال يمكن المسلمين من الاستيلاء عليها ان آجلا أو عاجلا . ثم ما لبث أن اقتنع الجميع بوجهة نظره وأنه من الأفضل تسليم أملاك بباتريس إلى الأمبراطور مانويل ،وهو الأمر الذى اعتبره الصليبيون فى نظرهم أهون الشرين بدلا من سقوطها فى يد المسلمين ،وحتى يتحمل الامبراطور البيزنطى مسئولية حماية هذه الأراضى وما يترتب على ذلك من نتائج . وانتهى الأمر بموافقة الملك بلدوين والأمراء الصليبيين والأميرة بياتريس على العرض البيزنطى الذى يعيد إلى الامبراطورية البيزنطية هذه الأراضى التى فقدتها الامبراطورية من قبل على حد ما رواه المؤرخ الصليبى وليم الصورى (١) .

---

(1) William of Tyre, op. cit., II, pp. 208--9.

لم يشر المؤرخون البيزنطيون إلى هذه الأحداث .

والواقع أن هذه القضية كشفت عن عدة حقائق هامة ، أولها أن الصليبيين سلموا بعد أكثر من خمسين سنة بأن الرها وتوابعها كانت ضمن الأراضى التى كانت خاضعة للنفوذ البيزنطى قبل قدوم الحملة الأولى بقليل ، وهم الذين أنكروا أى حق للامبراطورية فى أى أرض فتحها الصليبيون ، وتذرعوا بكافة الحجج حتى لا يسلموها للامبراطور البيزنطى . وثانيا ، أن الصليبيين سجلوا على أنفسهم أنهم أصبحوا عاجزين عن حماية ما تحت أيديهم من أراضى أمام القوات الاسلامية . وثالثا ، أن بوسع المسلمين الاستيلاء على ما تبقى من امارة الرها . ورابعا ، أن الصليبيين أيقنوا أنهم يناقشون قضية خاسرة وأن الأفضل لهم عدم تحمل مسئولية ما تبقى من امارة الرها والقاء هذه المهمة على كاهل الامبراطورية البيزنطية والانكماش داخل حدود بقية الامارات الصليبية — بيت المقدس وأنطاكية وطرابلس — التى ظنوا أن بوسعهم حمايتها ولكن إلى حين .

والمهم أنه تم الاتفاق على تسليم ما تبقى من امارة الرها إلى مبعوث الأمبراطور البيزنطى عدا قلعة الروم (١) ، فقد طلبت بياتريس من البطريك الارمينى جريجوار الثالث Gregoire III ، المعروف باسم جريجوار باهلافونى Bahlavouni الحضور لاستلام القلعة والاقامة بها على أمل أن يعود أبنها (٢) — الذى يحمل أيضا اسم جوسلين — فيما بعد لاستلام القلعة ، وأشارت اليه أنه فى حالة عدم عودة آبنها فيما بعد لاستلام القلعة فالأفضل آن

(١) قلعة الروم : من القلاع الحصينة التى لا ترام وتقع على الشاطىء الغربى لنهر الفرات وإلى الشمال من البيرة . لى سترانج : فلسطين فى العهد الاسلامى ص ٤٤٤ .

(٢) Vartan le Grand, p. 434.

تظل القلعة تحت سيطرته بدلا من وقوعها فى أيدى البيزنطين أو الصليبيين ، وقد قبل البطريك دعوة الأميرة وتسلم القلعة (١) والواضح أن ما دفع بياتريس إلى القيام بهذا العمل هو حبها لبنى جنسها من الأرمن .

أما بقية مدن وقلاع امارة الرها فاتفق على قيام الملك بلدوين الثالث والتوجه إلى تل باشر لتسليمها إلى المندوب البيزنطى (٢) ، وقد اصطحب الملك معه ريموند الثانى كونت طرابلس(١١٣٧ — ١١٥٢ م / ٥٣٢—٥٤٧هـ) وبعض أمراء مملكة بيت المقدس وامارة أنطاكية والمبعوث البيزنطى ومن معه من المسئولين البيزنطين ،وهناك أخذ بلدوين الأميرة بياتريس وأولادها ووضعهم تحت رعايته وحمايته وقام بتسليم نواب الامبراطور البيزنطى بقيادة توماس ما تبقى من امارة الرها ،وقد ذكر وليم الصورى أن نواب الامبراطور تسلموا تل باشر وعين تاب والرواندان ودلوك والبيرة وسميساط (٣) .

وعندما بلغ نور الدين نبأ استلام نواب الامبراطور البيزنطى لبقية امارة الرها وأن العمل قائم على تهجير السكان الذين رغبوا فى الرحيل وعدم البقاء تحت السيادة البيزنطية ،وما يتبع ذلك من الأحوال التى أحاطت بالصليبيين عامة والسكان الراحلين بصفة خاصة وما سيطر عليهم من الشعور بالخوف على أرواحهم ، قام نور الدين بجمع قواته وأتجه إلى هذه المناطق لمتابعة الموقف عن قرب ، وعندما وصل نور الدين وقواته إلى قرب عين تاب كان الملك

---

(١) Michel le Syrien, p. 343; Sempad, op. cit., p. 618.

وظلت قلعة الروم مقر البطاركة الأرمن حتى استولى عليها الاشراف خليل بن قلاوون عام ١٢٩٢ م . أنظر أبو الفدا : تقديم البلدان ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

(٢) Smail, R.C., Crusading Warfare, p. 160.

(٣) William of Tyre, op. cit., p. 209.

بلدوين والمسيرة الصليبية قد وصلوا إليها أيضا وخلدوا إلى الراحة، ويروى المؤرخ وليم الصورى أن بعض الأمراء الصليبيين وعلى رأسهم روبرت أف سورديفال Robert of Sourdival أحد أمراء أنطاكية ، أشاروا على الملك بأن يسلمهم عين تاب وأن بوسعهم الدفاع عنها، ولكن بلدوين رأى أن يتم تنفيذ الاتفاق كاملا مع الأمبراطور البيزنطى وأن يتم تسليم عين تاب أيضا إلى نواب الأمبراطور، وبالفعل سلمت المدينة للمبعوثين البيزنطيين، وواصل الملك بلدوين مسيرته والقوات الاسلامية تسير على مقربة منه حتى دخلت المسيرة الصليبية والمهاجرين إلى الأراضى الصليبية (١) التابعة لامارة أنطاكية .

وإذا كان الامبراطور البيزنطى مانويل قد فرح بالاستيلاء على هذه المدن والقلاع، وظن أن هذه المراكز ستمكنه من إعادة النفوذ البيزنطى فى تلك الأطراف الشرقية وأحياء امارة الرها لتكون امارة بيزنطية لا صليبية ، فان فرحته لم تدم طويلا. إذ سرعان ما اتضح له أن حماية هذه المناطق تحتاج إلى جهد كبير لبعدها عن القسطنطينية ووقوعها وسط أراضى المسلمين، خاصة وأن الامبراطورية البيزنطية كانت تعانى فى هذا الوقت من مشاكلها الغربية خاصة من جانب النورمان فى صقلية (٢) . يضاف إلى ذلك عنصر فى غاية الأهمية وهو مشاعر سكان المدن والقلاع التى أصبحت فى حيازة الامبراطورية البيزنطية . وقد سبق أن أبدى بعض السكان عدم رغبتهم فى البقاء تحت الحكم البيزنطى وهاجروا إلى الجانب الصليبى . أما بقية السكان الذين ظلوا فى ديارهم

---

(١) William of Tyre, op. cit., pp. 210—212.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٤٣ — ٦٤٤ ولمزيد من التفاصيل عن حروب مانويل فى الغرب الأوربى فى هذه الفترة أنظر : عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٤٢ — ١٤٣ .

واختبروا الحكم البيزنطى — وهم الذين اختبروا الحكم الاسلامى والصليبى من قبل — فضلوا بعد كل هذه التجارب الدخول تحت الحكم الاسلامى. ويعتبر تفضيل هؤلاء السكان غير المسلمين للحكم الاسلامى فى مثل هذا العصر الذى يسميه المؤرخون عصر الايمان أو عصر التعصب الدينى أمر له دلالته، فأبسط ما يدل عليه هو سماحة الاسلام وعدالته .

لم يرغب سكان هذه المدن والقلاع البقاء تحت الحكم البيزنطى ، وتفاصيل ذلك أن المواطنين الأرمن وهم الغالبية على ما يبدو فى مدينة تل باشر (١) — التى تعتبر حاضرة امارة الرها بعد مدينة الرها ذاتها — فضلوا الدخول تحت الحكم الاسلامى ، لذلك قام نواب سكان تل باشر بمكاتبة نور الدين وأبدوا رغبتهم فى تسليمه المدينة . ولما كان نور الدين مشغولا فى هذا الوقت بحصار دمشق فقد طلب من حسان صاحب منبج التوجه إلى تل باشر لاستلامها استجابة لرغبة أهلها، وقد تسلمها حسان فى الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول عام ٥٤٦ هـ / الثانى عشر من يولية عام ١١٥١ م (٢) .

وكان ما قام به سكان تل باشر مثلا لسكان المدن والقلاع الأخرى التى وقعت تحت الحكم البيزنطى فكاتبوا أيضا نور الدين لتسليم مدنهم وقلاعهم بالأمان . وبدأ نور الدين فى استلام عين تاب (٣) والراوندان والبيرة (٤) وهى المدن

---

(١) يتضح ذلك من اشارة المؤرخ الأرمينى جريجوار إلى مدينة تل باشر بكلمة «مدينتنا» أنظر :
Gregoire le Pretre, op. cit., p. 166.

(٢) ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٣١٥ ، أبو شامة : المصدر السابق جـ ١ ص ٨١ ،
Gregoire le Pretre, loc. cit.

(٣) ابن الفرات : المصدر السابق جـ ٥ لوحة ٣٥ ب .

(٤) ابن واصل : المصدر السابق جـ ١ ص ١٢٤ .

التى كان يغلب عليها الطابع الأرمينى مثل تل باشر بعد انسحاب الصليبيين منها فى العام السابق . ولابد أن مثل هذه الأحداث قد أزعجت الأمبراطور مانويل بعدما أصبح مسئولا عن هذه المدن والقلاع أمام الرأى العام الصليبى ، لذلك تقدمت القوات البيزنطية - وهى على ما يبدو قوات الحاميات فى هذه المناطق - لمنع نور الدين ونوابه من استلام المدن والقلاع (١) ، وكان اللقاء على ما يبدو فى دلوك وقد نجح نور الدين فى انزال هزيمة ساحقة بالقـوات البيزنطية (٢) . ولقد كان فى هزيمة البيزنطيين أمام أعين السكان خير شاهد على حسن ظن الأهالى بالقوات الاسلامية وبما توسموه فى الحكم الاسلامى من الأمن والطمأنينة . وعلى أية حال لم يكن أمام القوات البيزنطية سوى التراجع واخلاء هذه الأماكن النائية ونجح نور الدين فى الاستيلاء على دلوك وغيرها من المدن والقلاع التى كانت فى حيازة البيزنطيين ، واستطاع نور الدين بعد عام تقريبا من استعادة كافة الأراضى التى تنازلت عنها بياتريس زوجـة جوسلين للامبراطورية البيزنطية (٣) ، وهكذا فشل الأمبراطور مانويل فى اقامة امارة الرها البيزنطية بعد ما فشل فى حماية امارة الرها الصليبية .

وفى الوقت الذى كان المسلمون يعملون على انتزاع المناطق التى آلت إلى الامبراطورية البيزنطية من بقية امارة الرها ، كان الأمير ثوروس يقـود ثورة أرمينية على ما تبقى للنفوذ البيزنطى فى منطقة قيليقية ، وعلى ما يبدو أن

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 212.

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٠٤ . وقد ذكر أن اللقاء كان مع الفرنج والحقيقة أنه كان من البيزنطيين فقد كانت دلوك آلت إلى الحكم البيزنطى فى هذا الوقت . أنظر ما سبق ص ١٤٩ .

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 212; Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 143.

الأمير ثوروس قد تشجع للثورة بعدما لحقت الهزائم بالحاميات البيزنطية على يد نور الدين وقواته . قام ثوروس فى عام ١١٥١ م / ٥٤٦ هـ وشن هجوما على القوات البيزنطية الموجودة فى قيليقية وتمكن من هزيمتها وأسر توماس حاكم المنطقة، ثم ما لبث أن استولى على مدينتى طرسوس والمصيصة (١) . ولاشك أن مثل هذه المعركة وما ترتب عليها من نتائج تشير بوضوح إلى ازدياد نفوذ ثوروس فى منطقة قيليقية . وكان على الامبراطور مانويل أن يقوم بعمل إيجابى ضد الأمير الأرمينى للحفاظ على هيبة الامبراطورية فى الشرق خاصة بعد فشله فى تزويج كونستانس أرملة ريموند من أحد الأمراء البيزنطيين وضياع الأراضى التى آلت إليه من بقية امارة الرها .

وربما يكون الأمر غير خطير على الامبراطورية البيزنطية إلى حد كبير إذا ما ضعف نفوذها فى أنطاكية أوضاعت بقية أقاليم الرها ، ولكن الأمر يصبح فى منتهى الخطورة إذا تعلق بمنطقة استراتيجية مثل قيليقية التى تتحكم فى المعابر البرية من والى منطقة الشام. يضاف إلى ذلك أنها تعتبر خط الدفاع الأمامى عن الأمبراطورية من ناحية الجنوب الشرقى ، لذلك اختار مانويل ابن عمه اندرونيكوس معتقدا أن هذا الأمير هو القائد الكفء الذى تجتمع فيه الخصائص العسكرية والدبلوماسية التى تؤهله لهذه المهمة وعينه حاكما على قيليقية (٢)، وهذا يوضح لنا أن قيليقية كانت لاتزال تحت الحكم البيزنطى حتى هذه المرحلة . والمهم أن الامبراطور زود قائده أندرونيكوس بالقوات البيزنطية اللازمة وقد بلغ عددها ما يقرب من اثنى عشر ألفا على حد تقدير

---

(١) Sempad, op. cit., p. 619.

(٢) Cinnamus, op. cit., pp. 121—121; ; Vahram d'Edesse, op. cit., p. 503.

المؤرخ الأرميني سمباد (١) . وزحف أندرونيكوس وقواته على قيليقيه للقضاء على ثوروس . وهناك انضم إلى القائد البيزنطي بعض الزعماء الأرمن الذين كانوا يدينون بالولاء للامبراطورية البيزنطية، ومنهم الأمير بازل الذى قام بتزويد أندرونيكوس ببعض القوات الأرمينية نظرا لما يكنه هذا الأمير من عداء تجاه ثوروس الذى انتزع منه قلعة برسبرت .Partzerpert (٢) .

ونجح أندرونيكوس فى احراز بعض النصر فى أول الأمر على قوات ثوروس وتمكن من محاصرته فى مدينة المصيصة. وعلى ما يبدو أن ثوروس عندما وجد نفسه محاصرا طلب عقد الصلح مع القائد البيزنطى اندرونيكوس، وأن الأخير طلب من ثوروس الاعتراف بالسيادة البيزنطية على ما وقع تحت يديه من الأراضى شأنه فى ذلك شأن بقية الزعماء الأرمن الذين يخدمون تحت إمرة القيادة البيزنطية . وفى هذا الصدد يروى المؤرخ الأرمينى جريجوار أن ثوروس كان يخاطب أندرونيكوس من أعلى أسوار المصيصة قائلا له : «لا تغضب أنا خادم سيدك» (٣) . ولم تمدنا المصادر التى تحت أيدينا بمزيد من التفاصيل حول بقية رغبة الأمير ثوروس فى الصلح ولكنه يمكن القول أن شروط الصلح التى قدمها أندرونيكوس أو ثوروس لم تلق الموافقة من الجانب الآخر، أو أن يكون فى عبارة ثوروس هذه نوعا من المراوغة حتى تحين له الفرصة للانقضاض على القوات البيزنطية . والواضح أن أندرونيكوس كان

---

(١) Sempad, op. cit., p. 619.

(٢) Le Doctor Basil, op. cit., p. 204 n. I.

برسبرت : أو برس برت : حصن منيع على جبل عال وهو من أعظم معاقل الأرمن وبه خزائنه ومصيفه ويقع على بعد مرحلة إلى الشمال من مدينة سيس (sis) أنظر : أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٥٠ — ٢٥١ .

(٣) Gregoire le Pretre, op. cit., 168.

مغترا بما تحت يديه من قوات وما انضم اليه من القوات الأرمينية (١)، وبدأ فى التهكم والسخرية من الأمير ثوروس وأبلغه أن السلاسل التى استعملت فى قيد والده ليو — عندما قبض عليه الامبراطور يوحنا وأرسله مكبلا إلى القسطنطينية سوف تستخدم مرة أخرى فى قيد ثوروس وتسلمه أسيرا إلى العاصمة البيزنطية.

ويتضح من سير الحوادث أن الأمير لم يحتمل مثل هذه الاهانة وأيقن عدم جدوى المفاوضة مع القائد البيزنطى وبدأ يخطط للالتحام مع القوات البيزنطية ؛ لذلك أمر ثوروس قواته بفتح ثغرة فى سور المدينة عند بعض الأماكن الخافية عن أعين القوات البيزنطية، واستطاعت قوات ثوروس التسلل من هذه الثغرة أثناء الليل وظلت كامنة حتى طلوع الفجر وانقضت على أندرونيكوس وقواته وألحقت بها هزيمة ساحقة وسقط من الجانب البيزنطى ما يقرب من ثلاثة آلاف قتيل (٣). واستولت قوات ثوروس على ما فى المعسكر البيزنطى من أسلاب وقتل فى هذه المعركة ثيودور كونتوستفانوس(٤) أحد قواد الجيش البيزنطى البرى الذى قام بتأديب ريموند أمير أنطاكية عام ١١٤٣ م ، وعلى أثر هذه الهزيمة التى لحقت بالقوات البيزنطية وما انضم اليها من القوات الأرمينية (٥) ، فر أندرونيكوس إلى القسطنطينية ليلقى اللوم على الزعماء الأرمن الذين كانوا يعملون تحت أمرته ويتهمهم بأنهم السبب فيما لحق بقواته من هزيمة (٦) كما سقط فى هذه المعركة أيضا العديد من الزعماء الأرمن

---

(١) Guiragos de Kantzag, Histoire d'Armenie, Cf.R.H.C.Doc Arm., I, p. 414.

(٢) Sempad, op. cit., p. 619.

(٣) Michel le Syrien, op. cit., p. 344.

(٤) Cinnamus, op. cit., p. 126.

(٥) Vahram d'Edesse, op. cit., p. 505.

(٦) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 169.

أسرى فى أيدى قوات ثوروس، وكان من بينهم سمباد حاكم مدينة بارباورن Barbaron ، وبازل الحاكم السابق لقلعة برسبرت وأخيه تيجران Tigran (١)، واسكين Ocshin حاكم مدينة لامبرون Lampron (٢) ، يضاف إلى ذلك العديد من القوات البيزنطية (٣) .

وقد كان لهذه المعركة نتائج مادية وسياسية ، وعن النتائج المادية فقد استولى ثوروس على ما فى المعسكر البيزنطى من الذهب والفضة وكثير من المعدات الحربية والخيول والبغال (٤) ، أما فيما يتعلق بالأسرى البيزنطيين فقد أطلق ثوروس سراحهم مقابل دفع الفدية وبالنسبة للزعماء الأرمن عدا أوسكين فقد أطلق ثوروس سراحهم بعدما أرتبطوا معه بمعاهدات الصداقة والتحالف ضد البيزنطيين (٥) ، أما أوسكين فقد طلب منه ثوروس فدية قدرها أربعون ألف تاهجان ، وربما يرجع ذلك إلى ما كان يتمتع به أوسكين من ثروة ونفوذ ، ولقد تمكن أوسكين من دفع نصف الفدية وترك أبنه هيثوم Hethoum رهينة لدى الأمير ثوروس حتى يدفع بقية الفدية ، ثم ما لبث أن استطاع هيثوم من اكتساب محبة الأمير ثوروس وقد شجع ذلك أوسكين على اقتراح زواج أبنه هيثوم من ابنة ثوروس وعقد محالفة بينهما فوافق ثوروس وتنازل عن بقية الفدية ورحل هيثوم وعروسه إلى لامبرون (٦) . وهكذا نجح ثوروس فى الحصول على المال والصداقة من الزعماء الأرمن وتمكن من بسط نفوذه على

---

(١) Sempad, op. cit., p. 619.

(٢) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 170.

(٣) Vahram d'Edesse, op. cit., p. 506.

(٤) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 169.

(٥) Vahram d'Edesse, loc. cit.,

(٦) Sempad, op. cit., pp. 619—620.

منطقة قيليقية بأكملها (١) وأما النتائج السياسية التى عادت على الأمبراطورية البيزنطية فيمكن القول أن النفوذ البيزنطى قد انحسر عن منقطة قيليقية فى ذلك الوقت وسطع نجم ثوروس كزعيم وقائد ثورة ضد الحكم البيزنطى فى قيليقية.

وبعد هزيمة القوات البيزنطية وفرار أندرونيكوس إلى القسطنطينية ـــ وخروج منطقة قيليقية من دائرة النفوذ البيزنطى فى العام نفسه الذى ضاعت فيه بقية امارة الرها من بيزنطة وآلت إلى نور الدين . نرى الامبراطور البيزنطى مانويل يتبع سياسة جديدة فى منطقة الشرق الأدنى الاسلامى لفترة من الزمن . وكانت هذه السياسة نوعا من الدبلوماسية الماكرة سار على نهجها الأمبراطور . وتهدف هذه السياسة إلى قيام مانويل بالتحالف مع احدى قوى المنطقة أو ضمها إلى جانبه ليضرب بها قوى أخرى فى المنطقة نفسها تكون سياستها معادية للسياسة البيزنطية وبذلك يضمن مانويل انشغال القوتين معا فى وقت واحد ببعضهما عن الصراع مع الامبراطورية البيزنطية ذاتها وفى الوقت نفسه فان صراع القوتين معا يضعفهما معا فى نهاية الأمر مما يعطى الفرصة للأمبراطور مانويل لدعم نفوذ الامبراطورية فيما بعد سواء أكان هذا الدعم سياسيا أم عسكريا .

وقد حانت الفرصة الأولى للأمبراطور مانويل لتطبيق هذه السياسة بالتحالف مع السلطان مسعود ضد الأمير ثوروس . فقد حدث بعد وفاة عين الدولة صاحب ملطية أن تولى ابنه القاصر ذو القرنين حكم ملطية (٥٤٥ — ٥٥٦ هـ — ١١٥٠ — ١١٦١ م) وتولت أمه الوصاية عليه ودخل فى طاعة السلطان مسعود . وعلى ما يبدو قام ثوروس فى عام ١١٥٣ م / ٥٤٨ هـ متشجعا

---

(١) Brooke, Z.N., A History of Europe (911—119) p. 481.

بالنصر الذى سبق أن أحرزه على القوات البيزنطية وعدم قيام الامبراطور بعمل ايجابى ضد قيليقية، ومتشجعا أيضا بدخول الزعماء الأرمن فى طاعته ومستخفا بالحاكم القاصر، قام بمهاجمة ملطية وعاد محملا بالأسرى والغنائم (١) واستغل مانويل هذه الحادثة وأرسل إلى السلطان يعرض عليه الأموال والهدايا ويشجعه على مهاجمة ثوروس . ولما كان مسعود مهيأ للانتقام من الأمير الأرمينى فقد حشد قواته وتقدم بها عبر بلاده فى طريقه إلى قيليقية معتمدا على الدعم البيزنطى، وعلى سمعة القوات السلجوقية التى كانت تلقى الرعب فى نفوس الأرمن (٢) . ويروى المؤرخ ميخائيل السريانى أن ثوروس عندما علم بقدوم القوات السلجوقية أمر قواته بنصب الكمائن فى الممرات الجبلية الواقعة على الحدود بين الممتلكات السلجوقية وامارة قيليقية مما أدى إلى فشل القوات السلجوقية فى النفاذ إلى قيليقية، ثم ما لبث السلطان مسعود أن عاد بقواته إلى بلاده (٣) . أما المؤرخ الأرمينى جريجوار فيروى أن القوات السلجوقية، والقوات الأرمينية تقابلت عند الحدود الواقعة بينهما وعسكرت كل قوة فى أراضيها يفصل بينهما مرتفعات الجبال، وظلت القوات الأرمينية مستعدة للقتال ولم تخش القوات السلجوقية، ثم ينتقل المؤرخ نفسه فجأة بعد هذا الاستعداد ليضيف أن السلطان مسعود أرسل مندوبين من لدنة إلى الأمير ثوروس ليبلغوه أن مسعود لم يحضر بقواته لتخريب البلاد الأرمينية ولكنه أتى يطالب بعودة الأراضى التى فى حوزته إلى الامبراطورية البيزنطية، ويطالب أيضا باعتراف ثوروس بسيادة السلطان مسعود عليه . وقد فرح الأرمن وثوروس بوصول

(١) Michel le Syrien, op. cit., p. 345.

(٢) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 170.

(٣) Michel le Syrien, op. cit., p. 345.

مندوبى مسعود لأنهم أيقنوا أن ذلك دليلا على عدم رغبة السلطان مسعود ـ الذى يسميه المؤرخ بالطاغية ـ فى الحرب ، وقد ظل المبعوثون بضعة أيام طرف ثوروس ثم أعادهم مرة أخرى ليخبروا السلطان مسعود أن ثوروس وافق على الخضوع للسيادة السلجوقية عن طيب خاطر لأن السلطان مسعود لا يضمر شرا للأرمن. وأضاف المؤرخ أن ثوروس لا يوافق على ما يتعلق باعادة الأراضى التى تحت يديه للامبراطورية البيزنطية وقد، وافق السلطان السلجوقى على ذلك وتم عقد معاهدة صلح وتعاون بين الطرفين وقد أيد كل من السلطان مسعود وثوروس هذه المعاهدة بالقسم على شروطها ثم ما لبث أن عاد مسعود وقواته إلى بلاده ، دون أى اشتباك بين السلاجقة والأرمن (١) .

وحول ما رواه جريجوار المؤرخ نود الاشارة إلى أن العرض الذى قدمه السلطان مسعود يبدو متناقضا مع نفسه . فكيف يعيد ثوروس الأراضى التى يحكمها إلى الأمبراطورية البيزنطية . ويظل بدون أرض يحكمها وفى الوقت نفسه يظل خاضعا للسيادة السلجوقية بعدما أصبح لا يملك أرضا يحكمها . وقد نجد مخرجا لذلك إذا أعتبرنا أن المقصود هو اعادة الأراضى التى استولى عليها ثوروس حديثا بعد هزيمة توماس وأندرونيكوس . وحول النتائج التى أوردها كل من ميخائيل السريانى وجريجوار وهى عودة السلطان مسعود إلى بلاده وهى التى تبدو متفقة مع بعضها يوضح الباحث أن هذه النتائج لم تحقق أى هدف من الأهداف التى قامت من أجلها القوات السلجوقية لصالح الأمبراطور مانويل بل يمكن القول أنها عادت بالضرر على الامبراطورية البيزنطية فقد خذل مسعود الامبراطور مانويل وظل ثوروس فى امارته آمنا جانب السلاجقة بعد ما وقع معهم معاهدة الصلح .

---

(١) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 171.

ومع ذلك فلم يستسلم مانويل لهذه النتائج التى تقضى بضياع النفوذالبيزنطى فى قيليقية ، ويبدو أنه أحس أن ما قدمه من هدايا وأموال لم تكن كافيةللمهمة التى عهد بها إلى السلطان مسعود ، لذلك عاود الاتصال مرة أخرى بالسلطان السلجوقى عندما كان موجودا فى وادى الفرات (١) فى عام ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م ، وأن ذلك دليل على مدى خطورة الموقف حتى يراسل الأمبراطور مانويل السلطان مسعود فى وادى الفرات بدلا من انتظار عودته إلى عاصمته،والمهم أن مانويل أرسل إلى مسعود خطابا وهدايا قيمة من الذهب والفضة أكثر من الهدايا التى سبق أن أرسلها إليه فى العام السابق ليحرضه على الانتقام من الأمير ثوروس بصفة خاصة،ومن الأرمن بصفة عامة وبحثه على مهاجمة اقليم قيليقية وتدمير القلاع وحرق الكنائس وأن يجعل من البلاد الأرمينية كلها طعمة للنيران (٢) .

ولعل فى ذلك مبالغة من المؤرخ ، والمهم أن مسعود وافق على رغبة الامبراطور مانويل وعاد إلى عاصمته قونية ليقوم بجمع جيش كبير وأتخذ طريقه إلى أرمينية عبر جبال الأمانوس ثم اتجهت القوات السلجوقية إلى عين زربة والمصيصة ، وعلى ما يبدو أن السلاجقة فاجأوا السكان على حين غفلة منهم الا أنهم تمكنوا من الاحتماء داخل أسوار المدينتين ، ثم ما لبث أن قام ثوروس بحشد قواته واستعد لمنازلة السلاجقة.والواضح أن السلاجقة فشلوا فى

---

(١) Michel le Syrien, op. cit., p. 347.
وربما كان مسعود فى وادى الفرات لتدبير أمور البلاد التى استولى عليها من امارة الرها وكان يتولى أمرها ابنه قلج أرسلان .

(٢) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 171.

اقتحام أسوار عين زربة والمصيصة فاتجهوا إلى تل حمدون (١) فوصلتها القوات السلجوقية فى الحادى عشر من ربيع الأول عام ٥٤٩ هـ / السابع والعشرين من مايو عام ١١٥٤ م وألقت الحصار عليها ، وفى الوقت نفسه أرسل مسعود أحد قواده ويدعى يعقوب ومعه ثلاثة آلاف مقاتل للتوغل جنوبا فى أتجاه أنطاكية (٢) . وربما أراد مسعود بهذه القوة أن يقوم بأعمال السلب والنهب فى امارة أنطاكية وسبر أغوار قوتها تمهيدا للتقدم إليها إذا ما نجح فى هزيمة ثوروس، وبذلك يكون قد أعادقيليقية إلى مانويل ويستأثر هو بأنطاكية كما أستولى صهره نور الدين على امارة الرها ، أو ربما أراد أن تقوم هذه القوات بحركة التفاف حول القوات الأرمينية وتهاجمها من الخلف وبذلك تقع قوات ثوروس بين شقى الرحى .

وعلى أية حال فعندما كان يعقوب ومن معه من القوات يجتازون ممر بورتلا Portella — وهو الممر الوحيد الذى يصل بين قيليقيةوأنطاكية(٣) انقض عليه ستيفانى شقيق ثوروس والفرسان الداوية (٤) الذين انضموا إليه

---

(١) تل حمدون : من المدن الأرمينية وتحصيناتها قوية وذات أسوار منيعة وتقع على قة تل مرتفع بها الضواحى والبساتين ويمر بغربها نهر جيحان الذى يروى أرضها الخصبة . أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٥٠ — ٢٥١ .

(٢) Gregoire le Pretre, op. cit., pp. 171, 175.

(٣) يطلق عليه المؤرخون والجغرافيون المسلمون اسم باب الاسكندرونة . أنظر : أبو الفدا : المصدر السابق ص ٣٩ .

(٤) الداوية : جماعة من الافرنج أسسها هيودى بايز Hugh de Payenes وجودفرى أف سانت أومر Geodffrey of St. Omar فى سنة ١١١٨ — ١١١٩ م ، وكان لها الصفة العسكرية والدينية ووضعت أنظمتها وقواعدها فى مؤتمر تروى Troyes فى فرنسا عام ١١٢٨ م . أنظر محمود سعيدعمران : حملة جان دى برين الصليبية على مصر ص ١٠٢ ح ١ .

من قلعة جاستون (١) وأنزلوا هزيمة ساحقة بالقوات السلجوقية وقتل قائدهم يعقوب (٢) ، أما القوات السلجوقية الأخرى التى كانت تحت قيادة مسعود وتقوم بحصار تل حمدون فقد فشلت هى الأخرى فى النيل من المدينة . ويرجع ذلك إلى قيام عاصفة شديدة أدت إلى اقتلاع الأشجار يضاف إلى ذلك سقوط الثلوج رغم أن الجو كان صيفا (٣) وأن القوات السلجوقية لم تكن مستعدة لهذه الاحتمالات فضلا عن انتشار الوباء فى القوات السلجوقية (٤) الذى ربما يرجع إلى تقلبات الجو فى هذه الفترة . لذلك اضطر مسعود لرفع الحصار عن تل حمدون واستعد للعودة إلى بلاده (٥) . وقد انقلب تقهقر السلاجقة إلى كارثة ، فقد وضع ثوروس بعض قواته فى طريق عوده القوات السلجوقية وهاجم الأرمن السلاجقة فى ممرات الجبال دون رحمة مما اضطر الكثير منهم إلى التخلى عن خيولهم وأسلحتهم والفرار إلى شعاب الجبال على أقدامهم . وقد سهلت هذه الفوضى من مهمة القوات الأرمينية فسقط عدد كبير من السلاجقة قتلى وسط الجبال ولم يكتف ثوروس بالهزيمة التى أنزلها بالقوات السلجوقية فقد أمر بعض قواته بالتسلل إلى اقليم كبادوكيا حيث قامت بأعمال السلب والنهب ولم يعلم مسعود بذلك إلا عندما عاد إلى بلاده (٦).

لم يعش مسعود بعد ذلك كثيرا فما لبث أن توفى فى أوائل عام ٥٥٠ هـ /

(١) جاستون : هى قلعة بغراس وتقع على طريق الثغور بينها وبين أنطاكية اثنا عشر ميلا وعن الاسكندرونة بنفس المسافة وتقع على الجبل المطل على عمق حارم . أبو الفدا : المصدر السابق ص ٢٥٨ — ٢٥٩ .

(٢) Gregoire le Pretre, op. cit., pp. 171—172.

(٣) Sempad, op. cit., p. 621.

(٤) Vahram d'Edessa, op. cit., p. 507.

(٥) Sempad, loc. cit.,

(٦) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 173; Vahram d'Edessa, loc. cit.

ربيع ١١٥٥ م (١) دون أن يحقق أيةفائدة من تحالفه مع الأمبراطور مانويل، أو بمعنى آخر من الحرب لصالح أو لحساب الامبراطور مانويل ، سواءأكانت هذه الفائدة للسلاجقة أم للامبراطورية البيزنطية، بل على العكس نجد أن محاربة السلطان مسعود للأمير ثوروس قد عادت ببعض النتائج السيئة على السلاجقة. ومن ذلك أنه بعد وفاة مسعود تولى أبنه قلج أرسلان الثانى (٥٥٠ — ٥٨٨ هـ / ١١٥٥ — ١١٩٢ م) عرش السلاجقة فى آسيا الصغرى بموافقة رجال البلاط السلجوقى (٢) ، ثم ما لبث أن دب الخلاف بين أولاد مسعود (٣) . ويروى المؤرخ الأرمينى جريجوار أن شاهنشاه بن مسعود خاف من بطش أخيه قلج أرسلان ففر من قونية ولجأ إلى جانجرس وهى المدينة التى كان والده قد ولاه حكمها مع مدينة أنقرة قبل وفاته (٤) .

وقد ساند ياغى أرسلان (٥٥٠ — ٥٦٢ هـ / ١١٥٥ — ١١٦٧ م) حاكم سيواس الأمير شاهنشاه ضد أخيه قلج أرسلان، وانتهز ياغى أرسلان فرصة قيام قلج أرسلان بطرد بعض رجال بلاط أبيه وكون جبهة معارضة ضد قلج أرسلان، وتمكن من حشد جمعاً كبيراً من القوات وزحف إلى الممتلكات

---

(١) اختلف المؤرخون حول تاريخ وفاة السلطان مسعود . والأقرب إلى الصواب أن السلطان مسعود توفى بعد عودته من حرب ثوروس بحوالى عشرة أشهر أنظر Sempad, p. 621. ولما كانت العاصفة حدثت فى ٥ يونية ١١٥٤ م التى بسببها ولأسباب أخرى فكر السلطان فى العودة إلى بلاده فبذلك يكون ما أوردناه فى المتن هو الأرجح. راجع Gregoire, p. 175. ونستنتج من ابن القلانسى ص ٣٣٢ وأبو الفدا ج ٣ ص ٣١ والعينى ج ١٦ لوحة ٢٥٨ أن الوفاة كانت عام ٥٥٠ هـ ١١٥٥ م أما ابن الأثير فقد أوردها فى عام ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م .

(٢) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 175.

(٣) ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٣٣٢ .

(٤) Michel le Syrien, op. cit., p. 346.

السلجوقية وهاجم مدينة ليكاندوس Lycandos . ولكن كبار رجال الدولتين تدخلوا بين قلج أرسلان وياغى أرسلان وعقدوا الصلح بينهما (١) . كما كان لنور الدين دورا فى هذا الصلح فقد كان يرى أن هذا الخلاف من شأنه أن يقوى الصليبيين والبيزنطيين على المسلمين ويدفعهم إلى الطمع فى المعاقل الاسلامية «وبالغ فى ذلك بأحسن توسط وبذل التحف والملاطفات وصلحت بينهم الأحوال»(٢) . والواضح أن هذا الصلح كان شكليا فما لبث ياغى أرسلان أن هاجم الممتلكات السلجوقية مرة أخرى وعاد محملا بالأسرى والغنائم ولم يتمكن قلج أرسلان فى دفع قوات ياغى أرسلان ، فقدوصلت القوات السلجوقية بعد فوات الأوان وبعدما سلك ياغى أرسلان وقواته طريقا آخر أثناء عودته إلى بلاده (٣) . وأعاد ياغى أرسلان الكرة مرة أخرى وهاجم السلاجقة ولكن العلماء وكبار رجال الدولتين تدخلوا مرة أخرى وعقدوا الصلح بين الطرفين (٤) . وعلى ما يبدو كان لتحرك القوات الأرمينية دخل كبير فى أنهاء الخلاف بينهما .

وكان فى هذا الصراع الذى أنتاب السلاجقة وآل دانشمند فرصة للأمير ثوروس للانتقام من السلاجقة الذين هاجموا امارته مرتين فى أواخر حكم السلطان مسعود الذى تحالف مع الامبراطور البيزنطى مانويل . والواضح أن ثوروس لم يتقدم بنفسه لمحاربة السلاجقة فربما كان يخشى تقدم القوات

---

(١) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 177.

(٢) ابن القلانسى : نفس المصدر والصفحة .

(٣) يبدو أن انسحاب أو عودة ياغى ارسلان بهذه الصورة هى التى دفعت ابن القلانسى إلى ذكر أن قلج أرسلان أحرز النصر على أولاد دانشمند فى شعبان ٥٥٠ هـ — أكتوبر ١١٥٥ م . أنظر : ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٣٣٣ .

(٤) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 178.

البيزنطية إلى قيليقية، فقام أخوه ستيفانى بهذه المهمة . ومن الملاحظ أن القوات الأرمينية لم تهاجم الممتلكات الأصلية لسلطان قونية بل قامت بمهاجمة كيسون وبهنسى ومرعش (١) ، وهى البلاد التى آلت إلى السلاجقة حديثا من بقية امارة الرها ، ولعل ما دفع الأرمن إلى مهاجمة هذه المدن هو أن كيسون وبهنسى ومرعش ضاعت من زوجة جوسلين الأرمينية وبذلك يكون لهم الحق من وجهة نظرهم كأرمن فى استردادها . قام ستيفانى أولا بمهاجمة مدينة كيسون وأنزل فيها السلب والنهب والتخريب وقام بأسر بعض السكان من المسلمين والمسيحيين على السواء، ثم أطلق سراحهم مقابل دفع الفدية، ثم أتجه بعد ذلك إلى بهنسى ومرعش ولكنه لم يتمكن من النيل من هاتين المدينتين وانتهت حملة ستيفانى باستيلائه على قلعة برتونك Pertounk ثم عاد إلى بلاده (٢) .

ويتوغل الأرمن فى الممتلكات السلجوقية أدرك الامبراطور مانويل عدم جدوى دفع السلاجقة لمحاربة ثورس وأحس بفشل أول مرحلة من مراحل سياسته التى أتبعها فى هذا الوقت التى تهدف إلى ضرب قوى المناطق الشرقية ببعضها، وبدأ يتجه إلى حليف آخر وهو رينو دى شاتيون Renaud de Chatillon (أرناط) أمير أنطاكية .

ويفضل الباحث فى هذا الموضع من البحث وقبل الدخول فى تفاصيل

---

(١) Michel le Syrien, op. cit., pp. 349—350.

(٢) Gregoire le Pretre, op. cit., 178—180; Michel le Syrien, op. cit., p. 350.

وعن حصن برتونك فيطلق عليه أيضا برتوس Pertous أو برتوسد Pertousd وهو يقع على الحافة الجنوبية لكنيسة السوداء بالقرب من حدود المصيصة . أنظر R.H.C. Doc. Arm. I, p. 826. ، أنظر أيضا لى ستر انج : فلسطين فى العهد الاسلامى ص ٤٦٠ .

التحالف البيزنطى مع رينو أن يشير اشارة سريعة إلى الطريقة التى تولى بها رينو حكم أنطاكية ، كيف تمكن من دعم نفوذه فى الامارة لما لهذه الشخصية من أثر كبير على تطور الأحداث فى الشرق ، خاصة المتعلقة منها بهذا البحث كانت الأميرة كونستاس صاحبة أنطاكية قد رفضت الزواج من الأمراء الصليبيين والبيزنطيين الذين رشحوا للزواج ومرت فترة من الوقت أصبح من الصعب اقناع هذه الأميرة الشابة بالزواج بعد مقتل زوجها ريموند (١) . وحدث بعد ذلك أن اختارت كونستاس فارسا عاديا من الفرسان — الذين قدموا مع لويس السابع فى الحملة الصليبية الثانية وظل فى الشام مجهولا حتى هذا الوقت — وهو رينو دى شاتيون المعروف فى المصادر العربية بأسم أرناط (٢) ويروى المؤرخ وليم الصورى أن كونستانس تزوجت سرا من رينو ولم يعرف أمر هذا الزواج إلا فى مايو عام ١١٥٣ م / صفر ٥٤٨ هـ عندما هرع رينو إلى بلدوين ملك بيت المقدس والوصى على امارة أنطاكية عندما كان يحاصر مدينة عسقلان (٣) يطلب منه الاذن بالزواج من كونستانس باعتبار رينو من أتباع الملك . ولما كان بلدوين يرغب منذ مقتل ريموند فى تزويج الأميرة حتى يتحمل زوجها مسئولية الدفاع عن أنطاكية وتدبير أمورها ؛ لذلك وافق على الزواج دون تردد (٤) . وعاد رينو إلى أنطاكية

---

(١) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ١٦٦ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ص ٦٤٩ .

(٣) عن حصار عسقلان وسقوطها فى يد الصليبية أنظر : ابن الجزرى : ملخص تاريخ الاسلام (مخطوط) ورقة ٥٦٥ ، ابن الفرات : المصدر السابق جـ ٥ لوحة ٦٣ ب ، ٦٤ أ ، بامخرمه قلادة النحر جـ ٤ ورقة ٢٢٣ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٠٦ — ١٠٨ ، ابن القلانسى المصدر السابق ص ٣٢١ — ٣٢٢ ، ابن واصل : جـ ١ ص ١٢٦ ، أبو شامة : المصدر السابق جـ ١ ص ٩٤ ، ابن قاضى شهبة : المصدر السابق ورقة ٦٥ أ .

(٤) Cambell, The Gwsades, p. 236.

ليزف إلى الأميرة هذه البشرى وليستعد هو لحكم الامارة .

عارض ايمرى بطريك المدينة هذا الزواج وشاركه كافة رجال الدين فى الامارة الشعور نفسه (١) ، وربما يكون شعور ايمرى بذلك مرجعه إلى أن زواج كونستاس من رينو يفقده السلطة الواسعة التى كان يتمتع بها البطريك فى حكم أنطاكية طوال أربع سنوات تقريبا ، لذلك ناصب رينو البطريك العداء وظل يشك فى كل تصرفات ايمرى ونواياه . وقد استغل البعض هذه العلاقة السيئة وزادوا فى الوقيعة بين الطرفين حتى انتهى الأمر بقيام رينو بالقبض على ايمرى وأنزل به أشد أنواع العذاب ، وعندما بلغت هذه الأخبار الملك بلدوين أرسل على الفور سفارة على رأسها فريدريك Frederick أسقف عكا إلى أنطاكية ومعه خطابا من الملك يطلب فيه من رينو الافراج عن البطريك ولم يكن بوسع رينو سوى تنفيذ رغبة الملك واطلاق سراح ايمرى الذى غادر امارة أنطاكية وأتجه إلى بيت المقدس حيث رحبت به كافة الدوائر الدينية والعلمانية (٢) .

أصبح رينو حاكما على أنطاكية دون منازع بعدما صفى له الجو برحيل البطريك ايمرى ، بأعتباره زوجا للأميرة كونستاس على أنه يمارس السلطة حتى يبلغ أبنها بوهمند سن الرشد (٣) . وإذا كان الملك بلدوين قد وافق على زواج كونستانس من رينو ، فان الامبراطور مانويل باعتباره السيد الاسمى

---

(١) Rey, E.G., Résum de l'Histoire des Princes d'Antoiche, cf. R.O.L. Vol. IV. p. 369; Campbell, The Crusades, p. 236.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, pp. 335—6.

(٣) العينى : المصدر السابق ج ١٦ لوحة ٢٥٤ ، ابن الأثير : المصدر السابق ص ٩٩ ، ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ٥٤٤ .

للامارة لم يكن راضيا عن هذا الزواج الذى تم دون موافقته ، وفى الوقت نفسه كان رينو يشعر أنه ضايق الأمبراطور مانويل لزواجه من كونستانس دون موافقته لذلك كان يسعى إلى مصالحة الامبراطور للحصول على رضائه(١)

وقد استغل مانويل فرصة تودد رينو إليه فى هذه الفترة لضرب الأمير ثوروس بعد ما فشل السلاجقة فى تنفيذ هذه المهمة وبعدما ازداد نفوذه فى قيليقية ، لذلك كلف مانويل أحد كبار دولته وهـــو الكسيوس جيفارد Alexius Giffard بالتوجه إلى أنطاكية ومعه خطاب من الامبراطور يطلب فيه من رينو التقدم بقواته لمحاربة ثوروس وطرده من الأراضى التى يحتلها ، وهى الأراضى التى يعتبرها مانويل من أملاك الامبراطورية البيزنطية (٢). وقد وعد الامبراطور بامداد رينو بالأموال اللازمة لنفقات هذه الحملة ووافق رينو على طلب الأمبراطور مانويل حتى يكسب رضائه (٣) .

وكان على رينو أن يقدم من الأسباب ما يجعل اعتدائه على الأرمن مقبولا عند الصليبيين بعدما كان له من تصرفات غير مقبولة تجاه البطريك امرى ، لذلك بدأ رينو بمطالبة ثوروس باعادة قلعة جاستون إلى الفرسان الدراوية باعتبار أن هذه الطائفة تعمل من أجل مناصرة الحركة الصليبية (٤) ، ولكن ثوروس لم يستجب لمطالب رينو . وفى تصورى أن اعلان مثل هذا السبب لمهاجمة ثوروس أمر له دلالته ومغزاه فان مناصرة الفرسان الداوية وهى الطائفة الدينية ذات الثقل والنفوذ داخل الامارات الصليبية قد أظهر رينـو

---

(١) Cinnamus, op. cit., p. 178, see Also Brehier, op. cit., p. 259.
(٢) Schlumberger, op. cit., p. 49; Rey, op. cit., p. 376.
(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 254.
(٤) Michel le Syrien, op. cit., p. 348.

بمظهر حامى الحركة الصليبية وعلى الصليبيين، أن يباركوا ما يقوم به من هجوم على ثوروس وعلى الداوية أن تنهض لمساعدته فى الهجوم المقبل .

وحول الهجوم الذى شنه رينو على ثوروس فى عام ١١٥٥ م / ٥٥٠ هـ يروى لنا وليم الصورى أن رينو بعد ما وافق على طلب الامبراطور البيزنطى مانويل استدعى قوات كبيرة من الفرسان وتقدم إلى قيليقية حيث تقابل مع القوات الأرمينية وتمكن من هزيمة الأمير ثوروس وأنزل بالأرمن خسائر فادحة (١) . أما ميخائيل السريانى فقد ذكر أن رينو وقواته تقابلوا مع ثوروس وما تحت يديه من القوات الأرمينية حيث نشبت معركة قرب الاسكندرونة، وفى هذه المعركة هزم رينو وسقط عدد كبير من قواته فى أرض المعركة مما إضطره إلى الانسحاب إلى أنطاكية ، أما ثورس فقد قام بعد ذلك بتسليم قلعة جاستون وما حولها إلى الفرسان الداوية بعدما تعهدوا له بمساعدة الأرمن إذا اقتضت الحاجة (٢) .

ومهما كانت النتائج العسكرية التى تمخضت عنها هذه المعارك فأنه ما يهمنا فى هذا البحث هو النتائج التى عادت على الامبراطورية البيزنطية باعتبارها صاحبة المصلحة فى اندلاع هذه الحرب بأمل القضاء على الثائر الأرمينى ثوروس . وحول هذه النتائج تطالعنا بعض المراجع بأن رينو ما لبث أن انقلب على الامبراطور البيزنطى (٣). وربما يكون ذلك لعدم وفاء الامبراطور بتقديم الأموال التى وعد بها رينو (٤) . والواقع أن رينو وما

(١) William of Tyre, loc. cit.,

(٢) Michel le Syrien, op. cit., p. 347.

(٣) Schlu mberger, op. cit., 54.

(٤) William of Tyre, op. cit., II, p. 254.

عرف عنه لم يكن فى حاجة إلى الاطلاق لتبرير ما يفعله فسجل حياته زاخر بنقضه للعهود والمواثيق . والمهم أن رينو ما لبث أن انضم إلى الأمير ثورس وظلت القوات الأرمينية والأنطاكية تهاجم الممتلكات البيزنطية – المتأخمة للأرمن فى أطراف آسيا الصغرى – لعدة أسابيع متواصلة (١) . وليس ذلك فحسب بل أن رينو وثورس وهما الأميران الطامحان اللذان أصبحا لا يباليان بالقوة البيزنطية فى هذه الفترة بعد أن خرجا على طاعة الامبراطور وهاجما أملاكه (٢) قد أتفقا على مهاجمة جزيرة قبرص التابعة للامبراطورية البيزنطية (٣)

ولعل اختيار جزيرة قبرص بالذات يرجع لكونها من أغنى الأقاليم التابعة للامبراطورية البيزنطية (٤) فقد استطاعت بحكم موقعها وسط البحر أن تتحاشى لسنوات طوال كل أنواع الحروب والدمار والكوارث وأعمال السلب والنهب التى اجتاحت منطقة الشام وآسيا الصغرى منذ بداية الحروب الصليبية على الأقل ولذلك احتفظت الجزيرة بمبانيها وكنائسها التى تحوى العديد من الكنوز (٥) ، يضاف إلى ذلك أن الامبراطورية الامبراطورية البيزنطية لم تكن تولى أمر الدفاع عن الجزيرة اهتماما كبيرا (٦) ، فلقد رأت عدم تعرض الجزيرة للأخطار منذ وقت ليس بقصير وفى الوقت نفسه كانت الامبراطورية محتاجة إلى قواتها لصد هجمات السلاجقة وايقاف تقدم الأرمن

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٥١ .

(٢) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١٦٢ .

(٣) Vasiliev, op. cit., II, p. 78.

(٤) Daniel, The Russian Abbo!, The Pilgrimage in the holy land, cf. P.P.T.S. Vol. IV, pp. 7—8.

(٥) Schlumberger, op. cit., p. 54—55.

(٦) Wilbrandi de Oldenborg, Ex. A Journal of Pligrimage, Cf. Cobham, Materials for A History of Cyprus, pp. 13—14.

والقضاء على الثورات التى يقوم بها زعماؤهم ضد النفوذ البيزنطى أو استغلالها ضد مسلمى الشام فضلا عن احتياجها لقواتها فى الغرب الأوربى (١) . ولقد كان ثراء الجزيرة وخلوها من القوات الكافية للدفاع عنها هو ما جعل رينو وثوروس يتفقان على اختيارها هدفا للهجوم (٢).

وإذا كان ذلك هو السبب الاقتصادى والعسكرى فى مهاجمة جزيرة قبرص فان الأسباب السياسية يمكن ارجاعها فيما يتعلق بجانب الأمير ثورس إلى العداء التقليدى بين الأرمن والبيزنطيين وإلى ما قام به الامبراطور مانويل فى هذه الفترة من العمل على هدم الكيان الأرمينى الذى يعمل تورس على اعادة بنائه مرة أخرى ، أما فيما يتعلق بالأمير رينو فيشير وليم الصورى أن الامبراطور مانويل قد وعد أمير أنطاكية بدفع نفقات الحملة التى حرضه على القيام بها ضد ثورس ولكن الأمبراطور البيزنطى لم يف بما وعد به ولم يقم بدفع الأموال المطلوبة عندما طالب بها رينو ، وكان هناك نوعا من التسويف والمماطلة فى دفع هذه المبالغ (٣) .

وإذا كان ذلك هو السبب الحقيقى الذى دفع رينو للتحالف مع ثوروس لمهاجمة جزيرة قبرص فانه قدم اعذارا أخرى كعادته لتبرير هجومه على قبرص إذ ادعى رينو على حد قول المؤرخ ميخائيل السريانى أن أهل الجزيرة من البيزنطيين يعذبون اللاتين الذين يقيمون معهم فى الجزيرة وليس ذلك

---

(١) Baynes & Moss, Byzantium, p. 31.

(٢) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١٦٧ .

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 254.

فحسب ، بل ادعى أيضا أن سكان الجزيرة البيزنطيين يحرضون السلاجقة على قتال الأرمن (١) . وتشير العبارة الأخيرة إلى مدى التقارب بين رينو وثوروس وأن رينو بهذه العبارة قد نصب نفسه حاميا للأرمن .

ولكي ينفذ رينو عملية الهجوم على جزيرة قبرص قام أولا بجمع بعض المعلومات الكافية عن الجزيرة من البحارة والتجار الصليبيين الذين كانوا يرتادون الجزيرة ، وكانت هذه المعلومات تتعلق دون شك بالقوات البيزنطية الموجودة بالجزيرة من حيث عددها ونوع أسلحتها وأماكن تواجدها وما شابه ذلك من المعلومات العسكرية التي تفيد في عملية الهجوم وكذلك بيان عن الثروات الموجودة في الجزيرة وأماكنها (٢) .

وإذا كان ذلك ما قام به رينو بشأن عملية الهجوم على قبرص أو السطو على الجزيرة إذا صح هذا التعبير ، فأنه فيما يتعلق بموقف ثوروس يروى لنا المؤرخ ميخائيل السرياني أن ثوروس أتفق مع رينو وساعده للهجوم على جزيرة قبرص (٣) . أما المؤرخ الأرميني سمباد فقد أشار إلى التعاون بين ثوروس ورينو (٤) وأشار المؤرخ جريجوار إلى أن ثوروس حرض رينو على مهاجمة جزيرة قبرص وأن ثوروس قدم القوات الأرمينية التي أعدها لهذا الغرض (٥) . وعلى ذلك يمكن القول أن ثوروس أمد رينو بالقوات الأرمينية التي أخذت طريقها إلى أنطاكية لتنضم إلى قوات رينو ، وظل ثوروس في قيليقية . وعلى ما يبدو أن الأتفاق تم على قيام ثوروس بالدفاع عن قيليقية وأنطاكية —

---

(١) Michel le Syrien, op. cit., p. 349.

(٢) Schlumberger, op. cit., p. 55.

(٣) Michel le Syrien, op. cit., p. 350.

(٤) Sempad, op. cit., p. 621.

(٥) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 187.

أثناء قيام رينو بمهاجمة قبرص — إذا ما تعرض الأرمن للهجوم من قبل القوات البيزنطية برا كما هو مألوف لأن حدود قيليقية تتاخم حدود الامبراطورية البيزنطية، وأن الامارة الأرمينية تتعرض قبل امارة أنطاكية لهجمات الجيش البيزنطي، لذلك يكون قيام ثوروس بمهمة الدفاع عن قيليقية وأنطاكية أجدى وأصوب من الناحية العسكرية من قيامه بقيادة عملية الهجوم على قبرص .

وبعدما أعد رينو وثوروس كافة الترتيبات اللازمة للهجوم والدفاع قاد رينو القوات الأنطاكية الصليبية وما انضم اليها من القوات الأرمينية وأبحر إلى قبرص على ظهر السفن التى جمعها رينو لهذا الغرض ، وسرعان ما رست الحملة على شاطىء الجزيرة (١) . وفى الوقت نفسه كانت أنباء هذه الحملة قد وصلت إلى مسامع سكان الجزيرة والقائمين على أمرها عن طريق بعض الصليبيين من أهالى أنطاكية (٢) . وعلى ما يبدو أن أخبار الحملة وصلت إلى المسئولين عن الجزيرة قبل وصول رينو بوقت قصير . ويروى لنا المؤرخ البيزنطى كيناموس أنه فى لحظة رسو رينو وقواته كان يحكم جزيرة قبرص جان كومنينوس ابن أخى الامبراطور مانويل، ويتولى ميخائيل باراناس قيادة القوات البيزنطية فى الجزيرة ، وقد قاما الاثنان بالاستعداد لمقاومة القوات المهاجمة وجمعا كافة القوات البيزنطية التى بالجزيرة، وأتجه ميخائيل باراناس

(١) لم تشر المصادر العربية إلى هذه الحملة واختلف المؤرخون حول تاريخ احداث هذا الهجوم فقد سجلها المؤرخ الأرمينى جريجوار فى أحداث عام ١١٥٩ — ١١٦٠ م كما رواها ميخائيل السريانى فى عام ١١٥٥ — ١١٥٦ م وأشار اليها المؤرخ سمباد فى عام ١١٥٤ — ١١٥٥ م أما وليم الصورى فقد بين أحداثها فى عام ١١٥٥ م . والأرجح على ضوء الأحداث السابقة واللاحقة أن هذا الهجوم وقع فى ربيع عام ١١٥٦ م أنظر :

Runciman, op. cit., II, p. 347.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 254.

لملاقاة رينو بينما ظلت بعض القوات البيزنطية فى العاصمة نيقوسيا Nicosia تحت امرة جان كومنينوس. وعندما اشتبكت القوات البيزنطية مع قوات رينو انتصرت القوات البيزنطية فى بادىء الأمر ولكن القوات الصليبية الأرمينية ما لبثت أن انتصرت على القوات البيزنطية ووقع ميخائيل فى الأسر (١) . وعلى ما يبدو لم يكن انتصار القوات البيزنطية انتصارا بالمعنى المفهوم فقد كان لا يتعدى عملية عرقلة انزال القوات الصليبية الأرمينية إلى شاطىء الجزيرة فقد كانت القوات البيزنطية من القلة لمواجهة رينو وقواته (٢) ، والمهم أنه بعد ما علم جان كومنينوس بوقوع ميخائيل فى الأسر أسرع من نيقوسيا للتصدى لقوات رينو الا أنه فشل فى هذه المهمة ووقع هو الآخر فى الأسر وانضم إلى ميخائيل باراناس (٣) . وتشير هذه الرواية إلى النصر السريع الذى أحرزه رينو على القوات البيزنطية ووقوع حاكم الجزيرة وقائد قواتها فى الأسر . ويؤيد هذا النصر ما رواه لنا وليم الصورى من أن القوات البيزنطية تجمعت لمقاومة رينو وقواته ولكن القوات الصليبية تمكنت من احراز النصر وشتت القوات البيزنطية تماما ولم يجرؤ أحد بالجزيرة على مقاومة القوات الصليبية التى اجتاحت الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها دون مقاومة أو معارضة ، وقاموا بتخريب المدن والقلاع وهاجموا أيضا أديرة الرهبان والراهبات واعتدوا على الراهبات وسطوا على ما بالأديرة من الذهب والفضة وما حوته من كنوز ، وظلوا ينهبون الجزيرة لعدة أيام متشجعين بعدم وجود أية مقاومة بالجزيرة. وتميزت أعمالهم بالعنف

---

(١) Cinnamus, op. cit., p. 179.

(٢) Schlumberger, op. cit., p. 60.

(٣) Cinnamus, Ibid, Rey, op. cit., p. 371.

والشراسة دون رحمة ودون تفرقة فى السن أو الجنس وسلبوا كل ما وقع تحت أيديهم وبصرهم(١) .

ويفسر لنا المؤرخ الأرمينى سمباد بعض أعمال العنف التى قام بها رينو فذكر أن الصليبيين اجتاحوا جزيرة قبرص ونهبوا القرى واستولوا على ما بها من الماشية والأغنام، كما قاموا بالقبض على العديد من سكان الجزيرة سواء أكانوا من رجال الدين أو العلمانيين وصلموا آذانهم وجدعوا أنوفهم(٢) كما سجل لنا ميخائيل السريانى أن الصليبيين نهبوا الجزيرة وأجبروا الأهالى على دفع الفدية عن أنفسهم وعن دوابهم كما احتجزت القوات الصليبية بعض النبلاء ورجال الدين حتى يتم دفع الفدية التى قررها رينو عليهم (٣) . أما المؤرخ جريجوار فقد روى أن رينو فاجأ سكان الجزيرة العزل من السلاح وعاملهم معاملة المسلمين — أى معاملة الأعداء — ودمر مدنهم وقراهم وطردهم من منازلهم واستولى على ثرواتهم وجدع أنوف وصلم آذان رجال الدين (٤) .

ولعل فيما رواه المؤرخون تصوير واضح للأعمال البربرية التى قام بها رينو والقوات التى أبحرت معه لمدة ثلاثة أسابيع (٥) ، ولم يغادروها إلا بعدما أصبح كل شيء بالجزيرة منهوبا ومحترقا، ولعل ما دفع رينو إلى التعجل بالعودة إلى أنطاكية خوفه من وصول بعض قطع الأسطول البيزنطى لنجدة الجزيرة واغاثتها . عاد رينو إلى امارته ومعه جان كومنينوس وميخائيل باراناس وعدد

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 254; Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 147.

(٢) Sempad, op. cit., p. 620.

(٣) Michel le Syrien, op. cit., p. 349.

(٤) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 168.

(٥) Runciman, op. cit., II, p. 187.

كبير من الرهائن معظمهم من رجال الدين وكبار الموظفين البيزنطيين والقضاة وكبار الملاك وأثرياء الجزيرة ، يضاف إلى ذلك كميات وافرة من الغنائم التي اشتملت على الذهب والفضة والأقمشة الثمينة والأغنام والماشية ومحاصيل الجزيرة ؛ وبمعنى آخر كافة ثروات الجزيرة الأثرية والتجارية والزراعية والصناعية ، أما بالنسبة للأسرى والرهائن فلم يطلق رينو سراحهم إلا بعد حصوله على الفدية ، كما أرسل رينو بعض المشوهين من أهل قبرص إلى الامبراطور مانويل على سبيل السخرية والاستهزاء (١) .

ولقد كانت حملة رينو على جزيرة قبرص موضع استنكار الصليبيين بصفة عامة (٢) ، وسيكون لها عدة نتائج ستظهر آثارها فيما بعد (٣) فلقد كان الأمبراطور البيزنطي مانويل مشغولا في هذا الوقت بالصراع ضد روجر الثاني ملك صقلية في محاولةلاعادة النفوذ البيزنطي على إيطاليا مرة أخرى ، وكذلك ضد البنادقةالذين انضموا إلى روجر (٤) ، فعندما علم بأمر الحملة التي قادها رينو بالتعاون مع ثوروس على قبرص وأعمال السلب والنهب والتخريب التي ألحقها بالجزيرة والسكان غضب غضبا شديدا ولم يكن بوسعه الانتقام من ثوروس ورنيو في هذا الوقت (٥) ، وأرجأ عملية الانتقام لوقت مناسب .

لم تنتعش جزيرة قبرص لفترة من الزمن بعد التخريب الذى أحدثته قوات رينو والقوات الأرمينية المتحالفة معه ، وأكتمل هذا التخريب بما وقع

---

(١) Schlumberger, op. cit., 62.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٥١ ، قبرص والحروب الصليبية ص٢٢

(٣) أنظر مايلى ص ٢٢٥-٢٢٦ .

(٤) عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٤٢ - ١٤٤ .

(٥) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 186; Sempad, op. cit,,. p. 620.

لها من زلزال فى عام ١١٥٧ م / ٥٥٢ ﻫ (١) . وهناك نتيجة أخرى لحملة رينو على جزيرة قبرص ، وهى أن استخفاف الأمير رينو بالامبراطورية البيزنطية وتجرؤه على مهاجمة الجزيرة وتمكنه من انزال أفدح الخسائر بالقوات البيزنطية وعدم امكان الامبراطور البيزنطى مانويل التصدى لهذه الأعمال فى حينه قد شجع بعض القوات الفاطمية على مهاجمة الجزيرة . ويروى ابن ميسر فى احداث عام ٥٥٣ ﻫ / ١١٥٨ م أن بعض العساكر الفاطمية هاجمت جزيرة قبرص وعادت بكثير من الأسرى وامتلأت الأيدى بالغنائم وكان من بين الأسرى أخد الأمراء البيزنطيين الذى أكرمه الوزير الفاطمى طلائع ابن رزيك (٥٤٩ — ٥٥٥ ﻫ) وأعاده إلى القسطنطينية (٢) . وإذا كان فى اعادة الوزير الفاطمى للأمير البيزنطى إلى العاصمة البيزنطية ما يشير إلى عدم رضا القائمين بأمر مصر على ما قامت به العساكر الفاطمية بالاغارة على جزيرة قبرص (٣). فان ذلك يشير لنا أيضا إلى أى مدى كان الاستخفاف بالامبراطورية البيزنطية حتى تهاجمها العساكر المصرية دون تعليمات من قيادتها .

وبهذه الأحداث تنتهى مرحلة من مراحل السياسة البيزنطية فى منطقة الشرق الأدنى الاسلامى وهى الدبلوماسية التى آتبعها الامبراطور مانويل لضرب قوى المنطقة ببعضها دون تدخل عسكرى من جانبه . ويتضح لنا مدى الفشل الذريع الذى أصيبت به الامبراطورية البيزنطية عندما حارب السلاجقة لحساب الامبراطورية ، وعجزهم عن القضاء على الأمير الأرمينى ثوروس ، وما شهدناه من انقلاب رينو أمير أنطاكية على الأمبراطور مانويل وقيام رينو بالتعاون

---

(١) Runciman, op. cit., II, p. 248.

(٢) ابن ميسر : المصدر السابق ج ٢ ص ٩٨ .

(٣) Runciman, op. cit., II, p. 348.

أو بالتحالف مع ثوروس — الذى كان يحاربه رينو بتحريض من الامبراطور البيزنطى — ويتفقان على مهاجمة المتلكات البيزنطية حيث كانت جزيرة قبرص وما أصابها ونهب ثرواتها ثمنا للصداقة (١) التى تمت بين رينو وثورس . وإذا كانت هذه الفترة من حكم مانويل قد تميزت بعدم التدخل العسكرى البيزنطى وتقلص النفوذ البيزنطى فى الشرق فان المرحلة المقبلة تميزت بالتدخل العسكرى للقوات البيزنطية وازدياد النفوذ البيزنطى حتى بلغ أوج قمته فى تلك الفترة التالية من عهد الأمبراطور البيزنطى مانويل الأول .



---

(١) عندما استعد الصليبيون وعلى رأسهم بلدوين ورينو لمهاجمة المسلمين فى رمضان عام ٥٥٢ هـ أكتوبر ١١٥٧ م «أرسلوا إلى الأمير ثورس يدعونه بأسم الصداقة للانضمام إلى جانبهم لمحاربة نور الدين وقد حضر ثوروس وانضم ومن معه من القوات الأرمينية إلى الصليبيين وقاموا بالهجوم على شيزر . أنظر : William of Tyre, op. cit., II, p.p. 265—268.
راجع أيضا : ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٣٤٩ — ٣٥٠ ، ابن قاضى شهبه : المصدر السابق ورقة ٧٢ أ .

# الفصل الرابع

## ذروة النفوذ البيزنطى فى الشرق

## (١١٥٨ – ١١٦٢ م / ٥٥٣ – ٥٥٧ هـ)

١ – مصاهرة الملك بلدوين للامبراطور مانويل .

٢ – مهادنة الامبراطور مانويل للسلاجقة .

٣ – مهاجمة القوات البيزنطية اقليم قيليقية وهروب ثوروس

٤ – خضوع رينو أمير أنطاكية للامبراطور مانويل .

٥ – خضوع ثوروس للامبراطور مانويل .

٦ – دخول مانويل مدينة أنطاكية .

٧ – استعداد القوات البيزنطية والصليبية لقتال المسلمين

٨ – عقد الهدنة بين مانويل ونور الدين .

٩ – حروب مانويل مع السلاجقة وانتصار القوات البيزنطية

١٠ – زواج مانويل من الأميرة ماريا الأنطاكية .

١ – زيارة السلطان قلج أرسلان للقسطنطينية .

في الوقت الذى كان فيه الأمير رينو صاحب أنطاكية يناصب الامبراطور البيزنطى مانويل العداء ، حدث تحول كبير فى السياسة الصليبية بصفة عامة تجاه الامبراطورية البيزنطية . فقد أدرك بلدوين الثالث ملك بيت المقدس أن الصليبين لا يستطيعون مقاومة القوات الاسلامية بسبب ضعف القوى الصليبية وانشقاق الأمراء الصليبيين على أنفسهم . كما أيقن بلدوين أنه لابد من قوى خارجية تساند الصليبيين وتشد أزرهم ضد نور الدين الذى ازداد نفوذه يوما بعد يوم (١) . ويروى وليم الصورى أن الملك بلدوين والصليبيين بصفة عامة تطلعوا إلى الأمبراطورية البيزنطية باعتبارها أغنى دول العالم فى هذا الوقت وأن بوسع الامبراطورية انقاذ الامارات الصليبية من حالة اليأس والبؤس التى تسيطر على الصليبيين ، يضاف إلى ذلك أن الأمن والسلام لا يتحققان للامارات الصليبية إلا بالتحالف مع الامبراطورية البيزنطية (٢) . ويتضح من ذلك أن الصليبين حاولوا الاستفادة من ثروات الامبراطورية البيزنطية فى دعم الكيان الصليبي والاستعانة بالقوى البيزنطية فى حروبهم ضد المسلمين ، وهذا يدل على ضعف الموارد الاقتصادية والعسكرية الصليبية بالنسبة للامبراطورية البيزنطية وكذلك بالنسبة للمسلمين . وهذا أمر طبيعى ونتيجة حتمية للكيان الصليبي الدخيل الذى استطاع أن يفرض نفسه على المنطقة بقوة السلاح ، وكان على القادة الصليبين أن يدركوا هذه الحقيقة ان آجلا أو عاجلا. ولعل ما جعل الصليبيون يشعرون بهذه الحقيقة فى هذا الوقت هو أن الغرب الأوربى الذى يساند الوجود الصليبي — أصبح مشغولا بمشاكله الداخلية عن الاستجابة لنداء الصليبيين (٣) ، لامدادهم بالمال والسلاح ، وحتى إذا استجاب الغرب

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٧٢ .

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 265.

(٣) Setton, op. cit., I, p. 542.

الأوربى جزئيا إلى طلبات الصليبيين، فان هذه المساعدات أصبحت محدودة الأثر بعد النهاية الفاشلة للحملة الصليبية الثانية .

وعلى هذا الأساس كان التحول فى السياسة الصليبية تجاه الامبراطورية البيزنطية والعمل على التقرب إليها ، بدلا من سياسة العداء التى سار عليها الصليبيون منذ أن وطأت أقدامهم الأراضى المقدسة . ولقد كان ادراك الملك بلدوين لهذه الحقيقة واحساسه بواقع الأمر هو ما جعله غير راضى عن تصرفات رينو أمير أنطاكية عندما هاجم جزيرة قبرص ، وعدم موافقة الملك أيضا على ضم مدينة شيزر لامارة أنطاكية عندما دخلها الصليبيون فى أكتوبر عام ١١٥٧ م / رمضان ٥٥٢ هـ . فقد كان بلدوين يرى منحها إلى ثيرى كونت فلاندر Thierry Count Flander ، وتكون المدينة تابعة لمملكة بيت المقدس ، وكان انسحاب الصليبيين من مدينة شيزر وتركها على حالها للمسلمين نتيجة الخلاف بين الملك والأمير (١). وتوضح لنا هذه الحادثة ما كان من أثر انشقاق الصليبيين على أنفسهم ، كما أوضحت للملك بلدوين أن الأمير رينو لا يعمل الا لمصلحته الشخصية ، وأن من أهداف مسعى بلدوين للتقرب من الامبراطورية البيزنطية الحد من أطماع رينو أمير أنطاكية والاشارة إلى الامبراطور مانويل بعدم الرضا عما قام به رينو تجاه جزيرة قبرص (٢) وهنا يبدو واضحا أن الملك بلدوين قد شعر بالندم وأحس بأنه أخطأ عندما

---

(١) عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر : ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٣٤٨ — ٣٤٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٢٦ ؛

William of Tyre, op. cit., II, pp. 265—8; A.S.C., P. 302.

(٢) حول هذه الفكرة راجع : سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٢٢ — ٢٣ .

وافق على زواج الأميرة كونستاس من رينو ليحكم بموجب هذا الزواج امارة أنطاكية ويجلب له كل هذه المتاعب .

ولكل هذه الاعتبارات وبعدما تبودلت فكرة تقارب أو تحالف الصليبيين مع الأمبراطورية البيزنطية (١) ، أتخذ الملك بلدوين قراره بالزواج من احدى الأميرات البيزنطيات بأعتبار ذلك من أحسن الوسائل لربط الامارات الصليبية بالامبراطورية البيزنطية . وقد التف الأمراء الصليبيين حول أتجاه الملك بلدوين لمصاهرة الامبراطور مانويل وتم الأتفاق على ارسال سفارة إلى القسطنطينية على رأسها أتارد Attard أسقف الناصرة ، ويصحبه في هذه المهمة هفرى أف تورون Humphrey of Toron ، وجوسلين بيسلوس Joscelin Pisellus ووليم أف باريس William of Barris ، لتحمل إلى الامبراطور البيزنطى مانويل رغبة الملك بلدوين ، وقد زودت هذه السفارة بالصلاحيات اللازمة لانجاز هذه المهمة واستعدت للابحار فى سبتمبر عام ١١٥٧ م (٢) .

وصلت السفارة إلى العاصمة البيزنطية ونزلت فى ضيافة الأمبراطور مانويل ، وحدث أن مات الأسقف اتارد فى القسطنطينية وتولت بقية السفارة العمل على إنجاز المهمة التى كلفت بها . وبعد مفاوضات طويلة حول هذا المشروع وافق الامبراطور مانويل على فكرة الزواج التى تمهد سبل التحالف بين مملكة بيت المقدس والامبراطورية البيزنطية ، وما يتبع ذلك من النتائج التى

---

(١) Archer & Kingsford, The Crusades, p. 228.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 265.

تنسحب بدورها على بقية الامارات الصليبية، وتمكن الامبراطور مانويل من تحقيق أطماعه فى أنطاكية (١) .

رشح الامبراطور مانويل ثيودورا Theodora ، ابنة أخيه اسحق ـ المكتملة الأنوثة رغم أنها كانت فى الثالثة عشر من عمرها ، للزواج من الملك بلدوين، وأتفق على أن تكون بائنة العروس مائة ألف هيبربر (٢) Hyperpere من الوزن المعتاد بالاضافة إلى عشرة آلاف هيبربر أخرى كمصاريف للزواج، يضاف إلى ذلك أربعة عشر ألف هيبربر تكاليف جهاز العروس كالثياب والجواهر ولوزم السفر وما شابه ذلك ، كما أرسل الملك بلدوين ضمانا بخط يده للامبراطور يمنح فيه العروس بموجبه مدينة عكا والمناطق المجاورة لها فى حالة وفاته (٣)، ويكون لها الحق فى التمتع بها مدى حياتها ، وعلى ذلك أعدت الترتيبات اللازمة من كلا الجانبين لاتمام الزواج (٤) .

وصلت العروس إلى مدينة صور فى شهر سبتمبر ١١٥٨ م / شعبان ٥٥٣هـ،

---

(١) حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٨٥ .

(٢) هيبربر : أو نوميسما Nomisma أو صلدى Solidi وكان يضرب من الذهب ويزن حوالى ٤،٥ جرام أو من نوع يغلب فيه البرنز ويعادل ٢/٣ الهيبربر الذهبى ، ويلاحظ أنه لم تضرب عملة ذهبية فى عهد الامبراطور مانويل . أنظر : C.M.H., Vol., IV, p. 348.
Runciman, The Byzantine Civilization, pp. 174—5.
ولمزيد من التفاصيل عن العملة البيزنطية فى هذه الفترة أنظر :
Hendy, M., Coinage and Money in the Byzantine Empire 1081—1261, cf. Dumbarton Oaks papers 1969. 111—130.

(٣) لم تنجب ثيودورا أطفالا من بلدوين وبعد وفاته عام ١١٦٢ م ارتبطت بعلاقة غير شرعية مع ابن عمها أندرونيق كومنين وغادرت عكا وقد أثمرت هذه العلاقة عن ولد يدعى الكسيوس وبنت تدعى ايرين . أنظر : Rey, E., Les Seigneurs de Barut, cf. R.O.L., Vol. IV, p. 12 ff.

(٤) William of Tyre, op. cit., II, p. 274.

ثم ما لبثت أن توجت بعد أيام ملكة على مملكة بيت المقدس الصليبية ، وتولى ايمرى بطريك أنطاكية المطرود القيام بمراسم زواج بلدوين وثيودورا نظرا لعدم إستلام بطريك بيت المقدس الجديد مهام منصبه حتى ذلك الوقت (١) ، ولعل فى التعجل بقيام البطريك ايمرى بمراسم الزواج والتتويج ما يشير إلى تكريم هذا البطريك الذى سبق أن عذبه رينو أمير أنطاكية وأيضا الاشارة إلى عدم رضاء بلدوين عن تصرفات أمير أنطاكية ، ومن جهة أخرى ترضية واضحة للأمبراطور مانويل .

ولقد ترتب على هذا الزواج عدة نتائج ، أن النفوذ البيزنطي الذى كان متأرجحا بين القوة والضعف فى امارة أنطاكية ثم ما لبث أن تلاشى بعدما تولى رينو حكم الامارة وهاجم جزيرة قبرص (٢) ، عاد هذا النفوذ مرة أخرى ليظهر بصورة أوضح عما كان عليه فى امارة أنطاكية ،وليظهر فى مملكة بيت المقدس ، أكبر الامارات الصليبية بالشام ، برضاء تام من الملك والنبلاء لا بقوة السلاح والتهديد كما كان هو الحال فى امارة أنطاكية ، يضاف إلى ذلك أن الصليبيين بصفة عامة اطمأنوا إلى مساعدة الامبراطورية البيزنطية للامارات الصليبية وهى الفكرة التى قام على أساسها مصاهرة الأمبراطور مانويل ويؤكد ذلك ما رواه المؤرخ جريجوار من أن الأمبراطور مانويل وعد الملك الصليبى بلدوين بالقدوم إلى الشام لمساعدة الصليبيين (٣) وهو ما قام به مانويل بعد ذلك بقليل ، يضاف إلى ذلك انعزال رينو عن بقية الأمراء الصليبيين وترقبه فى خوف ما قد يحدث نتيجة لهذا التحالف .

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 272.

(٢) Brook, A History of Europe, p. 481.

(٣) Gregoire le Pretre, op. cit., 186.

كان طلب الملك بلدوين لمصاهرة الامبراطور مانويل قد وصل فى الوقت المناسب ، إذ كان مانويل قد انتهى من مشاكله فى الغرب الأوربى بعدما عقد الهدنة مع وليم الأول William I ملك صقلية وفرض الصلح على هنغاريا(١) وأخذ يفكر فى العودة مرة أخرى إلى الاهتمام بأمور الشرق وأن يثأر من جيرانه الذين طالما اعتدوا على حقوق الأمبراطورية ، وكانت مصاهرة الملك بلدوين من شأنها مساعدة الامبراطور مانويل على تحقيق أهدافه (٢) . وإذا كان طلب الزواج قد وصل للأمبراطور فى سبتمبر عام ١١٥٧م ولم يتم الزواج إلا فى سبتمبر عام ١١٥٨ م ، فان هذا العام كان فترة دراسة ومتابعة للأحداث التى جرت فى الشرق واستعدادا من جانب الأمبراطور مانويل حتى تحين الفرصة المناسبة للأمبراطورية البيزنطية لتحقيق أهدافها .

كانت أهداف الأمبراطور مانويل تتركز فى هذه الفترة فى اخضاع الأمير الأرمينى ثوروس الذى بسط نفوذه على قيليقية ، واخضاع رينو أمير أنطاكية الذى تمرد على الامبراطورية البيزنطية وهاجم أملاكها . وكان على الأمبراطور مانويل مراقبة تحركات السلاجقة فى هذا الوقت بعد ما أوشكت الهدنة المعقودة بينهما على الانتهاء (٣) وكان عليه تجنب تجدد القتال مع السلاجقة حتى يتمكن من تحقيق أهدافه . وبدأت الأخطار تلوح فى الأفق عندما قام الأمير ثوروس باعادة قلعة برتونك إلى السلاجقة فى أخريات عام ١١٥٧ م بهدف الحصول على رضى السلطان قلج أرسلان (٤) ، وقد أثار التقارب بين السلاجقة

---

(١) Diehl, Histoire de L'Empire Byzantin, pp. 152, 154.

(٢) Chalandon, op. cit., p. 441.

(٣) عقدت الهدنة بين الامبراطورية البيزنطية والسلاجقة فى عام ١١٤٦ م لمدة اثنى عشر عاما تنتهى فى عام ١١٥٨ م .

(٤) Gregoire le Pretre, op. cit., pp. 181—2.

والأرمن مخاوف الأمبراطور مانويل ولعله رأى أن الأمير ثوروس قام بالتودد إلى السلاجقة لعلمه بالمفاوضات الدائرة بشأن زواج الملك بلدوين، وأن ثوروس يقصد من وراء ذلك التحالف مع السلاجقة ضد الأمبراطورية البيزنطية . ولقد تحققت مخاوف الأمبراطور مانويل فى العام التالى ولكنها لم تكن من جانب السلاجقة والأرمن بل كانت من جانب السلاجقة وآل دانشمند، فقد انتهى أجل الهدنة المعقودة بين السلاجقة والامبراطورية البيزنطية وبدأت القوات السلجوقية تستعد للاغارة على الممتلكات البيزنطية، وشارك آل دانشمند السلاجقة الشعور نفسه . وعلى ما يبدو أن المشاكل بين السلاجقة وآل دانشمند قد تجمدت فى هذا الوقت، والأرجح أن الصلح ان تم بينهما . ولقد كان هذا الصلح على حساب الامبراطورية البيزنطية، ويروى لنا المؤرخ البيزنطى كيناموس أن قلج أرسلان انتزع فى هذا الوقت مدينتى سليوقية ولارندا الواقعتين فى الجزء الجنوبى الشرقى من آسيا الصغرى بينما، استطاع ياغى أرسلان حاكم سيواس التوسع فى الاقليم الشمالى الشرقى فى الوقت نفسه أيضا واستولى على مدينتى يونه Unieh وبافرا Bafra الواقعتين فى اقليم بنطس (١) .

ولما كان الامبراطور مانويل يعمل على عدم محاربة السلاجقة فى هذا الوقت ليتفرغ لاخضاع ثوروس ورينو بعد وقت قريب، لذلك نراه يرسل الكسيوس جيفارد إلى قلج أرسلان وياغى أرسلان بهدف عقد الصلح معهما. وقد وفق الكسيوس فى مسعاه وأعاد السلاجقة وآل دانشمند المدن التى استولوا عليها وتم عقد الهدنة بينهم ، ولاشك أن الأمبراطور مانويل قد ضحى ببعض الأموال والهدايا لارضاء السلاجقة وآل دانشمند (٢) ليغتنم الفرصة التى كان ينتظرها منذ سنوات .

---

(١) Cinnamus, op. cit., p. 176.

(٢) Chalandon, op. cit., p. 435.

وبعدما عقدت الهدنة بين الامبراطورية البيزنطية والسلاجقة وآل دانشمند التى على ما يبدو تمت فى صيف عام ١١٥٨ م، واطمأن مانويل من ناحية قلج أرسلان وياغى أرسلان بدأ يستعد لتنفيذ ما خطط له لاخضاع ثوروس ورينو والتقدم بقواته مع القوات الصليبية لمحاربة المسلمين معتمدا على التحالف الذى تم بينه وبين بلدوين ملك مملكة بيت المقدس .

كان أول ما قام به الامبراطور البيزنطى مانويل ، بعد مهادنة السلاجقة وآل دانشمند وإتمام مراسم زواج ثيودورا من بلدوين ، هو الاستعداد للزحف على قيليقية (١) ، ولقد كان للامبراطور مانويل تجارب عديدة مع الأمير ثوروس فقد قام ثوروس بأسر توماس حاكم قيليقية كما نجح أيضا فى هزيمة القائد البيزنطى أندرونيكوس ومن معه من القوات البيزنطية والقوات الأرمينية التى انضمت إليه، كما فشل مانويل فى استغلال السلاجقة ورينو أمير أنطاكية للانتقام من ثوروس ، كما استطاع ثوروس أن يضم رينو إلى جانبه ويتفقا على مهاجمة الأملاك البيزنطية . وكان على الامبراطور مانويل أن يسلك سبيلا ملتويا سياسيا وعسكريا حتى يتمكن من دخول قيليقية والقضاء على الأمير ثوروس ، لذلك لجأ مانويل إلى عنصر المفاجأة . ولكى يحقق مانويل فكرته هذه أشاع أن القوات البيزنطية متقدمة فى آسيا الصغرى لقتال السلاجقة (٢)، حتى يطمئن إلى حد كبير لعدم استعداد ثوروس لمواجهة مثل هذه الظروف .

تحركت القوات البيزنطية بقيادة الامبراطور مانويل فى طريقها إلى

(١) Michel le Syrien, op. cit., p. 352.

(٢) Cinnamus, op. cit., p. 179.

قيليقية(١). واختلفت الروايات التاريخية حول تاريخ خروج الامبراطور مانويل بقواته من العاصمة البيزنطية . ويروى وليم الصورى أن مانويل ظهر على رأس قواته فى أرمينية فى بداية ديسمبر عام ١١٥٨ م / الثامن من ذى القعدة عام ٥٥٣ هـ تقريبا (٢)، ويستشف مما رواه المؤرخ جريجوار أن مانويل وصل إلى قيليقية فى سبتمبر من العام نفسه / الرابع من شعبان — الخامس من رمضان من نفس العام الهجرى (٣) ، وذكر ابن القلانسى أن خروج مانويل من القسطنطينية كان فى شهر ذى الحجة عام ٥٥٣ هـ / الرابع والعشرين من ديسمبر عام ١١٥٨ م — الثانى والعشرين من يناير ١١٥٩ م (٤) ، والباحث يميل إلى الأخذ برواية المؤرخ جريجوار باعتباره معاصرا للأحداث وشاهد عيان وأرمينى الأصل واهتم باحداث قيليقية ، يضاف إلى ذلك أن العادة جرت أن تتحرك القوات البيزنطية فى الخريف لتحسن الجو فى هذه الفترة وليس فى الشتاء خاصة وأن مانويل مقبل على عمل عسكرى ضخم ويجب عليه اختيار المناخ المناسب لتحرك القوات البيزنطية حتى تحتفظ بكفاءتها القتالية ، وعلى ذلك يكون من الأرجح أن الامبراطور تحرك من القسطنطينية فى سبتمبر عام ١١٥٨ م وفى أعقاب انحار ثيودورا وحاشيتها إلى صور .

ولكى ينفذ مانويل خطته ويموه على أهداف الحملة أتجه إلى فريجيه ليتظاهر بمحاربة السلاجقة ، وعلى ما يبدو أن ظهور مانويل فى هذه المنطقة كان

---

(١) ابن الفرات : المصدر السابق جـ ٥ لوحة ٧ ب .

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 275.

(٣) يروى المؤرخ جريجوار أن مانويل ظل فى قيليقية سبعة أشهر ثم توجه بعد ذلك إلى أنطاكية فدخلها فى أبريل عام ١١٥٩ م . أنظر : Gregoire le Pretre, op. cit., p. 191.

(٤) ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٣٥٤ ، أنظر أيضا أبو شامة : المصدر السابق جـ ١ ص ١٢٢ .

بأتفاق مسبق مع قلج أرسلان تضمنته الهدنة التي عقدها الكسيوس جيفارد منذ قليل،وأن كان ذلك لا يمنع وقوع بعض المناوشات مع بعض القبائل السلجوقية المتنقلة التي تجوب الاقليم . ولم يكترث مانويل لمثل هذه المناوشات فلم يكن أمامه سوى التقدم بأسرع وقت ممكن لمفاجأةثوروس(١)،واستكمالا لخطة الامبراطور مانويل التي اعتمدت على السرية والمفاجأة اتخذت القوات البيزنطية طريقها من فريجية إلى اضاليا ، ومن هناك أرسل مانويل سرا إلى الكسيوس كاسيانوس Alexuis Kassianos حاكم مدينة سلوقية يطلب منه اعداد قواته لتكون على أهبة الاستعداد للقتال ، وفى الوقت نفسه ترك مانويل معظم قواته فى أضاليا وتحرك بالقلة الباقية إلى سلوقية،وعندما وصل إلى هناك لم يجد القوات البيزنطية الموجودة بالمدينة مستعدة للقتال (٢).وعلى ما يبدو كان وصول مانويل ومن معه من القوات أسرع من قيام حاكم مدينة سلوقية بتنفيذ أوامر الامبراطور وإعداد القوات للقتال .

كانت المراحل الأخيرة من خطة مانويل لمهاجمة ثوروس ، تجنب تحريك القوات البيزنطية بقدر المستطاع عندما اقترب من قيليقية ، لذلك ترك معظم القوات البيزنطية فى أضاليا واعتمد فى قتاله المقبل مع ثوروس على القوات البيزنطية الموجودة فى سلوقية . ولكنه عندما وصل إلى سلوقية لم يجد القوات البيزنطية مستعدة للقتال وكان على مانويل أن يتصرف بسرعة قبل أن تتسرب أخبار الحملة إلى ثوروس . لذلك أخذ معه الكسيوس كاسيانوس وما تحت يديه من القوات البيزنطية المستعدة للقتال وأتجه إلى قيليقية ، وفى الوقت نفسه أرسل إلى بقية القوات البيزنطية التي تركها فى أضاليا يطلب منها

(١) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 187.
(٢) Cinnamus, op. cit., p. 179.

اللحاق به . ويروى وليم الصورى أن الامبراطور البيزنطى مانويل دخل قيليقية فجأة وبطريقة لا يمكن تصديقها وأن السرعة التى وصل بها مانويل ومن معه من القوات قد أذهلت الجميع (١) . ولقد قدر المؤرخ جريجوار هجوم القوات البيزنطية التى دخلت قيليقية فى هذا الوقت بحوالى خمسمائة ألف مقاتل (٢) . ومما لاشك فيه أن المبالغة واضحة بصورة صارخة فى تقدير مثل هذا العدد ، وعلى أية حال فأن ذلك يشير إلى كثرة القوات البيزنطية التى تدفقت على قيليقية .

ورغم السرية التى أحاطت الحملة لضرب ثوروس فى عقر داره فى طرسوس مقر اقامة الزعيم الأرمينى ، فان تحركات القوات البيزنطيةقدوصلت إلى مسامع ثوروس فى اللحظات الأخيرة وتمكن من الافلات بأعجوبة من أيدى القوات البيزنطية (٣) ويروى المؤرخ البيزنطى كيناموس أن ثوروس علم فى اللحظات الأخيرة بوصول القوات وعلى رأسها الأمبراطور مانويل فقد أبلغه أحد الصليبيين الذين يأتون لزيارة الأراضى المقدسة سيرا علىالأقدام بقدوم الحملة وأن هذا الحاج الصليبى قد مر على قيليقية وتعرف على ثوروس ثم ما لبث أن غادر طرسوس فى طريقه إلى القسطنطينية،ولما شاهد تجمع القوات البيزنطية لم يسر فى طريقه بل عاد ليخبر الأمير ثوروس بما رآه (٤) . وعلى ما يبدو كان الأمير ثوروس يستضيف هؤلاء الحجاج الأوربيين،وكان ذلك ما يساعده على التعرف منهم على أخبار الدول التى يمرون خلالأراضيها

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 275.

(٢) Grgoire le Pretre, op. cit., p. 185.

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 276.

(٤) Cinnamus, op. cit., p. 179.

خاصة أراضى الامبراطورية البيزنطية ، وربما ذهب إلى أبعد من ذلك واستعمل بعضهم كعيون على الامبراطورية البيزنطية بوجه خاص .

لم يكن دخول مانويل والقوات البيزنطية أرض قيليقية بالأمر الهين على الأمير ثوروس خاصة وأن اقامته فى طرسوس تجعله فى مواجهة الجيش البيزنطى القادم من سلوقية ، يضاف إلى ذلك أن الخطة التى أتبعها مانويل فى مفاجأة ثوروس نجحت تماما وأصبح ثوروس على وشك الوقوع فى قبضة مانويل. ولم يكن بوسع الأمير الأرمينى سوى الفرار من أمام القوات البيزنطية التى تسللت بأعداد كبيرة إلى أرمينية (١) ، وعلى الفور جمع ثوروس كل أمواله وثرواته واصطحب معه زوجته وأولاده واثنان من أخلص أصدقائه هما توماس (٢) وجورجى Gorgy ولاذ بالفرار . وقد استطاع بعض فرسانه من اللحاق به، ويضيف المؤرخ أن الجميع لجأوا إلى صخرة تسمى دادجيج (٣) Dadjig ، وهى من الأماكن المهجورة التى لم يطرقها أحد منذ وقت بعيد. ولكن ثوروس ومن معه من الفرسان لم يتخذوا من هذا المكان مقرا دائما لاقامتهم، بل ظل يتنقل ومن معه من الفرسان من مكان آخر حتى لا تتعرف القوات البيزنطية على مكانه فهام على وجهه فى شعاب الجبال والغابات حتى تنكشف له الأمور مؤمنا بعدم قدرته على مواجهة القوات البيزنطية (٤) .

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 279.

(٢) ربما يكون توماس هذا هو ابن أخت ثوروس الذى تولى الوصاية على رويان بن ثوروس بعد وفاة الأخير عام ١١٦٨ م . أنظر : Sempad, op. cit., 622.

(٣) دادجيج : جبل فى نواحى مدينة طرسوس فى قيليقية . أنظر : R.H.C. Doc. Arm. I, p. 815.

(٤) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 187.

لم يعد الأمر صعبا على القوات البيزنطية فى السيطرة على أرمينية بعد فرار الأمير ثوروس ، ولم يحاول الامبراطور مانويل اضاعة الوقت فى تعقب ثوروس والبحث عنه ، بل جعل هدفه الأول السيطرة على الأماكن الهامة التى يحتمل أن تشكل نوعا من المقاومة ضد القوات البيزنطية وكان أول ما سقط فى أيدى القوات البيزنطية قلعة كاسترون Kastron الحصينة الواقعة فى مدينة لاموس Lamos التى استسلمت بدون مقاومة ، كما عهد مانويل إلى قائده ثيودور فاتازس Theodore Vatazes باقتحام مدينة طرسوس . وعندما وصل ثيودور اليها انزعجت حاميتها وظنوا أن الأمبراطور قد أتى بنفسه لمهاجمتهم ولم يحاولوا الدفاع عن المدينة رغم حصانتها ، ثم ما لبثت القوات البيزنطية أن انتشرت فى قيليقية واستولت على مدنها الهامة مثل تل حمدون وعين زربة والمصيصة (١). وقد نجحت القوات البيزنطية فى أسر الحاميات الأرمينية التى كانت تحمى البلاد بعد ما عجزوا عن التصدى للقوات البيزنطية التى فاجأتهم بالحصار ، وخلال شهرين تقريبا كانت القوات البيزنطية تسيطر تماما على اقليم قيليقية . والواضح أن الأمبراطور مانويل وقواته لم يجدوا أية مقاومة فعالة من قبل المواطنين الأرمن ، فلقد كان لعنصر المفاجأة وكبر حجم القوات البيزنطية وتولى الأمبراطور بنفسه أمر قيادة الجيش البيزنطى يضاف إلى ذلك فرار ثوروس الذى كان له أبلغ الأثر فى نجاح القوات البيزنطية فى اجتياح اقليم قيليقية والسيطرة عليه دون صعوبة تذكر (٢) . ورغم ما كان يكنه الامبراطور مانويل من كره للأمير ثوروس فان ذلك لم ينعكس على الأرمن بصفة عامة ، ويروى المؤرخ جرجوار أن الأمبراطور مانويل عامل المواطنين

---

(١) Cinnamus, op. cit., pp. 180—181.

(٢) ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٣٥٤ ، أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ١٢٢ .

الأرمن معاملة طيبة وأنه لم يلحق بالمواطنين أى ضرر أو أذى (١) ، وعلى أية حال فبعد هذا الاجتياح السريع التى قامت به القوات البيزنطية لاقليم قيليقية أقام الامبراطور مانويل معسكره عند مدينة المصيصة (٢) فى أوائل نوفمبر عام ١١٥٨ م / السابع من شوال عام ٥٥٣ ه (٣) .

لم تكن السيطرة على قيليقية نهاية المطاف بالنسبة لأهداف الامبراطور مانويل ، فقد كان ثوروس لايزال حرا طليقا وربما يحاول جمع قواته ومنازلة أو مفاجأة الأمبراطور مانويل فى معسكره ، لذلك فان بقاء مانويل فى المصيصة كان يعنى أن الأمر لم ينته بالنسبة للأمير ثوروس . والواضح أن القوات البيزنطية كانت على أهبة الاستعداد لما عساه أن يحدث من قبل ثوروس . يضاف إلى ذلك أن الأمبراطور مانويل ظل فى معسكره بالمصيصة ليخطط أيضا لمعاقبة الأمير رينو على ما ارتكبه فى حق الأمبراطورية البيزنطية عندما خرج على طاعة الأمبراطور مانويل وهاجم الأراضى البيزنطية وعلى مااقترفت يداه من جرائم فى حق سكان جزيرة قبرص . كما كان لبقاء مانويل فى قيليقية أهداف عسكرية أخرى ، ذلك أن مانويل على ما يبدو قد تعلم من والده يوحنا عدم القيام بأية عمليات عسكرية فى نواحى الشام فى فصل الشتاء والانتظار حتى حلول الربيع ، وفى الوقت نفسه فان وجود القوات البيزنطية عند

---

(١) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 187.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 276.

وتروى المصادر العربية أن الامبراطور مانويل أقام معسكره فى مرج الديباج . أنظر : ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٣٥٤ ، ابن الفرات : المصدر السابق جـ ٥ لوحة ٧ ب . وتقع مرج الديباج على بعد عشرة أميال من المصيصة أنظر : أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٥١ .

(٣) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 187.

المصيصة وهى المدينة التى لا تبعد كثيرا عن أنطاكية كان من شأنه أن ينزل الرعب فى نفس رينو أمير أنطاكية، وكان على هذا الأمير أن ينتظر فى فزع ما سيلحق به فى الغد القريب .

وإذا كان تواجد الامبراطور مانويل وقواته فى المصيصة جعل الأمير ثوروس عاجزا عن القيام بأى عمل عسكرى ضد القوات البيزنطية يضاف إلى ذلك انزعاج الأمير رينو من المصير الذى ينتظره . فأنه قد أحيا الأمل فى نفوس بعض الساخطين على رينو وعلى رأسهم ايمرى بطريك أنطاكية المطرود وبلدوين ملك مملكة بيت المقدس. ولقد استغل بلدوين الحقد الدفين الذى يكنه ايمرى للأمير رينو ووافق على طلب البطريك للتوجه لمقابلة الامبراطور مانويل . ولاشك أن بلدوين كان يعلم بنوايا البطريك وما عساه أن يطلبه من الأمبراطور البيزنطى . توجه ايمرى إلى معسكر مانويل فى المصيصة وعرض عليه أن يسلمه الأمير رينو (١) ولكن مانويل لم يوافق على طلب البطريك، ويرجع ذلك إلى نواح سياسية أكثر منها إلى نواح انسانية . فلم يكن الامبراطور مانويل مشفقا على الأمير رينو إلى هذا الحد ، ولكن مانويل كان يعلم بما عساه أن يكون بعد ابتعاد أو عزل رينو عن امارة أنطاكية وأغلب الظن أن الامبراطور البيزنطى مانويل فضل أن يبقى رينو أميرا لأنطاكية، وبلدوين ملكا على مملكة بيت المقدس بدلا من أن يرى بلدوين ملكا على مملكة بيت المقدس وأميرا لأنطاكية (٢). ومعنى ذلك أن الأمبراطور مانويل كان يرى فى انشقاق الصليبيين على أنفسهم فرصة لدعم النفوذ البيزنطى فى الامارات الصليبية

---

(١) Cinnamus, op. cit., p. 182.

(٢) Chalandon, op. cit., p. 444.

بالشام وأن من مصلحة الامبراطورية البيزنطية أن يظل هذا الخلاف قائما بين الأمراء الصليبيين .

وعلى ما يبدو أن الأمير رينو والأمير ثوروس قد حاولا دفع بعض الأمراء البيزنطيين الذين اصطحبوا الامبراطور للتوسط فى الصلح بينهما وبين الامبراطور ، ولكن مانويل رفض بشدة مثل هذه الطلبات . والواضح أن الأمر لم يكن بهذه السهولة حتى يوافق مانويل على العفو عن رينو وثوروس حتى لو كان لديه نية العفو فيما بعد وكان لابد أن يرفض مانويل وساطة العفو فى أول الأمر على الأقل امعانا فى اذلال رينو وثوروس . ولما كان رينو يعلم بنوايا الملك بلدوين نحوه لذلك كان يخشى وساطته عند الأمبراطور مانويل(١). لذلك قرر رينو أن يحل مشكلته بنفسه مع الامبراطور مهما كلفه ذلك من ثمن فأرسل إلى مانويل يعرض عليه تسليم قلعة مدينة أنطاكية (٢).وقد رفض مانويل هذا العرض أيضا الذى لا يتناسب اطلاقا مع ما قام به رينو من جرائم فى حق الأمبراطورية . وقد سبب هذا الرفض مزيدا من الرعب للأمير رينو خاصة وهو يرى القوات البيزنطية محتشدة على مقربة من امارة انطاكية (٣) .

وكان على الأمير رينو أن يتصرف بسرعة انقاذا لحياته بعدما تبين له صلابة موقف الامبراطور وعدم تقبل فكرة العفو عنه ، فقد كان الخطر ماثلا أمامه وأنه ينتظر بين لحظة وأخرى وصول القوات البيزنطية إلى أنطاكيةلتفتك به فى الوقت الذى كان يدرك فيه تماما عدم مقدرته على مقاومة القوات البيزنطية الضخمة التى تصاحب الامبراطور مانويل ، ولقد كان فى فهم

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 276.

(٢) Cinnamus, op. cit., pp. 182—3.

(٣) Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 148.

الأمير رينو لهذه الحقائق انقاذا لحياته ؛ والفرصة لازالت سانحة أمامه للقيام بأى عمل لارضاء غرور الامبراطور البيزنطى وأن الشروط التى تفرض عليه مهما كانت نتائجها تعتبر أهون من الشروط التى تفرض عليه إذ لحقت بـه الهزيمة على أيدى القوات البيزنطية (١) ، أن بقى على قيد الحياة .

وفى خضم هذه الحوادث والأفكار التى أنتابت الأمير رينو جمع أعوانه وأنصاره وعرض عليهم الأمر بكافة جوانبه.وبعد دراسة الموقف من جميع الوجوه استمع رينو إلى جيرار Girard أسقف اللاذقية الذى أشار بتوجه رينو بنفسه إلى الامبراطور والعمل على استرضائه وطلب العفو منه ، وقـد استجاب رينو لرأى أسقف اللاذقية وأعد عدته واصطحب معه وفـدا على مستوى عال فى مقدمتهم جيرار واتجهوا إلى معسكر مانويل فى المصيصة . وهنالك تمكن رينو من الحصول على إذن من الامبراطور لمقابلته ، ولاشك أن ذلك قد تم بصعوبة بالغة وعلى مراحل متعددة ، وبعدما توسط بعض أعضاء رجال البلاط البيزنطى لدى الامبراطور مانويل . ولكى يظهر رينو ندمـه وتوبته ومذلته للأمبراطور مانويل سار عبر معسكر الامبراطور حاسر الرأس حافى القدمين مرتديا قيصا من الصوف قصير الأكمام حتى المرفقين واضعا حول رقبته حبلا وممسكا بسن سيفه ليقدم قبضته للأمبراطور ، وصحب رينو فى هذه المسيرة المهينة والمذلة إلى أبعد حدود الاذلال حشد من الرهبان حفاه الأقدام حاسرى الرؤوس،واستمر هذا المشهد حتى خيمة الأمبراطور(٢). ويروى المؤرخ البيزنطى كيناموس أن الأمبراطور مانويل كان جالسا عـلى منصة عالية والتفت حوله حاشيته على شكل دائرة وكان يجلس مع الامبراطور

(١) Runciman, op. cit., II, p. 252.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, pp. 276—7; Cinnamus, op. cit., p. 182.

أمراء من مختلف بلدان الشرق واماراته وقد عدها المؤرخ وبلغ عددهم أحد عشر وفدا . يهمنا منهم السلاجقة وآل دانشمند والأرمن وأتباع نورالدين(١). وقد يبدو الأمر واضحا بالنسبة للسلاجقة وآل دانشمند بعدما تعاونوا بالأمس مع الامبراطور مانويل . أما الأرمن فكان الأمير ثوروس لايزال مختفيا عن أعين الامبراطور وأغلب الظن أن الأمراء الذين جلسوا إلى جانب الأمبراطور هم الذين كانوا على ولاء سابق للامبراطورية البيزنطية وأكرههم ثوروس على الدخول فى طاعته بعد أسر توماس الذى كان يشغل منصب حاكم قيليقية ، وهزيمة القائد البيزنطى اندرونيكوس الذى أرسله الأمبراطور مانويل للانتقام لما حل بالأمير توماس ،أو الذين جلسوا مكرهين بعد ما اجتاحت القوات البيزنطية بلادهم . أما اتباع نور الدين فقد يبدو الأمر غير مقبول إلى حد كبير فالمصادر التى تحت أيدينا لم تشر إلى أى اتصال بين الأمبراطور مانويل ونور الدين حتى هذا الموقف ،وأن ما تم من اتصال بينهما أثناء اقامة الامبراطور فى المصيصة كان فى وقت لا حق وقبل رحيل مانويل إلى أنطاكية بوقت قليل(٢). وعلى ذلك لم يكن اتباع نور الدين من بين الأمراء الذين اجتمعوا لمشاهدة خضوع الأمير رينو .

وعلى أية حال فقد حدث أمام الامبراطور والحشد الهائل من الأمراء الذى حلا للمؤرخ البيزنطى أن يصوره ليشير إلى عظمة الأمبراطورية وما لها من نفوذ ، أن ارتمى رينو على الأرض تحت قدمى الامبراطور مانويل وعفر وجهه فى التراب والتمس من الامبراطور العفو والعطف والرحمة . وفى الوقت نفسه كانت الحاشية التى تتبعه ترفع أكفها تطلب الصفح والغفران من

(١) Cinnamus, op. cit., p. 183.

(٢) أنظر ما يلى ص ٢٤٦-٢٤٧.

الامبراطور . وقد حلا للأمبراطور مانويل أن يطيل هذا المشهد — الذى يعتبر غاية فى الاذلال للأمير رينو — حتى شعر جميع الحاضرين بالاشمئزاز ، وفى النهاية وافق الأمبراطور مانويل العفو عن رينو (١) . وعلى ما يبدو كان ظهور رينو أمير أنطاكية بهذه الصورة باتفاق مسبق مع الامبراطور مانويل الذى حشد هذا الجمع من الأمراء ليروا بأنفسهم مذلة الأمير رينو ، وليكون عبرة لكل من تسول له نفسه الاعتداء على حقوق الامبراطورية البيزنطية وأراضيها .

كان عفو الامبراطور مانويل عن الأمير رينو مقترنا بثلاثة شروط ، وهى أن يقوم رينو بتسليم قلعة أنطاكية للقوات البيزنطية عندما يطلب منه ذلك ، وأن تقدم امارة أنطاكية عددا من الوحدات العسكرية إلى الأمبراطور مانويل عند الحاجة اليها وأخيرا أن يكون بطريك أنطاكية من البطاركة البيزنطين الأرثوذكس وليس من اللاتين الكاثوليك (٢) . ولم يشر المؤرخون الصليبيون إلى هذه الشروط ومما يجعلنا نميل إلى الأخذ بها أن الشرطين الثانى والثالث قد نفذا بعد ذلك (٣) ، والمهم أن فان مثل هذه الشروط تعنى أن الأمبراطور مانويل قد حقق السيادة الدينية والدنيوية على امارة أنطاكية (٤) ، بعد صراع مع حكامها الصليبيين استمر ما يقرب من ستين عاما . وعلى أية حال فهذا الخضوع والاذلال من قبل الأمير رينو والعفو الذى ناله من الأمبراطور

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 277.

والمصدر العربى الوحيد الذى أشار إلى خضوع رينو هو ابن الفرات ، فقد ذكر أن أمير أنطاكية دخل فى خدمة الامبراطور وهو بالمصيصة ووطىء بساطه فأخلع عليه الامبراطور ورده إلى أنطاكية . أنظر : ابن الفرات جـ ٥ لوحة ٧ ب .

(٢) Cinnamus, op. cit., pp. 182—3, 199.

(٣) أنظر ما يلى ص ٢١٢ ، ٢٣٣ .

(٤) Ostrogosky, op. cit., p. 343.

مانويل ، أضاع رينو الفرصة على البطريك ايمرى والملك بلدوين لينالا منه وينتزعا امارة أنطاكية .

وحوالى ذلك الوقت كان الملك بلدوين قد وصل إلى أنطاكية بهدف اعداد الترتيبات اللازمة لمقابلة الأمبراطور . وحول هذه الأحداث يروى المؤرخ وليم الصورى أن الملك بلدوين عندما علم بوصول الأمبراطور إلى المصيصة استعد للتوجه إليه واصطحب معه شقيقه عمورى (١) Amaury كونت يافا وعسقلان وحامية من النبلاء واتجه إلى أنطاكية . ومن هناك أرسل سفارة إلى الأمبراطور مانويل لاعداد ترتيبات اللقاء وضمت السفارة جودفرى Godfrey رئيس الفرسان الداوية بالانابة (٢) لمعرفته باللغة اليونانية وجوسلين بيسلوس ، لمعرفته السابقة بالأمبراطور فقد كان عضوا فى السفارة التى تولت أمر زواج الملك بلدوين من ثيودورا ، وكان على هذه السفارة أن تذهب إلى الأمبراطور فى معسكره لابلاغه برغبة بلدوين فى مقابلته . ولما علم الأمبراطور مانويل بأمر هذه السفارة والهدف التى أتت من أجله وافق على طلبها، كما أرسل مانويل مع السفارة مندوبا من قبله ومعه خطاب يحث فيه الملك على الاسراع فى القدوم لمقابلة الأمبراطور كما أن المندوب البيزنطى أبلغ الملك بلدوين شفاهة بأن الأمبراطور يعتبر الملك ابنه المحبوب وطلب منه أيضا عدم التأخير فى لقاء الأمبراطور (٣) .

---

(١) تولى منصب كونت يافا عام ١١٥١ م ومنصب كونت عسقلان عام ١١٥٤ م وتولى منصب ملك مملكة بيت المقدس باسم عمورى الأول ١١٦٢ — ١١٧٣ م .

(٢) كان رئيس فرسان الداوية الأصلى برتراند أف بلانكفورت Bertrand of Blanquefort أسيرا فى أيدى المسلمين . أنظر ما يلى ص ٢٠٤ .

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 277.

ويتضح من هذه الرواية أن الملك بلدوين كان متلهفا للقاء الامبراطور وكان الامبراطور يشاركه الشعور نفسه ؛ يضاف إلى ذلك أن وليم الصورى لم يرد أية أخبار عن لقاء بلدوين ورينو فى أنطاكية، وهذا دليل على أن أمير أنطاكية لم يكن بالمدينة عندما وصل اليها الملك بلدوين ولم يرد فى هذه الرواية أيضا أية مفاوضات تمت بين النبلاء الصليبيين فى أنطاكية وبين الملك بلدوين .

أما المؤرخ البيزنطى كيناموس فقد ذكر أن الملك بلدوين عندما وصل إلى أنطاكية رحب به أمراء المدينة وأحس بلدوين برضاء الأمراء عنه لذلك التمس مقابلة الأمبراطور يمنحه امارة أنطاكية ؛ ولكن الأمبراطور رفض المقابلة فى أول الأمر واشترط عدم اصطحاب الملك لقوات كبيرة.وتحت الحاح بلدوين واستجابته لشرط الامبراطور وافق،مانويل على المقابلةفأتجه بلدوين إلى معسكر الامبراطور مصحوبا بالأهالى الذين التمسوا منه مصالحة الأمبراطور (١) .

وقد أضافت هذه الرواية معلومات أخرى إلى جانب معلومات وليم الصورى،ويتضح منها أن الملك بلدوين كان طامعا فعلا فى حكم أنطاكيةوجعلها تحت سلطته المباشرة بالاضافة إلى مملكة بيت المقدس . حقيقة أن ملك بيت المقدس كان يدعى لنفسه السيادة على سائر الامارات الصليبية ولكن هذه السيادة لم تظهر إلا حينما كانللملك من القوة ما يكفى لفرضها ، كما كان لأنطاكية وضع خاص،لأنبوهمند — أول أمير صليبى تولى حكم الامارة — لم يعترف بالسيادة للملك الصليبى وظل هذا الوضع متوارثا حتى ذلك الوقت،

(١) Cinnamus, op. cit., p. 183.

وأن رينو لم يطلب الاذن من الملك بلدوين للزواج من كونستاس، الا لأن رينو كان أحد أتباع بلدوين، لذلك كان الملك بلدوين يطمع فى مساعدة الامبراطور مانويل فى عزل رينو من امارة أنطاكية لتصبح الامارة تحت سلطة الملك المباشرة (١) . وعلى أية حال فمن الواضح أن الامبراطور رفض فى أول الأمر مقابلة الملك بحجة القوات التى ترافقه وأن الأمير رينو لم يكن فى أنطاكية فى هذا الوقت وأن الأهالى طلبوا من الملك التوسط فى الصلح بينهم وبين الامبراطور باعتبارهم مشتركين فى مسئولية الهجوم على قبرص .

والأرجح أن الملك بلدوين وصل إلى أنطاكية فى الوقت الذى كان فيه رينو يتخذ طريقه إلى الامبراطور لتقديم فروض الولاء والطاعة، أو أنه قد وصل فعلا إلى معسكر الامبراطور ، ولما كان بلدوين طامعا فى حكم امارة أنطاكية فقد استغل رضاء أمراء وأهالى المدينة عنه ليطلب من الامبراطور مساعدته فى تحقيق هذا الهدف . ولما كان الامبراطور على علم مسبق بنوايا الملك بلدوين عن طريق البطريك ايمرى لذلك رفض مانويل أو أرجأ مقابلة بلدوين حتى تتكشف له الأمور وما عساه أن يكون عليه الحال بعد مثول رينو أمامه . ويبدو واضحا أن الامبراطور مانويل كان سيعفو عن رينو لأنه لو كانت لديه النية فى قتل رينو أو عزله لوافق على طلب البطريك ايمرى وسلم اليه رينو ، ومن هنا تأخر مانويل فى مقابلة بلدوين حتى يعفو عن رينو ويفوت الفرصة على بلدوين وما يسعى اليه من أهداف وهو حكم أنطاكية . الذى اصطحب من أجله بلدوين أهالى المدينة ليكونوا بمثابة تزكية له عند الامبراطور ، والواضح أيضا أن رينو كان يعلم بنوايا الملك بلدوين لذلك

---

(١) Runciman, op. cit., II, pp. 304. ff.

أسرع لمقابلة الامبراطور والحصول على عفوه . ومن ذلك يتضح أن الامبراطور مانويل كان يستغل الخلافات والأوضاع بين الصليبيين فى تحقيق المصالح البيزنطية فى الشام .

كانت مقابلة الامبراطور مانويل للملك بلدوين دون شك بعد حصول رينو على عفو الامبراطور . وبعدما اطمأن مانويل أن أمور الحكم فى أنطاكية ستظل على حالها وقد ترك بلدوين أخاه عمورى فى أنطاكية واصطحب معه بعض فرسان الداوية (١) . وتعمد الأمبراطور مانويل اضفاء مزيدا من التشريف على الملك بلدوين عند مقابلته حتى يخفف عنه وقع أخبار عفوه عن رينو ، لذلك كان فى استقبال بلدوين عند مدخل مدينة المصيصة حرس الأمبراطور على شكل ما نسميه بحرس الشرف ، وكان هذا الحرس على مسافات متباعدة وفى كل مسافة يقف اثنان من الحرس يليهما اثنان آخران أعلى مرتبة وكان الحرس يقدم التحية للملك ، وفى الوقت نفسه كان يصاحب الملك مندوبا الامبراطور مانويل وهما جان كومنينوس — حاكم قبرص السابق — والحاجب الكسيوس ابن عم الامبراطور (٢) . وعندما وصل الامبراطور إلى معسكر الامبراطور وجد الحرس الأمبراطورى شاكى السلاح ، وقد ظل هذا الوضع فى استقبال الملك حتى وصل بلدوين إلى النقطة التى يجب أن يترجل عندها أى ضيف مهما كانت منزلته ولا يصح لأحد أن يسير بعدها على صهوة جواده سوى الأمبراطور (٣) ، ولكن بلدوين لم يكن راغبا فى التخلى عن

(١) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 188.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, pp. 277—8. &

(٣) Cinnamus, op. cit., p. 183.

فرسه واتباع مراسم زيارة الأمبراطور ولعله أراد أن يشعر الأمبراطور بتكافؤ مكانتهما (١) .

واضطر بلدوين للترجل فى النهاية واصطحبه جان كومنينوس والحاجب الكسيوس فى احترام بالغ حتى مدخل خيمة الامبراطور حيث استقبله الأمبراطور مانويل استقبالا حارا وقبله قبلة السلام وأجلسه إلى جواره على مقعد أقل انخفاضا من مقعد الأمبراطور (٢).ورغم هذا التقليد البيزنطى الذى يدل على علو مكانة الامبراطور فان الملك بلدوين على ما يبدو شعر أنه عومل بتشريف أقل مما كان ينبغى أن يعامل به.والمهم أن الامبراطور مانويل كان لبقا وحكيما فى معاملة صهره ومرافقيه فقد قبلهم الامبراطور أيضا قبلة السلام كما استفسر عن صحة الملك وزوجته وحاشيته،وأظهر مانويل من لطف المجاملة ما جعل الملك يشعر بالابتهاج ودام ذلك حوال عشرة أيام وهى فترة بقاء بلدوين ضيفا على الأمبراطور (٣) .

وأثناء هذه المجاملات لاحظ الملك دون شك شدة غضب الأمبراطور مانويل على الأمير ثوروس (٤) . وأن مانويل قد رفض توسلات البعض للعفو عن ثوروس . وهنا يمكن القول أن العفو عن ثوروس أصبح ممكنا بعد ماعفا الأمبراطور عن رينو الذى تحالف مع ثوروس فى الهجوم على قبرص.والمهم أن الملك بلدوين لاحظ أيضا أن الامبراطور قد أمر قواته بالتجمع استعدادا لمهاجمة ثوروس (٥) ، وعلى ما يبدو أن الأمبراطور مانويل كان يقصد من

(١) حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٨٦ .

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 278; Cinnamus, op. cit., p. 183.

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 278.

(٤) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 188.

(٥) William of Tyre, op. cit., II, p. 278.

وراء ذلك استعراض القوة البيزنطية أمام الملك وأنه أراد أيضا — وهو الأهم — أن يحث الملك بلدوين على طلب العفو عن ثوروس، وبذلك يكون الامبراطور قد نفذ رغبة للملك تكون بمثابة ترضية للملك الصليبي بعدما خدعه بالعفو عن رينو . وقد تدخل بالفعل الملك بلدوين وفرسان الداوية وتوسطوا فى الصلح بين الامبراطور وثوروس (١) . ويروى المؤرخ جريجوار ملقيا اللوم على البيزنطيين الذين يكنون الحقد للأرمن رغم أنهم لا يستحقون كل ذلك ، وأنهم لم يؤتوا أعمالا من شأنها أن تغضب الامبراطور ، أن الملك بلدوين وفرسان الداوية تدخلوا لاصلاح ما بين الأمبراطور وثوروس ، وعندماحضر ثوروس أمام الامبراطور طرده فى أول الأمر ولكن ثوروس ما لبث أن اكتسب عطف الأمبراطور بعد ما أوضح له أن الوشايات هى السبب فى كل ما حدث (٢) ، ويرى المؤرخ شالندون أن الامبراطور مانويل قد فرض على ثوروس أن يظهر أمامه بالطريقة التى ظهر بها الأمير رينو وكان يتعين على ثوروس أن يضع نفسه تحت رحمة الامبراطور فى رداء المتضرع المتوسل(٣) وعلى أية حال فقد عفى الامبراطور عن ثوروس وتلقى منه الولاء والطاعةوقلده حكم الأراضى التى تحت يديه (٤) ، ورغم عدم اشارة المصادر التى تحت أيدينا إلى العلاقة بين ثوروس والامبراطورية البيزنطية فأنه يمكن القول أن الامبراطور مانويل أعاد تعيين حاكم بيزنطى على قيليقية ، وكان أول من تولى هذا المنصب بعد خضوع ثوروس هو أندرونيكوس كومنينوس (٥) .

---

(١) Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 169.

(٢) Gregoire le Pretre, op. cit., 188.

(٣) Chalandon, op. cit., p. 450.

(٤) William of Tyre, op. cit., II, 278.

(٥) Michel le Syrien, op. cit., p. 356.

ظل ثوروس فى ضيافة الأمبراطور مانويل عدة أيام ثم أبدى ثوروس رغبته فى العودة إلى طرسوس (١) . ولعل ما دفع ثوروس إلى عدم البقاء فى المعسكر البيزنطى هو خوفه من قيام مؤامرة ضده أثناء تواجده وسط القوات البيزنطية (٢) . وعلى أية حال فقد وافق مانويل على رغبة ثوروس واشترط عليه أن يحضر على وجه السرعة فى أى وقت يراه الامبراطور وتم الاتفاق على ذلك . والواضح أن الأمير ثوروس عمل على ارضاء الامبراطور بكافة السبل، لذلك سرعان ما عاد ثوروس إلى معسكر الامبراطور فى المصيصة ومعه قطيع كبير من الخيول والأغنام والماشية، وقد وصلت هذه الامدادات فى الوقت المناسب الأمر الذى أعجب به الامبراطور مانويل فأشاد بحكمة ثوروس. وأسبغ مانويل على الأمير الأرمينى هدايا من الذهب والفضة والأقمشة وغفر له من صميم قلبه ما اقترفه فى حق الامبراطورية البيزنطية (٣) . وهنا يمكن يمكن القول أنه بخضوع ثوروس أصبح مانويل سيدا حقيقيا على قيليقية لأول مرة منذ توليته العرش البيزنطى أى بعدما يقرب من ستة عشر عاما .

هذا ما كان من أمر ثوروس ورينو وخضوعهما للأمبراطور البيزنطى بعدما يقرب من ثلاث سنوات من الهجوم على جزيرة قبرص (٤). والزيارة التى قام بها الملك بلدوين . والواضح أن الملك الصليبى وجد نفسه فى موقف لا يحسد عليه بعد ما تبددت أحلامه فى حكم أنطاكية . ولكنه لم يدع الفرصة تمر دون أن يغتنمها وكان عليه أن يقوم بعمل ما من شأنه خدمة القضيـــة الصليبية بصفة عامة، لذلك التمس من الامبراطور مانويل تخفيف الشروط

---

(١) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 188.

(٢) Vahram d'Edesse, op. cit., pp. 505—6.

(٣) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 188.

(٤) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ١٩٧ .

المفروضة على امارة أنطاكية وطلب تخفيض عدد الوحدات العسكرية التى الزم الامبراطور الأمير رينو بتقديمها عند الحاجة وأن يصرف النظر عن تعيين بطريكا بيزنطيا على أنطاكية. وقد استجاب الامبراطور مانويل للطلب الأول. أما فيما يتعلق بمسألة البطريك البيزنطى فقد رفض الأمبراطور بشدة التنازل عن هذا الشرط (١) ، ولكنه أرجأه لوقت لاحق (٢) .

وبعدما ظل بلدوين فى ضيافة الامبراطور لمدة عشرة أيام استأذن فى العودة إلى بلاده ، وقد وافق مانويل على طلبه وأهداه وأهدى ومرافقيه هدايا قيمة ، وكان ما تلقاه بلدوين بمفرده اثنين وعشرين ألف هيبربر وثلاثة آلاف ماركا من الفضة فضلا عن الأثواب الحريرية والأوانى الثمينة . وعندما وصل بلدوين إلى أنطاكية وجد فى انتظاره أخيه عمورى الذى أبدى رغبته فى زيارة الامبراطور لعله يفوز بنصيب من هدايا الأمبراطور ، وقد توجه إلى معسكر مانويل حيث استقبله الامبراطور بالترحاب على عادته. وفى ختام زيارته أسبغ عليه الأمبراطور مانويل هدايا قيمة ثم ما لبث أن عاد إلى أنطاكية مسرورا بكرم الأمبراطور وعطاياه (٣) .

لقد نجح بلدوين فى عقد الصلح بين الامبراطور مانويل والأمير

---

(١) Cinnamus, op. cit., pp. 185—6.

(٢) يتضح ذلك من أن الامبراطور مانويل لم يعين بطريك يونانى فى هذا الوقت ، وأول من عين بطريكا تنفيذاً لهذا الشرط هو البطريك أثناسيوس فى عام ١١٦٤ م أنظر :

Michel le Syrien, op. cit., p. 360.

أنظر أيضا : أسد رستم : كنيسة مدينة الله وأنطاكية العظمى جـ ٢ ص ٢٧٣ ،

Neale & Others, A History of the Holy Eastern Church - The Patriarchate of Antoich, p. 174.

(٣) William of Tyre, op. cit., II, pp. 278—9; Joseph ben Joshua, op. cit., p. 169.

ثوروس(١)وتخفيف بعض الشروط المفروضة على امارة أنطاكية. وإذا كان مانويل قد فرض على رينو امداده ببعض الوحدات العسكرية ، وأنه طلب من ثوروس الحضور إليه عند طلبه ؛ وأن العادات البيزنطية جرت على تقديم الهدايا للحلفاء(٢) فان ذلك يعنى أن ثوروس وبلدوين أصبحا حلفاء للأمبراطورية ، فالواقع أن المصادر التى تحت أيدينا لم تشر إلى أية مفاوضات تمت بين الأمبراطور البيزنطى والملك الصليبى حول محاربة المسلمين ، وهو الهدف الذى تم من أجله مصاهرة الملك بلدوين للأمبراطور مانويل . كما وأن الاعتقاد قد ساد الصليبيين فى هذا الوقت بأن الامبراطور مانويل قد جاء بقواته لمحاربة نور الدين . وقد نجد مخرجا لهذا الغموض إذا علمنا أن الأمبراطور مانويل أرسل من معسكره فى المصيصة رسولا من قبله إلى نور الدين ومعه هدية من أثواب الديباج وما شابه ذلك يضاف اليها بعض البغال وخطاب من الأمبراطور ، وقد تقبل نور الدين هذه الهدايا وأعاد الرسول البيزنطى فى أواخر صفر عام ٥٥٤ هـ /حوالى الثانى والعشرين من مارس عام ١١٥٩م بعد ما حمله هدايا مماثلة (٣) . ويضيف أبو شامة أن المهادنة تمت بين الطرفين (٤) .

ومن الملاحظ أن الأمبراطور مانويل قضى عيد القيامة (الثانى عشر من أبريل / الحادى والعشرين من ربيع أول) فى المصيصة ثم رحل بعد ذلك إلى أنطاكية (٥) ، أى أن اتصاله بنور الدين كان فى أواخر أيام اقامته فى قيليقية أى بعد خضوع رينو وثوروس لأن الملك بلدوين هرع لمقابلة الامبراطور

---

(١) Vahram d'Edesse, op. cit., p. 505.

(٢) Chalandon, op. cit., p. 450.

(٣) ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٣٥٦ .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق جـ ١ ص ١٢٣ ، أنظر ما يلى ص ٢٤٩ .

(٥) William of Tyre, op. cit., II, p. 279.

مانويل عندما علم بوصوله إلى المصيصة . وأغلب الظن أن نور الدين علم بما دار فى معسكر الامبراطور من المندوب البيزنطى . وعلى ذلك يمكن القول أن اتفاق مانويل مع بلدوين على قتال المسلمين عندما تم التصاهر بينهما كان خدعة من الامبراطور مانويل ليستغل الملك الصليبى إلى أكبر قدر مستطاع فى عقاب رينو وثوروس ، وبعدما تحققت أهداف الامبراطور مانويل وتم اخضاع رينو وثوروس وجد مانويل أنه لاداعى لقتال المسلمين ، فراسل نور الدين بالهدايا ليشعره بحسن نية الامبراطور تجاه المسلمين . وعلى أية حال ستفسر لنا الأحداث التالية الكثير من سياسة مانويل فى منطقة الشام .

وبعدما احتفل الامبراطور بعيد القيامة فى معسكره بالمصيصة ، أتجه بعد عدة أيام إلى أنطاكية بعدما قضى حوالى سبعة أشهر فى قيليقية (١) . وكان مانويل قد أرسل أحد رجاله وهو يوحنا كاماتروس John Kamateros إلى المدينة ليعلن قدوم الامبراطور ويتفقد الروح السائدة فى أنطاكية قبل وصول الأمبراطور (٢) . والواضح أن مانويل اتخذ هذا الاجراء لما عرف عن موقف أهل أنطاكية من قبل مع والده يوحنا ، ولقد تحقق ما كان يجول فى خاطر الامبراطور ، فقد كان بعض أهالى المدينة غير راغبين فى دخول مانويل إلى أنطاكية وأعدوا عدتهم على ما يبدو للقيام بتمثيله مشابهة للتى قاموا بها عندما دخل يوحنا المدينة عام ١١٣٨ م . ولما كان الأمبراطور مانويل عازما على دخول المدينة فقد طلب تسليمه بعض الرهائن (٣) . ولم يكن بوسع رينو أو بلدوين مخالفة أمر الامبراطور فوافقا على تقديم الرهائن وتقدمت القوات البيزنطية وعلى رأسها مانويل حتى وصلت إلى أنطاكية .

(١) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 191.
(٢) Cinnamus, op. cit., pp. 186—7.
(٣) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 189.

ولقد أفاضت المصادر التاريخية فى وصف الموكب الذى دخل بـه الامبراطور مانويل المدينة . فقد صاحب دخول الامبراطور احتفال عظيم للتدليل على عظمة الامبراطورية البيزنطية ومدى النصر الذى أحرزه مانويل على الصليبيين . فقد ظهر الامبراطور البيزنطى مانويل ممتطيا جواده وعلى رأسه التاج الامبراطورى ومرتديا العباءة الامبراطورية الارجوانية المرصعة بالجواهر ممسكا فى يده الصولجان وشارات الامبراطورية ، وفى الوقت نفسه سار الأمير رينو — إلى جانب جواد الامبراطور — على قدميه ممسكا بلجام جواده ، بينما سار الملك بلدوين وجميع الأمراء خلف الامبراطور بدون سلاح . وفى مقدمة الموكب الامبراطورى سار رجال الدين حاملين الأناجيل فى أيديهم . وسار الموكب داخل المدينة على أصوات الطبول والترانيم الدينية وسط جمهور المشاهدين حتى وصل الركب إلى كنيسة المدينة وهى كنيسة القديس بطرس حيث أدى الامبراطور صلاة الشكر ثم إتجه بعد ذلك إلى قصر أنطاكية تصحبه حراسة وحامية المدينة حيث قام الامبراطور بتوزيع الأموال على أهالى المدينة (١) . وبهذا المشهد يكون الامبراطور مانويل قد غسل العار الذى لحق به من جراء مهاجمة رينو لجزيرة قبرص وتمرده على السيادة البيزنطية (٢) .

وأثناء اقامة الامبراطور فى قصر المدينة أقيمت الاحتفالات لمدة ثمانية أيام متواصلة اشتملت على مهرجانات السباق والمبارزة والفروسية . وقد اشترك الامبراطور بنفسه فى هذه المبارزات . وبعدما انتهى أمر هذه الاحتفالات بدأت رحلات الصيد ، وفى احدى هذه الرحلات سقط الملك بلدوين وكان

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 279; Cinnamus, op. cit., p. 187.

(٢) Michaud, op. cit., I, p. 404.

ذلك فى يوم عيد الصعود (١) (الثانى والعشرين من مايو ١١٥٩ / الثانى من جمادى الأولى ٥٥٤ هـ) سقط من على فرسه وكسرت ذراعه وتولى الامبراطور مانويل بنفسه الاشراف على علاج الملك (٢).

وبعد شفاء الملك حدث تطور كبير فى الأحداث فقد أعلن الامبراطور مانويل الاستعداد لمهاجمة حلب (٣). والواضح أن ما طرأ من أحداث يرجع على ما يبدو إلى الحاح الصليبيين على مانويل بهدف القضاء على القوة الاسلامية التى يقودها نور الدين الذى كان يعمل فى هذا الوقت على تقوية نفوذه فى الشام وأصبح يشكل خطرا كبيرا على الامارات الصليبية (٤). فبالأمس القريب تهادن مانويل مع نور الدين وتبودلت الهدايا بينهما. وعلى أية حال فان نور الدين لم يتخدع بمثل هذه الهدايا. فمن التجربة التى مرت بوالده عماد الدين مع الامبراطور يوحنا قد أحس بامكان غدر البيزنطيين به. لذلك نجد نور الدين ينهض لتعبئة القوات الاسلامية عندما بلغه عزم الامبراطور على التوجه إلى أنطاكية. وسار نور الدين إلى حمص وحماه وشيزر «لايناس أهلها من شر الروم والفرنج» ثم وصل إلى حلب فى الثامن عشر من ربيع أول ٥٥٤ هـ / التاسع من أبريل عام ١١٥٩ م (٥). ومعنى ذلك أن عيون نور الدين كانت ترقب تحركات الامبراطور مانويل وأنها كانت على درجة عالية من الكفاءة حتى تعلم بعزم الامبراطور على الاتجاه إلى أنطاكية استعدادا

---

(١) يأتى عيد الصعود Ascension بعد عيد القيامة بأربعين يوما أنظر: Ency. Brit., Vol. 2 p. 561.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 280.

(٣) Ibid.

(٤) عمر كمال توفيق: المرجع السابق ص ١٥٥.

(٥) ابن القلانسى: المصدر السابق ص ٣٥٦ — ٣٥٧.

لقتال المسلمين، قبل أن تبدأ مسيرة القوات البيزنطية بعدة أيام . يضاف إلى ذلك أن وجود نور الدين فى حلب وليس فى دمشق يعنى أن الأخبار وصلته أيضا عن نية البيزنطيين والصليبيين لمهاجمة حلب وهو ما خططت له القيادة المتحالفة . وعلى أية حال فبعد ما تفقد نور الدين أحوال قواته وأعد المدن الرئيسية للدفاع عن نفسها أرسل فى طلب النجدة من جيرانه المسلمين . فاجتمعت لديه قوات عظيمة منها عسكر الموصل بقيادة أخيه قطب الدين وعساكر ماردين بقيادة نجم الدين بن تمرتاش، وعسكر اربل بقيادة زين الدين على كوجك، وعسكر آمد مع قرا أرسلان بن داود وغير ذلك من العساكر الاسلامية (١) .

خرج الامبراطور مانويل وملك مملكة بيت المقدس ورينو صاحب أنطاكية، وربما يكون ثوروس قد انضم اليهم وحشد هائل من القوات البيزنطية الصليبية فى احتفال مهيب من مدينة أنطاكية لقتال المسلمين . وتقدمت القوات المتحالفة على دقات طبول الحرب وأصوات الأبواق والأجراس لتأخذ طريقها إلى حلب (٢) . وتفاءل الصليبيون خيرا بهذا الزحف الهائل وأيقنوا أن بوسعهم القضاء على نور الدين وقواته بسهولة . ومما لاشك فيه أن مثل هذه الحشود المتحالفة قد سببت فزع فى المسلمين (٣) . وظلت القوات فى مسيرتها حتى وصلت إلى حوض نهر العاصى حيث أمر الامبراطور مانويل جميع القوات بالتوقف بعد ما أصبحت مدينة حلب على مسيرة بضع ساعات (٤).

---

(١) ابن الفرات : المصدر السابق جـ ٥ لوحة ١٣ ب .

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 280.

(٣) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 190.

(٤) Rey, Resume d'L'Histoire de Princes d'Antioche, cf., R.O.L., IV, p. 372.

وفى هذا المكان حدث تطور كبير فى خطة القوات المتحالفة. وهو تطور يعتبر فى تصورى مفاجأة مذهلة للقوات الصليبية أكثر منها للقوات الاسلامية . وحول هذه الأحداث يروى وليم الصورى أن الأمبراطور أرسل إلى نور الدين فى حلب للتفاوض بشأن تحرير الأسرى الصليبيين (١) . أما المصادر العربية فقد أعطت لنا صورة واضحة عن حالة الفزع التى انتابت المسلمين من الحشود البيزنطية الصليبية التى اجتمعت لمهاجمة المعاقل الاسلامية والاستيلاء عليها ، ولكن صائب الرأى وحسن التدبير من قبل نور الدين أدى إلى توقيع الهدنة بين مانويل ونور الدين وهو ما لم يكن فى الحسبان ولم يخطر بالبال . فانتظمت الأحوال «بحسن رأى ملك الروم ومعرفته بما يؤول اليه عواقب الحروب»، وبعد تكرار المراسلات «أجيب ملك الروم إلى ما التمسه من اطلاق سراح مقدمى الافرنج المقيمين فى حبس نور الدين» (٢) ومن رواية وليم الصورى وابن القلانسى يتضح لنا أن الأمبراطور مانويل هو الذى بدأ بطلب الصلح من نور الدين . ويروى المؤرخ جريجوار عكس ذلك فذكر أن نور الدين أرسل السفراء إلى الامبراطور مانويل لتعرض عليه رغبة نور الدين فى تحرير الأسرى الصليبيين (٣) . وربما يكون لذلك نصيب من الصحة فان نور الدين أرسل السفراء إلى مانويل ولكن فى مرحلة تالية . وعلى أية حال فالأرجح أن الامبراطور مانويل بدأ بعرض الصلح على نور الدين . وتوضح المصادر البيزنطية والأرمينية واللاتينية الأسباب التى دفعت الامبراطور مانويل إلى طلب الصلح ، فذكر المؤرخ كيناموس أن مانويل تلقى أنباء خطيرة من العاصمة

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 280.

(٢) ابن قاضى شهبة : المصدر السابق ورقة ٧٣ أ — ٧٣ ب ، ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٣٥٧ — ٣٥٨ .

(٣) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 190.

البيزنطية وكانت هذه الأخبار تفيد أن هناك مؤامرة لخلع الامبراطور مانويل عن العرش بتدبير اثنين من رجال البلاط البيزنطى همـــا ثيودور ستيبوت Theodore Stypiote وبيرهوجورجوس Pyrhogeorgos (جورج)(١) ، أما المؤرخ جريجوار فقد روى لنا أن تقدم القوات البيزنطية والصليبية لقتال المسلمين كان كيوم من أيام العيد وفجأة وصل من القسطنطينية خطـــاب للامبراطور مانويل يعلنه أن ثورة قامت فى العاصمة البيزنطية ضده (٢) . وسجل لنا المؤرخ ميخائيل السريانى أن الامبراطور مانويل علم بنبأ سىء وأن أحد كبار رجال الامبراطورية كان يريد الاستيلاء على العرش (٣) . أمـا المؤرخ الصليبى وليم الصورى فأشار أن بعض شئون الامبراطور الخاصـــة استدعته للعودة إلى العاصمة البيزنطية (٤) .

وإذا كان الامبراطور مانويل عازما على قتال المسلمين وأن أخبار هذه المؤامرة هى التى حالت دون القتال ، فما هى الأسباب التى دفعت الامبراطور مانويل إلى مهادنة نور الدين سرا عندما أرسل اليه وهو فى معسكره بالمصيصة؟ ولعل ما قام به الامبراطور من الاعداد للقتال كان تمثيلية احكمت مشاهدها خاصة وأن المصادر التى تحت أيدينا لم تمدنا بل لم تشر بعد ذلك إلى هذه المؤامرة وما فعله مانويل بشأن المتآمرين ، وأن هناك اتفاقا مسبق مع نور الدين بالصلح. وقد يبدو الأمر غريبا إذا وجدنا نور الدين يقوم بحشد قواته والاستعداد للقتال وهو يعلم بنية الامبراطور مانويل ولكن هذه الغرابة ما تلبث أن تزول إذا علمنا

---

(١) Cinnamus, op. cit., pp. 189—190, Schlumberger, op. cit., p. 110.

(٢) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 190.

(٣) Michel le Syrien, op. cit., p. 352.

(٤) William of Tyre, op. cit., p. 281.

أن الحرب خدعة وأن عماد الدين زنكي سبق والخدع بمثل هذه الهدايا التى أرسلها إليه يوحنا كومنينوس ثم ما لبث أن عاد يوحنا فى العام التالى ليحاربه فبذلك يكون نور الدين قد أعد العدة للاحتمالين .

والواقع أن مبادرة الامبراطور مانويل بطلب الصلح مع نور الدين سواء عندما كان الامبراطور فى المصيصة أم عندما وصلت الجيوش المتحالفة إلى حوض نهر العاصى تكشف لنا عن بعض الجوانب الخفية فى السياسة البيزنطية التى هدفت إلى إيجاد ميزان قوى فى الشرق يستطيع الامبراطور مانويل من خلاله تحقيق المصالح البيزنطية فى المنطقة ، فالامبراطور مانويل أتى بحملته إلى الشرق لتأديب ثوروس ورينو وأنه خدع الملك بلدوين بصفة خاصة والصليبيين عامة بفكرة التحالف لقتال نور الدين ليعزل ثوروس ورينو عن أية مساندة صليبية فيسهل عليه بعد ذلك اخضاع قيليقية وأنطاكية للسيادة البيزنطية ، فالسياسة البيزنطية فى عهد الامبراطور مانويل كانت ترى فى الأوضاع السيئة للامارات الصليبية ترسيخا للنفوذ البيزنطى على الصليبيين وأن مانويل لم يفكر اطلاقا فى اضعاف قوة نور الدين فى الشام (١) ، لأن ذلك يعتبر فى نظر الامبراطور خطأ جسيما. فالصراع بين نور الدين والصليبيين هو سبب الانتصارات التى حققها الامبراطور مانويل فى الشرق الأدنى الاسلامى (٢) ، وأن القضاء على نور الدين والقوى الاسلامية يزيد من قوى الصليبيين وحينذاك يصبحون بغير حاجة إلى الامبراطورية البيزنطية وسرعان ما يتنكرون لوعودهم تجاه الامبراطورية (٣) .

---

(١) Setton, op. cit., I, p. 545.

(٢) Runciman, op. cit., II, p. 355.

(٣) Chalandon, op. cit., pp. 454—5.

تقررت الهدنة بين نور الدين ومانويل بعد تبادل المراسلات بين الطرفين ويروى المؤرخ البيزنطى كيناموس أنه تم الاتفاق فى النهاية على اطلاق سراح الأسرى الصليبيين المحتجزين طرف نور الدين يضاف إلى ذلك تعهد نور الدين بمساندة البيزنطيين فى حروبهم ضد السلاجقة (١) . وقد إعتبر الامبراطور مانويل موافقة نور الدين على هذه الشروط تفضلا منه ، لذلك قابل الامبراطور هذا الفضل بما يضاهيه وأرسل إليه هدايا عظيمة من الثياب الفاخرة المختلفة الانواع وبكميات كبيرة ، يضاف إلى ذلك خيمة كبيرة من الديباج عظيمة القدر وبعض الخيول والجواهر الثمينة (٢) . وكان من بين هذه الجواهر لؤلؤة عظيمة القيمة كما أرسل اليه مائة ألف دينار (٣) .

وفيما يتعلق بالأسرى الصليبيين فقد أشار المؤرخ كيناموس أن عددهم بلغ ستة آلاف (٤) ، أما المؤرخ جريجوار فقد ذكر أن الاتفاق تم على اطلاق سراح عشرة آلاف من الأسرى (٥) . وعلى أية حال فقد كان من بين الأسرى الذين أطلق سراحهم برتراند أف بلانكفورت رئيس فرسان الداوية (٦) والكونت برتراند أف تولوز Bertrand of Toulouse المطالب

(١) Cinnamus. op. cit., p. 188.
راجع أيضا : سعيد عبد الفتاح عاشور جـ ٢ ص ٦٧١ .

(٢) ابن قاضى شهبة : المصدر السابق ورقة ٧٣ أ — ٧٣ ب ، ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٣٥٨ .

(٣) ابن الفرات : المصدر السابق جـ ٥ لوحة ١٣ أ — ١٣ ب .

(٤) Cinnamus, loc. cit.,

(٥) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 190.

(٦) تولى رئاسة فرسان الداوية من عام ١١٥٦ — ١١٦٨ م وأسرة المسلمون فى معركة طبرية عام ١١٥٧ م أنظر : Schlumberger, op. cit., p. 107.

بامارة طرابلس(١).وينفرد ابن الفرات يذكر أنه تم الافراج عن ألف أسير أسير من أسرى المسلمين الذين كانوا فى سجون أنطاكية (٢) . وعلى مايبدو أن نور الدين كان راضيا كل الرضا عن النتائج التى أسفرت عن التحالف البيزنطى الصليبى ، لذلك نراه يقوم باعادة الأسرى وقد كساهم بالملابس الجديدة (٣) . ومما لاشك فيه أن مثل هذا التصرف الانسانى من قبل نورالدين قد أثار دهشة المتحالفين ، وهو أن دل على شىء فانه ليدل على فهم نورالدين والقيادة الاسلامية لنوع من أساليب الحرب النفسية التى لم نسمع عنهامن قبل.

هذا ما كان بشأن الشرط الأول من الهدنة والتى اتفقت عليه المصادر البيزنطية والصليبية والعربية . أما الشرط الثانى الخاص بمساعدة نور الدين للامبراطورية البيزنطية ضد السلاجقة الذى انفرد بذكره المؤرخ البيزنطى كيناموس ، فقد نجد سندا له عندما قام نور الدين بمهاجمة السلاجقة عام ٥٥٦ هـ / ١١٦١ م،فى الوقت الذى كان فيه القتال دائرا بين السلاجقة والبيزنطيين (٤) . وعلى ما يبدو أن هذا الشرط كان شرطا سريا بين مانويل ونور الدين لأنه لو كان ذلك معروفا لدى الصليبيين لما قام الملك بلدوين بمهاجمة دمشق أثناء مهاجمة نور الدين لأملاك السلاجقة (٥) وبالاضافة إلى هذين الشرطين يرى بعض المؤرخين أنه ربما تم الاتفاق بين مانويل ونور الدين على قيام الأخير بمراقبة رينو صاحب أنطاكية نيابة عن الامبراطور

(١) أسر فى العريمة عام ١١٤٩ م . أنظر : Duggan, The Story of Crusades, p. 120

(٢) ابن الفرات : المصدر السابق جـ ٥ لوحة ١٣ ب .

(٣) Gregoire le Pretre, loc. cit.,

(٤) أنظر ما يلى ص .

(٥) William of Tyre, op. cit., II, p. 282.

مانويل ودليلهم على ذلك أنه عندما قام رينو بمهاجمة أملاك المسلمين الواقعة بين مرعش ودلوك وما ترتب على ذلك من وقوع رينو أسيرا فى أيدى قوات نور الدين عام ١١٦٠ م / ٥٥٥ هـ — وبقائه فى الأسر ستة عشر عاما ، لم يحرك الامبراطور مانويل ساكنا لاطلاق سراحه باعتباره من أتباع الأمبراطورية البيزنطية (١) . ويمكن القول حول عدم مسعى الامبراطور مانويل لاطلاق سراح رينو ، أن الامبراطور ارتاح من رينو ومتاعبه ورأى أن الأمر سيكون سهلا فى دعم النفوذ البيزنطى فى أنطاكية بعد غيبة رينو .

وبعد عقد الهدنة والافراج عن الأسرى وما صحبه من تبادل الهدايا عاد نور الدين إلى حلب واتخذت القوات المتحالفة وجهتها إلى أنطاكية (٢) . ويلاحظ أنه أثناء عودة مانويل وقواته قامت بعض القوات الاسلامية بمناوشة القوات البيزنطية ، وقد استاء الامبراطور من هذا التصرف ولكنه لم يقم بعمل ايجابى تجاه القوات الاسلامية لأنه كان يتعجل العودة إلى بلاده للوقوف على أمر المؤامرة التى وصلت إلى أسماعه لخلعه عن العرش (٣) .

ولقد ثار جدل كثير حول الجهد الضخم الذى تحملته القوى البيزنطية والصليبية الذى لم يسفر إلا عن اطلاق سراح الأسرى ، واعتبرت القيادة الصليبية أن الاتفاق مع نور الدين كان بمثابة اجهاض سريع لمثل هذا المشروع العظيم الذى عقدت عليه القوى الصليبية الآمال الكبار للقضاء على القوى

---

(١) حسن حبشى : المرجع السابق ص٨٧-٨٨. Runciman, op. cit., ; II, pp. 357—358.

(٢) استغرقت أحداث اتفاق الهدنة بين نور الدين ومانويل عشرة أيام اشتملت على العشر الأواسط من جمادى الأول ٥٥٤ هـ العشر الأوائل من شهر يونية عام ١١٥٩ م . **أنظر** : ابن القلانسى : المصدر السابق ٣٥٨ .

(٣) Cinnamus, op. cit., pp. 188—9.

الاسلامية متمثلة فى نور الدين . ويصور لنا المؤرخ جريجوار مدى الصدمة التى لحقت بالصليبيين عندما علموا برغبة الامبراطور فى الصلح فى الوقت الذى سارت فيه القوات المتحالفة كالأسود الجائعة لا يبالون بأى قوة تعترض طريقهم، ثم شبهها مرة أخرى بالنسور التى استعدت للانقضاض على جموع السمان وأن الصليبيين توسلوا إلى الامبراطور لقتال نور الدين وأوضحوا له أن الأمر لا يتطلب سوى ثلاثة أيام يتم بعدها القضاء على القوات الاسلامية ولكن مانويل لم يستجب إلى توسلاتهم واستمر فى خطته التى تهدف إلى مهادنة نور الدين (١) .

وقد اعتبر انسحاب مانويل من وجهة نظر البعض خيانة للقضية الصليبية ، وذكروا أن الامبراطور البيزنطى الأنانى ضحى بمصالح الصليبيين فى سبيل الحفاظ على عرشه (٢). وبالغوا فى المهانة التى لحقت بالقوات البيزنطية وشبهوها عند انسحابها بالأرانب وقللوا من قيمة الهدنة التى عقدها الامبراطور مع نور الدين وذكروا أن نور الدين غدر بهم وأنه لم يفرج إلا عن خمسين أسيرا فقط (٣). وعلى أية حال فاذا كان المسلمون قد ارتاحوا واطمأنت قلوبهم بعد عقد الهدنة (٤) ، فان هذه الهدنة كانت مشرفة للامبراطور مانويل الذى تمكن من اطلاق سراح حوالى ستة آلاف من الأسرى الصليبيين على الأقل دون إراقة دماء (٥) .

---

(١) Gregoire le Pretre, op. cit., pp. 190, 192.

(٢) Schlumberger, op. cit., p. 110.

(٣) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 192.

(٤) ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٣٥٨ . William of Tyre,. po. cit,. II, p. 282

(٥) Chalandon, op. cit., p. 455.

(٦) Ludlow, J., op., cit., p. 179.

وإذا كانت وجهة نظر الصليبيين فى حملة مانويل أنها لم تنجز الا القليل وهو تحرير الأسرى(١)، فان الامبراطور مانويل قد حقق الكثير للامبراطورية البيزنطية . فلقد تمكن من اخضاع الأمير الأرمينى ثوروس وأذل كبرياء الصليبيين متمثلا فى رينو أمير أنطاكية الذى دخل فى طاعة الامبراطور عندما شرب كأس المذلة والهوان وهو ما اعتبره الصليبيون عارا لم يسبق أن لحق بأمير صليبي من قبل . يضاف إلى ذلك أن مانويل نجح فى تحرير آلاف الصليبيين دون قتال.وبوسعنا أن نتصور ما عناه الصليبيون من ويلات الحروب وعدد القتلى الذين سقطوا من جانب المسلمين والصليبيين على مدى سنوات طويلة حتى يتم أسر ستة آلاف من الصليبيين ، وإذا كان الصليبيون قد تناسوا اغتصابهم لأراضى المسلمين وأنهم قد استغلوا خضوعهم للامبراطور مانويل ليدفعوه إلى قتال نور الدين (١) . فلعل الأمبراطور كان مدركا فى هذه الفترة على الأقل أن بقاء الصليبيين فى الأراضى المقدسة أمر مؤقت وان انقاذ الأسرى من أيدى المسلمين ميزة كبرى قدمها الامبراطور البيزنطى للصليبيين دون اراقة دماء . والدليل على ذلك هو أنه إذا كان الامبراطور مانويل لديه العذر فى الانسحاب من أمام القوات الاسلامية عند حوض نهر العاصى ، فان الامبراطور مانويل قد تراسل مع نور الدين وتبادلا الهدايا أثناء اقامته فى المصيصة (٢)، وقبل أن يصل إلى أسماعه بعدة أشهر أنباء المؤامرة على عرشه .

وكلمة أخيرة نضيفها بعد حملة مانويل على قيليقية والشام وهى أن مانويل وصل فى هذه المرحلة من عهده إلى أعلى مراحل السيادة البيزنطية على الأرمن والصليبيين وهو مالم يتيسر لامبراطور بيزنطى من قبله أو من بعده . كما أن

---

(١) Brook, op. cit., p. 482.,

(٢) ابن الفرات : المصدر السابق لوحة ١٣ أ .

مهادنته مع نور الدين ونجاحه فى تحرير آلاف الأسرى الصليبيين (١) ، كان من الخدمات الجليلة التى قدمها مانويل للصليبيين لم يتوصل اليها امبراطور بيزنطى آخر إبان الحروب الصليبية بأكملها .

وإذا كانت أخبار المؤامرة التى قامت فى القسطنطينية هى التى عجلت بعودة الامبراطور لذلك كان على مانويل العودة بأسرع وقت ممكن . وقد اتخذت القوات البيزنطية طريقها من أنطاكية إلى أرمينية ثم إلى سلوقية ، ومن هناك اتجهت إلى لارندا (٢) ورغم أنه طريق سهل إلا أنه محفوف بالمخاطر لأنه يمر عبر الأراضى السلجوقية ، ولعل ما دفع مانويل إلى المرور عبر هذا الطريق هو اعتماده على الصلح الذى عقده مع السلاجقة منذ أقل من سنة أو لعله إغتر بالنصر الذى أحرزه فى أرمينية والشام (٣) . ولما كان مانويل يتعجل الوصول إلى العاصمة فقد سارت القوات البيزنطية بغير انتظام مما شجع السلاجقة على مناوشة القوات البيزنطية ، وقد قام السلاجقة بهذا العمل اعتقادا منهم أن البيزنطيين أتوا لمحاربتهم ولكنهم عندما تبينوا عكس ذلك كفوا عن مناوشة الجيش البيزنطى ، وليس ذلك فحسب بل قدم السلاجقة للبيزنطيين كل التسهيلات الممكنة ووسائل الاعاشة اللازمة للقوات البيزنطية واستمر الجيش البيزنطى فى مسيرته حتى وصل إلى كوتيوم (٤) Cotyaum . وفى هذا المكان استغلت بعض القبائل السلجوقية تواجد بعض القوات البيزنطية

(١) Rey, op. cit., p. 373.

(٢) Cinnamus, op. cit., p. 190.

(٣) Schlumberger, op. cit., p. 113.

(٤) كوتيوم : هى مدينة كوتاهية الحالية وكان المؤرخون العرب يطلقون عليها أسم قطيه . أنظر : ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الامصار جـ ١ ص ٢٢٨ ، أنظر أيضا : لسترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٦٨ ، ١٨٦ .

التى كانت تسير بعيدة عن الصفوف الرئيسية للجيش — وانقضت عليها(١). وبالغ المؤرخ جريجوار فى تقدير مدى الخسائر التى لحقت بالقوات البيزنطية واعتبر ذلك انتقاما من الامبراطور مانويل لقيامه بعقد الصلح مع نور الدين وذكر أن السلاجقة قتلوا اثنا عشر ألفا من البيزنطيين واستولوا على عشرين ألف من الخيول والبغال (٢) . ومن الواضح أن مثل هذه الأرقام مبالغ فيها بشكل سافر ، ولكن يمكن القول أن الهزيمة التى لحقت بالقوات البيزنطية كانت قاسية (٣) جرحت كبرياء الامبراطور مانويل (٤) ، وترتب عليها عداء مرير بين الامبراطور البيزنطى مانويل والسلطان السلجوقى قلج أرسلان(٥).

ولما كانت خطة الامبراطور تستهدف العودة على وجه السرعة إلى العاصمة البيزنطية لذلك لم يدخل فى صراع مع السلاجقة فى هذا الوقت . واستمرت القوات البيزنطية فى مسيرتها حتى وصلت إلى القسطنطينية حيث احتفل بالنصر الذى أحرزه الامبراطور فى قيليقية وأنطاكية ، ولم تشر المصادر التى بين أيدينا إلى أية أنباء عن المؤامرة التى استهدفت خلع الامبراطور . وعلى ما يبدو أنها كانت من الأعمال الفردية التى لا وزن لها . والمهم أن الامبراطور بقى فى العاصمة يستعد للانتقام من السلاجقة (٦) . الذين اعتدوا على قواته وشوهوا النصر الذى عاد به من الشام .

لم يستمر بقاء الامبراطور مانويل طويلا بالعاصمة، ففى حوالى نهاية عام

---

(١) Cinnamus, loc. cit., Michel le Syrien. op. cit., p. 352.
(٢) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 192.
(٣) Frood, op. cit., p. 352.
(٤) Schlumberger, op. cit., p. 114.
(٥) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 193.
(٦) Cinnamus, op. cit., p. 191.

١١٥٩ م / أواخر عام ٥٥٤ ﻫ اتجه مانويل على رأس قواته لقتال السلاجقة الذين أنزلوا الهزيمة بقواته منذ قليل (١) ، واتخذ وجهته إلى اقليم بثينة حيث تقيم القبائل السلجوقية التى اعترضت طريق عودته عندما كان قادما من الشام. ولم يقدم لنا المؤرخ البيزنطى كيناموس المعلومات التاريخية حول هــذه الأحداث بل أفاض فى سرد البطولات التى ينسبها إلى الامبراطور مانويل ، وعلى أية حال لم تستمر هذه الحملة طويلا فسرعان ما عاد مانويل إلى القسطنطينية بسبب شدة برودة فصل الشتاء ومرض زوجته التى ما لبثت أن توفيت بعد عودته بقليل (٢) .

وحوالى ذلك الوقت يروى لنا المؤرخ كيناموس أيضا أن الامبراطـور مانويل قابل وفدا من قبل السلطان قلج أرسلان (٣) . ولم يعط لنا المـؤرخ تفسيرا لذلك . ولعل هذه السفارة قد قدمت لعقد الصلح مع الامبراطـور وعلى ما يبدو أن الشروط التى قدمتها السلاجقة لم تكن مقبولة للامبراطـور وعلى ذلك فقد أمر الامبراطور باعداد حملة عسكرية ضخمة لمهاجمة السلاجقة والواضح أن مانويل قد أراد بهذه الحملة الوصول إلى نتائج إيجابية لصـــالح الامبراطورية.وبذلك تتحقق له السيادة على السلاجقة كما سبق أن تحققت على الأرمن والصليبيين .

بدأ مانويل فى تعبئة القوات البيزنطية ، كما أرسل الأمير البيزنطى يوحنا

---

(١) Michel le Syrien, op. cit., pp. 352—3.

(٢) Cinnamus, op. cit., p. 194.

(٣) Ibid.

كونتوستفانوس (١) John Contostephanus إلى الأمير ثوروس وإلى كافة الزعماء الأرمن وكذلك إلى الأمير رينو والملك بلدوين يطالبهم بامداده بالوحدات العسكرية الملزمين بتقديمها للامبراطورية ، ولم يكتف الامبراطور مانويل بذلك بل عمل على جمع بعض القوات المرتزقة من جزيرة رودس قبل أن تأخذ طريقها إلى الأراضى المقدسة كما نجح مانويل فى ضم بعض القوات العربية إلى صفوف الحملة المرتقبة (٢) . ويروى ميخائيل السريانى أن الهدف من اعداد هذه الحملة كان القضاء على القوات السلجوقية (٣) .

لم ينتظر مانويل استكمال اعداد هذه الحملة وتعجل الحرب مع السلاجقة واتخذ مانويل وما اجتمع تحت يديه من قوات طريقه إلى مدينة فيلادلفيا وكان ظهور القوات البيزنطية عند هذه المدينة مفاجأة للسلاجقة لذلك نجح مانويل فى انزال الهزيمة بالقوات السلجوقية ، ولكن هذا النصر لم يستمر طويلا فسرعان ما أعاد السلاجقة تنظيم صفوفهم وتمكنوا من الاستيلاء على بعض الأراضى عند نهر المياندر ثم ما لبثوا أن هاجموا مدينة لاودكيا الغربية وأسروا جميع سكان هذه المدينة (٤) وظلت الحرب ضارية بين القوات البيزنطية والقوات السلجوقية (٥) . وعلى ما يبدو أن الامبراطور مانويل لم يتمكن من دفع السلاجقة ، وأن الهزيمة التى لحقت بقواته كانت قاسية لذلك قرر الانسحاب والعودة إلى العاصمة البيزنطية .

---

(١) أشار وليم الصورى إلى قدوم كونتوستفانوس ومعه مندوب بيزنطى آخر بغرض ترتيب أمر زواج الامبراطور مانويل من احدى الأميرات الصليبيات ولم يشر إلى المهمة الخاصة بطلب القوات . أنظر ما يلى ص ٢٦٥ — ٢٦٦ .

(٢) Cinnamus, op. cit., p. 199.

(٣) Michel le Syrien, op. cit., p. 353.

(٤) Cinnamus, op. cit., p. 198.

(٥) Michel le Syrien, op. cit., p. 353.

عاد الامبراطور مانويل إلى القسطنطينية وفكر فى استعمال سياسته القديمة وهى ضرب قوى المنطقة بعضها ببعض لذلك حرض آل دانشمند على قتال السلاجقة. وقدساعدت الظروف المحيطة بالسلاجقة وآل دانشمند على اشتعال الحرب بينهما فى أواخر عام ٥٥٦ هـ / حوالى أكتوبر ١١٦٠ م بعد وفاة ذو القرنين صاحب ملطية وتولى ابنه ناصر الدين محمد (٥٥٦ — ٥٦٧ هـ / ١١٦٠ ١١٧١ م) الحكم من بعده (١) . وعلى ما يبدو أن الطمع داخل نفس ياغى أرسلان صاحب سيواس يضاف إلى ذلك تحريض الامبراطور مانويل لذلك استولى ياغى أرسلان على مدينة ملطية (٢) ، ولما كان قلج أرسلان لا يرضى باتساع أملاك ياغى أرسلان وازدياد نفوذه هذا بالاضافة إلى ما كان من خلاف بين ياغى أرسلان وقلج أرسلان حول زواج الأخير (٣) ، لذلك قام قلج أرسلان بمحاربة ياغى أرسلان ، وفى الوقت نفسه قام نور الدين بمهاجمة أملاك السلاجقة، وقدتم ذلك على ما يبدو طبقا لاتفاقية الصلح التى عقدهامانويل مع نور الدين فى عام ١١٥٩ م . وقد تمكن نور الدين من الاستيلاء على بهنسى ورعبان وكيسون كما هاجم بعض المدن الأخرى (٤) .

كان ما وقع بين قلج أرسلان وياغى أرسلان ونور الدين هو ما يتمناه الامبراطور مانويل . ولم يكن فى استطاعة قلج أرسلان أو من الحكمة أن تقوم قواته بمحاربة مانويل وآل دانشمند ونور الدين فى وقت واحد ، لذلك جنح قلج أرسلان إلى الصلح وبدأ بالجانب الاسلامى . وتم الصلح بين نور

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ٤٤ .

(٢) Michel le Syrien, op. cit., p. 355.

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٢١٧ ، ابن خلدون : المصدر السابق جـ ٥ ص ١٦٦ .

(٤) William of Tyre, op. cit., II, p. 282.

الدين وقلج أرسلان ونتيجة لذلك استعاد السلاجقة المدن التى استولى عليها نور الدين (١). كما تم الصلح أيضا بين قلج أرسلان وياغى أرسلان وتم الاتفاق على تسليم السلاجقة مدينة الابلستين إلى ياغى أرسلان (٢).

وبعدما استقر الحال بين قلج أرسلان وياغى أرسلان ونور الدين بدأ قلج أرسلان فى تجديد عرض الصلح مع الامبراطور مانويل ، ولعل ما دفعه إلى ذلك هو أن الصلح الذى عقده منذ قليل مع آل دانشمند ونور الدين كان صلحا مزعزعا وكان قلج أرسلان يخشى من تجدد القتال مرة أخرى . لذلك كان عرض السلطان السلجوقى هذه المرة سخيا إلى حد ما فقد عرض قلج أرسلان اطلاق سراح جميع الأسرى البيزنطيين ثمنا لهذا الصلح (٣) . وعلى ما يبدو أنه خلال هـذه المفاوضات نجح يوحنا كونتوستفانوس — الأمير البيزنطى الذى اتجه إلى قيليقية والشام لجمع بعض الوحدات العسكرية — أثناء عودته من الشام ومعه الوحدات العسكرية التى جمعها - نجح فى انزال الهزيمة بالسلاجقة وجعلهم يلوذون بالفرار (٤) ، دون أن يدرى بأمـر المفاوضات الدائرة بين السلطان السلجوقى والامبراطور البيزنطى . وجاءت هذه الهزيمة فى مصلحة الامبراطورية البيزنطية وبدأ الامبراطور مانويل يتشدد فى شروط الصلح . وعلى ما يبدو أن السلطان قلج أرسلان كان عازما على عقد الصلح مع الامبراطور مانويل بأى ثمن ، ويرجع ذلك إلى عدم استقرار الأمور تماما بينه وبين ياغى أرسلان ونور الدين أو لأن الهزيمة التى لحقت

---

(١) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 194.

(٢) Michel le Syrien, op. cit., p. 353.

(٣) Cinnamus, op. cit., p. 200.

(٤) Cinnamus, op. cit., pp. 200—201.

بقواته مؤخرا كانت قاسية أو للسببين معا ، لذلك انتهت المفاوضات بتعهد قلج أرسلان باعادة الأراضى التى دخلها أخيرا وأن يحترم حدود الامبراطورية البيزنطية وأن يجبر اتباعه على تنفيذ هذا الشرط وأن يعتبر السلطان حليفا للأمبراطورية وعليه القيام بمساندة الامبراطورية فى حروبها ضد أعدائها ويزود الأمبراطور مانويل ببعض الوحدات العسكرية عند الحاجة وأخيرا أن يقوم السلطان قلج أرسلان بزيارة الامبراطور مرة كل عام (١) . وبهذه المعاهدة التى عقدت فى أواخر عام ١١٦١ م / أواخر عام ٥٥٧ هـ يمكن القول أن الامبراطور مانويل نجح نجاحا ملحوظا فى وقف التوسع السلجوقى فى آسيا الصغرى على حساب المتلكات البيزنطية بعد ما نجح فى بسط نفوذه من قبل على الصليبيين والأرمن .

عندما اتجه كونتوستيفانوس إلى الامارات الصليبية لجمع بعض الوحدات العسكرية لقتال السلاجقة كان الامبراطور مانويل قد كلفه بمهمة أخرى . فقد عهد اليه الامبراطور وإلى المبعوث البيزنطى الآخر الذى رافقه فى رحلته وهو ثيوفيلاكت Theophylact الايطالى الأصل الذى يشغل منصب كبير للمترجمين فى القصر الامبراطورى ، بتسليم رسالة للملك بلدوين . وقد أورد وليم الصورى نص هذه الرسالة وتتلخص فى أن الامبراطور مانويل أخبر الملك الصليبى بموت الامبراطورة ايرين (٢) . وأنها تركت له ابنة واحدة (٣) ،

---

(١) Cinnamus, op. cit., p. 201.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, pp. 287—8.

ويتهم المؤرخ ميخائيل السريانى الامبراطور مانويل بأنه دس السم لزوجته . أنظر

Michel le Syrien, op. cit., p. 355.

(٣) تدعى ماريا وتاريخ ميلادها يرجع إلى عام ١١٥٠ م فقد كانت فى الثلاثين من عمرها عند وفاة الامبراطور مانويل فى عام ١١٨٠ م . أنظر :

Finlay, op. cit., III, p. 196.

ولم تنجب له ذكرا ايرث الامبراطورية وأن عدم وجود وريث للعرش يثير له المخاوف ولذلك اجتمع الامبراطور ورجال البلاط وتشاوروا فى هـذا الأمر واستقر الرأى على أن يتزوج الامبراطور مانويل من أميرة صليبية لدعم التحالف البيزنطى الصليبي ، كما ورد فى الخطاب موافقة كافة النبلاءالبيزنطيين على ذلك وأن الامبراطور مانويل قد ترك الحرية للملك بلدوين فى اختيار واحدة من احدى بنات خالتيه وهما مليسند Melisend أخت ريموندالثالث كونت طرابلس وماريا Maria ابنه ريموند أف بواتيه وكونستانس أميرة أنطاكية (١) . ويتضح من هذا الخطاب عدة نقاط هامة يتطلب الأمر ابرازها لما لها من أهمية فى هذا البحث سواء فى هذا الموضع أو فى مواضع أخرى . أولا ، أن رجال البلاط والنبلاء البيزنطيين وافقوا على مشروع الزواج . ثانيا ، الرغبة فى مزيد من التحالف بين الصليبيين والبيزنطيين . وثالثا ، أن المقصود بالزواج انجاب طفل يصبح وريثا للعرش البيزنطى . وعلى ذلك يكون الامبراطور قد خطط لدعم النفوذ البيزنطى على الصليبيين لا فى عهده فقط بل من بعده أيضا .

وعلى أية حال لم يكن بوسع الملك بلدوين الا أن يعبر عن فرحته الشديدة للسفارة البيزنطية للشرف العظيم الذى أولاه إياه الامبراطور وبدأ فى العمل على تحقيق رغبة صهره السابق واللاحق . ولم يتصرف بلدوين بمفرده بل تباحث مع مستشاريه فى طلب الامبراطور مانويل وكان محور المفاوضات يدور حول أهمية هذه المصاهرة والنتائج التى تعود على الامارات الصليبية من جراء هذا التحالف ، وأخيرا استقر الرأى على ترشيح مليسند لتكون الامبراطورة المقبلة

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 288.

للامبراطورية البيزنطية وتم أبلاغ السفارة البيزنطية بذلك . وقد وافقت السفارة على الترشيح ولكنها تحفظت واشارت أن الكلمة الأخيرة فى هذه المسألة متروكة للامبراطور مانويل (١) .

وعلى هذا الاتفاق المبدئى تسرع الأمير ريموند فى أتخاذ كافة الترتيبات اللازمة التى تليق بمكانة الامبراطور وشاركه فى ذلك كافة أفراد العائلة . وظل العمل قائما على قدم وساق فى تجهيز العروس بكافة ما يلزمها ابتداء من الحلى والمجوهرات وأدوات المائدة الذهبية ولوازم الحمام حتى سرج الحصان . وأنفق ريموند أموالا طائلة على هذه التجهيزات . وقد ظلت السفارة البيزنطية لبعض الوقت فى الأراضى المقاسة قامت خلالها بجمع كافة المعلومات عن العروس ولم تترك صغيرة أو كبيرة إلا سجلتها حتى أنها دونت ما يتعلق بأوصاف جسم العروس ثم عادت إلى القسطنطينية (٢) . بعدما انتهت من جمع الوحدات اللازمة لقتال السلاجقة .

وحتى يرد رد الامبراطور انشغل ريموند باعداد اثنى عشر سفينة لتنقل العروس إلى القسطنطينية وقدمت الوفود من أنحاء الامارات الصليبية لتوديع الامبراطورة المقبلة (٣) . وهكذا انشغلت الامارات الصليبية كلها بأمر هذا الزواج سواء كان ذلك فى الاعداد أم فى الوداع دون أن يصل رد الامبراطور مانويل بموافقته الشخصية على الزواج . ومع مضى الوقت زاد قلق ريموند على مصير أخته مليسند .

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 288.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, pp. 288—9.

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 289.

ولكن هذا القلق ما لبث أن تبدد واستبشر ريموند خيرا بقدوم سفارة أخرى من القسطنطينية على رأسها الكسيوس برينيوس Alexius Bryennius ويوحنا كاماتروس John Camatros حاكم مدينة القسطنطينية (١) . وقد وصلت هذه السفارة إلى طرابلس ولكنها أعطت إجابات مراوغة حول موافقة مانويل على الزواج من مليسند مما جعل القلق يستبد بالأمير ريموند والملك بلدوين . ولما فقد صبر ريموند وبلدوين وكافة النبلاء من هذا التسويف طلبوا من السفارة أن توضح لهما أسباب هذا التأخير كما أبلغوا السفارة بأنه إذا كان مانويل غير راغب فى الزواج من مليسند فعليه أن يتحمل كافة المصروفات التى انفقت فى تجهيز العروس ولكن السفارة ظلت على مراوغتها ولم تعط اجابات صريحة . ولم يطق بلدوين وريموند وكافة الأمراء بعد ذلك صبرا وقرروا ايفاد مبعوث خاص للامبراطور للوقوف على حقيقة نواياه وكلفوا أوتو أف ريسبرج Otto of Risberg للقيام بهذه المهمة على ما يبدو فى صيف ١١٦١ م ، وزود هذا المبعوث بالصلاحيات اللازمة للحصول على قرار نهائى من الامبراطور ثم ما لبث أن عاد أوتو أف ريسبرج ومعه رسالة من الامبراطور تفيد بعدم موافقته على الزواج من مليسند (٢).

كان رد الامبراطور مانويل غير متوقع فى الدوائر الصليبية بصفة عامة كما كان صدمة للأمير ريموند. يضاف إلى ذلك أن الملك بلدوين اعتبره اهانة شخصية موجه إليه. ولعل ما دفع الامبراطور مانويل إلى ذلك بعض الاعتبارات التى تتعلق بالعروس نفسها وبعض الاعتبارات السياسية الأخرى . وبالنسبة

---

(١) Cinnamus, op. cit., p. 210.

(٢) William of Tyre, op. cit., p. 289.

للعروس فقد كانت معتلة الصحة إلى جانب ما يشاع عن عدم صحة نسبها (١)، رغم أن الحقيقة غير ذلك . كما أن مليسند لم تكن تتمتع بالقسط الوافر من الجمال الذى تتمتع به ماريا الانطاكية (٢) . أما فيما يتعلق بالجوانب السياسية فلعل الامبراطور البيزنطى كان يرى الزواج من الأميرة ماريا حتى يرسخ النفوذ البيزنطى فى الامارة وأن مانويل وضع فى أول الأمر حرية الاختيار للملك بلدوين بين الاميرتين حتى لا تظهر نوايا مانويل بوضوح فى امارة أنطاكية . ومن زاوية أخرى فلعل الملك بلدوين كان مدركا لنوايا مانويل لذلك رشح مليسند للزواج من الامبراطور حتى يبعد النفوذ البيزنطى عن أنطاكية (٣) . ويمكن القول أيضا أن كونستاس أميرة أنطاكية — والدة ماريا كانت ترغب فى السيطرة على زمام الأمر فى الامارة بعد أسر زوجها رينو وما شاهدته من تعلق أهل أنطاكية بالملك واستدعائه لتقرير أحوال الامارة ، وما تقرر من وضع امارة أنطاكية تحت وصاية بلدوين للحفاظ عن حقوق بوهمند الثالث فى الحكم ، على أن يساعده فى تصريف شئون الامارة البطريك ايمرى حتى يبلغ الأمير الصغير سن الرشد، لم يعجب الأميرة كونستانس هذا التعرف فاتصلت بالامبراطور البيزنطى مانويل (٤) ، توضح له الأمر وربما عرضت عليه ابنتها ماريا لتكون زوجة له . ولقد كان فى طلب كونستانس ما يتمناه الامبراطور مانويل فأعلن الزواج من ماريا . يضاف إلى ذلك أن الامبراطور البيزنطى كان يعمل على دعم النفوذ البيزنطى فى منطقة الشام من خلال الصراع القائم بين المسلمين والصليبيين وطالما بقيت الامارات الصليبية فى حالة من

---

(١) Cinnamus, op. cit., pp. 208, 210.

(٢) Nicetas, op. cit., p. 151; Archer & Kingsford, op. cit., p. 229.

(٣) Setton, op. cit., I, p. 546.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٧٨ .

الضعف لمواجهة القوات الاسلامية ، وأن رفض مانويل الزواج من مليسند وزواجه من ماريا سيعمل على زيادة الخلاف بين الصليبيين أنفسهم ، وفى هذا الخلاف منفذا للنفوذ البيزنطى إلى الامارات الصليبية .

عندما اجتاح الغضب امارة طرابلس لعدم موافقة الامبراطور على الزواج من الأميرة مليسند ، خاف الرسولان البيزنطيان من أن يلحق بهما الأذى على يدى ريموند فهربا فى قارب صغير وظن الملك بلدوين والأمير ريموند أنهما أبحرا إلى قبرص . وفى الوقت نفسه أتجه الملك إلى أنطاكية لتدبير بعض أمور الامارة . وكانت مفاجأة للملك عندما وجد المبعوثين البيزنطيين يتفاوضان مع الأميرة كونستانس بأمر زواج الامبراطور مانويل من ابنتها ماريا بعدما قدموا لها خطابا من الامبراطور يحمل المعنى نفسه(١) . والواضح أن السفارة كانت تحمل هذا الخطاب قبل قدومها للأراضى المقدسة أو أن رسولا بيزنطيا آخرا قد حمل لها هذا الخطاب فلم يكن بوسع السفارة الذهاب إلى القسطنطينية والعودة منها فى وقت قصير يساوى الزمن الذى استغرقه بلدوين فى الانتقال من طرابلس إلى أنطاكية ، كما يدل قيام الأميرة كونستانس على ادارة مفاوضات الزواج بنفسها على ما كان من فتور بين الأميرة والملك ، وأنها لا ترغب فى اشتراكه أو حتى الاستنارة برأيه فى مثل هذا الأمر العائلى . والواضح أن الأميرة كونستانس كانت غاضبة من الملك بلدوين لعدم ترشيح ابنتها للزواج من مانويل .

على أية حال لم يكن بوسع الملك بلدوين أن يعمل شيئا وكان عليه أن يتقبل الأمر الواقع فكل من مليسند وماريا ابنتى خالتيه ، ورغم أن بلدوين

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 290.

كان غاضبا من هذه الأحداث إلا أنه تصرف بما يقتضيه الواجب الانسانى حيال ماريا فلم يقم بأى عمل من شأنه أن يعرقل سير المفاوضات ووافق صاغرا على الزواج (١) ، وظل مشغولا لبعض الوقت حتى تمت اعداد الترتيبات اللازمة للعروس (٢).وفى نهاية الأمر رحلت ماريا ومعها المبعوثان البيزنطيات وحاشية عظيمة من النبلاء ، وبعدما وصلت العروس إلى القسطنطينية احتفل الامبراطور مانويل بزواجه من الأميرة الصليبية ماريا فى الخامس والعشرين من ديسمبر عام ١١٦١ م فى كنيسة أيا صوفيا (٣)،وحضر حفل الزواج لوقا بطريك القسطنطينية واثناسيوس بطريك أنطاكية (٤) الاسمى الذى لم يكن قد تسلم مهام منصبه بعد .

ترتب على هذا الزواج مزيداًمن النفوذ البيزنطى داخل امارة أنطاكية(٥) كما ترتب عليه أيضا أن الملك بادوين صهر الامبراطور البيزنطى مانويل قد شعر بقيمته الحقيقية لدى الامبراطور مانويل يضاف إلى ذلك غضب ريموند أمير طرابلس من تصرفات مانويل . ففى الوقت الذى اشتعلت فيه القناديل فى العاصمة البيزنطية احتفالا بزواج الامبراطور، كان ريموند يشعل نارا أخرى فى الممتلكات البيزنطية انتقاما من الامبراطور على رفضه الزواج من مليسند . ويروى وليم الصورى أن ريموند أمير طرابلس غضب غضبا شديدا لرفض الامبراطور الزواج من أخته مليسند ، دون أن يقدم أية أسباب مثلها فى

(١) William of Tyre, op. cit., p. 290.

(٢) Fabri, op. cit., Vol. 2, part I, p. 327.

أنظر أيضا : King, op. cit., p. 85.

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 290.

(٤) Cinnamus, op. cit., p. 211.

(٥) Stevenson, op. cit., p. 184.

ذلك مثل بنات العامة وأن ريموند فكر فى كل الوسائل التى يمكن أن ينتقم بها من الامبراطور رغم احساس ريموند بضعف امكانياته . وقد دفعه غضبه إلى جمع حفنة من الصعاليك والقراصنة وسلمهم السفن التى أعدها من قبل لنقل أخته إلى القسطنطينية ليحولوها إلى سفن حربية ، وعهد إلى هـؤلاء المرتزقة بتدمير وتخريب ما يقع تحت أيديهم وبصرهم من الممتلكات البيزنطية . وقد نجحت هذه المجموعة فى انزال أنشد أنواع الخراب والدمار بالسواحل البيزنطية — والأرجح أنها سواحل جزيرة قبرص أو الشاطىء الجنوبى لآسيا الصغرى — دون تفرقة بين السن والجنس ، فقد قامت هذه القوات بسلب كل هذه النواحى وأشعلوا فيها النار وذبحوا المواطنين البيزنطيين وانتهكوا حرمة الكنائس والأديرة وليس ذلك فحسب فقد اعتدوا على التجـــار الصليبيين وسلبوا أموالهم وتجارتهم واجبروهم على العودة إلى أوطانهم خالين الوفاض (١) ، ويعلق أحد المؤرخين على الجرائم التى ارتكبها ريموند بأنها كانت من الوحشية ولم يسمع بمثلها من قبل المسلمين (٢) . ورغم كل هذا لم يقم الامبراطور مانويل من جانبه بأى عمل لتأديب ريموند مثلما فعل مع رينو من قبل ولم يدخل فى صراع مع ريموند (٣) . ولعل مانويل كان مدركا لحقيقة شعور ريموند وأخته مليسند رغم أن مانويل لم يخطىء فى حقه فلم تبدر من مانويل أية بادرة تفيد موافقته الشخصية على الزواج . وعلى أية حال فقد اعتبر الامبراطور مانويل أن ما قام به ريموند كأنه لم يقع ، وقد شاركـــه المؤرخون البيزنطيون مانويل الشعور نفسه واعتقدوا أن مثل هذه الحادثة لا

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, pp. 291—2.

(٢) Finlay, op. cit., III, p. 186.

(٣) Richard, J., le Comte de Tripolisousla Dynastie Toulousaine, p. 30.

يستحق ذكرها ولم يسجلوها ، أو لعلها لم تكن بالقدر الذى سجله لنا وليم الصورى .

وإذا كان احتفال مانويل بالزواج من ماريا الانطاكية جاء فى أعقاب انتصاره على السلاجقة ليزيد من النفوذ البيزنطى على الصليبين ، فى أعقاب هذا الزواج قام السلطان السلجوقى قلج أرسلان بزيارة القسطنطينية — طبقا لشروط المعاهدة التى عقدت بين السلطان والامبراطور منذ قليل — ليزيد أيضا من النفوذ البيزنطى على السلاجقة . ولقد كان الدافع وراء تسرع السلطان فى زيارة الامبراطور ما تردد من شائعات حول مؤامرة يتزعمها ياغي أرسلان لخلع السلطان قلج أرسلان عن العرش وتوليه أخيه شاهنشاه بدلا منه(١) . والواضح أن قلج أرسلان حاول دعم مركزه فى السلطنة السلجوقية فى هذه الفترة بالتودد إلى الامبراطور مانويل لذلك أعطى هذا الأمر أهمية خاصة . وتولى أمر اعداد ترتيبات الزيارة بنفسه وطلب من حاجبه كريستوف Christophe ابلاغ الامبراطور برغبة السلطان . وبعد اعداد الترتيبات اللازمة أتجه قلج أرسلان ومعه أمير أميران — شقيق نور الدين — وبصحبته ألف فارس إلى العاصمة البيزنطية (٢) .

جاءت زيارة السلطان قلج أرسلان فى مرحلة هدوء نسبي للامبراطورية البيزنطية فى صراعها مع الغرب (٣) ، ولذلك كان لدى الامبراطور مانويل بعض الوقت لاستعراض عظمة الامبراطورية أمام السلطان السلجوقى (٤) .

---

(١) Michel le Syrien, op. cit., p. 355.

(٢) Michel le Syrien, op. cit., p. 355; Gregoire le Pretre, op. cit., p. 199.

(٣) عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٤٣ .

(٤) Michel le Syrien, op. cit., p. 355.

فقد اصطحب الامبراطور ضيفه فى موكب رسمي عبر شوارع العاصمة البيزنطية وتجلت المصادر البيزنطية فى وصف عظمة الامبراطورية وقصورها وكرسى العرش البيزنطى المغطى برقائق الذهب والمحلى بالياقوت الأحمر والارجوانى كما أفاضت أيضا فى الهيئة التى ظهر بها الامبراطور مانويل وهو يجلس بجانب السلطان فى احدى قاعات الاستقبال فى القصر الامبراطورى وقد وضع مانويل التاج الامبراطورى على رأسه وهو مرتديا العباءة الارجوانية المرصعة بالجواهر ويحلى صدره بياقوتة كبيرة الحجم (١) .

ظلت اقامة السلطان قلج أرسلان فى العاصمة البيزنطية حسب رواية المؤرخ ميخائيل السريانى حوالى ثمانين يوما . ولقد تخلل هذه الزيارة الطويلة العديد من الحفلات وأقيمت المآدب التى أظهرت بذخ الامبراطورية . ويروى المؤرخ نفسه أن الأطعمة كانت تقدم للسلطان ومرافقيه فى أوعية من الذهب والفضة وكانت كل هذه الأوعية تهدى للسلطان بعد الطعام وفى المرات التى تناول فيها السلطان الطعام مع الامبراطور قام الامبراطور باهداء كل أدوات المائدة للسلطان (٢) . كما قدم الامبراطور للسلطان خلال زيارته هدايا عظيمة اشتملت على الملابس الحريرية الدقيقة الصنع ومصنفات أخرى من الذهب والفضة كانت موضع أعجاب وانبهار السلطان قلج أرسلان(٣) : ومن طريف ما يروى حول هذه الهدايا أن الامبراطور مانويل قدم للسلطان قطعة من الذهب تصل فى ارتفاعها إلى ارتفاع قامة السلطان (٤) .

---

(١) عن ذلك ولمزيد من التفاصيل راجع :

Cinnamus, op. cit., pp. 204—5; Nicetas, op. cit., 154—6.

(٢) Michel le Syrien, op. cit., p. 355.

(٣) Nicetas, op. cit., p. 156.

(٤) Michel le Syrien, op. cit., p. 355.

وبعد هذا العرض السريع للاحتفالات التى أقيمت للسلطان والهدايا التى قدمها الامبراطور ، نلقى مزيدا من الضوء على النتائج السياسية التى نجمت عن هذه الزيارة . والحقيقة أن هذه الزيارة جاءت تنفيذا لمعاهدة ١١٦١ م وإذا كان السلطان قد تسرع فى القيام بها فيرجع ذلك إلى احساسه بأن الامبراطور مانويل ربما يكون وراء القلاقل التى يثيرها ياغى أرسلان ضد السلاجقة لذلك كان توجه قلج أرسلان إلى القسطنطينية بهدف قطع خط الرجعة على تحالف بيزنطى دانشمندى أو على الأقل وقف تشجيع الامبراطور لآل دانشمند على قتال السلاجقة من وراء ظهر السلطان ، ولعل ذلك ما يفسر لنا بقاء السلطان فترة طويلة بالعاصمة البيزنطية ليلمس بنفسه مدى اتصال آل دانشمند بالامبراطور أو أن هذه الزيارة كانت نوعا من التجسس على الامبراطور مانويل ومدى علاقته بياغى أرسلان والوقوف أيضا على مواطن الضعف والقوة فى الامبراطورية البيزنطية ، وربما يكون ذلك ما دفع بعض المؤرخين إلى تسمية قلج أرسلان بالسلطان الماكر (١) ، فهو لاشك قد وقف بنفسه أثناء هذه الزيارة على أسرار كثيرة من أسرار القصر الامبراطورى .

وعلى أية حال فقد سجل لنا المؤرخون اشارات لا بأس بها حول النتائج السياسية لهذه الزيارة فيروى المؤرخ جريجوار أن السلطان قلج أرسلان تعهد طوال حياته بالولاء والطاعة للامبراطور مانويل وأقسم على ذلك (٢) ، ويذكر ميخائيل السريانى أن الغرض من زيارة السلطان كان لطلب المساعدة والحصول على الأمان (٣) ، أما المؤرخ البيزنطى كيناموس فقد أشار أن

---

(١) عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٤٠ .

(٢) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 199.

(٣) Michel le Syrien, op. cit., p. 355.

السلطان تعهد بوقف الغارات التى تشنها القبائل السلجوقية على الأراضى البيزنطية واعادة المدن التى استولى عليهـا السلاجقة، وأن يعامل السلطان أعـداء الامبراطورية البيزنطية معاملة الأعداء وأن لا يعقد صلحا أو معاهدة إلا بعد موافقة الامبراطور، وأن يقدم للامبراطور بعض الوحدات العسكرية لمساندة الامبراطور فى حروبه فى الشرق والغرب ، وقد أقسم السلطان على ذلك كما أقسم الزعماء السلاجقة الذين رافقوا السلطان على أن يعملوا من جانبهم لضمان تنفيذ هذه الشروط وأن يجعلوا السلطان ملتزما بهذه المعاهدة (١).

والحقيقة أن كل ما رواه المؤرخون لم يتجاوز شروط معاهدة ١١٦١ م وأن ما اتفق من أموال الخزانة البيزنطية فى هذه الزيارة لا يتناسب اطلاقا مع النتائج التى عادت على الامبراطورية (٢) ، ورغم هذا فان هذه الزيارة قد أكدت عظمة الامبراطورية البيزنطية ومدى فرض نفوذها على السلاجقـة وآل دانشمند . والدليل على ذلك أنه بعد عودة السلطان قلج أرسلان إلى عاصمته قونية قدمت سفارة إلى الامبراطور مانويل من قبل ياغى أرسـلان صاحب سيواس وشاهنشاه شقيق قلج أرسلان تطلب من الامبراطور مانويل التوسط لدى السلطان السلجوقى فى عقد الصلح ولكن الامبراطور مانويل لم يجب السفارة إلى طلبها وأشار عليها بالاتصال بقلج أرسلان فى هذا الأمر (٣) . وإذا كان فى موقف الامبراطور البيزنطى ما يشير إلى أنه كان يعمل على اعلاء شأن حليفه السلطان السلجوقى أمام أخيه وياغى أرسلان . فان ذلك يعنى أيضا أن قلج أرسلان إذا وافق على عقد الصلح فعليه أولا أن يرجع للامبراطور

---

(١) Cinnamus, op. cit., p. 207.

(٢) Chalandon, op. cit., p. 466.

(٣) Cinnamus, op. cit., p. 208.

مانويل طبقاً للشروط التي تمت أثناء زيارة السلطان للقسطنطينية . وبذلك يكون الامبراطور مانويل قد نصب نفسه سيدا على السلاجقة بعد الولاء الذى قدمه السلطان قلج أرسلان وعلى آل دانشمند بعدما هرعوا اليه يطلبون وساطته فى الصلح مع حلفائه السلاجقة مثلما أصبح منذ قليل على الصليبيين والأرمن . وعلى أية حال فقد انتهت هذه الأحداث من تاريخ الامبراطورية البيزنطية بما يمكن أن نسميه فترة ذروة النفوذ البيزنطى فى الشرق فى عهد الامبراطور مانويل .

# الفصل الخامس

## فشل الخطط البيزنطية فى ضرب السلاجقة وغزو مصر

## (١١٦٣ – ١١٨٠ م / ٥٥٨ – ٥٧٦)

١ – سوء تصرف الحاكم البيزنطى فى أرمينيــة .

٢ – تحالف بيزنطى أرمينى صليبى ضد المسلمين عام ١١٦٤ م

٣ – زواج عمورى الأول من الأميرة البيزنطية ماريا عام ١١٦٧ م .

٤ – اتفاق البيزنطيين والصليبيين على غزو مصر عام ١١٦٨ م .

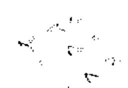
٥ – الحملة الصليبية على دمياط عام ١١٦٩ م .

٦ – زيارة الملك عمورى للامبراطور مانويل عام ١١٧١ م .

٧ – معركة ميريوكيفالون عام ١١٧٦ م ونتائجها .

٨ – مشروع حملة بيزنطية صليبية فى عام ١١٧٧ م .

٩ – تجدد الحروب بين السلاجقة وبيزنطة من عام ١١٧٧ – ١١٨٠ م.



تتميز هذه المرحلة من مراحل حكم الامبراطور البيزنطى مانويل —وهى المرحلة الأخيرة — بفشل الخطط البيزنطية فى ضرب السلاجقة وعدم امكان الامبراطورية البيزنطية من تنفيذ أطماعها فى مصر ، على العكس من المرحلة السابقة التى وصل فيها الامبراطور مانويل بالامبراطورية إلى ذروة النفوذ البيزنطى فى المنطقة . وقد تداخلت أحداث هذه الفترة وتشعبت واشتملت على كافة القوى الموجودة من الأرمن والصليبيين والسلاجقة والمسلمين فى مصر والشام .

وأول ما يطالعنا من أحداث فى هذه الفترة جاء من قبل أندرونيكوس الذى عينه الامبراطور مانويل حاكما على قيليقية فى عام ١١٥٩ م بعد خضوع الأمير ثوروس ، وقد أخذت هذه الأحداث وقائعها على ما يبدو فى شهر سبتمبر عام ١١٦٣ م / شوال ٥٥٨ هـ (١) . وحسب الروايات الأرمينية فقد قام أندرونيكوس بقتل ستيفانى أخى الأمير ثوروس ، وقد اختلفت هذه الروايات فى الطريقة التى قتل بها أندرونيكوس ستيفانى وفى النتائج التى ترتبت عليها ، فيذكر المؤرخ جريجوار أن ستيفانى مات نتيجة خيانة الدوق — أندرونيكوس — ويضيف أن ستيفانى مات خنقا وقام اخواه ثوروس ومليح بالانتقام من البيزنطيين بقتل عدة آلاف (٢) ، وفى رواية أخرى يروى

(١) أشار وليم الصورى أن عمورى كان فى مصر فى هذا الوقت أنظر :
William of Tyre, op. cit., II, p. 345.
وقد قام عمورى بأربع حملات على مصر الأولى عام ١١٦٣ م والثانية ١١٦٤ م والثالثة ١١٦٧ م والرابعة عام ١١٦٨ م ، أنظر : محمود سعيد عمران : حملة جان دى برين الصليبية على مصر ص٤٩—٥٩ ، كما قام عمورى بالتحالف مع البيزنطيين بحملة عام ١١٦٩ م أنظر ما يلى ص٣٠١ وما بعدها. وعن تحديد التاريخ أنظر :
William of Tyre, op. cit., II, p. 302.

(٢) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 198.

سمباد أن البيزنطيين اعتقلوا ستيفانى وقذفوا به فى قدر مغلى فمات وخلف وراءه ولدين هما روبان Roupen وليو Leo ، وقد قام ثوروس وأخوه مليح بالانتقام من البيزنطيين وتمكن ثوروس من الاستيلاء على طرطـوس والمصيصة وعين زربةوفاهجة (١). ويذكر مؤرخ أرمينى آخر أن أندرونيكوس قبض على ستيفانى غدرا وقتله وقد أخذ ثوروس أولاده روبان وليو وأضفى عليهما حمايته وبدأ فى الانتقام من البيزنطيين لمقتل أخيه فقتل عددا كبيرا منهم وهرب من تمكن من الهرب وبذلك استولى على مناطق كثيرة (٢) . أما المؤرخ ميخائيل السريانى فقد سجل لنا أن أندرونيكوس حاكم قيليقية استضاف ستيفانى على مائدته ثم قام بقتله غدرا كما قتل من كان معه . لذلك غضب ثوروس وقام بقتل عشرة آلاف من البيزنطيين ، ولم يكن أمام أندرونيكوس سوى الهرب إلى ملك بيت المقدس عمورى الأول Amalaric I (١١٦٣ — ١١٧٤ م / ٥٥٩ — ٥٧٠ ﻫ) وحاول أن يبرىء نفسه من التهمة ورجاه فى عقد الصلح بينه وبين الأمير ثوروس ووعد بارضاء ثوروس وتعويضه ببعض الأموال وقد نجح عمورى فى عقد الصلح بينهما وتوقف ثوروس عن الانتقام من البيزنطيين (٣) .

ويتضح من الروايات الأرمينية أن ثوروس ألقى مسئولية قتل أخيه ستيفانى على عاتق أندرونيكوس وأنه قام بقتل آلاف البيزنطيين انتقاما لأخيه وأنه استولى على بعض المدن وأخيرا هروب أندرونيكوس من قيليقية . والواضح أن أندرونيكوس يعتبر مسئولا فعلا عن قتل ستيفانى . أما قيام ثوروس بقتل

---

(١) Gempad, op. cit., p. 621; Vahram d'Edesse, op. cit., op. p. 507.

(٢) Guiragos de Kantzag, op. cit., p. 416.

(٣) Michel le Syrien, op. cit., p. 355.

آلاف البيزنطيين والاستيلاء على المدن فهو أمر مبالغ فيه بصورة واضحة ، وربما يكون ما حدث هو نوع من التمرد أو الفتنة المحدودة . وعلى أية حال فان هذه الحادثة قد سببت ازعاجا للأمبراطور مانويل ، فى الوقت الذى أسرع فيه عمورى بعد عودته من مصر (١) للقضاء على الفتنة التى قامت فى قيليقية قام الامبراطور مانويل بعزل أندرونيكوس وعين مكانه حاكما آخر هو قسطنطين كولمان Constantin Coloman حاكما على قيليقية(٢) . وعلى ما يبدو أن هذا التصرف من قبل مانويل قد أرضى ثوروس وربمايكون الامبراطور قد عوضه أيضا ببعض الأموال كعادته وهدأت الأحوال فى قيليقية وعادت إلى ما كانت عليه بدليل ما نراه من تعاون البيزنطيين والأرمن والصليبيين فى قتال المسلمين فى العام التالى (٣) .

أما أندرونيكوس فقد غادر قيليقية وأتجه إلى الشام ومعه حامية كبيرة من الفرسان وظل فى بيت المقدس حتى عودة الملك عمورى من مصر ، وقد منحه عمورى مدينة بيروت اقطاعا له ، ثم ما لبث أن ارتبط بعلاقات آثمة مع ثيودورا أرملة الملك بلدوين الثالث التى آلت إليها مدينة عكا وهرب معها إلى دمشق ثم تجولا فى بلاد المسلمين (٤) ثم انسحبا من الحياة وقنعا بالاقامة فى

---

(١) كان عمورى قد حاصر الفرما ولكن ضرغام تصدى له وأجبره على الانسحاب أنظر :
William of Tyre, op. cit., II, p. 302; Vitry, op. cit., p. 97.

ولمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة أنظر :
Schlumberger, G., Campagnes de Roi Amaury I, pp. 36—46.

(٢) Cinnamus, op. cit., p. 227.

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٣٠٣ ، Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 153.

(٤) William of Tyre, op. cit., II, pp. 345—6; Michel le Syrien, op. cit., p. 361.

اقليم بنطس . ولم تمكن أندرونيكوس فى عام ١١٨٣ من الدخول إلى القسطنطينية وتولى عرش الامبراطورية حتى عام ١١٨٥ م (١) .

وكما ساند الملك عمورى الامبراطور مانويل أثناء تمرد ثوروس ، فان الامبراطور مانويل ساند بدوره الصليبيين فى حروبهم ضد نور الدين، وترجع هذه الأحداث إلى عام ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ — ١١٦٤ م عندما قام نور الدين بالتوجه على رأس قواته إلى حصن الأكراد (٢) بغرض منازلة طرابلس (٣) . ولعل ما شجع نور الدين على مهاجمة طرابلس هو احساسه بالنفور القائم بين ريموند الثالث أمير طرابلس والامبراطور مانويل بعد ما قام ريموند بمهاجمة الاملاك البيزنطية لرفض مانويل الزواج من أخته مليسند . وعلى أية حال فقد فوجىء نور الدين بالقوات الصليبية على مقربة منه ، وتضيف المصادر العربية أن كولمان حاكم قيليقية انضم إلى الصليبيين فى هذه المعركة ، والواقع أن كولمان انضم إلى القوات الصليبية فى مرحلة لاحقة (٤) ، والمهم أن القوات الاسلامية هزمت فى هذه المعركة وتمكن نور الدين من النجاة بأعجوبة (٥) . وعاد نور الدين بعد هذه المعركة إلى حمص وأخذ يستعد لملاقاة الصليبيين وفى

---

(١) عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٥٣ .

(٢) حصن الأكراد : حصن منيع على جبل الجليل المتصل بجبل لبنان ويقع بين بعلبك وحمص من جهة الغرب . ياقوت الحموى : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٦ وكانت قلعة هذا الحصن تابعة للفرسان الاسبتارية وهى قلعة منيعة تحميها الأبراج وتحوطها الخنادق ، ولها سوران يحدقان بها وقد استولى عليها الاسبتارية عام ١١١٠ م واستعادها الظاهر بيبرس عام ١٢٧١ م. راجع : أبو الفدا : تقديم البلدان ص ٢٥٩ .

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١١٦ .

(٤) أنظر ما يلى ص ٢٨٦ .

(٥) العينى : المصدر السابق ج ١٦ لوحة ٣٥٤ ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢٩٥ ، ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ٣١٣ ، ابن كثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ٢٤٦ .

الوقت نفسه استعد الصليبيون أيضا لمحاربة نور الدين وقصدوا مدينة حمص ولما علموا بوجود نور الدين بالمدينة خافوا واعتقدوا أن لدية من القوات ما يكفى لهزيمتهم لذلك أرسلوا إلى نور الدين يسألونه الهدنة ولكنه لم يجبهم، لذلك عادوا إلى بلادهم بعدما تركوا حامية عند حصن الأكراد (١) .

واستعد نور الدين بكل قواته كما أرسل فى طلب النجدة من أخيه قطب الدين فى الموصل وقرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا ونجم الدين ألب أرسلان صاحب ماردين وغيرهم من أصحاب الأطراف الاسلامية يدعوهم إلى مساعدته على الجهاد ضد الصليبيين (٢) ، وكانت وجهة القوات الاسلامية فى هذه المرة إلى حارم التى تقع على بعد عشرة أميال من أنطاكية من الجهة الشرقية (٣) ، وكان السبب فى قيام نور الدين بالهجوم على الصليبيين هذه المرة هو أن عمورى قاد جيشه للهجوم على مصر للمرة الثانية (٤) ، فأراد نور الدين مهاجمة أملاك الصليبيين ليخفف الضغط على مصر ويضطر الصليبيين للعودة إلى بلادهم وانقاذها من الهجمات الاسلامية (٥) . ومما تجدر الاشارة إليه أنه فى ذلك الوقت كان الصراع على أشده بين نور الدين والملك عمورى على امتلاك مصر بعدما ازدادت أحوال الخلافة الفاطمية سوءا بمقتل

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١١٨ .

(٢) ابن واصل : المصدر السابق ج ١ ص ١٤٣ — ١٤٤ ، ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ٣١٥ ، ٣١٨ .

(٣) Vitry, op. cit., p. 94.

(٤) لمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة أنظر : عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ١٧١ — ١٧٣ ، سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٨٢ — ٦٨٤ ، محمد مصطفى زيادة : حملة بولس التاسع على مصر ص ١٢ — ١٤ .

(٥) ابن واصل : المصدر السابق ج ١ ص ١٤٣ ، ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ٣١٨ .

الوزير ابن رزيك وابنه وحلول شاور حاكم الصعيد فى الوزارة وصراعه مع حاجبه ضرغام (١) .

قام نور الدين بمهاجمة حارم ، وفى الوقت الذى كان فيه رينوأف سانت فالبرى Reynald of Saint Valery صاحب حارم يستبسل فى الدفاع عنها انضم اليه بوهمند الثالث صاحب أنطاكية وريموند الثالث كونت طرابلس والأمير الأرمينى ثوروس وقنسطنطين كولمان حاكم قيليقية البيزنطى لمساندته ضد نور الدين (٢) ، وعلى ما يبدو أنه كانت هناك نية سابقة لمهاجمة المسلمين قد أعدت من قبل وأن الملك عمورى اشترك فى اعداد هذه القوات قبل القيام بحملته على مصر بدليل ما نراه من اصطحاب عمورى لبعض القوات البيزنطية أثناء عودته من قيليقية (٣) بعد القضاء على الفتنة التى أعقبت مقتل ستيفانى . أو أن عمورى أحضر هذه القوات للدفاع عن الامارات الصليبية أثناء غيابه فى مصر ، ومن الواضح أن كولمان لم يشترك فى مساندة الصليبيين إلا بعدموافقة الامبراطور مانويل الذى أمده ببعض القوات البيزنطية (٤) .

وعند هذه الامدادات نتوقف قليلا لايضاح أن انضمام كولمان وثوروس إلى الجانب الصليبي يدل على عدم وجود نفور بين الأرمن والبيزنطيين بسبب مقتل ستيفانى يضاف إلى ذلك أن تقدم كولمان للدفاع عن حارم وهى من ممتلكات امارة أنطاكية ما يدل على اهتمام البيزنطيين بأمر أنطاكية باعتبارها واقعة تحت السيادة البيزنطية كما أن وجود القوات البيزنطية فى المعركة إلى

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١١ ص ٢٩٠.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 307.

(٣) Gregoire le Pretre, op. cit., p. 199.

(٤) Vitry, op. cit., p. 94.

جانب قوات طرابلس بقيادة ريموند الثالث ما يشير إلى أن حادثة مهاجمة ريموند للأملاك البيزنطية فى عام ١١٦١ م لم تترك أى أثر فى نفس الأمبراطور مانويل (١) .

كان التقاء القوات الاسلامية بالقوات المتحالفة عند حارم فى أوائل شهر أغسطس عام ١١٦٤ م / أواسط شهر رمضان عام ٥٥٩ ﻫ ، ولما وجد نور الدين ضخامة القوات المتحالفة التى قدرها ابن الجوزى بحوالى ثلاثين ألفا (٢) وأنه يحارب أربعة أمراء فى وقت واحد يقودون قوات صليبية وأرمينية وبيزنطية (٣) انسحب إلى قرية «عم» بالقرب من حارم وطمع فى أن تتبعه القوات المتحالفة فيتمكن منهم لبعدهم عن بلادهم ولكن القوات المتحالفة لم تتبعه وعادت إلى حارم فتبعهم نور الدين فى عساكره لقتالهم (٤) ، ويشير المؤرخ السريانى المجهول أن الأمير ثوروس نصح الأمراء الآخرين بعدم القتال والانتظار حتى يعود عمورى من مصر ولكنهم لم يأخذوا بالنصيحة لذلك هرب ثوروس من المعركة (٥) .

وعندما تقاربت القوات الاسلامية والقوات المتحالفة واصطفت للقتال حملت القوات المتحالفة على ميمنة القوات الاسلامية وكان فيها عسكر حلب وعسكر حصن كيفا فانهزم المسلمون(٦) . وعلى ما يبدو أن القوة التى هاجمت الميمنة كانت بقيادة قنسطنطين كولمان وقد أشارت إليه المصادر الاسلامية

(١) Richard, J., le Comte de Tripoli, p. 30.

(٢) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٤٧ .

(٣) Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 153.

(٤) ابن واصل : المصدر السابق جـ ١ ص ١٤٥ .

(٥) A.S.C., op. cit., p. 304.

(٦) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٣٠٢ — ٣٠٣ .

باسم «الدوقس الرومى» وأنه كان أشدهم على المسلمين (١) . ولكن المعركة ما لبثت أن تحولت لصالح المسلمين عندما قام الأمير زين الدين على كوجك وعساكر الموصل بالانقضاض على القوة البيزنطية وأنزل فيهم القتل والأسر الأمر الذى دفع الذى دفع المؤرخ جاك دى فترى إلى اتهام القوات البيزنطية بالجبن ووصفها بأنها عناصر غير محاربة (٢) ، والمهم أن المسلمين تشجعوا بهذا النصر وأحاطوا بالقوات المتحالفة من كل جانب واشتدت رحى الحرب حتى انتهت بهزيمة القوات المتحالفة بعدما قتل منها عدد كبير قدرته بعض المصادر بعشرة آلاف فارس وراجل (٣) ، كما وقع فى أسر المسلمين كل من بوهمند أمير أنطاكية وريموند كونت طرابلس وجوسلين الثالث، وهيو أف لوزجنان Hugh of Lusignan (٤)، وحاكم قيليقية البيزنطى قنسطنطين كولمان (٥) . ولم ينج من الأسر من القادة المتحالفين سوى الأمير ثوروس الذى هرب من ساحة المعركة بعدما تبين له عدم جدوى مقاومة المسلمين (٦) . وقد قيد هؤلاء القادة بالسلاسل وساروا إلى حلب مع بقية الأسرى الذين بلغ عددهم حوالى ستة آلاف (٧) .

كانت الهزيمة التى حلت بالقوات المتحالفة هزيمة ساحقة واعتبرت من

---

(١) ابن العديم : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣١٣ .

(٢) Vitry, op. cit., p. 94.

(٣) ابن الجوزى : ملخص تاريخ الأسلام (مخطوط( ورقة ٥٩٣ ، ابن العديم المصدر السابق جـ٢ ص ٣٢٠ ، ابن كثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢٤٨ ، ابن واصل جـ ١ ص ١٤٥ ، أبو شامة جـ ١ ص ١٣٣ ، العينى : المصدر السابق جـ ١٦ لوحة ٢٦٣ ،

(٤) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ص ١٤٧ ، William of Tyre, op. cit., II, p. 308;

(٥) Cinnamus, op. cit., p. 216; Michel le Syrien ,op. cit., p. 359.

(٦) A.S.C., p. 304.

(٧) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٤٧ .

أعظم الكوارث التى حلت بالقيادة الصليبية الشمالية (١)؛ وترتب عليها نتائج متعددة منها ، أن المسلمين تشجعوا بهذا النصر فتقدموا لمهاجمة حارم واستولوا عليها بعد عدة أيام وسقطت فى أيدى القوات الاسلامية فى الحادى والعشرين من رمضان ٥٥٩ هـ / الثانى عشر من أغسطس عام ١١٦٤ م (٢) ، كما نجحت القوات الاسلامية فى الاستيلاء على بانياس بعد حوالى شهرين ، الأمر الذى أرغم القوات الصليبية التى كان يقودها عمورى فى مصر على الانسحاب والعودة إلى الشام لانقاذ بانياس ولكنها وصلت بعد فوات الأوان(٣). وهكذا نجح نور الدين فى الاستيلاء على حارم وبانياس واجبار الصليبيين على الانسحاب من مصر .

كما ترتب على هذه المعركة نتيجة أخرى توضح لنا مدى النفوذ البيزنطى فى أنطاكية ، فرغم الانتصارات التى أحرزها نور الدين مما جعل الطريق مفتوحا إلى أنطاكية خاصة بعد أسر بوهمند ، الا أن نور الدين لم يجازف بمهاجمة المدينة لا لعجزه عن الاستيلاء عليها وانما لخوفه من الامبراطور البيزنطى مانويل ، ومصداق ذلك أن أصحاب نور الدين أشاروا عليه بالسير إلى أنطاكية لملكها لخلوها ممن يحميها فلم يوافق وقال «أما المدينة فأمرها سهل ، وأما القلعة التى لها فهى منيعة ولا تؤخذ الا بعد حصار طويل . وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلموها إليه ، ومجاورة بوهمند أحب إلى جوار ملك الروم» (٤) .

---

(١) King, op. cit., p. 90.

(٢) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٤٧. William of Tyre, op. cit., II, p. 308.

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١١ ص ٣٠٤ .

(٤) العينى : المصدر السابق جـ ١٦ لوحة ٣٦٥ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٢٥ .

ولقد كان نور الدين بعيد النظر عندما رفض مهاجمة أنطاكية ، ذلك لأن البيزنطيين كانوا لا يرضون بأى تدخل فى أنطاكية حتى ولو جاء من قبل الصليبيين أنفسهم ، ذلك أنه بعد عودة عمورى من مصر اتجه إلى أنطاكيـة لتدبير أمورها ،ولعله كان طامعا فيها ،ولكن البيزنطيين لميرضوا عن تدخل عمورى فى شئون أنطاكية وقدمت سفارة بيزنطية لتسأله عن أسباب وجوده فى المدينة ، ولكن عمورى كان لبقا وأشار أن ذلك بسبب اعـــداد سفارة لارسالها إلى القسطنطينية بغرض الزواج من احدى الأميرات البيزنطيات (١). وهكذا حسم عمورى الأمر ، كما يتضح من رد الملك الصليبى تودده للامبراطورية البيزنطية . ولعل ذلك ما دفع عمورى إلى الشكوى إلى الملك لويس السابع من تدخل البيزنطيين فى أنطاكية (٢) .

وعن النتائج التى جاءت من قبل الأسرى فيمكن القول أنه إذا كانخوف نور الدين من الامبراطور مانويل جعله لا يوافق على مهاجمة أنطاكية ، فان هذا الخوف أيضا دفعه إلى اطلاق سراح قنسطنطين كولمان مقابل مائـة وخمسين ثوبا من الحرير (٣) . . أما فيما يتعلق بالأسرى الأرمن فيروى ميخائيل السريانى أن الأمير ثوروس أرسل إلى نور الدين بعض الهدايا مقابل اطلاق سراح الأسرى الأرمن ،ولكن نور الدين رفض هذا العرض الأمر الذى دفع ثوروس إلى مهاجمة مدينة مرعش ونهبها وأسر العديدمن المسلمين ،وعندذلك تحول نور الدين إلى المصالحة وتبودلت الأسرى (٤) .

وعن فك أسر الأمير بوهمند صاحب أنطاكية فقد ذكر المؤرخ ولـيم

---

(١) Cinnamus, op. cit., pp. 237—8.

(٢) Amalric I, letter to louis VII, cf., R.H.G.F., XVI, p. 39.

(٣) Cinnamus, op. cit., p. 216.

(٤) Michel le Syrien, op. cit., p. 359.

الصورى أن الصليبيين عملوا على اطلاق سراحه بعد دفع الفدية وبعد مضى حوالى سنة من وقوعه فى الأسر (١) ، ويضيف ميخائيل السريانى أن بوهمند اتجه إلى القسطنطينية فور الحصول على حريته وعاد محملا بالهدايا ومعه البطريك البيزنطى الأرثوذكسى أثناسيوس ليكون بطريكا على أنطاكية (٢) . ورغم ذلك فالباحث يرى أن الامبراطور مانويل كان له دور فى اطلاق سراح بوهمند بدليل ما نراه من وجود سفارة بيزنطية فى أنطاكية عقب أسر بوهمند وقد استفسرت هذه السفارة عن سبب تواجد عمورى فى أنطاكية ، ويعنى ذلك أن بقاء عمورى فى المدينة أمر غير مرغوب فيه من قبل الامبراطورية البيزنطية، فى الوقت الذى لا نجد فيه مثل هذه السفارة عقب أسر رينو أف شاتيون والذى كان لا يزال أسيرا حتى هذا الوقت (٣) ، كما أن استفسار السفارة عن أسباب وجود عمورى فى الامارة يعنى أمرا آخر ، وهو أن أنطاكية لا تتبع الملك عمورى وليس له حق التدخل فى الامارة ويكون ذلك استنادا إلى أمرين أولهما ، اما أن تضع الامبراطورية البيزنطية يدها على الامارة وهذا يتطلب قدوم بعض القوات البيزنطية لتحقيق هذا الغرض وتأكيد السلطة البيزنطية على أنطاكية وهو ما لم يحدث ، والأمر الثانى أن بوهمند عائد إلى الامارة عن قريب ولا داعى لوجود عمورى . وإذا كان ذلك ما يتعلق بموقف البيزنطيين والصليبيين من اطلاق سراح بوهمند فانه استكمالا لهذه القضية يتطلب الأمر القاء الضوء على موقف نور الدين من فك أسر بوهمند . وقد صور لنا المؤرخ وليم الصورى ، موقف نور الدين خير تصوير فروى أن نور

---

(2) William of Tyre, op. cit., p. 311.

(3) Michel le Syrien, op. cit., p. 359.

(٤) بقى رينو فى الأسر من عام ١١٦٠ — ١١٧٥ م .

الدين لم يتعود على اطلاق سراح الزعماء بعد وقت قصير ، وأن اطلاق سراح بوهمند يرجع إلى بعد نظر ورجاحة عقل نور الدين ، وأن ذلك يرجع إلى خوف نور الدين من تدخل القوات البيزنطية أو أن نور الدين رأى اعادة بوهمند ليحكم أنطاكية حتى لا يحل محله فى الامارة أمير آخر من بين الأمراء الأقوياء فيشكل خطورة على الممتلكات الاسلامية (١) . وبذلك بات من الواضح أن النفوذ البيزنطى كان له أكبر الأثر على تصرفات نور الدين فى مجرى هذه الحوادث ، فالنفوذ البيزنطى حال دون تقدم نور الدين لمهاجمة أنطاكية و . كان له أثره الواضح فى اطلاق سراح قنسطنطين كولمان ، كما أن اطلاق سراح بوهمند يرجع فى معظم جوانبه إلى الامبراطور مانويل .

تبقى من هذه القضية نتيجتان : النتيجة الأولى تتعلق بالناحية الاقتصادية ، وهى أن نور الدين أطلق سراح بعض الأسرى الصليبيين مقابل بعض الأسرى المسلمين (٢) . أما البقية الباقية فقد بلغت حصيلة الفدية ستمائة ألف دينار وقد استغلها نور الدين فى بناء المدارس والروابط والمستشفيات وما شابه ذلك (٣) . أما النتيجة الثانية فتتعلق بالنفوذ الدينى فى أنطاكية ، ذلك أن بوهمند عاد من القسطنطينية ومعه البطريك الأرثوذكسى أثناسيوس الأمر الذى أغضب البطريك الكاثوليكى ايمرى الذى احتج على هذا العمل والتجأ إلى قلعة القصير (٤) . وقد أغضب ذلك أيضا رجال الدين طوال فترة بقائه فى بطريكية أنطاكية (٥) . كما احتجوا أيضا على هذا العمل وأيدهم البابا اسكندر الثالث Alexander III

---

(١) William of Tyre, op. cit., p. 311.

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٣٥ .

(٣) ابن الجوزى : المصدر السابق ج ٨ ص ٢٤٨ .

(٤) Michel le Syrien, op. cit., p. 360.

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور : المصدر السابق ج ٢ ص ٦٨٦ .

(١١٥٩ — ١١٨١ م) والقوى المسيحية فى الغرب ، وقد ظل أثناسيوس فى أنطاكية حتى عام ١١٧٠م عندما مات من أثر الزلزال التى اجتاح المدينة ولم يعين بطريكا أرثوذكسيا خلفا له (١) . وكلمة أخيرة نسجلها حول هذا التحالف الصليبي الأرمينى البيزنطى هى أن هذه المعركة كانت آخر معركة على أرض الشام تشترك فيها القوات البيزنطية فى عهد الامبراطور مانويل ، ورغم النهاية الفاشلة التى منيت بها الا أنها توضح لنا أثر النفوذ البيزنطى على حكام الشام المسلمين والصليبيين .

والواضح أن الملك عمورى كان أول من يعلم بما للامبراطورية البيزنطية من نفوذ فى منطقة الشام بصفة خاصة والشرق بصفة عامة ، فهو ليس غريبا عن المنطقة وكان يدرك تماما مدى المزايا التى عادت على الامارات الصليبية من جراء مساندة الامبراطورية البيزنطية للصليبيين خاصة فى عهد أخيه بلدوين بعد تصاهره مع الامبراطور مانويل ، ولقد كان شعور عمورى بهذه الحقيقة فى هذا الوقت بالذات نظرا لحاجته إلى مساندة خارجية خاصة ، وأنه منذ عودته من مصر فاشلا بعد حملته الثانية وفكرة العودة اليها لا تغيب عن باله ، وأيقن أنه لا يستطيع القيام بمثل هذا العمل بمفرده لموقف نور الدين من حملاته على مصر .

واتجه عمورى إلى الامبراطورية البيزنطية وسعى إلى الزواج من احدى الأميرات البيزنطيات بأمل تقوية الروابط بين الصليبيين والبيزنطيين ، وليجد فى الامبراطورية البيزنطية سندا له على نور الدين . وبدأ فى تنفيذ فكرته فى عام ١١٦٥ م / ٥٦٠ — ٥٦١ هـ أى بعد عام من معركة حارم وأعد سفارة

(١) Michel le Syrien, op. cit., p. 371.; Setton, op. cit., I, p. 554.

للتوجه إلى القسطنطينية بغرض عرض أمر هذا الزواج، وتكونت السفارة من هرنسيوس Hernesius رئيس أساقفة قيسارية ويودس أف سانت أماند Eudes of Saint-Amand ، وقد ظلت هذه السفارة فى العاصمة البيزنطية لمدة عامين وعادت فى عام ١١٦٧ م / ٥٦٢ هـ بعدما انجزت المهمة التى كلفت بها ومعها ماريا ابنة يوحنا بن عم الامبراطور مانويل، وكان فى صحبتهم أيضا بعض النبلاء البيزنطيين ورسى الجميع فى ميناء مدينة صور حيث أسرع الملك عمورى لاستقبال العروس وحاشيتها ثم ما لبثت أن احتفل بالزواج فى كنيسة مدينة صور، وقام البطريك ايمرى باتمام مراسم الزواج فى التاسع والعشرين من أغسطس عام ١١٦٧ م / الحادى عشر من ذى القعدة عام ٥٦٢ هـ (١) ، وبذلك تعاقبت ملكتان بيزنطيتان على عرش مملكة بيت المقدس الصليبية (٢) ، وسيكون لهذا التصاهر أثر بعيد فى السياسة البيزنطية فى منطقة الشرق الأدنى الاسلامى ، وأهم ما ترتب عليه تعاون البيزنطيين والصليبيين بغرض غزو مصر (٣) .

كان الصراع بين نور الدين وعمورى على فتح مصر قد بدأ منذ عام ١١٦٣م، وكان كلا منهما يعلم تمام العلم أن فوزه بمصر يعنى انتصاره الحاسم على خصمه . ورغم أن الموقف كان لصالح الصليبيين فى هذه المرحلة . أواخر عام ٥٦٢ هـ / خريف عام ١١٦٧ م ، الا أن عمورى كان يعلم تماما أن نور الدين يعد نفسه لجولة أخرى. لذلك كان على الملك عمورى أن يبحث

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 344.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ٦٩٤ .

(٣) Michel le Syrien, op. cit., p. 369.

له عن حليف قوى يسانده على نور الدين وكان أن اتجه عمورى إلى الامبراطور مانويل لتحقيق هذا الهدف (١) .

والواضح أن التفكير فى غزو مصر بالتعاون بين الصليبيين والبيزنطيين لم يكن وليد تلك الساعة فقد سبق أن تبودلت عدة رسائل بين الملك عمورى وبين الامبراطور مانويل حول هذا الموضوع .ومن المحتمل أن يكون عمورى هو الذى أشار على الامبراطـــور بفكرة غزو مصر وأنه طلب من مانويل مساعدته بالقوات البحرية والأسطول والأموال الضرورية مقابل اقتسام مصر بين الصليبيين والبيزنطيين (٢) .

وإذا كان ذلك ما سجله وليم الصورى حول فكرة غزو مصر فـان المؤرخ البيزنطى كيناموس سجل لنا أن الدافـــع وراء غزو مصر هو أن الامبراطور مانويل كان يرى أن مصر كانت من ضمن أملاك الامبراطورية فيما مضى — أى قبل الفتح الاسلامى لمصر (٣) — وأن للامبراطورية البيزنطية حقوق على مصر ويجب أن تعود مرة أخرى للحكم البيزنطى (٤) . وربما يرجع اختيار مانويل لهذا الوقت بالذات هو أن الأمبراطور لم يكن فى غفلة عما يجرى فى مصر طوال السنوات الأخيرة من انحلال الخلافة الفاطمية ، وتنافس نور الدين وعمورى حـــول الفوز بوادى النيل (٥) . وهكـذا بات واضحا أن

---

(١) حول هذه الفكرة أنظر : عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١٧١ وما بعدها .

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 348.

(٣) عن فتح المسلمين لمصر أنظر : ابن اسحق الأموى : فتوح مصر وأعمالها ص ٥ وما بعدها ؛ الواقدى : كتاب فتوح مصر والاسكندرية ص ٧ وما بعدها .

(٤) Cinnamus, op. cit., p. 278; Fabri, op. cit., Vol. 2 Part I, p. 329.

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٩٤ .

الامبراطور مانويل كان يطمع فى فتح مصر باعتبارها من الأملاك البيزنطية قبل الفتح الاسلامى وأن عمورى يطمع أيضا فى مصر طمعا فى ثرواتها وحتى لا يستولى عليها نور الدين فيقع الصليبيون بين شقى الرحى ، وبصفة عامة فان استيلاء الصليبيين على مصر يضعف من القوى الاسلامية ويفصل الشرق الاسلامى عن مغربه (١) . ورغم اختلاف أهداف كل من عمورى ومانويل فى غزو مصر فانهما اتفقا معا على التعاون فى انجاز هذا المشروع (٢) .

كان تصاهر عمورى مع الامبراطور مانويل فاتحة عمل جدى لتنفيذ فكرة غزو مصر ، فقدقدم مع الأميرة ماريا عروس الملك عمورى اثنان من رجال البلاط البيزنطى هما جورج باليرلوج Greorge Palaeologus وأمير آخر يحمل نفس اسم الامبراطور وهومانويل كومنينوس وإلى جانب المهمة الموكولة اليهما وهى اتمام زواج ماريا فقد زودوا بالصلاحيات لمناقشة عمورى فى أمر التحالف البيزنطى الصليبي لغزو مصر (٣) ، والواضح أنه بعد دراسة الموضوع عادت السفارة إلى القسطنطينية لتحمل إلى الامبراطور ما انتهى اليه رأى الصليبيين حول هذا المشروع .

وعلى ما يبدو أن موقف الصليبيين لم يكن واضحا أو محددا أو كان يكتنفه بعض الغموض لذلك نرى الامبراطور مانويل يقوم بارسال سفارة أخرى فى صيف عام ١١٦٨ م / أواخر عام ٥٦٣ هـ (٤) ، وتكونت هذه السفارة من الكسندر أف جرافينا Alexander of Gravina ، وميخائيل

---

(١) Lamb, The Crusades, p. 34.

(٢) Joseph ben Joshua, op. cit., I, pp. 157—8.

(٣) Cinnamus, op. cit., p. 238.

(٤) William of Tyre, op. cit., II, p. 347.

أف أوترانتو Michael of Otranto وهما من أعضاء البلاط البيزنطى (١) ووصلت هذه السفارة إلى مدينة صور فاستدعاها الملك عمورى واجتمع بها وبمستشاريه وقدمت السفارة خطابا من الامبراطور يوضح فيه أن مصر وهى الدولة الغنية تسيطر عليها الآن حكومة ضعيفة وأصبح الخليفة الفاطمى لا حول له ولا قوة وأن المسلمين بالشام أصبحوا يتطلعون بحماس للاستيلاء عليها لضعف الحكام القائمين على أمرها ، كما أن الامارات الصليبية يجب أن تتسع رقعتها وتمد حدودها حتى مصر وأن الامبراطور مانويل يعتقد أنه بموجب المساعدات البيزنطية يمكن فتح مصر (٢) .

والواضح من هذه الرواية أن الامبراطور كان يشجع الصليبيين على غزو مصر ويهون عليهم الأمر ، كما أنه وعد بالمساعدة لتحقيق هذا الغرض . كما توضح لنا أيضا أن الامبراطور مانويل كان يعمل على استمالة الصليبيين إليه لاتمام هذا المشروع . ولعله أدرك أن الأسطول البيزنطى لا يكفى وحده للسيطرة على مصر وأنه كان يرى الاستفادة من الجيش الصليبى البرى الذى أصبح الآن يعرف بعض مسالك مصر ودروبها ، يضاف إلى ذلك أن الملك عمورى كان على اتصال ببعض العناصر التى بامكانها مساعدته فى تحقيق هذا الغرض (٣) .

على أية حال فبعد ما تبودلت الأفكار بين الملك عمورى ومستشاريه من جانب والسفارة البيزنطية من جانب آخر وافق الجانبان على بعض الخطوط

---

(١) يلاحظ أن كلامن الكسندر وميخائيل كانا من أصل ايطالى أنظر :
Chalandon, op. cit., p. 536.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, pp. 347—8.

(٣) حول هذه الفكرة أنظر : أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ١٣٠ - ١٣١ .

العريضة للمشروع ،وكلف الملك عمورى المؤرخ وليم الصورى بالتوجه إلى القسطنطينية مع السفارة البيزنطية لعرض رأى الملك الصليبي وكافة النبلاء حول فكرة غزو مصر وخطة التنفيذ . وقد خول وليم الصورى بسلطات واسعة لانجاز هذا العمل . وعندما وصل وليم الصورى والسفارة إلى العاصمة البيزنطية كان الامبراطور مانويل مشغولا لبعض الوقت فى اخماد الفتنة التى قامت فى الصرب فى هذا الوقت (١) . ولما كان الأمر من الأهمية ولا يحتمل التأخير من وجهة نظر الصليبيين فقد اتجه وليم الصورى حيث يوجد مانويل وقابله عند مدينة بوتلا Butella . وقد استقبله الامبراطور استقبالا مشرفا ثم قام وليم بشرح مشروع المعاهدة الصليبية البيزنطية وكان الامبراطور يصغى بكل اهتمام وفى نهاية الأمر وافق الامبراطور مانويل على شروط المعاهدة ووضعت فى صيغتها النهاية وتتلخص فى قيام البحرية البيزنطية بالتعاون مع القوات البرية الصليبية فى غزو مصر وحصول الامبراطورية البيزنطية على جزء معين من أرض مصر واقتسام الاسلاب التى تسلبها الحملة (٢) .

وعلى ما يبدو أنه تم الاتفاق أيضا بشأن رعاية الامبراطور مانويل للكنيسة الأرثوذكسية فى الاراضى المقدسة وشاهدنا على ذلك ما سجله الرحالة البيزنطى يوحنا فوكاس فى عام ١١٨٥ م / ٥٨١ ه وما سجله أيضا الرحالة الألمانى ليودلف فون سواكيم فى عام ١٣٥٠ م / ٥٧١ ه : عن النص المكتوب باللغة اليونانية واللاتينية فى كنيسة السيدة العذراء فى مدينة بيت لحم ومضمون هذا النص أن زخرفة هذه الكنيسة قام بها الفنان افرم Ephrem فى عهد

---

(١) عن هذه الأحداث أنظر : Ostrogorsky, op. cit., p. 345; Vambery, Hungary, p. 119.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, pp. 348—9.

الامبراطور مانويل والملك عمورى ورالف Ralph أسقف الكنيسة، وقد أنجز هذا العمل فى عام ١١٦٩ م / ٥٦٤ — ٥٦٥ هـ (١) .

عاد وليم الصورى من رحلته فى أول أكتوبر عام ١١٦٨ م / السادس والعشرين من ذى الحجة عام ٥٦٣ هـ ولكنه لم يجد عمورى فى بيت المقدس فقد كان قد توجه إلى مصر على رأس قواته (٢) ، ويتضح من ذلك أن الملك عمورى لم يشأ أن ينتظر فراغ الامبراطور من مشاكله فى البلقان وانفرد دون شركائه البيزنطيين فى الهجوم على مصر (٣) ، ولكن هذه الحملة باءت بالفشل بعد ما اتحدت القوات المصرية والشامية تحت قيادة أسد الدين شيركوه . ولما شعر عمورى أن بقاءه فى مصر أصبح مستحيلا اضطر إلى الانسحاب وعادت القوات الصليبية بخفى حنين (٤) .

زاد انزعاج الصليبيين لحكم شيركوه لمصر وضياعها بالنسبة لهم (٥) ، واتحاد القوات الاسلامية فى مصر والشام ، وأيقن الصليبيون أن ممتلكاتهم بالشام أصبحت «على شفا جرف هار» (٦) وأنه أصبح بالامكان تخريب بلادهم وقلع آثارهم (٧) ، لذلك نجد عمورى يعمل على حشد القوى الصليبية والبيزنطية والأوربية ليقوم بعمل عسكرى كبير ضد مصر ليقضى على القوة

---

(١) Joannes Phocas, The Pilgrimage in the holy land pp. 19; 31
Ludolph von Sucham, Description of the Holy land, pp. 93—4.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 349.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٩٤ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٣٣٥ ، ٣٤١ ، أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ١٧١ .

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٣٥١ .

(٦) ابن واصل : المصدر السابق ج ١ ص ١٧٩ .

(٧) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٤١ .

الجديدة الناشئة فيها ، وبدأ فى تنظيم قواته بالشام وأغرى الفرسان الاسبتارية للمشاركة مشاركة فعالة فى مشروعه الجديد . وذلك بمنحهم بعض الامتيازات الاقطاعية والمالية فى مصر (١) ، واتصل بالامبراطور البيزنطى مانويل ليجدد معه اتفاقية عام ١١٦٨ م التى أبرمها المؤرخ وليم الصورى من أجل غـــزو مصر (٢) ، وفى الوقت نفسه استنجد الملك عمورى بملوك وأباطرة الغـرب الأوربى خاصة المانيا وفرنسا وانجلترا وصقلية وكذلك بكل النبلاء المشهورين(٣). وأخبرهـــم أن الصليبيين خائفون على بيت المقدس (٤) ، ولم يكتف عمورى بذلك بل لجأ إلى طعن شيركوه من الخلف وكاتب بعض أعيان المصريين لمساعدته على تنفيذ فكرته (٥)، ويضمن القضاء على شيركوه قضاء نهائيا . ومن الملاحظ أن الملك عمورى عمل على توسيع رقعة النجدات فى الحملـة المقبلة وربما كان القصد من وراء ذلك ضمان نجاح الحملة أو لعله قصد من وراء ذلك أيضا ألا تكون مشاركة البيزنطيين فى الحملة مشاركة واضحة خشية استيلاء البيزنطيين على مصر وتضيع أحلامه فى السيطرة عليها . ومن الملاحظ أيضا أن الغرب الأوربى لم يستجب لنداء الملك عمورى وذلك بسبب مشاكله الداخلية (٦)، فاكتفى عمورى بالتحالف البيزنطى ومساندة بعض الأعيان فى

---

(١) King, op. cit., pp. 100—101.

وقد أورد المؤرخ كنج نص هذا الامتياز المؤرخ فى الحادى عشر من أكتوبر ١١٦٨ م أى بعد عودة عمورى من مصر بقليل ويتضح منه أنه منح الفرسان الاسبتارية حوالى مائة وخمسين الف بيزنط سنويا .

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 359.

(٣) عن رسائل الملك عمورى للغرب أنظر : R.H.G.F., XVI, pp. 187—8.

(٤) العينى : المصدر السابق جـ ١٦ لوحة ٥٥٤ .

(٥) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٣١ .

(٦) Conder, op. cit., p. 126.

مصر . وما يهمنا فى موضوع البحث هو دور الامبراطورية البيزنطية فى غزو مصر والاهداف التى كانت تسعى لتحقيقها نتيجة هذا التحالف .

والواضح أن الامبراطور مانويل كان أشد حماسا من الصليبيين لتنفيذ مشروع غزو مصر ، ففى صيف عام ١١٦٩ م / أواخر عام ٥٦٤ هـ لم يعد الامبراطور السفن والقوات البيزنطية المتفق عليها بل قام باعداد سفن وقوات تفوق حجم السفن والقوات التى تضمنتها المعاهدة ، فأعد مائة وخمسين سفينة من نوع الشوانى(١) ، يضاف إلى ذلك ستين سفينة كبيرة مسلحة تسليحا جيدا وقد أعدت لحمل الخيول ومزودة بفتحات واسعة فى المؤخرة لدخول وخروج الدواب وهى النوع المعروف بالطريدة (٢) وكذلك بعض الكبارى التى تصل بين البر والسفن وحوالى عشرة أو عشرين سفينة من نوع الدرمونة (٣) ، وبالغت المصادر العربية فى عدد هذه السفن وذكرت أنها «ألف ومائة مركب

---

(١) الشينى : أقدم أنواع السفن الرومانية وزادت أهميتها فى العصور الوسطى وكانت من أكبر السفن وأكثرها استعمالا لحمل المقاتلة ، وعليها ابراجا وقلاعا للدفاع والهجوم ومتوسط ما يحمل عليها من الرجال مائة وخمسون رجلا ولها حوالى مائة مجداف . أنظر : ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٤٠ .

(٢) عن الطريدة أنظر أيضا : أحمد مختار العبادى ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية ص ١٣٥ .

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 361; Nicetas, op. cit., p. 208.

والدرمونة : وتجمع درامين وهى نوع من السفن كان معروفاً لدى البيزنطيين كاحدى القطع الحربية وتشتمل على صفين من الجاديف وتحمل عدداً من الرجال يتراوح بين مائتى إلى ثلاثمائة وهذه السفينة مزودة ببرج محاط بالألواح ليقف فوقه الرجال المقاتلة ليرموا إلى وسط مراكب العدو . أنظر : درويش النخيلى : السفن الاسلامية على حروف المعجم ص ٤٦ — ٤٨ . ويلاحظ أن مجموع هذه الشوانى والدرامين كان بامكانها أن تحمل ما يزيد عن خمسة وعشرين ألف مقاتل .

ما بين شيني وطريدة ومسطح» (١) ، والمهم أن الأسطول البيزنطي كان يحمل من المؤن ما يكفي لمدة ثلاثة أشهر (٢) .

تولى قيادة الأسطول البيزنطى أندرونيكوس كونتوستفانوس (٣) ، ويعاونه فى هذه المهمة مايورك Maurice الذى كان يتمتع بالثقة الكبيرة لدى الامبراطور والكسندر أف كونفرسانا Alexandre of Gonversana أحد نبلاء أبوليا — نظرا لاخلاصه وولائه للامبراطورية . وخرج الاسطول فى الخامس عشر من يوليو عام ١١٦٩ م / الثامن عشر من ذى القعدة عام ٥٦٤ هـ من مياه الدردنيل واتجه إلى قبرص فوجد فى طريقه سفينتين مصريتين فأسرهما ، ولعل ما قام الأسطول البيزنطى كان انتقاما من مهاجمة بعض السفن المصرية لجزيرة قبرص عام ١١٥٨ م . وعندما وصل الأسطول البيزنطى إلى جزيرة قبرص أرسل قائده حوالى عشرة سفن إلى عكا تحمل الأموال المتفق عليها اللازمة للصرف على القوات الصليبية، ولتحمل أيضا إلى الملك عمورى خبر تجمع الأسطول فى قبرص وأنها على استعداد للاقلاع إلى مصر عندما يكون عمورى وقواته مستعدين للرحيل وظل الأسطول البيزنطى فى قبرص حتى شهر سبتمبر دون أن يصل ما يفيد باستكمال استعداد القوات الصليبية للرحيل (٤) .

(١) المقريزى : المصدر السابق جـ١ ص ٣٤٧ . والمسطح نوع من السفن الحربية الكبيرة وربما سميت كذلك لأن لها سطحا وهى تسع حوالى خمسائة راكب أو يزيد وتستعمل أيضا فى القتال النهرى . أنظر أيضاً : سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية ص ٣٦٨ ، درويش النخيلى : المرجع السابق ص ٢٤١ — ١٤٣ .

(٢) Nictas, op. cit., p. 208.

(٣) يلاحظ أن أندرونيكوس كان من القادة المشاة البارزين وليس من القادة البحريين وكانت شهرة فى الحرب خاصة فى حروب الامبراطورية مع المجر . أنظر :

Foord, op. cit., p. 353.

(٤) Nicetas, op. cit., p. 208—9; William of Tyre, op. cit., II, p. 262; Cinnamus, op. cit., pp. 278—9.

وعلى ما يبدو أن الملك عمورى كان يحتاج لبعض الوقت لاعداد القوات وتنظيم شئون دولته أثناء غيابه فى مصر، وكان عليه أن يعد بعض القوات لحماية المملكة فترة تواجده خارج البلاد (١) ، وهذا يدل على أن الامبراطور كان أكثر استعدادا وتحمسا لغزو مصر فنى اعداد الأسطول فى وقت مبكر ويمثل هذه الأعداد التى تفوق الأعداد المتفق عليها لخير دليل على ذلك ، ولعل الملك عمورى عندما شاهد ذلك خشى من التفوق الحربى البيزنطى فى غزو مصر والانفراد بها مما دفعه إلى التردد بعض الوقت فى الانضمام إلى الحملة ، وعلى أية حال فان سقوط مصر فى أيدى البيزنطيين لا يهدد أمن الامارات الصليبية بالقدر الذى تهدد به القوات الاسلامية التى أصبحت تسيطر على مصر والشام فى ذلك الوقت . والواضح أن الملك عمورى رأى الانضمام للحملة البحرية البيزنطية حتى لا تبقى مصر فى أيدى حكام الشام المسلمين أو تقع فى أيدى القوات البيزنطية إذ رأت الانفراد بالحملة ومهاجمة مصر .

استعدت القوات الصليبية وأرسل عمورى فى طلب الأسطول البيزنطى من قبرص(٢)، وأعطى أوامره لجميع القوات بالتجمع فى عسقلان فى الخامس عشر من أكتوبر عام ١١٦٩ م / آخر المحرم ٥٦٦ هـ ، ثم ما لبث أن وصل الاسطول البيزنطى إلى مدينة صور ثم تقدم إلى مدينة عكا ومنها إلى عسقلان(٣). وكانت وجهة الحملة مدينة دمياط (٤) «ليتمكن القاصد لها من البر

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 262.

(٢) يلاحظ أن الأسطول البيزنطى ظل فى قبرص حوالى ثلاثة أشهر تبدأ من منتصف يوليو حتى منتصف أكتوبر عام ١١٦٩ م .

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 262.

(٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٤٣ .

والبحر» (١) ، فان ملكوها «يتخذونها ظهرا يملكون به الديار المصرية» (٢) . وإذا كانت أطماع الصليبيين فى مصر باتت واضحة فلعل الامبراطورية البيزنطية كانت ترمى أيضا من وراء السيطرة على مصر فى هذا الوقت بالذات هو ضرب تجارة البنادقة نظراً للصراع الدائر بينهما فى ذلك الحين (٣) .

سار الجيش الصليبى من عسقلان فى السادس عشر من أكتوبر / أول صفر أى فى اليوم التالى لتجمع القوات فى عسقلان واتخذت طريقهاإلى مصر . وقد وصلت إلى مدينه الفرما — التى كانت خربة فى ذلك الوقت — بعد تسعة أيام وحاولوا السير بمحازاة الشاطىء ولكنهم اضطروا للابتعاد عن الطريق الساحلى لكثرة المياه التى تغمر هذه المنطقة واضطروا إلى الدوران حول المستنقعات ثم عادوا إلى الطريق الساحلى حتى وصلوا إلى بوغاز بحيرة تنيس (المنزلة حاليا) وقد ساعدت بعض قطع الأسطول البيزنطى التى كانت تسير بحذاء الشاطىء على نقلهم إلى الجهة المقابلة ثم واصلوا مسيرتهم حتى وصلوا إلى شمالى دمياط فى السابع والعشرين من أكتوبر / الثالث من صفروعسكرت فى المنطقة الواقعة بين البحر والمدينة وظلت فى انتظار تجمع الأسطولالبيزنطى التى تباعدتمعظم قطعه بسبب شدة الرياح وهياج البحر .ولكن هذا الانتظار لم يدم طويلا فقد تجمعت السفن بعد ثلاثة أيام بعد هدوء الأمواج ودخلت فم النيل ورست مقابل القوات الصليبية ولم تتمكن من السير فى النيل بعد ذلك بسبب وجود السلسلة التى تمتد من دمياط إلى برج السلسلة (٤) .

---

(١) ابن شداد : المصدر السابق ص ٤١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٣٥١ .

(٣) عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٤٣ — ١٤٤ .

(٤) William of Tyre, op. cit., II, p. 363; Nicetas, op. cit., p. 210.

وكان برج السلسلة يقع فى وسط النيل وهو أقرب إلى الضفة الغربية من الضفة الشرقية وكان

وكان صلاح الدين الأيوبي قد خلف شيركوه فى حكم مصر ، ولما علم بأخبار هذه الحملة فقام بتحصين بلبيس والاسكندرية والقاهرة ظنا منه أن الحملة ستسلك احدى الطرق التى سلكتها فى الحملات السابقة (١) وبقى صلاح الدين بالقاهرة خشية قيام مؤامرة شيعية ضده (٢) : ولما علم بوصول القوات المتحالفة عند دمياط أرسل اليها الرجال والسلاح بقيادة أخيه تقى الدين عمر وخاله شهاب الدين (٣) ، كما أرسل عددا كبيرا من السفن اتخذت طريقها إلى الشمال فى فرع دمياط لنجدة المدينة (٤) ، وفى الوقت نفسه أرسل إلى نور الدين فى دمشق يخبره بما حدث «ويشكو المخافة من تواجد الفرنج فى دمياط «ويقول «أنى أن تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج . وان سرت اليها خلفنى المصريون فى أهلها وأموالها بالشر ، وخرجوا عن طاعتى وساروا فى اثرى ، والفرنج من أمامى ، فلا يبقى لنا بقية» فسير اليه نور الدين العساكر تباعا كما قام بالاغارة على ممتلكات الصليبيين فى الشام كعادته عندما تتعرض مصر للتهديد الصليبى (٥) .

وفى الوقت نفسه تشجعت القوات الصليبية بعدما وصل الاسطول

---

=من الحجارة وفى غاية المتانة ويتكون منعدةطوابقوفى أسفل البرج توجد السلسلة التى تمتد إلى برج آخر بالمدينة وكان رجال برج المدينة يرخون السلسلة إذا أرادوا أن تصعد السفن فى النيل ويشدونها إذا أرادوا منعها من ذلك . أنظر : Hist. Pate. Alex., pp. 241—2; Vitry, lettres de Jacques de Vitry, p. 105.

ولمزيد من التفاصيل راجع : محمود سعيدعمران : المرجع السابق ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ٧١٢ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٦ لوحة ١١٦ ، ابن خلدون : المصدر السابق : العبر جـ ٥ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق جـ ١ ص ١٨١ ، أبو شامة : المصدر السابق جـ ١ ص ١٨١ .

(٤) William of Tyre, op. cit., II, p. 364.

(٥) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٣٥١ — ٣٥٢ .

البيزنطي وبدأت فى اقامة معسكرها فى الحدائق المنتشرة بين البحر والمدينة، وكان لهذا التأخير نتائج سيئة على الحملة ستظهر آثارها فيما بعد (١) . لأن المدينة قد امتلأت بالرجال وأبطال الفرسان والميرة وآلات الحرب (٢) . وبذلك ضاع أمل الصليبيين والبيزنطيين فى الاستيلاء على دمياط بسهولة ، وكان عليهم بذل جهداً كبيراً حتى يتمكنوا من اقتحام المدينة . لذلك قاموا باعداد برج خشبي ضخم مكون من سبعة طوابق حتى يتمكنوا من رؤية ما يجرى داخل المدينة من أعلاه وأثناء العمل فى تشييد هذا البرج كانت المنجانيقات تضرب المدينة لتحمى العمال الذين يقومون بصنع البرج (٣) ورغم ذلك كله فقد صبر أهل دمياط رغم كثرة القوات المتحالفة وشدة القتال (٤) . وعلى ما يبدو أن الصليبيين لم يتمكنوا من انزال الضرر بالمدينة تمهيدا لاقتحامها لذلك فكروا فى حيلة أخرى ليصلوا إلى قلب دمياط وحاولوا اقامة بعض السراديب ليصلوا إلى المدينة من تحت الأسوار (٥) والواضح أن فكرة حفر السراديب قد باءت بالفشل نظرا لوجود المياه فى الخنادق التى تفصل بين الأسوار وتحيط بالمدينة(٦) ، أو أن قذائف المدافعين عن المدينة قد حالت دون ذلك .

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 364; Joseph ben Joshua, op. cit., I, pp. 160—1.

(٢) ابن شداد : المصدر السابق ص ٤٣ .

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 364.

(٤) ابن الفرات : المصدر السابق المجلد الرابع ج ١ ص ٨٣ .

(٥) William of Tyre, op. cit., II, p. 364.

(٦) كانت الأسوار تحيط بالمدينة من كل جانب ، فمن الناحية البحرية الغربية كان يحيط بالمدينة سوران بينهما خندق كما كان يحيط بالمدينة فى بقية الجهات ثلاثة أسوار بينها الخنادق وكانت كل الخنادق تملأ بالمياه كما لم تكن الأسوار كلها متساوية الارتفاع فالسور الخارجى أقل

عاد الصليبيون إلى استعمال البرج الخشبي مرة أخرى وضرب المدينة بالمنجانيقات ، وقدتسبب ذلك فى هدم جزء من سور المدينة والمنازل المجاورة له (١) ، ورغم اشتداد هجمات القوات المتحالفة على دمياط إلا أن أهل المدينة ظلوا ثابتين على قتال المهاجمين (٢) ، وعلى ما يبدو أن ما تهدم من السور كان جزءا بسيطا وفى مكان مرتفع لا يسمح بدخول الصليبيين إلى المدينة .

ويروى المؤرخ وليم الصورى أن القوات الاسلامية لم تقف مكتوفة الأيدى ازاء محاولات القوات المتحالفة اقتحام المدينة فقاموا بتشييد برج متحرك مماثل للبرج الصليبي وشحنوه بالمقاتلة لمقاومة الجهود الصليبيةالبيزنطية بالفكرة نفسها وقد ردوا على اعتداءات المهاجمين بالعنف نفسه ويضيف نفس المؤرخ مشيدا بالجهود الضخمة والمهارة الفائقة التى أبداها المسلمون فى الدفاع عن مدينتهم وأنهم تفوقوا على القوات المتحالفة التى شعرت بهذا التفوق فى الوقت الذى انهارت فيه الروح المعنوية للمتحالفين وأصبحوا لا يلتزمون بجدية القتال (٣) ، وليس ذلك فحسب فقد أصيبت القيادة المتحالفة بالارتباك ، والدليل على ذلك أن القوات المتحالفة أعدت بعض الأبراج الخشبية المتحركة

---

ارتفاعا من السور الذى فى الوسط والسور الملاصق للمدينة أكثر ارتفاعا . عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر : محمود سعيدعمران : المرجع السابق ص ٢٠٥—٢٠٦.

Vitry, op. cit., pp. 125—6.

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 364.

(٢) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ١ ص ٢٧٩ ، المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٤٧ ، راجع أيضا ابن أيبك : درر التيجان ورقة ٤٩١ ، ابن الفارق : تاريخ مبافارقين (ميكروفيلم( احداث عام ٥٦٥ هـ .

(٣) William of Tyre, op. cit., II, pp. 364—5.

ليقاتلوا بها القوات الاسلامية التى تتمركز فى أبراج المدينة(١)، ولكن القوات المتحالفة قامت بمهاجمة النقط الحصينة فى المدينة رغم وجود بعض الأماكن الضعيفة التى لم تكن محمية بما فيه الكفاية بالقوات الاسلامية وكان يمكن السيطرة عليها بسهولة . وبذلك لم تتمكن القوات المتحالفة من انزال أى ضرر سوى هدم كنيسة السيدة العذراء التى كانت ملاصقة للسور (٢) .

وإذا كان ذلك هو الحال مع القوات البرية فان الاسطول البيزنطى لم يتمكن من الدخول فى فرع دمياط بقدر يسمح له بمهاجمة المدينة . وبذلك أصبح عاجزا عن تقديم المساعدة العسكرية التى كانت متوقعة (٣) . وليس ذلك فحسب فان القوات البحرية البيزنطية كانت تحمل معها المؤن التى تكفيها لمدة ثلاثة أشهر منذ ابحارها من مياه الدردنيل فى منتصف يوليو عام ١١٦٩ م ولم يكن بوسع جزيرة قبرص أن تمد القوات البيزنطية بالأقوات اللازمة بعد التخريب الذى لحق بها من جراء غارات رينو أف شاتيون وما لحق بها من زلزال بعد ذلك فى عام ١١٥٨ م (٤). كما أنها لم تستطع الحصول على المؤن اللازمة من مدينة عكا وبذلك كانت المؤن البيزنطية قد أوشكت على الانتهاء فور ابحارها من عسقلان فى منتصف أكتوبر عام ١١٦٩ م . لذلك بدأت القوات البيزنطية تعانى من نقص الأقوات فور وصولها إلى دمياط ثم ما لبثت أن نفذت الأقوات تماما ، ولم تجد القوات البيزنطية ما تقتات به سوى ثمار

---

(١) يلاحظ أن أبراج المدينة كانت تقع على السور الأوسط للمدينة وكان عددها ثمانية وعشرين برجا وبكل برج منهم ثلاثة أبراج صغيرة . أنظر :

Vitry, op. cit., p. 125.; Roger of Wendover, op. cit., II, p. 424, c.f. Also, Jullien. R.P., Note sur l'Emplacement de l'Ancienne Damiette, p. 74.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 365.

(٣) Lane-Poole, Saladin. p. 104.

(٤) Runciman, op. cit., II, p. 386.

النخيل التي حصلوا عليها من البساتين المجاورة للمدينة، ولكن هذه الثمار قد نفذت هي الأخرى بعد ثلاثة أيام وكادت القوات البيزنطية تهلك جوعا واضطرت لأكل الأعشاب . وهكذا انشغل البيزنطيون بأمر الطعام لا بأمر الحرب (١) . وفي الوقت الذي كانت فيه القوات البيزنطية تموت جوعا(٢)، كانت القوات الصليبية تحتفظ بكمية وفيرة من الطعام ولكنها ضنت بها على القوات البيزنطية لأن الصليبيين كانوا يخشون من طول فترة القتال فيتعرضون للمجاعة بعد ذلك (٣) .

بدأ شبح الهزيمة يحوم حول القوات المتحالفة بعد هذه المجاعة ولاشك أن تصرف الصليبيين ازاء حلفائهم البيزنطيين وعدم امدادهم بالأقوات قد بذر بذور الشقاق بين القوات المتحالفة . كما بدأت ملامح النصر تبشر القوات الاسلامية وذلك بفضل الامدادات التي كان يرسلها صلاح الدين بصورة متلاحقة إلى دمياط (٤) ، وزاد اقتراب المسلمين من النصر كارثة أخرى تعرضت لها القوات المتحالفة التي تعسكر بين المدينة والساحل فقد هبت عاصفة شديدة مصحوبة بسقوط كمية كبيرة من الأمطار أدت إلى اغراق خيام القوات المتحالفة وسببت لهم خسائر جسيمة في المعدات واضطروا لحفر الخنادق حول خيامهم لتجنب المياه (٥) ، ومن الواضح أن حفر الخنادق حول الخيام قد

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 366.

(٢) Vitry, History of Jerusalem, p. 25.

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 366.

(٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٤٤ ، ابن واصل : المصدر السابق جـ ١ ص ١٨٢ ، ابن الفرات : المصدر السابق المجلد الرابع جـ ١ ص ٨٣ . أنظر أيضا :
Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 161.

(٥) William of Tyre, op. cit., II, p. 366; Vitry, op. cit., p. 25.

أدى إلى انعزال القوات عن بعضها . كما أن حفر الخنادق حول الخيام يؤثر إلى حد كبير فى كفاءة القوات القتالية ويعوق من حركتها مما يسهل مهمة القوات الاسلامية فى انزال الهزيمة بالمعتدين .

وفى وسط هذه الكوارث التى لاحقت القوات المتحالفة لاحت للمسلمين فكرة استغلال الرياح الجنوبية التى هبت على منطقة دمياط فى ذلك الوقت ، فأحضر المسلمون قاربا وشحنوه بالأخشاب والقطران وبعض المواد الأخرى القابلة للاشتعال وأضرموا فيها النار وساعدت الرياح الجنوبية على دفع القارب المشتعل فى أتجاه السفن البيزنطية المكدسة فى النيل شمالى دمياط . وبينما كان القارب يسير ملتهبا على ظهر النيل فى طريقه إلى السفن البيزنطية دب الزعر فى القوات المتحالفة بصفة عامة وفى البحارة البيزنطيين بصفة خاصة لا سيما أن البحارة كانوا داخل معسكراتهم شمالى دمياط (١) . وعلى ما يبدو أن الوقت كان ليلا بدليل ما قام به الملك عمورى عندما علم بأمر القارب بدور ملحوظ فى ايقاظ البحارة الذين حاولوا بكل الطرق الحد من الكارثة المقبلة ، ولكنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى سفنهم الا بعد ما اصطدم القارب بالسفن البيزنطية وأحرقت منها ست شوانى (٢) وأتت عليها تماما. وأخيرا نجح البحارة البيزنطيون فى فصل السفن عن بعضها لانقاذ البقية الباقية (٣) .

وبعدما لاحظ المسلمون الحالة السيئة التى تعانى منها القوات المتحالفة بسبب المجاعة والأضرار التى لحقت بهم بعد ما اجتاحت السيول معسكراتهم يضاف

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, pp. 366—7.

(٢) بالغت المصادر الاسلامية فى عد السفن التى أحرقت وذكرت أنها ثلاثمائة مركب . أنظر : المقريزى : المصدر السابق ج ١ ص ٣٤٧ ، ابن الفرات : المصدر السابق المجلد الرابع ج ١ ص ٨٥ .

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 367.

إلى ذلك احراق المسلمين لبعض السفن البيزنطية تشجعت القوات الاسلامية وشعرت بالثقة ، وتحولت للهجوم على معسكرات القوات المتحالفة ونقلوا ميدان المعركة خارج مدينة دمياط (١)، وتمكنوا من شن الهجوم على المعسكر البيزنطى (٢) ، فقد نجح المسلمون فى التسلل عبر بعض الفتحات السرية فى سور المدينة وقاموا بهجوم مفاجىء على القوات البيزنطية التى انهارت قواها بسبب المجاعة ولم يعد لديها القدرة على الحرب ، وحاول القائد البيزنطى أندرونيكوس كونتوستفانوس الدفاع عن المعسكر وأبدى شجاعة ملحوظة فى دفع القوات الاسلامية (٣) . ولكن الواضح لنا أن القوات الاسلامية قد نجحت فى انزال الخسائر بالقوات البيزنطية ، وفى الوقت نفسه صمتت المصادر التى تحت أيدينا عن موقف القوات الصليبية من الهجوم على اخوانهم البيزنطيين مما يدفعنا إلى القول أن القوات الصليبية تراخت فى الدفاع عن المعسكر البيزنطى (٤) .

وبعد هذه المعركة بدأت الشائعات تتردد داخل خيام القوات المتحالفة(٥) ولعل هذه الشائعات كانت بسبب سوء نية القوات المتحالفة وخوف كل فريق من الآخر من أن يستأثر بمدينة دمياط لنفسه عند سقوطها (٦) كما بدأت القوات المتحالفة تشعر بضرورة العودة إلى أوطانها حتى لا يهلكون جوعا أو

---

(١) يروى ابن الفرات أن القوات الاسلامية شنت على القوات المتحالفة الغارات من الخارج .
أنظر : ابن الفرات : المصدر السابق المجلد الرابع ج ١ ص ٨٤ .

(٢) Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 161.

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 367.

(٤) حسن حبشى : المرجع السابق ص ١٣٨ .

(٥) William of Tyre, op. cit., II, p. 368.

(٦) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٧١٣ .

بحد السيف فى أرض مصر ، لذلك بدأ التفكير فى عقد الهدنة مع المسلمين للانسحاب إلى بلادهم (١)، خاصة وأن نور الدين قد ألهب بلاد الصليبيين بالغارات (٢) . ويفهم من رواية وليم الصورى أن القادة الصليبيين والبيزنطيين اشتركوا فى وضع شروط الهدنة وتنفيذ بنودها. فقد روى أن بعض القادة الصليبيين هم الذين تولوا عقد الهدنة مع بعض القادة المسلمين وأن أحد القادة البيزنطيين يدعى جيفيلينو Jevelino هو الذى تولى تنفيذ شروط الاتفاق بكل دقة (٣) ويتضح من ذلك أن الصليبيين هم الذين شرعوا أولا قبل البيزنطيين فى عقد الهدنة مع المسلمين . ولا يعنى ذلك أن البيزنطيين لم يكونوا راغبين فى الاتفاق على الانسحاب من مصر بدليل قيام أحد القادة البيزنطيين بتنفيذ شروط الهدنة كما وأن حالة القوات البيزنطية عند دمياط كانت تشير إلى سوء حالتهم وأن الأفضل لهم العودة إلى أوطانهم بأسرع وقت .

وإذا قمنا بتحليل العوامل التى أدت إلى هزيمة الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط نرى أن بعضها يرجع إلى الجانب البيزنطى وبعضها الآخر إلى الجانب الصليبي وأخيرا كانت هنالك أسباب ترجع إلى الجانب الاسلامى . وفيما يتعلق بالجانب البيزنطى نرى أن القائد البيزنطى أندرونيكوس قائدا بريا ، وليس قائدا بحريا لذلك لم يستخدم الأسطول البيزنطى استخداما عسكريا فى الهجوم على مدينة دمياط وأن الدور الذى قام به الأسطول اقتصر على نقل القوات حتى ساحل دمياط ، ومما يدل على ضعف بصيرة القائد البيزنطى هو

---

(١) Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 161.

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ٥١ ، الحافظ الذهبى : دول الاسلام جـ ٢ ص ٥٦ ، ابن الوردى : تتمة المختصر جـ ٢ ص ٧٧ .

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 368.

ترك السفن البيزنطية متلاصقة فى النيل مما سهل مهمة القوات الاسلامية فى احراق عدد منها . كما أن القيادة البيزنطية كانت متراخية ومتساهلة فى اصدار التعليمات العسكرية التى تكفل أمن سفنها حتى تترك البحارة البيزنطيين يبيتون خارج سفنهم أثناء العمليات العسكرية . ومن الأسباب التى تتعلق بالجانب البيزنطى أيضا انتشار المجاعة بين القوات البيزنطية، ويروى وليم الصورى فى هذا الصدد أن الامبراطور وعد بارسال الأموال اللازمة ولكنه لم ينفذ وعده ولذلك قاسى الجيش البيزنطى من المجاعة (١) . وفى تصورى أن عدم ارسال الامبراطور مانويل للأموال ليس بالسبب الذى يؤدى إلى المجاعة ، لأنه لو جاءت الأموال للحملة وهى عند سواحل مصر فان هذه الأموال ستصبح عديمة الفائدة لأن أهل مصر ربما لا يبيعون الأقوات للحملة . والسبب الرئيسى فى هذه المجاعة يرجع إلى قائد الأسطول البيزنطى لأنه أخر إلى دمياط ومؤنه على وشك النفاذ . وربما يرد على ذلك بأن الملك عمورى لم يكن مستعداً للابحار فور استعداد الأسطول البيزنطى وأنه السبب فى تأخير رحيل الحملة حتى نفذت الأقوات . وهنا يمكن القول أن قائد كل قطاع مسئول عن قطاعه وأعلم بشئونه وأن القائد البيزنطى كان عليه تدارك الأمر قبل فوات الأوان الا إذا كان القائد البيزنطى كان يرى أنه سيستولى على دمياط بين يوم وليلة وفى هذا خطأ آخر يرجع إلى غروره وقلة بصيرته .

أما عن الأسباب الخاصة بالجانب الصليبى فيمكن ارجاعها إلى الملك عمورى، لأن القوات الصليبية أخرت الهجوم على المدينة لمدة ثلاثة أيام حتى يصل الأسطول البيزنطى . وربما يكون للقيادة الصليبية عذرها إذا كانت

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, pp. 369—370.

قواتها قليلة العدد، ولكنه إذا كان حجم القوات البيزنطية قد وصل إلى حوالى خمسة وعشرين ألف فالأرجح أن تكون القوات الصليبية بالعدد نفسه استنادا إلى الأتفاق الخـــاص بغزو مصر الذى يقضى باقتسام مصر بين البيزنطيين والصليبيين . والمهم أن تأخير الهجوم على المدينة قد أعطى الفرصة للمسلمين لتحصين المدينة وامدادها بالرجال والسلاح لمقاومة القوات المتحالفة. وعامل ثان تقع مسئوليته على الجانب الصليبى ، وهو أنانية القوات الصليبية التى ضنت على القوات البيزنطية بالأقوات وهى تراهـــا تهلك جوعا وإن كان عذر الصليبيين فى ذلك هو الخوف من مجاعة تلحق بقواتهم فيما بعد فانهم بهذا العمل قد منعوا القوات البيزنطية من التعامل عسكريا مع المسلمين وأصبحت القوى البيزنطية عديمة الفائدة بعدما خارت قواها . وعامل ثالث يعزى إلى القيادة الصليبية وهو أنه عندما نقل المسلمون ميدان المعركة خارج مدينة دميـــاط وانقضوا على المعسكر البيزنطى المنهار من جراء المجاعة نرى القوات الصليبية تقف موقف المتفرج ولا تدافع عن القوات البيزنطية .

وبعدما قمنا بتحليل مسئولية الجانب البيزنطى والجانب الصليبى كل على حده، نرى أن بعض جوانب فشل الحملة يرجع إلى الجانبين معا . وأول هذه الأسباب يرجع إلى اختيار الوقت الذى قدمت فيه الحملة إلى مصر وهو فصل الشتاء وكان من نتيجة ذلك تعرض الحملة للعواصف والسيول التى أغرقت معسكرات القوات المتحالفة وأثرت على كفاءتها القتالية . والسبب الثـانى يرجع إلى اختيار المكان التى عسكرت فيه القوات المتحالفة وهى المنطقة التى تمتد من دمياط شمالا حتى البحر وقد قدرها المؤرخ وليم الصورى بحوالى ميل واحد (١) وتمتد بطول الساحل ، فان هذه المنطقة لا تكفى لاستيعاب قوات الحملة التى بلغ عددها ما يقرب من خمسين ألفا الا إذا حشرت فيها وبـذلك

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 363.

تصبح صيدا سهلا لقذائف المسلمين . وإذا انتشرت شرقا على طول الساحل فان الجزء المواجه للمدينة من القوات المتحالفة لا يكفى لاسقاط المدينة . وإذا كان السبب الأول يتعلق بالزمان والسبب الثانى يتعلق بالمكان فان السبب الثالث يختص بعدم وجود قيادة موحدة للحملة ومثال ذلك ما نراه من الخلل الذى أصاب عمليات الهجوم على المدينة ومن وجود بعض الأقوات عند الصليبيين ولا نراها عند البيزنطيين وعدم مساندة الصليبيين للبيزنطيين عندماشن المسلمون الهجوم على المعسكر البيزنطى . ولاشك أن عدم وجود قيادة موحدة تتولى قيادة الحملة قد أدى إلى سوء التفاهم بين الجانبين وعمل على نشر الشائعات داخل معسكراتهم واتهام كل جانب منهم الجانب الآخر بأنه السبب فى فشل الحملة ، ويروى ميخائيل السريانى أن البيزنطيين حاولوا خداع الصليبيين للاستيلاء على دمياط لصالحهم (١) .

أما عن الأسباب التى أدت إلى فشل الحملة وتتعلق بالجانب الاسلامى فأول ما يطالعنا منها هو صمود شعب مدينة دمياط فى وجه المعتدين ، خاصة وأن المدينة لم تكن محصنة بما فيه الكفاية لمواجهة مثل هذه الاعتداءات (٢) . والسبب الثانى يرجع إلى سرعة ارسال صلاح الدين للقوات والمؤن والسلاح للدفاع عن المدينة وفى مقدمتهم ابن أخيه تقى الدين عمر وخاله شهاب الـدين بالاضافة إلى مجموعة من الأعيان ، ولاشك أن وصول مثل هذه الشخصيات إلى دمياط قد رفع من الروح المعنوية لأهل المدينة . ثالثا ، اتحاد القوات

---

(١) Michel le Syrien, op. cit., p. 369.

(٢) اهتم صلاح الدين بتحصين المدينة بعد هذه الحملة فرتب المقاتلة على البرجين وأمر بترميم سور المدينة وحفر الخنادق وعمل الجسور . أنظر المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٤٧ .

الاسلامية فى مصر والشام — بهدف دفع المعتدين — بصورة خالصة النية لم تكن مألوفة بين مصر والشام فى هذا الوقت ، وهى نقطة فى غاية الأهمية وسيكون لها أثرها البعيد فى منطقة الشرق الأدنى بأكملها . رابعا : القدرة العسكرية للقوات الاسلامية وحسن بصيرتها ومن ذلك أن القوات الاسلامية عندما فكرت فى مهاجمة معسكرات القوات المتحالفة لم تقم بمهاجمة معسكرات الصليبيين بل قامت بمهاجمة المعسكرات البيزنطية حيث تهلك القوات البيزنطية جوعا لذلك كانت غارات المسلمين مؤثرة وفعالة . وأخيرا فقد كان لموقف نور الدين الذى قام بارسال القرات تباعا إلى مصر وقيامه كعادته بالضغط على الصليبيين بالشام ومهاجمة أملاكهم الأمر الذى ساعد على انهاء العمليات العسكرية فى مصر والعودة إلى بلادهم (١) . وفى ختام هذا التحليل نوضح سرعة وحسن تصرف القوات الاسلامية وابتكار أساليب جديدة فى فنون الحرب ، وذلك عندما استغل المسلمون ظاهرة هبوب الرياح الجنوبية ليشعلوا قاربا اسلاميا لتدفعه هذه الرياح إلى السفن البيزنطية فتنزل بها أفدح الخسائر .

وبكل هذه الأسباب مجتمعة فشلت الحملة وعقدت الهدنة بين الطرفين . وبعد ما عقدت الهدنة سمح المسلمون للقوات البيزنطية والصليبية بالانتقال بين المعسكر ومدينة دمياط وكان المسلمون فى غاية الكرم فاقاموا الأسواق لأعدائهم ليحصلوا على ما يحتاجون إليه من الأقوات ، وقد ظلت الأسواق لمدة ثلاثة أيام استعدت خلالها القوات المتحالفة للرحيل (٢) ، بعدما أحرقت

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٣٥٢ ، أنظر أيضا : النويرى : المصدر السابق ج ٢٦ لوحة ١١٩ ، ابن بهادر : المصدر السابق ورقة ٢٥ ، ابن الجوزى : المصدر السابق ج ٨ ق ١ ص ٢٧٩ .

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 368.

ما ثقل عليها حمله من المنجانيقات وغيرها (١) ، واتخذت طريقها إلى بلادها فى الخامس والعشرين من ربيع الأول عام ٥٦٥ هـ / السابع عشر من ديسمبر عام ١١٦٩ م أى بعد حوالى خمسون يوما من القتال (٢) . واتخذت القوات الصليبية طريقها برا إلى الأراضى المقدسة ، أما السفن البيزنطية فقد أبحرت من دمياط ولكنها تعرضت لعاصفة عنيفة أغرقت معظمها وقذفت الأمواج بجثث البيزنطيين إلى الساحل الشامى وظلت البقية الباقية تحت رحمة الأمواج التى دفعت بعضها إلى سواحل قيليقية ومنها سفينة القائد البيزنطى أندرونيكوس الذى اتخذ طريقه برا من قيليقية حتى القسطنطينية (٣) .

أما النتائج السياسية التى ترتبت على فشل الحملة ، فمما لاشك فيه أن هذا الفشل قد أدى إلى تدعيم مركز صلاح الدين فى مصر وقد ترتب على ذلك سقوط الخلافة الفاطمية فى مصر(٤)، وظهور ادارة واحدة فى مصر والشام تقف ضد أطماع البيزنطيين والصليبيين فى منطقة الشرق الأدنى الاسلامى (٥) وإذا كان اتحاد القوات الاسلامية فى مصر والشام لا يؤثر بصورة مباشرة على الامبراطورية البيزنطية ، فان أثره بات واضحا ومهددا للامارات الصليبية بصورة خطيرة فقد شعر الصليبيون يوما بعد يوما بازدياد تضييق المسلمين عليهم وأنهم بعد أن كانوا متجهين بكل جهودهم نحو خطر نور الدين من

---

(١) ابن الفرات : المصدر السابق المجلد الرابع جـ ١ ص ٨٥ ، المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٤٧ .

(٢) أبو الفدا : المصدر السابق جـ ٣ ص ٥١ ، تاج الدين شاهنشاه بن أيوب : كتاب التاريخ ص ٢٦٢ .

(٣) Nicetas, op. cit., p. 210.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ٧١٤ ، راجع أيضا : عمر كمال توفيق مملكة بيت المقدس ص ١٨١ — ١٨٢ .

(٥) جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الاسلامية جـ ٢ ص ٢٥ .

ناحية الشمال ، أصبح عليهم أن يوزعوا قواتهم بين الشمال والجنوب لمواجهة نور الدين فى الشام وصلاح الدين فى مصر (١) ، لذلك سارع الصليبيون إلى طلب النجدات من الغرب الأوربى واتجه الملك عمورى بنفسه إلى القسطنطينية لمقابلة الامبراطور مانويل للاتفاق معه على عمل عسكرى مشترك آخر ضد مصر (٢) .

أما فيما يتعلق بالجانب البيزنطى فيروى المؤرخ كيناموس أن صلاح الدين أرسل فى أعقاب الحملة يعرض على الامبراطور مانويل تقديم جزية سنوية للقسطنطينية ولكن الامبراطور رفض العرض الذى تقدم به صلاح الدين(٣) . بينما يذكر المؤرخ نيكتاس أن الامبراطور مانويل عقد صلحا مع صلاح الدين(٤) وقد يبدو الأمر فى منتهى الغموض ازاء الروايات البيزنطية وبذلك يصبح من الصعب الأخذ بجانب منها أو رفضها خاصة وأن المصادر العربية واللاتينية لم تشر إلى مثل هذا الاتفاق ولكنه إذا تتبعنا العلاقات بين صلاح الدين والامبراطورية البيزنطية فى السنوات اللاحقة للحملة نرى أن الامبراطور الكسيوس الثانى كومنين (١١٨٠ — ١١٨٣ م) ابن الامبراطور مانويل قد أرسل فى بداية عهده يطلب عقد الصلح مع صلاح الدين وقد استجاب صلاح الدين لطلبه واشترط عدم مشاركة الامبراطورية فى أى مشروع للهجوم على مصر (٥) ، وعلى ذلك فالباحث يرفض رواية كيناموس تماما . أما المؤرخ نيكتاس فيبدو أنه خلط بين مانويل وابنه الكسيوس .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٧١٨ — ٧١٩ .

(٢) عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر ما يلى ص ٣٢١ وما بعدها .

(٣) Cinnamus, op. cit., p. 278.

(٤) Nicetas, op. cit., II, p. 210.

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٧٦٨ .

وعلى أية حال فاذا كانت الحملة الفاشلة على دمياط قد عملت على كسر حدة النفوذ البيزنطى فى منطقة الشرق الأدنى الاسلامى ، فان الأحداث التى جرت فى قيليقية حوالى ذلك الوقت قد ساعدت أيضا على هدم جانب من نفوذ الامبراطورية فى المنطقة.وترجع هذه الاحداث إلى مليح أخى الأمير ثوروس الأرمينى . فقد اختلف مليح مع أخيه لعدم ثقة ثوروس فيه ولأنه كان فاسدا وشريرا حسب ما وصفه المؤرخ ميخائيل السريانى (١) ، فأتجه مليح إلى نور الدين الذى رحب به وقال «استعين به على قتال أهل ملته وأريح طائفة من عسكرى تكون بازائه لتمنعه من الغارة على البلاد المجاورة» (٢) وقد ظل مليح فى خدمة نور الدين حتى موت أخيه ثوروس فى عام ١١٦٨ م / ٥٦٤ هـ ، وقد خلف ثوروس أبنه القاصر روبان (١١٦٨ — ١١٧٠ م) تحت وصاية الأمير توماس . وقد تمكن مليح بمساعدة نور الدين وقواته من دخول قيليقية وتعهد للأمراء الأرمن بالحفاظ على حقوق ابن أخيه، ولكن مليحا ما لبث أن نقض هذا العهد وسيطر على دفة الحكم (١١٧٠ — ١١٧٥ م) واعتقل روبان واضطر الوصى إلى الفرار خارج البلاد ولجأ إلى أنطاكية (٣) ، ثم ما لبث أن دب الخلاف بين مليح وبين هيثوم حاكم مدينة لامبرون وزوج أخت روبان ، ولكن مليح تمكن من انزال الهزيمة بقوات هيثوم (٤) ، وبدأ يقوى على جيرانه من الأرمن ثم تمكن بعد قليل من السيطرة على أدنه وطرسوس والمصيصة . ويضيف ابن الأثير أن الامبراطور مانويل أرسل جيشا كبيرا إلى قيليقية لقتال مليح ولكن مليح انتصر على القوات البيزنطية بفضل مساعدة

---

(١) Michel le Syrien, op. cit., p. 362.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١١ ص ٣٨٧ .

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 386.

(٤) Sempad, op. cit., pp. 622—4.

القوات التى أرسلها نور الدين ، كما أسرا عددا كبيرا من البيزنطيين ، ولكي يرد مليح الجميل إلى نور الدين أرسل اليه كثيرا من الغنائم وثلاثين من الاعيان الذين وقعوا فى الأسر، فسير نور الدين بعضهم إلى الخليفة العباسى المستضىء (١) . ويتفق المؤرخ الأرمينى سمباد مع ابن الأثير فى أن مليح أرسل الغناء والاسلاب إلى نور الدين ولم يشر المؤرخ سمباد إذا كانت هذه الغنائم والاسلاب بيزنطية أو أرمينية وانما يفهم من سياق النص أنها كانت أرمينية خاصة وأنه لم يتحدث اطلاقا عن البيزنطيين فى الفترة التى تولى فيها مليح حكم أرمينية (٢) . وعلى ما يبدو أن الأمر اختلط على ابن الأثير وربما اعتقد أن ما قام به مليح ضد الأرمن كان موجها ضد البيزنطيين باعتبار اقليم قيليقية كان خاضعا للحكم البيزنطى فى ذلك الوقت. ومما يجعلنا نميل إلى هذا الرأى أن المصادر البيزنطية لم تشر إلى مهاجمة مليح للامبراطورية البيزنطية أو أن القوات البيزنطية قامت بعمل عسكرى ضد مليح .

وسواء أكان ما قام به مليح فى قليقية ضد الأرمن أم ضد البيزنطيين فان مثل هذه الأعمال كانت مزعجة للامبراطور مانويل . وربما كانت الامبراطورية البيزنطية لا تخشى مليح فى هذه المرحلة لأن قتال الأرمن لبعضهم البعض يجعلهم ينقسمون إلى فرق ما بين مؤيدة ومعارضة لحكم مليح ، ولكن مانويل كان يخشى من اتحاد عسكرى أرمينى يوجه إلى صدر الامبراطورية فيما بعد خاصة وأن مليح يعتمد على نور الدين وقواته الاسلامية التى أصبحت تمتد من الشام إلى مصر .

وبينما كانت أحداث قيليقية تشغل بال الامبراطور مانويل قدم إلى

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٣٨٧ - ٣٨٨ .

(٢) Sempad, op. cit., p. 624.

القسطنطينية الملك الصليبي عموري . ويوضح لنا المؤرخ وليم الصوري أسباب وأهداف زيارة عموري للامبراطور مانويل، فروى من أسبابها أن الملك عموري استدعى النبلاء الصليبيين وشرح لهم موقف الامارات الصليبية من جميع الوجوه وأوضح أن الأخطار تحيط به من كل جانب وأن العبء أصبح ثقيلا على الامارات الصليبية خاصة وأن المسلمين يزدادون قوة وثروة يوما بعد يوم وأن الجيل الصليبي الحالى (١) لا يتمتع بالحكمة والروية وأنه لم يتمكن من الحفاظ على الممتلكات التي تسلمها من أجداده وآبائه، وأن الحالة السيئة للامارات الصليبية أصبحت لا تخفى على أحد ، وطلب الملك عموري من مستشاريه مشاركته الرأى لاصلاح حال الامارات الصليبية . وقد أتفق النبلاء الصليبيون على ضرورة الاعتماد على المساعدات الخارجية حتى يمكن للامارات الصليبية مواجهة المسلمين ، وأخيرا استقر الرأى على ضرورة طلب المساعدة من الغرب الأوربي والبابا . كما استقر الرأى أيضا على ضرورة عرض الأمر على الامبراطور البيزنطي مانويل بصفة خاصة لعدة أسباب وهي : أن الامبراطورية البيزنطية أقرب إلى الامارات الصليبية من الغرب الأوربي وأن بوسع نجدات بيزنطية أن تصل إلى الصليبيين قبل نجدات الغرب الأوربي فضلا عن تفوق الامبراطورية البيزنطية فى ثروتها عن أوربا ، كما وأن الامارات الصليبية تعتمد على بيزنطة التي طالما أمدت الصليبيين بالعون على العكس من الغرب الأوربي الذى أصبح لا يلبي نداء الصليبيين (٢) . وتبلور الموقف بين

---

(١) هو سلالة الصليبيين التي ولدت وتربت فى الأراضى المقدسة وكان يطلق عليهم البولانيين Poulains كما اطلق هذا الاسم أيضا على الطفل المولود من أم غريبة وأب صليبي المولد وذلك على سبيل السخرية والتحقير أنظر : Vitry, op. cit., p. 57—7.

(٢) عن ذلك راجع : Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 160.

الملك عمورى والنبلاء للاعتماد كلية على الامبراطورية البيزنطية وتقرر ايفاد سفارة للامبراطور مانويل على مستوى عال يتولى أمرها شخص يتصف بالحكمة والروية ، فأعلن الملك عمورى أنه سيتولى بنفسه التوجه إلى العاصمة البيزنطية . وقد اعترض بعض النبلاء على سفر الملك لأن الرحلة شاقة وصعبة بالنسبة للملك، والأهم من ذلك أن ابتعاد الملك عمورى عن الامارات الصليبية فيه خطر كبير على الصليبيين من الهجمات الاسلامية ولكن الملك عمورى أصر على التوجه إلى القسطنطينية مهما كانت النتائج (١) .

بدأت رحلة الملك عمورى فى العاشر من مارس عام ١١٧١ م / أول رجب عام ٥٦٦ هـ واصطحب معه وليم الصورى وحاشية على مستوى عال من النبلاء وقد استمرت هذه الزيارة أكثر من أربعة أشهر (٢) وقد أفاض المؤرخ وليم الصورى فى وصف الرحلة والحفلات التى أقيمت على شرف الملك وحاشيته (٣) ويهمنا فى هذا البحث النتائج السياسية التى ترتبت على هذه الزيارة ، فقد عقدت عدة اجتماعات بين الملك ومستشاريه والحال كذلك مع الامبراطور مانويل ومستشاريه واجتماعات أخرى بين المستشارين الصليبيين والبيزنطيين كما عقدت الاجتماعات بين الجانب البيزنطي والصليبي على مستوى الامبراطور والملك ، وفى هذه الاجتماعات كان الحديث يدور حول الأسباب التى دفعت الملك للقدوم إلى العاصمة البيزنطية واحتياجات الامارات الصليبية ، وقد

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, pp. 377—8.

وعن انحلال الامارات الصليبية راجع : جوزيف نسيم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة ص ٢٢ — ٢٣ .

(٢) Cinnamus, op. cit., p. 280; Ebersolt, Orient et Occidant, II, p. 11.

(٣) William of Tyre, op. cit., II, pp. 379—380.

أشاد الملك عمورى بصفة خاصة بمركز الامبراطورية البيزنطية وما لها من أمجاد سابقة (١) .

وكان من أبرز الموضوعات التى درست فى هذه الاجتماعات مشروع جديد لغزو مصر ، وقدهون الملك على الامبراطور أمر هذا المشروع وطلب من الامبراطور أن يتعهدمعه بغزو مصر ، وأخيرا وافق الأمبراطور على رغبة الملك الصليبى وعقدت معاهدة بين الامبراطور مانويل والملك عمورى (٢). وعاد الملك عمورى وحاشيته إلى الأراضى المقدسة فوصل عن طريق البحر إلى مينا صيدا فى الخامس عشر من يوليو عام ١١٧١ م / العاشر من ذى القعدة عام ٥٦٦ هـ محملا بالهدايا التى أسبغها عليه الامبراطور مانويل ورجال البلاط البيزنطى على رأسهم صهره يوحنا كما كان لحاشية الملك جانب من هذه الهدايا (٣).

وفيما يتعلق بالمعاهدة التى عقدت بين الامبراطور مانويل والملك عمورى فان نص هذه المعاهدة لم نعثر عليه فى المصادر التى تحت أيدينا ، ولكنه يمكن استخراجه من النصوص التاريخية المتعلقة بهذه الفترة كما يمكن استنتاج بعضه من الأحداث التاريخية اللاحقة لزيارة الملك للقسطنطينية ، وهى محاولة من الباحث للوصول إلى كل أو بعض ما ورد فى اتفاق مانويل وعمورى . ومن النصوص التاريخية ما أشار به المؤرخ البيزنطى كيناموس وهو أن الملك عمورى اعترف بالتبعية للامبراطور البيزنطى مانويل (٤) ، ولعل ما يدفع الباحث إلى الأخذ بهذه الرواية هو أن الملك عمورى عندما تم استقبالـه فى القـصر

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 381.
(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 382—3.
(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 383; Michel le Syrien, op. cit., p. 373.
(٤) Cinnamus, op. cit., p. 280.

الامبراطورى بالقسطنطينية جلس على مقعد أقل ارتفاعا من مقعد الأمبراطور (١) . وهو دليل على التبعية كما يحدث فى الغرب الأوربى (٢) . ومما تم الاتفاق عليه أيضا أن الأمبراطور مانويل وعد ببذل المساعدة البحرية والمالية عندما يكون الوقت مناسبا لوضع خطة لغزو مصر ، ويفهم ذلك بوضوح من النص الذى أورده وليم الصورى عندما قدمت سفارة بيزنطية إلى الأراضى المقدسة فى عام ١١٧٧ م / ٥٧٢ — ٥٧٣ هـ تطلب من الصليبيين اعداد حملة برية لغزو مصر بالاشتراك مع السفن البيزنطية تنفيذا للمعاهدة التى عقدها الملك عمورى مع الامبراطور مانويل وجددها بالشروط نفسها الملك بلدوين الرابع (٣). Baldwin IV (١١٧٣ — ١١٨٥ م / ٥٦٨ — ٥٨١ هـ) وأن كان ماأوردناه قد اعتمد على النصوص البيزنطية والصليبية ، فانه استنتاجا من الأحداث اللاحقة يمكن القول أنه تم الأتفاق على أمر ما بشأن مليح أمير أرمينية ؛ فمن المنطق أن موضوع أرمينية وما كان يدور فيها من أحداث قبل وأثناء زيارة الملك عمورى كان ضمن الموضوعات التى تناولتها المناقشات بين الامبراطور والملك ، وعلى ما يبدو أن أحداث أرمينية لم تكن مزعجة بقـــدر كبير للامبراطور مانويل بدليل ما نراه من سلوك عمورى تجاه مليح وعدم قيام الامبراطورية بأى عمل عسكرى ضد مليح حتى مماته ؛ أو ربما يكون ذلك بسبب مشاغل الامبراطورية مع السلاجقة .

لم يقتصر الأمر على عمورى فى مهاجمة مليح بل اشترك أيضا فى هـذا العمل امارة أنطاكية وأميرها بوهمند الثالث . وكان الدافع إلى هذه الحوادث

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 380.

(٢) C.M.H., IV, p. 377.

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 420.

أنظر أيضا ما يلى ص ٣٥٧ وما بعدها

هو أن توماس الوصي على أرمينية قد فر إلى أنطاكية ولجأإلىبوهمندالثالث(١). ومن الملاحظ أن توماس هذا كانت أمه أرمينية ووالده لاتيني ، كما أن مليح كان ضمن فرسان الداوية وخدم في صفوفها . ولما سيطر على الموقف في أرمينية أنزل أشد العذاب بأهل ملته وباللاتين الذين كانوا في خدمة أرمينية وأوقعهم في الأسر وبعث بهم إلى نور الدين ، وقد غضب بوهمندمن تصرفات مليح (٢) . والواضح أن توماس كان له دور في تحريض بوهمندلقتال مليح ، ولعل بوهمند أراد أيضا القيام بمهاجمة مليح لارضاء الامبراطور مانويل الذي كان له دور واضح في اطلاق سراح بوهمند ، يضاف إلى ذلك أن بوهمند كان أحد أتباع الامبراطور وعليه قتال مليح الذي تعتبر تصرفاته خروجا على السيادة البيزنطية .

على أية حال استعد بوهمند بقواته لقتال مليح ، وعندما علم عموري بذلك أسرع إلى أنطاكية على رأس قواته لتدارك الأمر قبل فوات الأوان فقد كان يرى أن قتال القوات الصليبية للقوات الأرمينية فيه اهدار لهذه القوى التي يجب ادخارها لقتال المسلمين وسعى لتحقيق السلام في أول الأمر وأرسل إلى مليح يقترح عليه الاجتماع به لتصفية هذه الخلافات وتظاهر مليح بالموافقة على طلب الملك وظل يراوغ عموري فاضطر هذا الأخير للتوجهعلىرأسقواته(٣). وعلىما يبدوأنبعضقواتأنطاكيةقد انضمت اليه وهو في طريقه إلى قيليقية فدخلها ، وقامتقواته باحراق المحاصيل التي وجدتهافي طريقهاوحاولت تخريب القلاع التي صادفتها . وفي هذه الأثناء وصلت الأخبار إلى الملك عموري تخبره

---

(١) Sempad, op. cit., p. 624; Curzon, R., Armenia, p. 247.
(٢) William of Tyre, op. cit., II, pp. 386—7.
(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 387.

أن نور الدين قام بمهاجمة حصن الكرك (١) ذو الأهمية العسكرية الخاصة لدى الصليبيين (٢)، فاضطر للعودة بأسرع وقت إلى بيت المقدس تاركاأرمينية على حالها (٣) . وانتهت هذه الأحداث فى عام ١١٧٣ م / ٥٦٨ هـ ، ثم ما لبث عمورى أن مات فى العام التالى ، وبعد سنة أخرى اغتيل مليح وخلفه فى امارة أرمينية روبان الثالث ١١٧٥ — ١١٨٧ م / ٥٦٨ — ٥٨٣ هـ (٤) ، ولم تشر المصادر التى تحت أيدينا إلى أى عمل عسكرى قامت به الامبراطورية ضد مليح أو ضد خليفته ، ولعل ذلك مرجعه إلى أن حاكم أرمينية الجديد قد سار فى فلك الامبراطورية البيزنطية كما أن الامبراطورية كانت مشغولة فى هذا الوقت بالصراع مع البنادقة والسلاجقة .

ويهمنا فى هذا البحث صراع الامبراطورية البيزنطية مع السلاجقة الذين

(١) كان من المتفق عليه أن يقوم نور الدين وصلاح الدين بمهاجمة الحصن معا ولكن صلاح الدين انسحب إلى مصر قبل أن يصل إلى الحصن لخوفه من نور الدين فى هذا الوقت بسبب ما كان بينهما من خلاف . عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر : ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٣٩٢ — ٣٩٤ ، ابن العديم : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٣٨ — ٣٣٩ . بينما يروى ابن شداد أن صلاح الدين هو الذى هاجم الحصن وجرى بينه وبين الفرنج وقعات ولكنه لم يظفر بشىء ابن شداد : المصدر السابق ص ٤٥ .

(٢) أما حصن الكرك نفسه فكان يقع مكان كرموآب Ker Moab ، والكرك اسم محرف عن السريانية كاركو Karko التى تعنى حصن . وقد بنى هذا الحصن باين Payen ساقى الملك فولك الانجوى عام ١١٤٢ م وهو قلعة حصينة فى أطراف الشام من نواحى البلقاء ويقع على سن جبل عال يحيط به الأودية من جميع الجهات عداجهة الربض ويقال أنه مكانه كان ديرا للروم وبه الحدائق والآبار وترجع أهمية الحصن إلى وقوعه فى جنوب الشام حيث ملتقى التجارة وحركة المرور بين العالم الاسلامى وقد استعاد صلاح الدين هذا الحصن بالاضافة إلى قلعة الشوبك المجاورة له عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م عن ذلك أنظر : لى سترانج : فلسطين فى العصر الاسلامى ص ٤٥٠ — ٤٥١ ، ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٦٣ ، شمس الدين الانصارى : نخبة الدهر ص ٢١٣ ، الأصفهانى : الفتح القس ص ٥٩ — ٢٦٠ .

(٣) William of Tyre, op. cit., II, pp. 387—8.

(٤) Michel le Syrien, op. cit., p. 379.

كانوا أشد أعداء الامبراطورية خطورة فى الشرق لاتصالهم المباشر بحدود الامبراطورية البيزنطية.فبعد أن قام السلطان قلج أرسلان بزيارة القسطنطينية وجدد معاهدة الصلح مع الامبراطور مانويل ظن الامبراطور أنه أخضع السلاجقة لسلطانه ولكن هذا الخضوع كان خضوعا مؤقتا لكى يستغل قلج أرسلان هذه الفرصة فى صراعه مع آل دانشمند (١) . وقد حانت الفرصة للسلطان السلجوقى عندما توفى ياغى أرسلان عام ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م وقيام الصراع على الحكم بين آل دانشمند حتى انتهى الأمر إلى تولى ذو النون حكم سيواس مرة أخرى ٥٦٤ — ٥٦٩ هـ / ١١٦٨ م — ١١٧٣ م (٢) واتخذلنفسه لقب ناصر الدين (٣) .

وقد تمكن قلج أرسلان من استمالة ذى النون إلى جانبه كما استولى قلج أرسلان على بعض ممتلكات ناصر الدين محمد بن ذى القرنين حاكم ملطية (٥٥٦ — ٥٦٧ هـ / ١١٦٠ — ١١٧١ م) وذلك فى عام ١١٦٨م؛ ثم انقلب على ذى النون واستولى على أملاكه فى العامنفسه وأخيرا استدار إلى أخيهشاهنشاه وطرده من أنقرة وجانجرس فى العام التالى (٤) . وكان على هؤلاء البحث عن قوى خارجية لمساندتهم ضد قلج أرسلان . ولما كان الامبراطور مانويل مشغولا فى أوربا فى هذا الوقت فقد لجأ آل دانشمند وشاهنشاه إلىنور الدين. ولما كان نور الدين غير راض عن توسعات قلج أرسلان فقد أخذ يستعد لقتال السلطان السلجوقى ، وعندما حانت له الفرصة سار على رأس قواته

---

(١) عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٤٠ — ١٤١ .

(٢) عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر : Michel le Syrien, op. cit., p. 359.

(٣) زامباور : المرجع السابق : جـ ٢ ص ٢٢١ .

(٤) Cinnamus, op. cit., p. 291; Michel le Syrien, op. cit., p. 359.

واتجه إلى الممتلكات السلجوقية وتمكن من الاستيلاء على مرعش فى أوائل ذى القعدة عام ٥٦٨ هـ / حوالى منتصف يونية عام ١١٧٣ م، ثم ما لبث أن استولى على كيسون وبهنسى وغيرها من بلاد السلاجقة ثم اتجه إلى سيواس واستولى عليها أيضا، ولم يجد السلطان قلج أرسلان مخرجا سوى مفاوضة نور الدين . وأخيرا استقر الرأى على بقاء ذى النون فى حكم سيواس تحت حماية عساكر نور الدين (١)، ولم ينجح نور الدين فى اعادة شاهنشاه إلى أملاكه خاصة بعدما هدد قلج أرسلان بقتل أولاد شاهنشاه (٢) ، كما تم الأتفاق أيضا بين نور الدين وقلج أرسلان على القيام بعمل مشترك ضد الامبراطورية البيزنطية (٣) ، ولكن نور الدين ما لبث أن توفى فى العام التالى (٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م) .

وبموت نور الدين فقد ذو النون نصيره الأول كما أن عساكر نور الدين التى كانت فى خدمته رحلت عنه إلى الشام بعد وفاة نور الدين فاغتنم قلج أرسلان الفرصتين واستولى على سيواس (٤)، ففر ذو النون وانضم إلى شاهنشاه شقيق قلج أرسلان واتجها إلى القسطنطينية هذه المرة يلتمسان مساعدة الامبراطور مانويل (٥) الذى كان قد فرغ من مشاكله فى الغرب تقريبا وعقد الصلح مع البنادقة (٦) ، وبدأ يتطلع إلى الاهتمام بشئون آسيا الصغرى بعد حوالى اثنى

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٣٩١ — ٣٩٢ ، ابن العديم ج ٢ ص ٢٣٧ .

(٢) Michel le Syrien, op. cit., pp. 373—4.

(٣) روى ابن الأثير أن ابن نور الدين قال للسلطان قلج أرسلان «أنت مجاور الروم ولا تغزوهم ، وبلادك قطعة كبيرة من بلاد الاسلام، ولابد من الغزاة معى» فأجابه قلج أرسلان إلى ذلك . أنظر ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٣٩٢ .

(٤) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) Cinnamus, op. cit., p. 295.

(٦) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١٤٤ .

عشر سنة استغلها قلج أرسلان أحسن استغلال فى دعم نفوذه على آل دانشمند.

لم تكن فترة الاثنى عشر عاما الممتدة من عام ١١٦٢ حتى عام ١١٧٤ م فترة سلام مطلق بين السلاجقة والامبراطورية البيزنطية ، فمن الملاحظ أن السلطان قلج أرسلان لم يقم بتنفيذ معاهدة عام ١١٦٢ م كاملة وأنه لم يرد إلى الامبراطورية المدن التى استولى عليها وتعهد بردها طبقا لهذه المعاهدة ، كما أن القبائل السلجوقية الرحل كثيرا ما قامت بانتهاك حدود الامبراطورية ولكن السلطان قلج أرسلان كان فى منتهى الذكاء والدهاء عندما اعتذر للامبراطور عن مثل هذه الأعمال موضحا أنه غير راض عن هذه الانتهاكات وقدم له بعض الهدايا(١) ، وبهذه التسويات الودية نجح السلطان السلجوقى فى كسب الوقت لدعم نفوذه فى آسيا الصغرى على العكس من الامبراطور مانويل الذى لم يقم بأى عمل فى آسيا الصغرى سوى اقامة بعض التحصينات الدفاعية التى كلف بها كل من بازل تزيكاندل Basil Tzikandel وميخائيل أنجيلوس Michel Angelus لتنفيذها ولقد كان أشد هذه التحصينات ما تم اقامته عند نهر المياندر ونهر هرمس لتربط بين مدن المنطقة وبعضها (٢) .

كانت العلاقات السلجوقية البيزنطية قد بدأت فى التوتر عام ١١٧٣ م عندما تحالف نور الدين مع قلج أرسلان لقتال البيزنطيين ، فاشتد القلق بالامبراطور مانويل واتصل بالسلطان السلجوقى وأوضح له أنه على استعداد لمهاجمة نور الدين إذا قام بمهاجمة الاملاك السلجوقية مقابل انسحاب قلج أرسلان من هذا التحالف (٣) ، وعلى ما يبدو أن قلج أرسلان وافق

---

(١) Nicetas, op. cit., p. 158.

(٢) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١٤٠ أنظر أيضا :
Nicetas, op. cit., pp. 163, 193—5.

(٣) Cinnamus, op. cit., p. 289.

الامبراطور مانويل على طلبه . ثم ما لبث أن توفى نور الدين فارتاح الامبراطور البيزنطى من خطر كان يهدده وبدأت العلاقات تعود من الناحية الظاهرية لتكون علاقات ودية . ولكن حقيقة الأمر كانت غير ذلك فقد كان كل جانب يستعد من جانبه ليغتنم الفرصة لقتال الطرف الآخر وهو أحسن استعدادا من خصمه (١) .

وفى عام ١١٧٤ م ظهرت بعض العوامل التى ساعدت على نشوب الحرب بين السلاجقة والامبراطورية البيزنطية، فمما لاشك فيه أن فرار شاهنشاه وذى النون إلى القسطنطينية وترحيب الامبراطور مانويل بهما قد أثار مخاوف قلج أرسلان وبات يتوقع الخطر بين ليلة وأخرى ،وعلى ما يبدو أيضا أن الامبراطور فريدريك باربارسا Frederick Barbarossa امبراطور ألمانيا (١١٥٢ — ١١٩٠ م) قد دخل فى مفاوضات مع السلطان قلج أرسلان باعتباره أشد أعداء الامبراطورية البيزنطية فى الشرق وحثه على قتال الامبراطور مانويل ، وكان فريدريك يقصد من وراء ذلك أن يتحول الامبراطور مانويل عن المسائل الأوربية إلى الاهتمام بأمور آسيا الصغرى (٢) . كما أن قضاء السلطان السلجوقى على آل دانشمند تقريبا قد شجعه على قتال الامبراطور مانويل بعد ما تخلص من عدو طالما كان يهدد ظهره أثناء حروبه مع الامبراطورية البيزنطية، وفوق ذلك أن آل دانشمند اعتمدوا فى هذه المرحلة على مساندة نور الدين الذى ازداد نفوذه فى الفترة الأخيرة وقيام الخليفة العباسى فى بغداد باصدار منشور يقضى بتعيين نور الدين حاكما على الموصل

---

(١) Finlay, op. cit., III, p. 190.

(٢) Chalandon, op. cit., pp. 598—9.

والجزيرة واربل وخلاط والشام وديار مصر وبلاط قلج أرسلان (١)، وأخيرا فان أمن السلاجقة لا يتحقق من ناحية الحدود الغربية إلا باستيلاء السلاجقة على بقية الممتلكات البيزنطية الواقعة فى آسيا الصغرى .

هذا ما يختص بجانب السلطان قلج أرسلان ، أما فيما يتعلق بجانب الامبراطور مانويل والعوامل التى أدت إلى قيام الحرب بين الامبراطورية البيزنطية والسلاجقة فى هذا الوقت ، فيمكن القول أن هناك بعض الأسباب التى ترجع إلى الغرب الأوربى والآخر إلى الجانب الشرقى . ومن الأسباب الأوربية يمكن القول أن الامبراطور مانويل قد فرغ من مشاكله لبعض الوقت بعدما عقد الصلح مع البنادقة ، يضاف إلى ذلك أن استئناف الصراع بين البابا وفريدريك بارباروسا قد أعطى الفرصة للامبراطور مانويل لاستئناف الحرب مع السلاجقة واعادة حقوق الامبراطورية فى آسيا الصغرى ووضع حدللتوسع السلجوقى (٢) . أما الأسباب الشرقية فمما لاشك فيه أن فرار ذى النون وشاهنشاه كان من العوامل التى ساعدت على تجدد القتال بين الامبراطورية والسلاجقة خاصة وأن هذين الأميرين كانا يعتمدان على بعض العناصر المؤيدة لهما فى الامارات الدانشمندية (٣) ، يضاف إلى ذلك أن التحصينات التى أقامها مانويل فى مدينة لاودكيا فى وادى نهر المياندر قد شجعت بعض العناصر الوطنية البيزنطية على العودة إلى هذه المنطقة وتعميرها وامداد الخزانة البيزنطية بالضرائب المعتادة ، ولاشك أن الامبراطور قد شعر بقيمة هذا العامل

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٣٩٢ .

(٢) Vasiliev, op. cit., II, p. 78.

(٣) أنظر مايلى ص ٣٣٩ .

الاقتصادى وكان عليه أن يؤمن بقاء هؤلاء المواطنين فى هذه المناطق حتى لا يهجروها ويكفوا عن دفع الضرائب (١) .

أما عن الأسباب المباشرة التى أدت إلى قيام الحرب بين الامبراطورية البيزنطية والسلاجقة هى أن الامبراطور مانويل أرسل إلى السلطان قلج أرسلان يطلب منه أن يعيد إلى شاهنشاه وذى النون أملاكهم (٢) . كما أرسل إليه أيضا يطلب منه اعادة المدن التى لم يكن قد أعادها حتى ذلك الوقت طبقا لمعاهدة ١١٦٢ م (٣) . وفى الوقت الذى أرسل فيه مانويل إلى السلطان السلجوقى يطلب منه تحقيق ذلك كانت القوات البيزنطية على أهبة الاستعداد للقتال (٤) ، مما يشير إلى أن الامبراطور البيزنطى قد عقد العزم على قتال السلاجقة وافترض مقدما عدم قيام السلطان بتحقيق رغبات الامبراطور . وعلى ما يبدو أن قلج أرسلان لم يكن قد استعد للقتال وحتى يعمل على كسب الوقت أبدى موافقته على رد المدن للامبراطورية البيزنطية وطلب من الامبراطور مانويل ارسال مندوب عنه لاستلام هذه المدن فأرسل الامبراطور البيزنطى قائده الكسيوس أف أولبس Alexius of Aulps ومعه قوة بلغ تعدادها ما يقرب من ستة آلاف من الجنود البيزنطيين لتنفيذ هذه المهمة (٥). ولما كان قلج أرسلان عازما على عدم رد هذه المدن للامبراطور مانويل وحتى يظهر حسن نواياه تجاه الامبراطور وأن الرفض لم يأت من جانبه أرسل إلى سكان هذه المدن واعدا اياهم على ما يبدو ببعض المزايا إذا بقيت مدنهم

---

(١) Nicetas, op. cit., p. 195.

(٢) Michel le Syrien, op. cit., p. 383.

(٣) Cinnamus, op. cit., p. 292.

(٤) Michel le Syrien, op. cit., p. 383.

(٥) Nicetas, op. cit., p. 226; Cinnamus, op. cit., p. 292.

تابعةللسلاجقة ، كما وعد أيضا بمساندتهم ضد البيزنطيين فانحاز السكان إلى جانب السلطان السلجوقى ورفضوا تسليم المدن إلى المندوب البيزنطى فعاد دون أن يحق المهمة التى أوفد من أجلها الأمر الذى أغضب الامبراطور مانويل واعتبره خدعة من جانب السلطان قلج أرسلان (١) .

إذا كان الامبراطور مانويل قد أحس بالدور الذى لعبه قلج أرسلان ونتج عنه عدم رد المدن للامبراطورية ، فان الامبراطور أدرك أيضاأن السلطان السلجوقى سوف لا يوافق على رد أملاك آل دانشمند إلى ذى النون وكذلك اعادة مدينتى أنقرة وجانجرس إلى شاهنشاه ، وبدأ التفكير فى استعمال القوة ضد السلاجقة فى الوقت الذى وصلت فيه القوات البيزنطية بقيادة الامبراطور مانويل إلى مدينة ضروليوم . والواضح أن شاهنشاه قد لعب دورا فى هذا الوقت وحرض الامبراطور على مهاجمة مدينة أماسية التى تقع إلى الشرق من جانجرس وهون الأمر على الامبراطور وأوضح له أن بعض أعوانه فى هذه المدينة التى لا تخضع للسلطان السلجوقى سوف يقدمون له المساعدة ، ولعل شاهنشاه كان يقصد من وراء ذلك أن يتسلم هذه المدينة ليحكمها عوضا عن أملاكه التى استولى عليها أخوه قلج أرسلان ، وعلى أية حال فان الامبراطور مانويل الذى لم يكن راغبا إلى دفع قواته الأصلية إلى مثل هذه الحروب الفرعية طلب من قائده جابراس Gabras التوجه إلى المقاطعات القريبة من مدينة أماسية وجمع بعض القوات البيزنطية ومهاجمة المدينة ، وكان أن اتجه جابراس إلى بفلاجونيا وطرابيزون ومعه شاهنشاه وتم حشد بعض القوات البيزنطية واتجها إلى أماسية ، والواضح أن كل من شاهنشاه وجابراس تولى

---

(١) Cinnamus, op. cit., p. 293.

قيادة جانبا من القوات البيزنطية ، وقد نجح جابراس فى الوصل بقواته إلى مدينة أماسية فرحب به أهلها وطلبوا منه دخول المدينة ولكنه خشى من محاصرة السلاجقة — التى كانت على مقربة منه — للمدينة فقرر الانسحاب . وقد شجعه على ذلك ما بلغه من أخبار هزيمة القوات التى كان يقودها شاهنشاه على أيدى القوات السلجوقية . وانتهى الأمر بعودة جابراس وشاهنشاه إلى معسكر الامبراطور عند ضروليوم (١)، فى صيف عام ١١٧٥ م / أوائل عام ٥٧١ هـ تقريبا .

وحوالى ذلك الوقت أو بعده بقليل بدأ الامبراطور مانويل فى العمل على زيادة تحصينات الحدود البيزنطية فى آسيا الصغرى والحقيقة أن الوقت كان متأخرا جدا بالنسبة للامبراطورية البيزنطية للقيام بمثل هذا العمل بعدما سيطر قلج أرسلان تقريبا على معظم آسيا الصغرى وهزم منافسيه واحدا بعد الآخر وكون دولة متجانسة قوية تحل محل الامارات الصغيرة المتنافسة التى طالما خدم تنافسها الامبراطورية البيزنطية (٢) وعلى أية حال فقد خطط مانويل لاقامة عدة تحصينات عند مدينة ضروليوم التى كانت خربة فى هذا الوقت باعتبار أن هذه المنطقة تمثل نقطة استراتيجية هامة فى قلب آسيا الصغرى وتتحكم فى عديد من الطرق التى تتشعب منها إلى كافة الاتجاهات .

ولكى يقيم مانويل مثل هذه التحصينات كان عليه أن يقوم أولا بطرد السلاجقة الرحل الذين كانوا يضربون خيامهم حول هذه المنطقة، ثم بدأت أعمال التحصينات وسار العمل على قدم وساق حتى تم اعداد السور خلال أربعين يوما كما تم حفر خندق أمام هذا السور ، ولم تسلم القوات البيزنطية

---

(١) Cinnamus, op. cit., pp. 294—6.

(٢) Diehl, op. cit., p. 149; Byron, The Byzantine Achievement, p. 149.

من مهاجمة القبائل السلجوقية أثناء قيام هذه التحصينات ، كما أن السلطان قلج أرسلان اعتبر قيام مثل هذه الأعمال الدفاعية دليل على سوء نية الامبراطور وأنه يعد العدة لمحاربته ، لذلك أرسل قلج أرسلان إلى الامبراطور مانويل يستفسر منه عن الأسباب التي دعت إلى بناء هذه التحصينات فأوفد مانويل أحد قواده ويدعى توماس ليبلغ السلطان بأنه بدأ بالعدوان وأنه كان السبب فى اخفاق جابراس فى مهمته وليطالب أيضا السلطان بتسليم مدينة أماسية ولكن قلج أرسلان لم يوافق على طلب الامبراطور فعاد المبعوث البيزنطى فاشلا فى مهمته (١).

بدأ الموقف يزداد توترا بين السلطان والامبراطور ، وبازدياد هذا التوتر زادت اقامة التحصينات (٢) ، فبعد ما فرغ مانويل من اقامة التحصينات عند ضروليوم اتجه إلى مدينة لوباديون لتفقد القوات البيزنطية هناك ثم اتجه جنوبا إلى وادى نهر الماندر وقام هناك لبعض الوقت تم فيه تحصين المنطقة خاصة مدينة سوبلايون Soublaion للسيطرة على الطرق المواجهة لمدينة قونية ثم عاد إلى العاصمة البيزنطية فى أواخر عام ١١٧٥ م ، وأثناء اقامة الامبراطور مانويل فى القسطنطينية حدث أمران ، أولهما ، أن الامبراطور عاقب جابراس بالسجن لفشله فى الاستيلاء على مدينة أماسية ، وثانيهما أن السلطان قلج أرسلان أرسل إلى الامبراطور يعرض عليه الصلح ويقترح تجديد معاهدة عام ١١٦٢ م ولكن الامبراطور مانويل رفض هذا العرض (٣) .

وبذلك بات الأمر واضحا أن الحرب واقعة لا محالة بين الامبراطورية البيزنطية والسلاجقة وأخذ كل منها يستعد للقتال. والواقع أن الامبراطور

---

(١) Cinnamus, op. cit., pp. 296—7.

(٢) Finlay, op. cit., III, p. 191.

(٣) Cinnamus, op. cit., pp. 297—9; Nicetas, op. cit., p. 229.

مانويل كان أكثر استعداد للقتال بعدما كرس كل همه لهذا الغرض وأعد العدة لحرب طويلة مع السلاجقة وظل حتى ربيع عام ١١٧٦ م / أواخر عام ٥٧١ هـ تقريبا يعمل على خزن كميات كبيرة من المؤن — عند معسكره الذى أقامه عند لاباديون — التى أحضرها من تراقيا وحملت على ثلاثة آلاف مركبة كما قام بحشد قواته فى هذا المعسكر بالاضافة إلى القوات التى انضمت اليه من الصرب وهنغاريا (١) بحكم ولائهما للامبراطورية . ولم يكتف الامبراطور بهذا الحشد من القوات البيزنطية التى اشتملت أيضا على عناصر صليبية وانجليزية (٢) وهى العناصر اللاتينية التى تعمل فى القوات البيزنطية، بل أرسل إلى البابا الكسندر الثالث خطابا فى التاسع والعشرين من يناير فى العام نفسه يبلغه بتطورات الموقف فى آسيا الصغرى ويطلب منه ارسال نجدات من الغرب الأوربى لمساعدة الامبراطورية فى حروبها ضد السلاجقة (٣) ، وقد لبى البابا نداء الامبراطور وكلف أحد الكرادلة ويدعى شريزوجون Chrysogone بالتوجه إلى ملك فرنسا يحثه على حمل الصليبية . وانتشرت الأخبار فى كل ربوع أوربا باستعداد الامبراطور مانويل لحرب السلاجقة، وظهر أمام الغرب والبيزنطيين والصليبيين أن الأمبراطور مانويل كما لو كان يعد العدة

---

(١) Cinnamus, op. cit., p. 299.

(٢) يتضح ذلك من الخطاب الذى أرسله الامبراطور مانويل إلى هنرى الثانى ملك انجلترا حول هذه المعركة وأشار بأن الانجليز الذين كانوا فى المعركة سيبلغوا الملك بكافة التطورات . أنظر :

Manuel I Comnenus, letter to Henry II dated 1176, cf. Roger of Hovenden, op. cit., I, p. 422.

(٣) Manuel I Comnenus, letter to the pope Alexander III, dated 1176, cf. R.H.G.F. Vol. XV, p. 952.

لحملة صليبية ضخمة لقتال السلاجقة والمسلمين على حد وصف بعض المؤرخين (١) . وفى صيف عام ١١٧٦ م / أوائل عام ٥٧٢ هـ كانت القوات البيزنطية البرية قد استعدت للقتال (٢) . .

ولنقف وقفة قصيرة لمناقشة الأسباب التى أدت إلى قيـــام فكرة أن الامبراطور مانويل يعد لحملة صليبية ضد العالم الاسلامى وانتشار هذه الفكرة فى الشرق والغرب على السواء ، فمما لاشك فيه أن ما طلبه الامبراطور مانويل من البابا لارسال النجدات لقتال السلاجقة فسر نحو هذا الاتجاه كما أن قيام البابا بدعوة لويس السابع إلى الاستعداد لحملة صليبية قد أيد هذا الرأى . ومن العوامل التى ساعدت على نشر هذه الفكرة أسطورة الكاهن يوحنـــا Prester John لأنه فى عام ١١٥٠ م أخذ الغربى الأوربى يتداول رسالة جرى الزعم أن كاتبها هو الكاهن يوحنا ووجهها إلى الامبراطور مانويل بغرض التعاون المشترك بينهما للقضاء على العالم الاسلامى ، ورغم أنه كان من المعروف أن هذا العمل من تزييف أحد القساوسة الألمان إلا أن الغـــرب الأوربى لم يتغافل هذه الرسالة وظل يتناقلها منتظرا الوقت الذى يظهر فيه الكاهن يوحنا ليتعاون مع الامبراطور مانويل فى القضاء على المسلمين (٣) . وإذا كان

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 414; Nicetas, op. cit., p. 230; Chalandon, op. cit., p. 506.

وعن مفهوم الحملات الصليبية التى قادها الاباطرة البيزنطيون أنظر : عمر كمال توفيق : مقومات العدوان الصليبى على الشرق العربى ص ١ وما بعدها .

(٢) Cinnamus, op. cit., p. 299.

(٣) Runciman, op. cit., II, pp. 422—3, III, p. 163.

وعن نص الخطاب المرسل من الكاهن يوحنا إلى الامبراطور مانويل أنظر :

Youssouf Kamal, Monamenta Cartographica Africae et Aegypti, t. III, fasc. IV, pp. 890—1.

ذلك ما ساعد على انتشار الفكرة من الناحية النظرية ، فمن الوجهة العملية أن الامبراطور مانويل قد حشد عشرات الآلاف من الجنود من شعوب متعددة لقتال السلاجقة . أما عن قتال بقية العالم الاسلامى فيروى المؤرخ البيزنطى كيناموس أن الامبراطور أعد فى هذا الوقت مائة وخمسين سفينة أخذت اتجاها إلى سواحل مصر (١) . وبدراسة الحملات البحرية التى أغارت على شواطىء مصر فى الفترة من ٥٦٩ إلى ٥٧٣ هـ / ١١٧٤ — ١١٧٨ م يتضح لنا أنها ثلاث غارات الأولى على الاسكندرية والثانية والثالثة كانت على مدينة تبنيس وجميعها جاءت من قبل مملكة صقلية (٢) فى عهد وليم الثانى William II (١١٦٦ — ١١٨٤ م) .

ومن ذلك يتضح لنا أن السفن البيزنطية التى أشار إليها المؤرخ كيناموس لم تقم بأى عمل عسكرى ضد مصر كما يلاحظ أيضا أن العدد الذى أشار إليه المؤرخ نفسه كان مناسبا لغزو مصر ، فهل كان اتجاه السفن إلى سواحل المدن الصليبية بالشام لتكون نواة للاسطول البيزنطى الذى تعهد الامبراطور به لمساعدة الصليبيين طبقا للمعاهدة التى عقدها مع الملك عمورى وجددها الملك بلدوين ؟ الواقع أن المصادر الصليبية لم تشر إلى مثل ذلك ، والأرجح أن صحت هذه الرواية أن هذه السفن اتجهت إلى قبرص وقبعت هناك خاصة وأن صقلية كانت لها تحركات عسكرية بحرية فى هذا الوقت وربما خشى الامبراطور من مهاجمة صقلية لجزيرة قبرص أو أن الامبراطور قد أمر بابحار هذه السفن بدعوى قتال المسلمين فى مصر لزيادة حماس القوات البرية .

على أية حال فقد كان من الواضح أن الامبراطور يعد العدة للقيام بحرب

---

(١) Cinnamus, op. cit., p. 309.

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٩١ — ٢٩٢ .

شاملة فى الشرق تتولى القوات البيزنطية والقوات المتحالفة معها أو الداخلة فى تبعية الامبراطورية جانب آسيا الصغرى ويتولى الاسطول البيزنطى جانب مصر بالاشتراك مع الصليبيين .

والمهم أنه فى صيف عام ١١٧٦ م / أواخر عام ٥٧١ هـ بدأت القوات البيزنطية تستعد لمهاجمة السلاجقة وقام الامبراطور مانويل بتقسيم قواته إلى قسمين ، القسم الأول منها لمهاجمة السلاجقة من الشمال وتولى قيادته أندرونيكوس فاتازس Andronicus Vatazes ابن عم الامبراطور ومعه ذو النون حاكم سيواس الذى طرده قلج أرسلان وبلغ تعداد ما تحت أيديهما من قوات ما يقرب من خمسين ألفا حسب رواية ميخائيل السريانى(١). وكانت وجهتها مدينة نيكسار التى كانت داخلة تحت حكم ذى النون من قبل وذلك لوجود بعض الموالين لآل دانشمند فى هذه المدينة . اتجه فاتازس وذو النون والقوات البيزنطية — التى كانت معظمها قد جمع من اقليم بفلاجونيا — إلى الشمال وتمكنت القوات البيزنطية من حصار نيكسار (٢) . وعلى ما يبدو أن الحصار كان شديدا على المدينة لضخامة القوات البيزنطية وقربها من اقليم بفلاجونيا البيزنطى الذى أمدها بالرجال والسلاح ، لذلك لجأ السلاجقة إلى الحيل لضرب القوات البيزنطية. وتنفيذا لذلك قام حاكم المدينة الذى أطلق عليه ميخائيل السريانى «التركى الماكر» بالقاء خطابات إلى داخل المعسكر البيزنطى موجهة إلى القائد البيزنطى ويعنى ما ورد بها أن الدانشمنديين الذين سلمت لهم القيادة يريدون أن يوقعوا بالقائدفى أيدى السلاجقة الذين أعدوا له الكمائن

(١) Michel le Syrien, op. cit., p. 383.

(٢) Nicetas, op. cit., p. 236; Michel le Syrien, op. cit., p. 383.

وهم ينتظرون الفرصة المناسبة . فلما أطلع القائد البيزنطى على هذه الخطابات صدق ما ورد بها وبدأ يتوقع خيانه ذى النون . وبعدما انتشر خبر هـــذه الخطابات داخل المعسكر البيزنطى وبدأ التوتر ينتشر بين القوات البيزنطية لجأ السلاجقة إلى حيلة أخرى وأشاعوا خبر موت الامبراطور مانويل فانتشر الذعر داخل المعسكر البيزنطى واضطروا إلى رفع الحصار والانسحاب فى حالة من الفوضى الأمر الذى سهل مهمة السلاجقة فى تعقب القوات البيزنطية وأنزلوا بها هزيمة ساحقة (١) . وقتل فى هذه المعركة القائد البيزنطى وحملت رأسه إلى السلطان قلج أرسلان (٢) .

هرعت القوات البيزنطية التى نجت من الكارثة إلى الامبراطور مانويل الذى كان يتولى قيادة القسم الثانى من القوات البيزنطية وهو القسم الرئيسى متخذا طريقه إلى قونية لقتال السلاجقة لتبلغه بالكارثة التى حلت بالقـوات البيزنطية عند نيكسار ومقتل فاتازس وقد انزعج الامبراطور لهذه الأخبـار أشد الانزعاج (٣) . وعلى ما يبدو أن الامبراطور مانويل قد ظن أن القوات السلجوقية لازالت عند نيكسار وأن العاصمة السلجوقية قونية أصبحت خالية من القوات لذلك نجده يحاول الوصول إلى قونية فى أقرب وقت ممكن لـكى يفاجىء السلاجقة . ولم يسلك طريق ضروليوم وهو الطريق المعتاد بل اتجه ومن معه إلى القوات إلى مدينة لاودكيا الواقعة على نهر المياندر فى السابع عشر من سبتمبر عام ١١٧٦ م / الحادى عشر من ربيع أول عام ٥٧٢هـ، واخترق وادى النهر حتى وصل إلى مدينة سوبلايون ثم سار شمالى بحيرة اجردير Egerdir

(١) Michel le Syrien, op. cit., p. 383.
(٢) Nicetas, op. cit., p. 236.
(٣) Michel le Syrien, loc. cit.

واتجه إلى الجبال الضخمة المعروفة باسم سلطان داغ التى تقع إلى القرب من قونية وحاول عبور الممر الواقع فى هذه الجبال المعروف باسم ممر تزيبرتز Tzibritze الذى يقع فى نهايته قلعة ميريوكيفالون الخربة ليكون فى مواجهة مدينة قونية مباشرة (١) .

بدأت المتاعب تحيق بالقوات البيزنطية عندما بدأت تعبر هذا الممر الجبلى ويصف الامبراطور مانويل نفسه حالة الجيش البيزنطى فروى أن العربات التى كانت تجرها الثيران كانت كثيرة العدد كبيرة الحجم يضاف إلى ذلك معدات الحصار التى كانت ترافق الجيش ، ونظرا لضيق الممر اضطرت القوات البيزنطية أن تسير إلى جانب العربات والمعدات والدواب متلاصقة إلى جوار بعضها ، وليس ذلك فحسب بل أن القوات البيزنطية أصيبت بمرض أدى إلى انتشار الاسهال فخارت قواها لدرجة أن الامبراطور مانويل قد وصف أجساد قواته فى هذه المرحلة بأنها كانت لينة كالشمع (٢) .

لم يكن تقدم القوات البيزنطية إلى قونية مفاجأة للسلاجقة ، ولعل السلطان قلج أرسلان قد علم بتقدم الامبراطور ومكان تجمع القوات البيزنطيةمن بعض الأسرى البيزنطيين الذين وقعوا فى أيدى القوات السلجوقية عند نيكسار وعن طريق القبائل السلجوقية الرحل التى تجوب المنطقة . وتروى المصادر البيزنطية أن قلج أرسلان كان قد أرسل فى طلب النجدات من أمراء الشرق الاسلامى حتى أصبحت القوات التى كانت تحت قيادة السلطان السلجوقى أكبر من

---

(١) Nicetas, op. cit., p. 230, cf. Also; Sempad, op. cit., p. 626; Ostrogorsky, op. cit., p. 347: Vasiliev, op. cit., II, p. 82.

(٢) Manuel I, op. cit., p. 420.

حجم القوات البيزنطية (١) أو على الأقل مساوية لها (٢) والواقع أن المصادر العربية لم تشر إلى مثل هذه النجدات ولعل الامبراطور حاول أن يصور للملك الانجليزى كبر حجم القوات التى هاجمته وأنه كان يحارب القوات الاسلامية كلها بمفرده . والواضح أن القوات السلجوقية كانت متمرسة على قتال البيزنطيين وتجيد فنون القتال فى الممرات (٣) ، ومن خير الأدلة على ذلك قتال السلاجقة لجيش كونراد ولويس السابع (٤) .

ومن فنون القتال التى مارسها السلاجقة فى هذه المرحلة أنهم لم يدخلوا فى صراع مباشر مع القوات البيزنطية فى أول الأمر بل قاموا بحرق المحاصيل التى تقع فى الأراضى المارة بها القوات البيزنطية كما قاموا أيضا بتسميم الآبار حتى تحرم الجيش البيزنطى من المأكل والمشرب(٥) ، واكتفت القوات السلجوقية فى هذا الوقت بمناوشة الجيش البيزنطى فى بعض المواقع ثم ما لبثت أن تراجعت (٦) ولعل القوات السلجوقية كانت تقصد من وراء هذا الانسحاب دفع القوات البيزنطية إلى التقدم داخل الممر فى أسرع وقت ممكن . وعند هذه المرحلة من القتال يروى المؤرخ البيزنطى نيكتاس أن السلطان قلج أرسلان عرض الصلح على الامبراطور يل ولهذا السبب قام الامبراطور بدعوة مستشاريه وقواده للتداول فى أمر الصلح مع السلاجقة ولكن العناصر الشابة التى حضرت الاجتماع رفضت عرض السلطان وأصرت على مواصلة الحرب (٧). ولعل

(١) Manuel I, loc. cit.
(٢) Nicetas, op. cit., p. 231.
(٣) Finlay, op. cit., III, p. 191.
(٤) أنظر الفصل الثانى من هذا الكتاب .
(٥) Nicetas, op. cit., p. 231.
(٦) Manuel I, op. cit., p. 420.
(٧) Nicetas, op. cit., p. 233.

انسحاب السلاجقة بعد المناوشات التى قاموا بها قد فسرت لدى القادة الشبان بأن القوات السلجوقية غير قادرة على الحرب .

والواقع أن الامبراطور نفسه كان متحمسا للقتال خاصة بعد كل هذه الاستعدادات الضخمة التى أعدها للمعركة ، لذلك انساق وراء قواده الشبان الرافضين للصلح لخوض المعركة (١) . وعلى أية حال فعندما علمت القوات السلجوقية برفض الامبراطور للصلح كانت قد اكتسبت بعض الوقت فى اعداد نفسها ولجأت كعادتها إلى حرب الكمائن والمناوشات وهم يرصدون تحركات القوات البيزنطية عبر ممر تريبرتز الجبلى وهى فى طريقها إلى قونية . وكان على الجيش البيزنطى أن يعبر هذا الممر الجبلى الذى يبلغ طوله عشر أميال فى أسرع وقت حتى تتمكن من الخروج من هذا المضيق الوعر إلى السهل المبسط أمام مدينة قونية ، لذلك اندفع البيزنطيون وما يصاحبهم من العربات والمعدات حتى تكدست بداخله وتعذرت مسيرة الجيش البيزنطى — بعدما حشرت داخل الممر حشرا — فى أى اتجاه وقد تسببت المقدمة التى كانت تحت قيادة الاخوان يوحنا واندرونيكوس أنجيلوس والمؤخرة بقيادة أندرونيكوس كونتوستفانوس فى غلق الممر من الأمام ومن الخلف على القوات الرئيسية للجيش التى كانت تحت قيادة قنسطنطين ماكرودكاس Constantine Macroducas وأندرونيكوس لامبارداس Lambardas وموروزوميس Morozomis وبلدوين شقيق ماريا زوجة الامبراطور (٢) .

كانت القوات السلجوقية تراقب وترصد تحركات القوات البيزنطية

---

(١) Duggan, A., The Story of the Crusades, p. 141.

(٢) Manuel I, op. cit., p. 420; Nicetas, op. cit., p. 233.

بكل دقة (١) وتأخذ أمكانها على قمم الجبال وفى بعض الأماكن المختفية عن أعين القوات البيزنطية عبر الوديان ، وفى الوقت الذى حشرت فيه القوات البيزنطية تماما داخل الممر كانت القوات السلجوقية تحيط بها من كل جانب مركزة تواجدها على جانبى الممر فى الأماكن المرتفعة (٢). وفى اللحظة المناسبة قام السلاجقة بضرب المقدمة لايقاف محاولة الجيش البيزنطى فى التقدم وشل حركته وقد نجحت المقدمة إلى حد ما فى الصمود أمام القوات السلجوقية وتمكنت من الاحتماء ببعض التلال المجاورة (٣) . ومن الواضح أن القوات هى التى لجأت إلى التلال أما المعدات فقد ظلت بالممر وأدت إلى وقف مسيرة بقية الجيش البيزنطى تماما حتى يمكن القول أن القوات البيزنطية أصبحت أسيرة فى أيدى السلاجقة .

وبعدما تمكن السلاجقة من ايقاف مسيرة الجيش البيزنطى انتقلوا لمهاجمة الجيش الرئيسى بغرض شطر القوات إلى شطرين وقد نجح السلاجقة فى هذه المهمة وأنزلوا أفدح الخسائر بالقوات التى كانت تحت قيادة بلدوين الأنطاكى الذى لقى حتفه فى المعركة وسرعان ما دبت الفوضى فى صفوف القوات البيزنطية وتمكن السلاجقة من محاصرة النصف الخلفى للجيش البيزنطى (٤) ، وأنزلت فيه القتل كما اقتربت من القوات وظلت تهاجمها بالطريقة التى تحلوا لها (٥) حتى يمكن القول أن القوات السلجوقية كانت تستعرض نفسها أمام الجيش البيزنطى .

---

(١) Finlay, op. cit., III, p. 192.
(٢) Michel le Syrien, op. cit., p. 384.
(٣) Nicetas, op. cit., p. 234.
(٤) Nicetas, loc. cit.
(٥) Manuel I, op. cit., p. 421.

ولما كانت قوات السلاجقة تمتاز بخفة الحركة انتقلت مرة أخرى إلى المقدمة وركزت سهامها على الثيران التى تجر العربات وقتلت عددا كبيرا منها ثم بدأت فى دفع كتل الأحجار من أعلى قمم الجبال لتزيدمن خسائر العدو(١). وهكذا نجح السلاجقة فى اصطياد القوات البيزنطية بعدما حشرت تماما داخل الممر (٢) وبهذه الصورة أصبح الجيش البيزنطى تحت رحمة القوات السلجوقية التى ظلت تمطره وابلا من النبال . وحاولت القوات البيزنطية الخروج من هذا المأزق بأى طريقة وفشلت جميع المحاولات التى قامت بها — بعدما سد عليها السلاجقة كافة السبل — للخروج من هذه المقبرة إذا جاز لنا هذا التعبير . ودب اليأس فى نفوس البيزنطيين بعدما انهارت قواهم وفقدوا شجاعتهم على القتال.وحاول بعضهم اللجوء إلى بعض التلال المجاورة ولكن تحرك هذه القوات إلى أعلى قد أثار التراب الموجود فى المنطقة مما استحال معه رؤية القوات لبعضها فاصطدمت ببعضها وسقط الفرسان وخيولهم على الأرض ووقعوا تحت سنابك الخيل (٣) ، وقتل البيزنطيون أنفسهم فى هذه المحاولة وزادت خسائر الجيش البيزنطى فى الأرواح والمعدات

ولكى يفت السلطان قلج أرسلان فى عضد القوات البيزنطية الباقية أحضر رأس فاتازس وحملها أحد السلاجقة على عصا طويلة وطاف بها أمام القوات البيزنطية (٤) ، وبعد ما رأى البيزنطيون هذا المشهد حاول بعضهم النجاة بأنفسهم رغل صعوبة هذه المحاولة (٥) ، وكان من أول ضرب المثل على

(١) Michel le Syrien, op. cit., p. 384

(٢) La Monte, the World of the Middle Age, p. 327.

(٣) Manuel I, op. cit., pp. 421—2.

(٤) Nicetas, op. cit., p. 236.

(٥) Finlay, op. cit., III, p. 193.

الهرب الامبراطور نفسه بعدما أصبحت حياته معرضة للخطر لأول مرة فى حياته (١) ، ونجح الامبراطور فى التسلل إلى أحد شعاب الوديان المتفرعة من الممر الجبلى كما استطاعت بعض قواته اللحاق به ولكن السلاجقة كانوا لهم بالمرصاد وانقضوا على الامبراطور والفارين معه وأنزلوا فيهم القتل (٢) ومن نجا من القتل وقع فى الأسر وتمكن الامبراطور مانويل من الأفلات باعجوبة عندما لجأ إلى أحد الوديان المتطرفة البعيدة عن أعين السلاجقة (٣) .

خرج مانويل من هذه المحنة وقد امتلأت خوذته بالثقوب وعلامات سهام السلاجقة ظاهرة على درعه وظل يتنقل بين الوديان فى محاولة منه للاتصال بالمقدمة المحتمية بالتلال بعدما لحق به أندرونيكوس كونتوستفانوس قائد المؤخرة وبعض القوات وأخيرا نجح مانويل فى الانضمام لجنود المقدمة بعدما تعرف على مكانهم بصعوبة واحتمى مانويل ومن معه بهم ؛ فقد كان السلاجقة يطاردونهم ويسيرون فى أثرهم . ثم ما لبث الامبراطور والقوات البيزنطية الهاربة معه وجنود المقدمة أن وجدوا أنفسهم محاصرين من كل جانب (٤) ، وبدأت هذه القوات تشكل صيدا سهلا للقوات السلجوقية خاصة وأن المؤن قد نفذت تماما بعدما استمر القتال لمدة سبعة أيام متتالية فى ظروف غير عادية (٥) .

كان حال الجيش البيزنطى يدعو للرثاء فقد قتل وأسر منه العديد والبقية

---

(١) Duggan, op. cit., p. 141.
(٢) Nicetas, op. cit., p. 238.
(٣) Manuel I, op. cit., p. 422.
(٤) Nicetas, op. cit., pp. 240—2.
(٥) Michel le Syrien, op. cit., p. 384.

الباقية اما تهيم على وجهها فى شعاب الوديان أو جريحة فى أرض المعركة، أو محتمية بالتلال ومحاصرة من كل جانب . وعلى أية حـــال لم ينقذ القوات البيزنطية المحاصرة من الهلاك بعدما لجأ اليها الامبراطور سوى حلول الظلام . ورغم ذلك لم تدع القوات السلجوقية القوات البيزنطية المحاصرة تهنأ بالراحة ، فكان السلاجقة يرددون نداءات طوال الليل تشير إلى أنهم أعدوا العدة لابادة القوات البيزنطية مع بزوغ الفجر ، وكان لهذه النداءات أسوأ الأثر فى نفوس القوات المحاصرة وباتوا يتوقعون نهايتهم مع نهاية هذه الليلة وظلوا يودعـون بعضهم البعض الوداع الأخير (١) .

كانت ليلة عصيبة على البيزنطيين فلم تعد لديهم الفرصة على الفرار بعد ما أحكم عليهم السلاجقة الحصار ، كما لم يكن لديهم القدرة على الحرب بعدما انهاروا جسديا ومعنويا . وفى وسط هذه الظروف العصيبة عزم الامبراطور مانويل على الفرار وقد سبب اعلان مانويل لهذا النبأ الفزع فى القيادة البيزنطية وهب أندرونيكوس كونتوستفانوس محتجا على هذه الفكرة ووجه اللوم إلى الامبراطور الذى تسبب فى ابادة جزء كبير من القوات البيزنطية المحتشـدة هناك وأضاع أموال الامبراطورية بسبب حماقته وقلة بصيرته(٢) . وعلى ما يبدو أن أندرونيكوس هذا قام بدور ملحوظ فى اعادة تنظيم القوات البيزنطية ومع بزوغ فجر اليوم التالى كان البيزنطيون قد جمعوا قواتهم استعدادا للدفاع عن أنفسهم ضد ما يدبره السلاجقة من هجوم ، ثم ما لبثت القوات السلجوقية أن بدأت فى مناوشة القوات البيزنطية استعدادا للمعركة . وعند هذه المرحلة يروى المؤرخ ميخائيل السريانى أن الامبراطور مانويل أرسل إلى السلطان قلج

---

(١) Nicetas, op. cit., p. 242.

(٢) Manuel I, op. cit., p. 421; Nicetas, op. cit., p. 245.

أرسلان يعرض عليه الصلح وتسليم المدن التى قام الامبراطور بتحصينها — ضروليوم وسوبلايون — مقابل انقاذالقوات البيزنطيةو السماح لها بالانسحاب(١) .

أما المؤرخ البيزنطى نيكتاس فيروى أن السلاجقة اندفعوا تجاه البيزنطيين وتولى اثنان من القادة البيزنطيين وهما يوحنا وماكرودكاس أمر تنظيم الدفاع عن القوات البيزنطية ، وفى هذه اللحظة ظهر أحد القادة السلجوقيين ويدعى جابراس Gabras وأصدر أوامره للقوات السلجوقية بالكف عن القتال ثم تقدم إلى الأمبراطور مانويل وقدم له جوادا مسرجا كهدية من السلطان وطلب منه عقد الهدنة مقابل تدمير تحصينات ضروليوم وسوبلايون (٢) .

وحول عقد الصلح يروى الامبرطور مانويل نفسه فى الخطاب الذى أرسله إلى الملك هنرى الثانى ، أن السلطان قلج أرسلان أرسل إلى الامبراطور يتوسل إليه فى عقد الصلح مقابل اطلاق سراح جميع الأسرى البيزنطيين والتحالف مع الامبراطور ضد أعدائه يضاف إلى ذلك ما يضعه الامبراطور من شروط توافق رغباته ، وانتظر الامبراطور مانويل يومين ثم ما لبث أن تبين له عدم جدوى القتال ضد السلاجقة والتقدم إلى العاصمة قونية خاصة بعدما فقدت القوات البيزنطية كل آلات الحصار ومعدات الحرب يضاف إلى ذلك أن معظم الثيران التى كانت تجر العربات قد نفقت فى المعركة ، لذلك استجاب الأمبراطور لطلب الصلح (٣) .

وبنظرة تحليلية إلى هذه الروايات الثلاث يتضح منها أن مبدأ الصلح قد

(١) Michel le Syrien, op. cit., p. 284.

(٢) Nicetas, op. cit., p. 245.

(٣) Manuel I, op. cit., p. 422.

تقرر بين السلطان والامبراطور كما يتضح أيضا أن القوات البيزنطية كانت فى حالة سيئة للغاية لا تمكنها من مواصلة القتال على العكس من القوات السلجوقية التى كانت مستعدة للمعركة ، يضاف إلى ذلك أتفاق ما دونه نيكتاس مع ما سجله الامبراطور مانويل فى أن السلطان قلج أرسلان قد بدأ يعرض الصلح على الامبراطور على العكس من رواية ميخائيل السريانى ، ولعل مرجع أتفاق روايتى نيكتاس ومانويل أن نيكتاس اطلع على نسخة من الخطاب الذى أرسله مانويل إلى صديقه هنرى ملك انجلترا واستقى منه هذه المعلومة وغيرها ، يؤيد ذلك أن ما دونه نيكتاس حول هذه المعركة يتفق كثيرا مع ما كتبه مانويل خاصة وأن المؤرخ نيكتاس لم يدون التاريخ الخاص بعهد الامبراطور مانويل الا بعد بضع سنوات من نهاية حكمه (١). كما وأن الباحث لا يميل إلى ما رواه مانويل حول هذا الصلح بالذات لأنه الامبراطور قد صور لنا أن حالة القوات البيزنطية كانت فى منتهى السوء وليس لديها معدات للقتال ثم ذكر أن السلطان قدم عرض الصلح لذلك يبدو الأمر متناقضا ، وإذا كان الامبراطور قد أرسل إلى صديقه هنرى يبلغه بالهزيمة ففى الوقت نفسه كان مانويل لايريد أن يوضح لصديقه مدى المهانة التى لحقت به حول استجداء الصلح من السلطان وحاول أن يصور الواقع بما لا يضيع هيبة الامبراطور فأشار بأن السلطان هو الذى طلب الصلح . وعلى ذلك فالباحث يميل إلى الأخذ برواية ميخائيل السريانى وهى أن الامبراطور أرسل فى طلب عقد الصلح مع السلطان ويختلف معه فى أن ذلك كان مقابل تدمير حصون مدينتى ضروليوم وسوبلايون، وليس إلى تسليم هذين المدينتين للسلاجقة وذلك استنادا إلى الأحداث التاريخية التالية وإلى ما سجله المؤرخ نيكتاس فى هذا الصدد .

---

(١) أنظر ما سبق ص ٧ .

وبعد ما تقرر الصلح بين الطرفين أقسم الجانب البيزنطى والسلجوقى على احترام شروط المعاهدة (١) وقام السلطان قلج أرسلان من جانبه بإرسال ثلاثة من الأمراء السلاجقة يصحبهم بعض الفرسان لمساعدة القوات البيزنطية على الانسحاب واصطحابها حتى تأخذ طريقها إلى العاصمة البيزنطية ، ومن الملاحظ أن بعض رؤساء القبائل السلجوقية الرحل قد غضبوا لقيام السلطان بعقد الصلح مع الامبراطور واتجهوا لمقابلة السلطان ووجهوا إليه اللوم على تصرفه هذا الذى أنقذ الجيش البيزنطى من الهلاك،وعلى أنه قدم اليهم بعض المؤن عند انسحابهم.ولكن السلطان لم يستمع اليهم لذلك قاموا من جانبهم بمهاجمة القوات البيزنطية أثناء عودتها ؛ وقد استاء البيزنطيون من هذاالتصرف والقوا اللوم على الأمراء السلاجقة الذين يرافقونهم ولكن الأمراء أفادوا بأن هؤلاء من الرعاة وليس للسلطان سلطان عليهم ؛ وعلى أية حال فقد قاسى البيزنطيون الكثير من هجمات هذه القبائل وفقدوا حوالى عشرين ألفا من قواتهم أثناء عودتهم حسب ما رواه المؤرخ ميخائيل السريانى (٢) ولاشك أن مثل هذا العدد مبالغ فيه بصورة واضحة .

أما المؤرخ نيكتاس فيروى أن الامبراطور مانويل حاول أثناء انسحابه إلى القسطنطينية أن يتفادى رؤية أشلاء قواته ولكن بعض القادة البيزنطيين أجبروه على المرور فى الطريق نفسه الذى سلكته القوات البيزنطية أثناءقدومها ليرى بنفسه جثث البيزنطيين التى تفترش الطريق ، ويتفق نيكتاس مع ما رواه ميخائيل السريانى عن تعرض بعض القبائل السلجوقية الرحل للقوات البيزنطية أثناء انسحابها وروواها على سبيل المناوشات ، وأضاف أنالامبراطور

---

(١) Manuel I, op. cit., p. 422.

(٢) Michel le Syrien, op. cit., p. 384.

مانويل عندما مر على مدينة سوبلايون أمر بازالة تحصينات هذه المدينة التزاما منه بشروط الصلح ثم واصل مسيرته حتى مدينة خونية وهناك وزع الأموال على الجرحى ثم جد فى السير إلى العاصمة البيزنطية وعندما بلغ مدينة فلادلفيا بعث إلى العاصمة يعلن نبأ الكارثة التى حلت به (١) ، وقد شبهها بمعركة مانزكرت ولكنه هون من شأنها وأشار أنه لازال على قيد الحياة مطلق السراح وأنه عقد الصلح مع السلطان (٢) ، ولما بلغ الامبراطور العاصمة بعث بالأموال الكثيرة إلى السلطان قلج أرسلان لاطلاق سراح الأسرى البيزنطيين (٣).

وعن الأسباب التى أدت إلى هزيمة القوات البيزنطية فى معركة ميريوكيفالون يمكن القول أن الامبراطور مانويل والقادة البيزنطيين كانوا يعلمون أن السلاجقة يجيدون الحرب الخاطفة وأن بوسعهم التنقل بسرعة فى أرض المعركة من مكان إلى آخر والأهم من ذلك كله أنهم يجيدون نصب الكمائن خاصة فى الممرات الجبلية، وكان على الامبراطور مانويل وقادته أن يستفيدوا من الكوارث التى حلت بالملك كونراد ولويس السابع أثناء قيادتهما للحملة الصليبية الثانية ، ولكن الامبراطور وبعض قادته المتهورين اندفعوا إلى داخل ممر جبلى يبلغ طوله عشرة أميال دون أن يرسلوا بعض الفرسان لاستكشاف

---

(١) Nicetas, op. cit., pp. 247—8.

(٢) Manuel I, op. cit., pp. 422—3.

(٣) ولقد تعرضت المصادر الاسلامية بايجاز شديد إلى هذه المعركة وذكرها ابن الأثير فى عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ — ١١٧٤ م وروى أن ملك الروم عبر خليج القسطنطينية وقصد بلاد قلج أرسلان فجرى بينهما حرب استظهر فيها المسلمون فلما رأى ملك الروم عجزه عاد إلى بلده وقد قتل من عسكره وأسر جماعة كثيرة . أنظر ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١١ ص ٤١١ . كما تعرض بايجاز أيضا لهذه المعركة المؤرخ سمباد أنظر : عن المادة الواردة بالمتن أنظر : Sempad, op. cit., p. 626. Michel le Syrien, op. cit., p. 385.

المنطقة ولحماية الجيش أثناء العبور (١) ، والواضح أن الغرور قد ركب رأس الامبراطور وقواده المتهورين بفضل القوات الضخمة التى كانت تحت قيادتهم والتى وصف عددها المؤرخ وليم الصورى بأنها كانت فوق تخيل البشر (٢) .

ولقد ترتب على هذه المعركة عدة نتائج فى الشرق والغرب على السواء ، ولعل ما أظهر هذه المعركة بأنها من المعارك الحاسمة فى تاريخ الشرق هو أن الامبراطور مانويل نفسه قد شبهها بموقعة مانزكرت (٣) . ويجب علينا ألا ننساق وراء هذه الفكرة . فالأمبراطور مانويل المهزوم فى هذه المعركة قد ذكر ذلك فى الخطاب الذى أرسله إلى صديقه هنرى الثانى وحاول أن يقارن بين معركة ميريوكيفالون ومعركة مانزكرت ليعطى انطباعا لدى الغــرب الأوربى بكبر حجم المعركة الذى يفوق حجمها الطبيعى وليصور أيضا أنــه أفضل من سلفه الامبراطور رومانوس الذى أسر فى معركة مانزكرت لأنه وأن خسر المعركة فأنه ظل حرا مطلق السراح ، ولعل ما هول من شأن هذه المعركة ما قام به عدوه الامبراطور فريدريك بارباروساعند وصفه بعد هذه المعركة بأنه ملك وليس امبراطور وأن على مانويل أن يقدم له فروض الولاء والطاعة (٤) .

وإذا كانت المعارك الحاسمة فى التاريخ تقاس بحجم النتائج المترتبة عليها فان نتيجة هذه المعركة لم تغير الكثير من صورة الصراع بين الامبراطـورية البيزنطية وبين السلاجقة فى تلك الفترة ، والواضح أن ما أسفرت عنه هذه

(١) Finlay, op. cit., III, p. 192.
(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 415.
(٣) Manuel I, op. cit., p. 423.
(٤) Ostrogorsky, op. cit., p. 347.

المعركة يتلخص فى أنها وضعت حدا لمحاولات الامبراطور مانويل فى طرد السلاجقة نهائيا من آسيا الصغرى أو فى وقف أطماع السلاجقة فى السيطرة على آسيا الصغرى بأكملها ، وأنه خلال الأعوام التالية لحكم مانويل لم يعد الجيش البيزنطى فى وضع يسمح له بشن الهجوم على السلاجقة وذلك بسبب الخسائر التى لحقت بالقوات البيزنطية وتحولت القوات البيزنطية إلى الدفاع عن الحدود البيزنطية ضد السلاجقة الذين لم يكفوا عن اختراق الحدود (١) ومن الملاحظ أنه لم ينتج عن هذه المعركة أن اكتسب السلاجقة أرضا جديدة فى آسيا الصغرى.

وحول هذه النتائج أيضا رأى بعض المؤرخين المحدثين أنه بعد هذه المعركة ضاعت هيبة الامبراطورية البيزنطية كحامية للامارات الصليبية (٢)، والرد على هذا الزعم يأتى من قبل الصليبيين أنفسهم ففى عام ١١٧٧م/٥٧٢هـ — ٥٧٣ هـ — نرى الأمراء الصليبيين يعملون على دعم العلاقات البيزنطية الصليبية فقد تزوج بوهمند الثالث أمير أنطاكية من احدى الأميرات البيزنطيات وهى الأميرة ثيودورا قريبة الامبراطور مانويل (٣)، وفى هذا العام نفسه أيضا أى بعد معركة ميريوكيفالون بعام واحد نرى الامبراطور مانويل يقوم بارسال الاسطول البيزنطى للتعاون مع الصليبيين فى غزو مصر (٤) ، كما أن المؤرخ وليم الصورى توجه إلى القسطنطينية فى أكتوبر عام ١١٧٩ م / جمادى الأولى

---

(١) Chalandon, op. cit., p. 513; Ostrogorsky, op. cit., p. 343; Vasiliev, op. cit., op. cit., II, pp. 83—4; Baynes & Moss, Byzantium, p. 31.

(٢) Setton, op. cit., I, p. 594; Ostrogorsky, loc. cit.

(٣) William of Tyre, op. cit., II, 452—3; Runciman, op. cit., II, pp. 418—9 & n. 2 in p. 419.

(٤) أنظر ما يلى ص ٣٥٨-٣٥٩.

٥٧٥ هـ وعاد بعد سبعة أشهر تقريبا من هذه المهمة التى وصفها المؤرخ نفسه بأنها أتت بفوائد عظيمة للصليبيين ، يضاف إلى ذلك أنه فى حوالى شهر مارس عام ١١٨٠ م / شوال ٥٧٥ هـ أى قبيل ممات الامبراطور مانويل بأشهر قليلة كان يوجد فى البلاط البيزنطى بعض الأمراء الصليبيين يلتمسون العون والمشورة من الامبراطور ، فقد توجه بلدوين صاحب الرملة إلى القسطنطينية ليطلب من الامبراطور مانويل مساعدته على دفع فدية أسره (١) وإلى جانبه كان يوجد جوسلين خال الملك بلدوين الرابع ليعرض على الامبرطور بعض الأمور التى تتعلق بشئون مملكة بيت المقدس (٢) . ومن الواضح بعد ذلك أن الأمراء الصليبيين كانوا يجدون فى الامبراطور مانويل حاميا وسنداوملاذا لهم حتى أواخر أيام حياته . وعلى أية حال فان مشروع الحملة البيزنطية الصليبية فى عام ١١٧٧ م وحروب الامبراطورية البيزنطية مع السلاجقة ستفسر لنا الكثير حول هذه الآراء .

وفيما يتعلق بمشروع حملة عام ١١٧٧ م فان أسبابه ترجع إلى المعاهدة التى عقدها الملك عمورى والامبراطور مانويل الأول فى عام ١١٧١ م أثناء زيارة عمورى للقسطنطينية بهدف غزو مصر ، وإذا كانت هذه الفكرة لم تنفذ فى حينها فان ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى حالة الأسطول البيزنطى الذى تحطم عند دمياط أثناء عودته إلى المياه البيزنطية بعد فشل الحملة فى عام ١١٦٩ م . أما الأسباب التى دفعت الامبراطور مانويل إلى اختيار هذا الوقت بالذات فقد أصبحت متعددة ومتشابكة بعضها يرجع إلى الامبراطورية البيزنطية نفسها

---

(١) أسر بلدوين فى معركة مخاضة الاحزان . لمزيد من التفاصيل أنظر : أبن الأثير المرجع السابق جـ ١١ ص ٤٥٥ .

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 453.

وجانبا منها يتعلق بالامارات الصليبية والجزء الأخير منها يرده الباحث إلى أطماع مملكة صقلية فى الديار المصرية .

وفيما يتعلق بالجانب الخاص بالامبراطورية البيزنطية فيمكن القول أنه بعد هزيمة الجيش البيزنطى فى معركة ميريوكيفالون فى عام ١١٧٦ كان على الامبراطور مانويل أن يقوم بعمل عسكرى فى الشرق ليوضح لحكام المنطقة — على حد مفهوم الامبراطور مانويل — أن الامبراطورية كانت ولاتزال أقوى من أية دولة فى المنطقة وأن معركة ميريوكيفالون لا تزيد عن معركة هزمت فيها القوات البرية البيزنطية وأن الأمر يحتاج فقط لبعض الوقت لاعادة تنظيم هذه القوات وأن الاسطول البيزنطى لازال محتفظا بكيانه وبوسعه أن يهاجم أقوى وأغنى دول المنطقة وهى مصر (١) .

أما الامارات الصليبية فالمعروف أن بقاءها فى المنطقة مرهون بالمساعدات الخارجية . ومن الملاحظ أن كافة المساعدات التى قدمها لها الغرب الأوربى فى هذه الفترة قد باءت بالفشل ومثالنا على ذلك الحملة الصليبيةالثانية : كما أن الامبراطورية البيزنطية هى التى ساندت الوجود الصليبى ابان حكم الامبراطور مانويل على وجه الخصوص . لذلك كان الأمراء الصليبيون يرحبون بأية مساعدة تقدمها الامبراطورية البيزنطية تساعدهم على ضرب المسلمين فى هذه الوقت بالذات بعد ما تمكن صلاح الدين من حكم مصر والشام وتغيرت موازين القوى لصالح المسلمين (٢) . يضاف إلى ذلك أن الامارات الصليبية

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٧٥٣ .

(٢) حول تغيير موازين القوى وأسبابها والنتائج المترتبة عليها راجع :

Joseph, N.Y., Arab Awakening During the Crusades, cf. Bulletin of the Faculty of Arts ,1971, pp. 11—22.

كانت لا تملك أسطولا حربيا يساعدها فى الاغارة على مصر وأن قيام الامبرطورية البيزنطية بتقديم هذا الاسطول يعتبر من أجل الخدمات التى تقدمها بيزنطة للامارات الصليبية وفرصة يجب على الصليبيين اغتنامها .

أما الجانب الذى يتعلق بمملكة صقلية النورمانية وهى المملكة التى كانت تطمع فى السيطرة على حوض البحر الأبيض وظهرت كدولة أوربية قوية خاصة بعد ما ساندت البابا اسكندر الثالث والعصبة اللمباردية ضد فريدريك الأول Frederick I امبراطور ألمانيا (١١٥٢ — ١١٩٠ م) (١) . وعلى أية حال فالواضح أن الأسطول الصقلى كان له دور ملحوظ فى الاغارة على على الموانى المصرية فى السنوات الأخيرة ومن ذلك غارات الأسطول على الاسكندرية فى السادس والعشرين من ذى الحجة عام ٥٦٩ هـ / الثامن والعشرين من يوليو عام ١١٧٤ م (٢) بهدف غزو مصر بدليل ضخامة الاستعدادات التى هاجموا بها المدينة وكذلك الغارات التى قاموا بها على مدينة تنيس بعد ذلك بقليل (٣) وهكذا بدأت أطماع مملكة صقلية فى غزو مصر تبدو واضحة خاصة للصليبيين والبيزنطيين . وإذا كان الصليبيون يرحبون بأية قوى خارجية للقضاء على المسلمين فانهم لا يرحبون اطلاقا بمملكة صقلية التى بدأت تعمل على غزو مصر لتفوز بها بمفردها ، و الحال نفسه مع البيزنطيين الذين بدأوا يدركون خطورة الموقف بعدما تسلل الاسطول الصقلى إلى الديار

---

(١) Haskins, The Norman in European History, pp. 219 ff. Painter. S:, A History of Middle Afes, p. 199.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة أنظر : أمبرتو ريتزيتانو : صفحة من تاريخ العلاقات بين غليام الثانى النورماندى وصلاح الدين الأيوبى فى مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ١٩٤٩ ص ٤٧ — ٥٨ .

(٣) راجع ما سبق ص ٣٣٨ .

المصرية بأمل السيطرة عليها وهو مالا ترضى عنه الامبراطورية البيزنطية لسببين . أولهما ، أن بيزنطة كانت تعتبر مصر جزءا من ممتلكات الامبراطورية البيزنطية فقدتها عندما فتح العرب مصر وأن على بيزنطة أن تعمل على اعادة الممتلكات إلى حظيرة الامبراطورية ، وثانيهما أن اقتراب الاسطول الصقلى إلى سواحل مصر فيه تهديد خطير لنفوذ بيزنطة فى منطقة الشرق الأدنى الاسلامى كله وإذ لم تقم بيزنطة بعمل عسكرى لقطع خط الرجعة على الأسطول الصقلى فى هذا الوقت لزاد نفوذ صقلية فى المنطقة وامتد إلى السواحل الشامية وحلت صقلية محل بيزنطية فى الدفاع عن الصليبيين (١) .

أما عن الأحداث المتعلقة بهذا المشروع فالواقع يفرض علينا أن ننظر إليه نظرة أعم وأشمل من النظرة التى تناولته بها المصادر والمراجع المتاحة لنا ، لأنه فى مطلع عام ١١٧٦ م عندما كان الاستعداد قائما على قدم وساق لقتال السلاجقة أرسل الامبراطور مانويل إلى البابا الكسندر الثالث يطلب منه العمل على ارسال النجدات العسكرية لقتال السلاجقة وقام البابا بدوره بحث الملك لويس السابع على حمل الصليب والتوجه إلى الأراضى المقدسة (٢)، يضاف إلى ذلك أنه بعد هزيمة الامبراطور فى معركة ميريوكيفالون أرسل الامبراطور مانويل أيضا سفارة إلى صديقه هنرى الثانى ملك انجلترا وتقابلت السفارة مع الملك فى الثانى عشر من نوفمبر عام ١١٧٦ م وسلمت له خطابا من الامبراطور يتضمن أخبار المعركة والكارثة التى حلت بالقوات البيزنطية ، وفى الوقت

---

(١) حول تدخل صقلية لمساعدة الصليبيين بعد وفاة مانويل راجع سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٨٤٢ ، عندما قامت صقلية بأرسالها أسطولها لمساعدة الصليبيين وتبنى فكرة حملة صليبية جديدة فى عام ١١٨٧ م ضد المسلمين .

(٢) أنظر ما سبق ص ٣٣٦ .

نفسه كان فيليب كونت فلاندرز Philip Count Flanders موجودا فى البلاط الانجليزى (١) ، ولاشك أنه علم بالكثير عن الشرق من السفارة البيزنطية ، وعلى ما يبدو أن الملك هنرى قد وعد السفارة بعمل عسكرى ضد المسلمين . وعلى أية حال ما لبث فيليب أن وصل إلى الأراضى المقدسة فى أول أغسطس عام ١١٧٧ م / الثالث من صفر عام ٥٧٣ هـ ومعه عدد كبير من الفرسان (٢) . والمهم أن تعاطف الملك هنرى قد تلاقى مع الجهود التى قام بها البابا مع لويس السابع ملك فرنسا لذلك نجد الملك هنرى يقوم فى الثامن عشر من أغسطس من العام نفسه بالتوجه إلى اقليم نورماندى Normandy ليتصالح مع الملك لويس وتم عقد معاهدة بينهما فى الخامس والعشرين من الشهر نفسه تتضمن عقد تحالف بينهما أيضا واتفق هنرى ولويس على القيام بحملة صليبية مشتركة ضد المسلمين (٣) . وعلى ذلك أصبح واضحا أن وصول فيليب إلى الأراضى المقدسة كان قبل اتفاق هنرى ولويس على الصلح وعلى الحملة وأن قدوم فيليب لا صلة له بالحملة وأنه لم يكن مقدمة لها أو خاتمة لجهود الغرب الأوربى فى اعداد حملة صليبية لم يوفق قادة الغرب فى اعدادها .

والمهم أنه فى الوقت الذى وصل فيه فيليب إلى الأراضى المقدسة كان يوجد فى بيت المقدس سفارة بيزنطية مكونة من أندرونيكوس أنجيلوس ويوحنا دوكاس والكسندر جرافينا وجورج سيناتس George Sinaites لتبلغ الملك بلدوين أن الوقت أصبح مناسبا لتنفيذ المعاهدة التى عقدها

---

(١) Roger of Wendover, op. cit., II, p. 35.

(٢) Roger of Hovenden, op. cit., I, p. 452; William of Tyre, op. cit., II, p. 417.

(٣) عن نص هذه المعاهدة أنظر :

Roger of Wendover, op. cit., II, p. 36.

الامبراطور مانويل مع الملك عمورى فى عام ١١٧١ م والتى جددها الملك بلدوين بالشروط نفسها يهدف غزو مصر ، كما أبلغت السفارة الملك بلدوين بأن الامبراطور مانويل أرسل سبعين سفينة من نوع الشوانى وبعض السفن الأخرى وهى راسية فى ميناء عكا على أهبة الاستعداد للقتال (١) .

ولما كان الملك بلدوين لايزال فى دور النقاهة من مرض الملاريا فقد عرض على فيليب كونت فلاندرز قيادة الحملة خاصة وأن الصليبيين استبشروا بقدومه خيرا لما عرف عن والده من تحمسه للحركة الصليبية واعتقدوا أن الابن لا يقل حماسا عن والده . وتجدد الأمل فى نفوس الصليبيين لغزو مصر . ولكى يغرى الملك بلدوين فيليب بقيادة القوات الصليبية عرض عليه الوصاية على مملكة بيت المقدس ، ولكن فيليب رفض هذا العرض وأشار أنه قدم إلى الأراضى المقدسة فى مهمة خاصة وهى تزويج ابنتى عمه الاميرتين سبيلا Sibylla وايزابيلا Isabella من ولدى أحد أتباعه المخلصين وهو روبرت أف بيثون Robert of Bethune وأنه يود العودة إلى بلاده فى أسرع وقت ممكن لتدبير أموره هناك وأضاف أنه ليست لديه أية أطماع فى الحصول على سلطات فى مملكة بيت المقدس (٢) .

كان موقف فيليب من مشروع الحملة الصليبية البيزنطية صدمة للصليبيين (٣) . وعلى ما يبدو أن القادة الصليبيين قد اقتنعوا بالأعذار الشخصية التى قدمها فيليب وحتى لا يجبروه على الارتباط بمملكة بيت المقدس إذا عين وصيا عليها عينوا رينو أف شاتيون — الذى أصبح أميرا على حصن الكرك بعد اطلاق

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 420; Joseph ben Joshua, op. cit., I, p. 172.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 422.

(٣) Schlumberger, G., Renaud de Chatillon, p. 182.

سراحه من الأسر — وصيا على المملكة وأكتفوا بأن عرضوا على فيليب أمر قيادة الحملة فى الوقت الذى كانت فيه السفارة البيزنطية فى غاية القلق على مشروع الحملة . وأمام ضغط السفارة البيزنطية تشاور الصليبيون فى الأمر وعرض المشروع مرة أخرى بكل تفاصيله أمام فيليب كما قدموا له صورة من المعاهدة التى عقدت بين البيزنطيين والصليبيين حول هذا المشروع ، وهون الأمراء الصليبيون أمر هذا المشروع على فيليب ، ولكن فيليب أجاب بأنه غريب على المنطقة ولا دراية له بأرض مصر ولكن الصليبيين طمأنوه وأبلغوه بأنهم لديهم خبرة واسعة بأرض مصر كما أن فصل الخريف مناسبا جدا للأعمال العسكرية على شواطىء مصر ولكن فيليب عاد وأجاب أنه يخشى قدوم الشتاء على القوات المتحالفة وهى تعمل فى مصر كما أنه يخشى من الأمطار والمجاعة (١) . وبذلك بات واضحا أن فيليب ليس لديه النية على الاطلاق لقيادة الحملة على مصر (٢) والواقع أن فيليب كان على صواب عندما رفض قيادة الحملة لأن هذه الحملة كان محكوما عليها بالفشل لثلاثة أسباب : أولا ، أن الأسطول البيزنطى الذى هاجم دمياط عام ١١٦٩ م كان يعادل ثلاثة أمثال السفن التى أعدت لمشروع هذه الحملة ورغم ذلك باء بالفشل . ثانيا ، أن أى قيادة صليبية تتولى أمر هذه الحملة لم تكن مثل قيادة الملك عمورى الذى كان شديد التحمس لغزو مصر ، وثالثا ، أن الأوضاع السياسية والعسكرية قد تغيرت فى المنطقة لصالح المسلمين . يضاف إلى ذلك أن صلاح الدين كان يعلم بأمر هذه الحملة واستعد لملاقاتها (٣) ، على العكس

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, pp. 421—2.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٧٥٣ .

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٧٥٧ .

من حملة عام ١١٦٩ م التى فاجأت مدينة دمياط . ولعل فى هذه الأسباب ما يكفى للرد على الذين هولوا من أمر هذا المشروع وأنه أضاع على الصليبيين فرصة فصل مصر عن الشام الاسلامية (١) .

وعلى أية حال لم يستسلم الصليبيون لهذه النهاية فقد كانوا يعملون جاهدين على الابقاء على التحالف البيزنطى الصليبى كما أنهم أحسوا أنه من العار عدم قيامهم بتنفيذ المعاهدة المعقودة بين البيزنطيين والصليبيين وضياع الحماس البيزنطى ورغبة الامبراطور مانويل الملحة لتنفيذ فكرة غزو مصر . لذلك أبلغوا السفارة البيزنطية بعدم استعدادهم فى هـــــذا الوقت لتنفيذ رغبات الامبراطور وطلبوا من السفارة ارجاء هذه الحملة إلى شهر ابريل من العام التالى ١١٧٨ م / شوال ٥٧٣ هـ ، ولما كان البيزنطيون شديدو الحماس لغزو مصر فقد وافقوا على طلب القادة الصليبيين ولكنهم اشترطوا أن يذهب معهم إلى مصر فيليب كونت فلاندرز وعليه أن يقسم على ذلك ولكن فيليب رفض ذلك وفشل أمر هذا المشروع وعادت السفارة إلى بلادها .

كان بوسع الامبراطور مانويل أن يجدد أمر هذه الحملة مرة أخرى ، ولكن حروبه مع السلاجقة فى السنوات التالية ساعدت على دفن هذا المشروع والواقع أن المصادر التى تحت أيدينا لم تساعدنا على تحديد تاريخ لهذه الحروب فقد أشارت اليها فى الفترة الممتدة من عام ١١٧٧ حتى نهاية عهد الامبراطور مانويل . وترجع أول هذه المعارك إلى السلطان قلج أرسلان عندما أرسل ما يقرب من أربعة وعشرين ألفا من العساكر السلجوقية لنهب وادى المياندر والوصول إلى شاطىء البحر حيث تقع مدينة بلاتيه ، Palatia وقد نجحت

---

(١) Setton, op. cit., I, p. 495; Brehier, op. cit., p. 340.

القوات السلجوقية فى تنفيذ المهمة الموكولة اليها وتوغلت فى الوادى ونهبت مدينة بلاتيه وترالس Tralles وأنطاكية الميانـــــدر (١) ، ولما كان الامبراطور مانويل لازال يعانى من الصدمة التى لحقت به بعد هزيمة معركة ميريوكيفالون وأن حالته الصحية لم تعد تمكنه فى هذا الوقت من قيادة القوات البيزنطية (٢)، فقد عهد إلى بعض قواده ومنهم يوحنا فاتازاس وقسطنطين دوكاس وآخرين بالتصدى للقوات السلجوقية ، ولما كان الامبراطور لا يود أن تحل بقواته كارثة أخرى مثل كارثة ميريوكيفالون . فقد طلب من القادة البيزنطيين عدم الاشتباك مع السلاجقة إلا بعد أن يتأكدوا أنهم قادرون على هزيمتهم،ويضيف المؤرخ البيزنطى نيكتاس وهو المصدر الوحيد الذى روى هذه الأحداث أن القوات البيزنطية تمكنت من ابادة القوات السلجوقية عند عودتها أثناء قيامها بعبور أحد الجسور الواقعة على نهر المياندر (٣)وحول هذه النتيجة يصبح هناك احتمالان . أولهما ، أن المؤرخ قد غالى فى نتيجة هذه المعركة . وثانيهما ، أن القوات السلجوقية لم تكن بالعدد الذى ذكره المؤرخ نفسه وأنها لا تعدو ن تكون فرقة استطلاعية لسبر أغوار القوات البيزنطية .

وعلى ما يبدو أن القوات البيزنطية قد شجعها هذا النصر واستعدت فيما بعد لقتال السلاجقة فأعد الامبراطور مانويل حملة عسكرية ونصب عـلى قيادتها أندرونيكوس أنجيلوس ومانويل كانتاكوزين Cantacuzene والتقت القوات البيزنطية والسلجوقية فى وادى نهر المياندر أيضا مما يشير إلى أن القوات السلجوقية قد علمت بأمر هذه الحملة فأسرعت لملاقاتها ،وقد استطاع السلاجقة

---

(١) Nicetas, op. cit., p. 251.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 415.

(٣) Nicetas, op. cit., p. 254.

من الحاق الهزيمة بالقوات البيزنطية وطاردوها حتى مدينة لاودكيا الغربية ودب الخلل فى صفوف البيزنطيين والتمسوا النجاة بأرواحهم وهرب أندرونيكوس من ساحة المعركة ولكن كانتاكوزين تمكن من اعادة جمع القوات البيزنطية بعد مجهود كبير ثم ما لبثت أن عادت ادراجها (١).

والواضح أن المعارك التى دارت بين القوات السلجوقية والقوات البيزنطية بعد معركة ميريوكيفالون حتى هذا الوقت اقتصرت على أعمال السلب والنهب ومحاولة كل طرف انزال الهزيمة بالطرف الآخر. وأن المعركة التالية تشير إلى بداية تحول فى السياسة السلجوقية وهى محاولة السلاجقة العمل على كسب أراض جديدة على حساب الامبراطورية البيزنطية كما تشير أيضا إلى تحول ميدان المعركة من وادى نهر المياندر الذى يقع فى الجزء الجنوبى الغربى لآسيا الصغرى إلى شمال آسيا الصغرى بالقرب من نهر الهاليس. وترجع بداية هذه المعركة إلى قيام الأتراك السلاجقة بحصار مدينة كلوديوبوليس Claudio-polis، ولما سمع الامبراطور مانويل بأمر هذا الحصار خرج بنفسه على رأس قواته لانقاذ المدينة من يد السلاجقة، وقد نجح الامبراطور مانويل فى الوصول إلى المدينة قبل سقوطها ونجح فى فك الحصار المضروب عليها (٢). وتعتبر هذه المعركة آخر المعارك العسكرية التى دارت بين السلاجقة والامبراطورية البيزنطية فى عهد الامبراطور مانويل وآخر معركة أيضا تولى فيها الامبراطور قيادة القوات البيزنطية لقتال السلاجقة، وبهذا النصر الجزئى الذى أحرزه الامبراطور يمكن القول أن هذه المعركة أصلحت بعض الضرر الذى سببته كارثة ميريوكيفالون الا أنه أصبح من الملاحظ أن السلاجقة

---

(١) Nicetas, op. cit., p. 254.
(٢) Nicetas, op. cit., p. 257.

أصبحوا عند نهاية حكم مانويل أقوى بمراحل عما كانوا عليه عند توليته عرش الامبراطورية (١) .

وهكذا انتهت المرحلة الأخيرة من مراحل حكم مانويل بفشله فى الحد من ازدياد القوة الاسلامية ، وعدم نجاحه فى تحقيق أطماعه فى الديار المصرية ، وهزيمة الجيش البيزنطى هزيمة نكراء على يد القوات السلجوقية وتحـــول الامبراطورية البيزنطية من مرحلة الهجوم على الأتراك السلاجقة إلى مرحلة الدفاع عن أملاكها . ثم ما لبث مانويل أن مات فى الرابع والعشرين من سبتمبر عام ١١٨٠ م / أول جماد ثانى عام ٥٧٦ هـ .

(١) عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٤١ .

# الخــــاتمــة

## نتائج السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية

## ١١٤٣ — ١١٨٠ م

مرت السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية فى عهد الامبراطور مانويل الأول بأربع مراحل كان لكل منها طابع خاص ، وقد تميزت المرحلة الأولى التى امتدت من عام ١١٤٣ حتى عام ١١٤٨ م بجهود الامبراطور مانويل فى المحافظة على النفوذ البيزنطى الذى سبق لأسلافه أن أقاموه فى الشرق. واشتملت هذه الفترة على أحداث متعددة لها أهميتها دخل فيها مانويل فى صراع مع ريموند أف بواتيه أمير أنطاكية واشتبك مع الأتراك السلاجقة فى معارك عسكرية لفترة ليست بقصيرة ، كما شاهدت هذه المرحلة أيضا قيام الحملة الصليبية الثانية وما صاحبها من أحداث أثناء عبورها آسيا الصغرى فى طريقها إلى الشام وما قام هناك من اتصالات بين الامبراطورية البيزنطية وهذه الحملة الصليبية. وقد حاول الامبراطور مانويل خلال تلك الفترة الابقاء على النفوذ البيزنطى فى المناطق التابعة للامبراطورية ونجح فى ذلك إلى حد كبير وبالذات فى علاقته مع دولة سلاجقة الروم ومع امارة أنطاكية ، ولكنه لم يوفق فى سياسته مع بعض زعماء الأرمن خاصة بعدما هرب الأمير الأرمينى ثوروس من الأسر ونجح فى العودة إلى قيليقية وفرض نفوذه على جانب كبير منها فى الوقت الذى لم يقم فيه الامبراطور مانويل بأى عمل ايجابى ضد ثوروس .

ومن أهم ما توصل اليه الباحث فى هذا الفصل هو مالاحظه من اعجاب الامبراطور مانويل بالفروسية وتقديره للشهامة العربية ، وكذلك نجاح هذا الامبراطور فى اجبار ريموند أف بواتيه على احترام سيادة الأراضى البيزنطية بقوة السلاح عام ١١٤٣ م ، ثم ما كان من أمر خضوع ريموند للامبراطور مانويل مكرها عندما إتجه إلى القسطنطينية عام ١١٤٥ م طالبا الصفح والغفران مقابل حماية الامبراطور مانويل لامارة أنطاكية من المسلمين بعدما شعر بحركة البعث الاسلامى التى تزعمها عماد الدين زنكى ومن بعده أبنه نور الدين ،

ورغم وعد الامبراطور بمساعدة ريموند الا أن مانويل لم ينفذ ما وعد به وترك ريموند يحارب المسلمين حتى سقط قتيلا فى عام ١١٤٩ م دون أن يحـرك الامبراطور ساكنا .

وقد وضح الباحث أيضا فى هذه المرحلة كيف أن الامبراطور مانويل لم يكن مسئولا عن فشل الحملة الصليبية الثانية وأنه لم يتحالف مع السلاجقـة لضرب القوات الصليبية أثناء مرورها عبر آسيا الصغرى وأن الامبراطـور مانويل كان قد عقد الهدنة مع السلاجقة لمدة اثنى عشر عاما من عام ١١٤٦ م حتى عام ١١٥٨ م وأنه أخبر البابا والملك لويس بذلك قبل قدوم الحملة . وليس ذلك فحسب بل أن الامبراطور مانويل قدمالنصائح الكافية لكل من كونراد ملك ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا حتى لا تتعرض القـوات الصليبية لهجمات السلاجقة أثناء عبورها آسيا الصغرى . ولكن عدم أخذ كونراد بنصائح الامبراطور والأخطاء التى وقع فيها لويس وهجوم السلاجقة على القوات الصليبية هو الذى أنزل أفدح الخسائر بالحملة . يضاف أيضا إلى نتائج هذه المرحلة أن الصليبيين والأرمن رغم كرههم للبيزنطيين إلا أنهم ألقوا باللائمة على الامبراطور مانويل لعدم نجدته مدينة الرها وتركها تسقط فى يد المسلمين .

ومن الخصائص التى تظهر فى علاقة الأرمن بالامبراطورية البيزنطية هى أن تراخى الامبراطور مانويل فى القيام بأى عمل عسكرى ضدالأمير ثوروس بعد هروبه من القسطنطينية قد شجع ثوروس على بسط نفوذه على جانب كبير من قيليقية وتمكنه من اقامة امارة حاجزة بين المسلمين والبيزنطيين ، الأمر الذى ترتب عليه نتائج سيئة على النفوذ البيزنطى فى الشام ، ومن ذلك أن نور

الدين اطمأن إلى حد ما إلى وجود ثوروس فى امارته وحارب ريموند والقوات الصليبية فى أنطاكية وأنزل بها أفدح الخسائر .

أما المرحلة الثانية فقد اشتملت على الأحداث الممتدة من عام ١١٤٩ م حتى عام ١١٥٧ م . وكان طابع هذه الفترة يتلخص فى المناورات السياسية التى قام بها مانويل فى المنطقة ، وهى نوع من «الدبلوماسية» الماكرة أن جاز لنا هذا التعبير ، حاول من خلالها الامبراطور مانويل دعم نفوذ الامبراطورية فى امارة أنطاكية واضافة بعض مدن وقلاع امارة الرها المنهارة إلى أملاك الامبراطورية. كما تميزت هذه المرحلة أيضا بمحاولة الامبراطور مانويل لضم بعض قوى المنطقة إلى جانبه — دون تدخل القوات البيزنطية — لضرب الأمير ثوروس ، ومن ذلك عندما تحالف مانويل مع السلطان مسعود الذى قام بحملتين ضد ثوروس، ولما فشل مانويل فى تحقيق أهدافه تحول لتحريض رينو أف شاتيو أمير أنطاكية بهدف القضاء على ثوروس . وقد فشل مانويل فى تحقيق أهدافه أيضا فقد تحالف رينو مع ثوروس وأتفقا على مهاجمة جزيرة قبرص التى كانت ضمن أملاك الامبراطورية فى ذلك الوقت ، وتمكنت القوات الصليبية التى جمعها رينو والقوات الأرمينية التى انضمت اليه من مهاجمة الجزيرة وأنزلوا بها أشد أنواع الخراب . ويلاحظ فى هذه المرحلة أن القوات البيزنطية لم تقم بأى عمل عسكرى فى الشرق، فقد كان مانويل مشغولا بالصراع ضد النورمان فى صقلية لاستعادة المدن التى استولى عليها روجر الثانى ، وكذلك انشغاله بالصراع مع هنغاريا والصرب وما عساه أن يكون من أمر الحملة الصليبية التى كان يخطط لها الملك لويس والملك روجر ضد الامبراطورية البيزنطية التى اعتبرها الغرب الأوربى مسئولة عن فشل الحملة الصليبية الثانية .

ومما تلاحظ على هذه المرحلة أن الامبراطور مانويل فشل فى ربط امارة أنطاكية بالامبراطورية البيزنطية عن طريق الزواج السياسى وخروج الامارة من دائرة النفوذ البيزنطى وتمردها على الامبراطورية ومهاجمة أملاكها . كما أن الامبراطور مانويل استغل ضعف الصليبيين وتمكن من اقامة امارة بيزنطية لمدة سنة واحدة تقريبا على أنقاض بعض مدن وقلاع امارة الرها المنهارة . ولكن مشاعر سكان الامارة لم ترض عن الحكم الاسلامى بديلا وانضم السكان بمحض ارادتهم إلى الجانب الاسلامى ودخلوا فى طاعة نور الدين ولم يتمكن مانويل من مقاومة مشاعر السكان والقوات الاسلامية وفشل فى اقامة امارة الرها البيزنطية . يضاف إلى ذلك أن الامبراطور مانويل فشل فى القضاء على الأمير ثوروس . وانتهت هذه المرحلة من حكم مانويل وقد انحسر النفوذ البيزنطى عن قيليقية .

وتميزت المرحلة الثالثة التى اشتملت على أحداث الفترة الممتدة من عام ١١٥٨ م حتى عام ١١٦٢ م ، بوصول النفوذ البيزنطى فى الشرق إلى ذروته فى عهد الامبراطور مانويل خاصة مع الأرمن والصليبيين والسلاجقة وآل دانشمند وإلى حد ما مع نور الدين . وقد تضمنت هذه الفترة قيام الامبراطور مانويل بأعمال عسكرية ضخمة فى الشرق بعد ما فرغ الامبراطور نسبيا من مشاكله فى الغرب ووقع الهدنة مع وليم الأول ملك صقلية فى عام ١١٥٨ م ، كما نجح الامبراطور أيضا فى عقد الصلح مع السلاجقة فى العام نفسه ليتفرغ لاخضاع ثوروس ورينو بسبب تمردهما على السيادة البيزنطية . وقد نجح مانويل فى اذلال ثوروس ورينو وأجبرهما على احترام السيادة البيزنطية . واشتملت هذه المرحلة أيضا على استعداد القوات البيزنطية والصليبية للحرب مع نور الدين ولكن الظروف حالت دون وقوع اشتباكات عسكرية بين

الأطراف المتصارعة وانتهى الأمر بعقد الصلح بين نور الدين ومانويل الذى تمكن بموجب هذا الصلح الافراج عن آلاف الأسرى الصليبيين . وفى المرحلة نفسها أيضا يعود الامبراطور مانويل لقتال السلاجقة بسبب اعتدائهم على القوات البيزنطية أثناء عودتها من الشام . وقد نجح الامبراطور مانويل فى الحاق الهزيمة بالقوات السلجوقية وعقد الصلح مع السلطان قلج أرسلان الذى كان عليه بموجب هذا الصلح أن يقوم بزيارة القسطنطينية مرة كل عام وأن يقدم بعض قواته لمساندة الامبراطورية فى حروبها ضد أعدائها .

وابان هذه الفترة وصلت الامارات إلى درجة من الضعف والانشقاق لم تمكنها من مواجهة المسلمين وأن الملك بلدوين الثالث تصاهر مع الامبراطور مانويل بهدف مساندة الامبراطورية البيزنطية للامارات الصليبية ضد المسلمين ، وأن الامبراطور مانويل استغل انشقاق الصليبيين فى ضرب بعضهم ببعض ، هذا فضلا عن استغلال الصليبيين فى تطويق الأمير ثوروس من الخلف وبذلك يضمن مانويل سيطرته على الصليبيين والأرمن فى وقت واحد . وعندما قاد مانويل حملته فى عام ١١٥٨ م نجح فى تنفيذ ذلك وتمكن من اخضاع رينو أمير أنطاكية وثوروس أمير قيليقية .

هذا ويلاحظ أن مانويل كان يهدف إلى إيجاد نوع من توازن القوى بين المسلمين والصليبيين ، فقد كان لا يرى القضاء على المسلمين أو يترك الصليبيين فريسة للقوات الاسلامية وأنه من خلال الصراع بين الطرفين يتمكن من بسط نفوذ الامبراطورية فى الشام ، لذلك لم يدخل فى حرب مع نور الدين رغم استعداد القوات البيزنطية والصليبية للقتال ، واكتفى بعقد الصلح مع نور الدين الذى أطلق سراح آلاف الأسرى الصليبيين .

وقد استغل الامبراطور مانويل الصراع الذى كان دائرا بين السلاجقة وآل دانشمند فى السيطرة عليهما معا ، وليس ذلك فحسب بل أنالامبراطور مانويل استغل خضوع الصليبيين للسيادة البيزنطية واجبرهم على امـــداد الامبراطورية ببعض الوحدات العسكرية لمساندة الامبراطورية فى قتالها ضد أعدائها ، وأنه لولا القوات الصليبية لما تمكن مانويل من هزيمة السلاجقة فى أواخر عام ١١٦١ م واجبار السلطان قلج أرسلان على عقد صلح مهين .

أما أما المرحلة الرابعة فقد اشتملت على الأحداث الممتدة من عام١١٦٣م حتى عام ١١٨٠ م أى حتى نهاية حكم الامبراطور مانويل . وتميزت هـذه الفترة بفشل خطط الامبراطورية البيزنطية العسكرية فى الشرق . وهى الخطط التى كان يهدف من ورائها الامبراطور مانويل إلى دعم النفوذ البيزنطى فى المنطقة ومحاولة ضم مصر أو جانب منها إلى أملاك الامبراطورية البيزنطيـة . فقد تحالف مانويل مع الصليبيين والأرمن للحد من تقدم القوات الاسلاميـة فى الامارات الصليبية ، وقد انتهى أمر هذا التحالف بالفشل والحاق الهـزيمة بالقوات المتحالفة ، كما تحالف مانويل مع الصليبيين بهدف غزو مصر وقد فشل هذا التحالف أيضا وهزمت القوات المتحالفة عند دمياط . وأعقب ذلك دخول الامبراطور مانويل فى صراع مرير مع السلاجقة،وطال هذا الصراع لسنوات متتالية انتهى بهزيمة القوات البيزنطية هزيمة ساحقة فى معركة ميريوكيفالون.وماتلى ذلكمن مشروع تحالف بيزنطى صليبى بهدف غزو مصر وفشل هذا المشروع وتجدد القتال بين السلاجقة والبيزنطيين وتمكن البيزنطيون من احراز بعض الانتصارات المحدودة التى أصلحت جانبا من كارثة ميريوكيفالون ثم ما لبث مانويل أن مات بعد قليل .

ومن نتائج هذه المرحلة أن الامبراطور مانويل ترك الأمير ثوروس على

حاله فى قيليقية وان اطمئنان ثوروس إلى جانب الامبراطورية جعله يتحالف مع البيزنطيين والصليبيين فى مهاجمة نور الدين ، ورغم فشل هذا التحالف وهزيمة القوات المتحالفة فقد ترتب عليها نتائج هامة جدا ، منها أن نور الدين كان يدرك أهداف الامبراطور مانويل فى امارة أنطاكية وأن نور الدين كان يخشى أيضا القوات البيزنطية وتقدمها فى الشام لذلك أطلق سراح بوهمندالثالث أمير أنطاكية ليعود إلى امارته بدلا من وقوعها تحت السيادة البيزنطية المباشرة وتصبح حدود الامبراطورية متأخمة للاملاك الاسلامية . كما أطلق نور الدين سراح قنسطنطين كولمان الحاكم البيزنطى فى قيليقية خوفا من الامبراطور مانويل . ومن النتائج التى توصل اليها الباحث أيضا أن الامبراطور حاول من خلال الصراع الذى دار بين المسلمين فى الشام والصليبيين بهدف غزو مصر أن يتدخل إلى جانب الصليبيين حتى يفوز بالديار المصرية أو جانب منها باعتبار أن مصر كانت ضمن أملاك الامبراطورية قبل الفتح العربى .

أما عن العلاقات البيزنطية السلجوقية : فان مانويل حاول محاولات مستميتة فى القضاء على السلاجقة وأنه أستنجد بالغرب الأوربى لتحقيق أهدافه ولكن الغرب لم يمده بالقوات التى طلبها وهزم الجيش البيزنطى هزيمة نكراء فى معركة ميريوكيفالون عام ١١٧٦ م بسبب قلة بصيرة الامبراطور العسكرية وكان أهم ما ترتب على هذه المعركة هو تحول القوات البيزنطية من سياسة الهجوم إلى سياسة الدفاع .

بعد هذا العرض والتحليل الختامى لموضوع البحث يمكن القول أن الامبراطور مانويل فشل فى نهاية الأمر فى اعادة قيليقية إلى السيادة البيزنطية كما كان الحال فى عهد والده يوحنا ، وأنه فشل أيضا فى الحد من القوة الاسلامية لضرب الامارات الصليبية ، يضاف إلى ذلك عدم نجاح مانويل فى

القضاء على السلاجقة وتقدمهم فى آسيا الصغرى ولكنه وفق فقط فى الاحتفاظ بالعلاقات الودية مع الصليبيين حتى أواخر أيام حياته . أما فيما يتعلق بسياسة الامبراطورية فى الديار المصرية فقد فشلت فى جميع مراحلها .

وعلى أية حال فأنه عند موت مانويل كان ابنه الكسيوس الثانى لايزال قاصرا ، كما أن أمه الوصية على العرش وهى ماريا الأنطاكية اللاتينية الأصل والتى اعتمدت على اللاتين فى ادارة شئون الامبراطورية ، كانت غير محبوبة فى الامبراطورية البيزنطية . وقد استغل أندرونيكوس كومينيوس ما صاحب ذلك من الاستياء العام ونصب نفسه امبراطورا . ولكن الفتن الداخلية وأخطار النورمان وحروب المجر قد تسببت فى عزله عام ١١٨٥ م، واعتلى العرش البيزنطى من بعده اسحق انجيليوس الذى لم تكن لديه المؤهلات اللازمة لتفادى الأزمات التى هددت الامبراطورية فخلعه عن العرش أخوه الكسيوس الثالث Alexius III (١١٩٥ - ١٢٠٣ م). وبسبب الأخطار الداخلية والخارجية لم تكن الامبراطورية البيزنطية فى وضع يسمح لها أن تتبع سياسة شرقية ناجحة ازاء جيرانها فى الشرق ، بل أن القسطنطينية ما لبثت أن سقطت فى يد قواد الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤ م وقام اللاتين فى القسطنطينية واستولى الصليبيون على العديد من مدن الامبراطورية البيزنطية وانحسر أمر البيزنطيين فى أماكن محدودة مثل امبراطورية نيقية فى آسيا الصغرى (١) .

(١) عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر : عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١٥٣ وما بعدها .

# الجداول والمصادر والمراجع

## قائمة بأسماء الحكام

### الأباطرة البيزنطيون

| | |
|---|---|
| الكسيوس الأول كومنينوس | ١٠٨١ — ١١١٨ |
| حنا الثانى كومنينوس | ١١١٨ — ١١٤٣ |
| مانويل الأول كومنينوس | ١١٤٣ — ١١٨٠ |
| الكسيوس الثانى كومنينوس | ١١٨٠ — ١١٨٣ |
| أندرونيكس الأول كومنينوس | ١١٨٣ — ١١٨٥ |
| اسحق الثانى أنجيليوس | ١١٨٥ — ١١٩٥ |
| الكسيوس الثالث أنجيليوس | ١١٩٥ — ١٢٠٣ |
| اسحق الثانى — الكسيوس الرابع | ١٢٠٣ — ١٢٠٤ |
| الكسيوس الخامس | ١٢٠٤ |

### سلاجقة الروم بآسيا الصغرى :

| | |
|---|---|
| سليمان بن قتلش | ١٠٨١ — ١٠٨٦ |
| قلج أرسلان الأول | ١٠٩٢ — ١١٠٧ |
| ملكشاه الأول بن قلج أرسلان | ١١٠٧ — ١١١٦ |
| مسعود الأول بن قلج أرسلان | ١١١٦ — ١١٥٦ |
| قلج أرسلان الثانى | ١١٥٦ — ١١٨٨ |

### آل دانشمند :

أ — فرع سيواس

| | |
|---|---|
| أبو المظفر محمد ناصر الدين بن كمشتكين | ١١٠٢ — ١١٤٣ |
| ذو النون عماد الدين بن محمد (للمرة الأولى) | ١١٤٣ — ١١٥٥ |

| | |
|---|---|
| ياغى أرسلان نظام الدين بن كمشتكين | ١١٥٦ — ١١٦٧ |
| أبو محمد اسماعيل غازى جمال الدين بن ياغى أرسلان | |
| ابراهيم شمس الدين بن كمشتكين | |
| أبو القادر اسماعيل شمس الدين بن ابراهيم | |
| ذو النون (للمرة الثانية) متخذا لقب ناصر الدين | ١١٦٨ — ١١٧٣ |

ب — فرع ملطية :

| | |
|---|---|
| عين الدين بن كمشتكين | ١١٤٣ — ١١٥٠ |
| ذو القرنين بن عين الدين | ١١٥١ — ١١٦٠ |
| ناصر الدين محمد بن ذى القرنين | ١١٦٠ — ١١٧١ |
| فخر الدين القاسم بن ذى القرنين | ١١٧١ — ١١٧٣ |

بنو زنكى :

أ — أتابكة الموصل :

| | |
|---|---|
| عماد الدين زنكى بن أقسنقر | ١١٢٧ — ١١٤٦ |
| سيف الدين غازى الأول بن زنكى | ١١٤٦ — ١١٤٩ |
| قطب الدين مودود بن زنكى | ١١٤٩ — ١١٧٠ |
| سيف الدين غازى الثانى بن مودود | ١١٧٠ — ١١٧٦ |
| عز الدين مسعود الأول بن مودود | ١١٧٦ — ١١٩٣ |

ب — أتابكة الشام :

| | |
|---|---|
| العادل نور الدين محمود بن زنكى | |
| فى حلب | ١١٤٦ — ١١٧٤ |
| فى دمشق | ١١٥٤ — ١١٧٤ |

الصالح نور الدين محمود بن اسماعيل ....

| | |
|---|---|
| فى حلب | ١١٧٤ — ١١٨١ |

بنـــو أرتـــق :

أ — الأراتقة فى حصن كيفا ثم فى آمد

| | |
|---|---|
| داود بن سقمان | ١١٠٨ — ١١٤٨ |
| قرا أرسلان بن داود | ١١٤٨ — ١١٧٤ |
| محمد بن قرا أرسلان | ١١٧٤ — ١١٨٥ |

ب — الأراتقة فى ماردين :

| | |
|---|---|
| ايلغازى الأول بن أرتق | ١١٠٨ — ١١٢٢ |
| تمرتاش بن ايلغازى | ١١٢٢ — ١١٥٢ |
| ألبى بن تمرتاش | ١١٥٢ — ١١٧٦ |
| ايلغازى الثانى بن ألبى | ١١٧٦ — ١١٨٤ |

الـــدولة الفاطميـــة :

| | |
|---|---|
| الآمر ، أبو على المنصور | ١١٠٢ — ١١٣٠ |
| فترة شغور | |
| الحافظ ، أبو الميمون عبد المجيد | ١١٣١ — ١١٤٩ |
| الظافر ، أبو المنصور اسماعيل | ١١٥٠ — ١١٥٤ |
| الفائز ، أبو القاسم عيسى | ١١٥٥ — ١١٦٠ |
| العاضد ، أبو محمد عبد الله | ١١٦١ — ١١٧١ |

الدولـــة الأيوبيـــة :

| | |
|---|---|
| الناصر صلاح الدين يوسف | ١١٧٤ — ١١٩٣ |

الامـــارات الصليبية :

أ — ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية :

| | |
|---|---|
| جودفرى أف بويون | ١٠٩٩ — ١١٠٠ |
| بلدوين الأول (أول ملك متوج) | ١١٠٠ — ١١١٨ |
| بلدوين الثانى | ١١١٨ — ١١٣١ |
| فولك الأنجوى | ١١٣١ — ١١٤٤ |
| بلدوين الثالث | ١١٤٤ — ١١٦٢ |
| عمورى الأول | ١١٦٢ — ١١٧٣ |
| بلدوين الرابع | ١١٧٣ — ١١٨٥ |

ب — أمراء أنطاكية النورمان :

| | |
|---|---|
| بوهمند الأول | ١٠٩٨ — ١١٠٤ |
| تنكرد | ١١٠٤ — ١١١٢ |
| روجر دى سالرنو | ١١١٢ — ١١١٩ |
| بوهمند الثانى | ١١٢٦ — ١١٣٠ |
| ريموند أف بواتيه | ١١٣٦ — ١١٤٩ |
| ريموند أف شاتيون (أرناط) | ١١٥٣ — ١١٦٠ |
| بوهمند الثالث | ١١٦٣ — ١٢٠١ |

ج — أمراء طرابلس :

| | |
|---|---|
| ريموند الأول (الصنجيل) | ١١٠٢ — ١١٠٥ |
| وليم جوردان | ١١٠٥ — ١١٠٨ |
| برتراند | ١١٠٨ — ١١١٣ |
| بونس | ١١١٣ — ١١٣٧ |
| ريموند الثانى | ١١٣٧ — ١١٥٢ |

| | |
|---|---|
| ريموند الثالث | ١١٥٢ — ١١٨٧ |

د — أمراء الرها :

| | |
|---|---|
| بلدوين البولونى | ١٠٩٨ — ١١٠٠ |
| بلدوين أف بورج | ١١٠٠ — ١١١٨ |
| جوسلين الأول | ١١١٩ — ١١٣١ |
| جوسلين الثانى | ١١٣٢ — ١١٥٠ |

أمراء أرمينية الصغرى :

| | |
|---|---|
| روبان الأول | + ١٠٩٠ |
| قسطنطين الأول | + ١١٠٠ |
| ثوروس الأول | ١١٠٠ — ١١٢٩ |
| ليون الأول | ١١٢٩ — ١١٣٦ |
| ثوروس الثانى | ١١٤٤ — ١١٦٧ |
| روبان الثانى (تحت الوصاية) | + ١١٧٠ |
| مليح | ١١٧٠ — ١١٧٥ |
| روبان الثالث | ١١٧٥ — ١١٨٧ |

## مختصرات لبعض اسماء المصادر والمراجع التى وردت فى حواشى الرسالة

| | | |
|---|---|---|
| A.S.C. | — | Anonymous Syriac Chronicle. |
| C.M.H. | — | The Cambridge Medieval History. |
| C.S.H.B. | — | Corpus Scriptorum Historia Byzantinae. |
| Ency. Brit. | — | Encyclopaedia Britannica. |
| Hist. Patr. Alex. | — | L'Histoire de Patriacrches d'Alexandrie. |
| Mon. Cart. | — | Monumenta Cartographica Africae et Aegypti. |
| P.P.T.S. | — | Palestine Pilgrims Text Society. |
| R.E.G. | — | Revue des Etudes Greques |
| R.H.C.—Doc. Arm. | — | Recueil des Historiens des Croisades Documents Armeniens. |
| R.H.C.—Hist. Occ. | — | Recueil des Historiens des Croisades Historiens Occidentaux. |
| R.H.G.F. | — | Recueil des Historiens des Gaules et de la France. |
| R.O.L. | — | Revue de l'orient latin. |

### مجمـــوعات ودوريـات


مجلة كلية الآداب ــ جامعة الاسكندرية

مجلة كلية الآداب ــ جامعة القاهـرة

American Historical Review.

Bongars, J. (ed.), Gesta Dei per Francos, sive orientalium epeditionum et regni Francorum hierosolimitani historia (ab a. 1095 ad 1420) a variis sed illius aevi scriptoribus, litteris. 2 t. Hanover. 1611.

Bulletin de l'Institut Egyptien.

Byzantion.

The Cambridge Medieval History 8 Vols. Cambridge 1911—1936.

Corpus Scriptorum Historia Byzantinae. Bonn, 1828—97.

Dumbarton Oaks Papers.

Journal Asiatique.

The Journal of Hellenic Studies.

Journal of The Royal Asiatic Society.

Michaud, J., Bibliothéque des Croisades. 4 vols. Paris., 1829;
I. Chroniques de France;
II. Id. et Chroniques d'Italie et d'Angleterre;
III. Chroniques d'Allemagne, des pays du nord, grecques;
IV. Chroniques arabes.

Palestine Pilgrims' Text Society. 13 vols. and general Index. London, 1887—1897.

Revue des Etudes Grecques.

Recueil des Historiens des Croisades, publi par les soins de l'Acad mie des Inscriptions et Belles-Lettres, in 16 huge folio vols, 1841—1906.
I. Historiens Occidentaur, 5 tomes (1844—1895).
II. Historiens Orientaux, (Arabes), 5 tomes (1972—1906);
III. Historiens Grecs, 2 tomes (1975—1881);
IV. Documents Armeniens, 2 tomes (1869—1906);
V. Lois, 2 tomes (1841—1843);

Recueil des Historiens des Gaules et de la France, 23 vols. ed. Bouquet Paris, 1869—1904.

Revue de l'Orient Latin, publiée sous la direction de MM. Le Marquis de Vogue et Ch. Schefer. Paris, 1893—1911.

Speculum.

## دوائـــر المعــارف

Encyclopaedia (An) of The World History, London, 1948.

Encyclopaedia Americana. 29 Vol. & Index. New - York, 1944—5.

Encyclopaedia Britannica. 22 Vol. & Index. Chicago, 1968.

Encyclopaedia International. 19 Vol. & Index. New-York, 1970.

Encyclopaedia (The) of Islam. Vol. I, II, III, Leiden, 1960-71.

## المصـــادر الاجنبيـــة

### ١ - مصـــادر بيزنطيـــة


Anna Comnena,.

The Alexiad, Tran. E.R.A. Sewter, Great Britain, 1969.

Cinnamus, J.,

Epitome Historiarum, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae. Bonn, 1836.

Manuel I,

1 — Letter to louis VII dated 1146 in R.H.G.F. Vol XVI p. 9—10.

2 — Letter to The Pope Eugenius III dated 1146, Cf., R.H.G.F., XV. pp. 440—1.

3 — Letters to louis VII King of France dated 1146. in R.H.G.F. Vol XVI, p. 9—10, 82.

4 — Letter to the Pope Alexander III dated 29—1—1176, in R.H.G.F. p. 952.

5 — Letter to the King Henry of England, Cf. Roger of Hovenden Vol I p. 419—423.

Nicetas, Ch.,

Historia, in Corpus Soriptorum Historiae Byzantinae Bonn 1835.

Phocas, J.,

A Brief Description 1185 A.D. (tran.Aubrey Stewart) in The Palestine Pilgrims Text Society Vol. V, London 1889.

Prodromus, Th.,

Poemata, Cf., R.H.C. Grecs, II, pp. 741—774.

Psellos, M.,

Chronographie (Historie d'un Sicle de Byzance (976—1077) 2 vols. Paris 1926—8.


### ٢ - مصـــادر لاتينيـــة


Amalric I, King of Jerusalem,

1 — Letter to Henry II King of England dated 1169 AD. in R.H. G.F. Vol XVI pp. 187—188.

2 — Letters to louis VII King of France dated 1162 A.D. in R.H.G.F. Vol XVI pp. 36—40.

Conrad III, King of Germeny,

Letter to Wibald, in R.H.G.F. XV 533—4.

Eugen III,

Letter to Louis VII in. R.H.G.F., XV, pp. 429—430.

Fulcher of Chartres,

Chronicle of The First Crusade tran. by M.E. Mcginty Vol. I, London, 1941.

Fabri, Felix.,

The Book of Wandering (1480—83) 2 Vol., 4 Parts. tran. by Aubrey Stewart., London 1893.

Ludolph Von Suchem's,

Descriptian of The Holy Land, written in the year A.D. 1350, Tran. by Aubrey Stewart, London, 1895.

Louis VII King of France,

Letter to Suger, Cf., R.H.G.F., XV, p. 496.

Ode of Deuil,

De Profectione Ludovici VII in Orientem, edited with an English Translation by Viraginia Gingerick Berry, New York, 1948.

Otto of Freising,

1 — The Deeds of Frederick Barbarossa, ed. & tr. by Mierow. C.C., New York 1953.

2 — The Two Cities, Tran. Mierow, C.C. New York, Columbia University Press, 1928.

Pretre—Jean,

Lettre au le Emperor Byzantine Manuel, dated 1155. Cf., Y. Kamal, Mon Cart. t. III, Fasc. IV, 1934 (pp. 890—1).

Roger of Hoveden,

The Annals of Roger de Hoveden, comprising the history of England and The Other Countries of Europe from A.D. 732 to A.D. 1201, tran from the Latin with notes & Illustration by Henry T.Rily, 2 Vols, London, 1853.

Roger of Wendover,

Flowers of History 2 Vols., tran. from the latin by Gilles, J.A., London, 1849.

Saewulf,

The Pilgrimage to Jerusalem (1102—1103), (tran-Rev. Canon. Brownlow) in The Palestine Pilgrims Text Society Vol. IV. London, 1892

Tudebadus,

De Hierosolymitano Itinere, Cf. R.H.C. Hist. Occ. Vol. III pp. (169-229).

Vitry, Jacques de,

1 — The History of Jerusalem, tran. from the latin Original by Aubrey Stewart, London, 1896.

2 — Lettres de Jacques de Vitry, edition Critique Par R.B.C. Cuygens, Leiden 1960.

William Archbishap of Tyre,

A Histiry of Deeds Done Beyond the Sea 2 Vols. translated & Annotated by Emily Atwater Babcock & A.C. Kery, New York, 1943.

Wilbrandi de Oldenborg,

Extracts, A Journal of Pligrimage, Cf. Cobham, C.D., T. & transcribed, Excerpta Cypria, Materials for a History of Cyprus. Cambridge 1908, pp. 13--14.

حسن حبشي (المترجم)

أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس — دار الفكر العربي ١٩٥٨

## ٣ — مصـــادر سريانيـــة

Anonymous Syriec Chronicle,

The First & thc Sscond Crusades, ed. & tran. dy A.S. Tritton of the Royal Asiatic Society. Lonaon, 1933 Part I pp. 69 - 101, Part II pp. 273 - 305.

Michel le Syrien,

La Chrbnioue de Michel le syrien, Cf. R. H. C. Arm. Vol. I, Parir, 1869 pp. 309 - 409.

## ٤ – مصـــادر أرمينيـــة

Le doctor Basil,

Oraison Funebre de Baudouin, Comte de Keçoun et de Marasch, C.F., R.H.C. Doc. Arm., I,

Grégoire le Pretre,

Chronique de Gregoire le Pretre, Cf. R.H.C. Arm. Vol. I, pp. 151—201.

Guiragos de Kantzag,

Histoire d'Armenie, extrait. Cf., R.H.C. Doc. Arm., I, pp. 413—430

Hethoum, Comte de Gorigos,

Table Chronologique, Cf., R.H.C. Doc. Arm., I, pp. 471—490.

Matthieu d'Edesse,

Chronique, extrait, cf.,R.H.C. Doc. Arm., I, pp. 1—180.

Saint Nerses,

Elegie sur la Prise d'Edesse Par Emad-ein Zanqui. Cf., R.H.C. Doc. Arm. pp. 226—307.

Saint Nerses de Lampron,

extraits de Son Ouvrage, Cf., R.H.C., Doc. Arm. I, pp. 557—603.

Samuel d'Ani,

Chronographie, extrait, Cf. R.H.C. Doc. Arm., I, pp. 447—468.

Sempad, Le Conetable,

Chronique du Royaume de la Petite Armenie, extrait. Cf., R.H.C. Doc. Arm., I, pp. 610.

Vahram d'Edesse,

Chronique Rimee des Rois de la Petite Armenie. Cf., R.H.C. Doc. Arm., I, pp. 493—535.

Vartan le Great,

Abrege d'Histoire Universelle, Cf., R.H.C. Doc. Arm., I, pp. 431—443.

## ٥ — مصـــادر متنـــوعة

Daniel, The Russian Abbot,

The Pilgrimage in the Holy land (1106—1107), (annotated by C.W. Wilson) in the Palestine Pilgrims' Text Society Vol IV London, 1888.

Joseph ben Joshua ben Meir,

Chronicle (tran. from Hebrau by C.H.F. Biallablotzky) 2 vols. London, 1834—1836.

## المصـــادر العـــربية

### ١ - مخطـــوطات(١)

ابن أبى السرور (ت ١٠٢٨ هـ / ١٦١٩ م) محمد بن محمد بن أبى السرور زين الدين البكرى :

«النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية» - دار الكتب المصرية - رقم ٢٢٦٦ تاريخ .

ابن أيبك (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) أبو بكر بن عبد الله :

١ - «دور التيجان وغرر تواريخ الأزمان» - دار الكتب المصرية رقم ٤٤٠٩ تاريخ .

٢ - «كنز الدرر وجامع الغرر» - ٩ جـ - دار الكتب المصرية رقم ٦٤٣ تاريخ .

ابن بهادر (عاش فى القرن التاسع هـ / الخامس عشر م) محمد بن محمد بن بهادر «فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر» - دار الكتب المصرية - رقم ٤٩٧٧ تاريخ .

ابن الجرزى «محمد» (ت ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م) شمس الدين أبو الخير :

«ملخص تاريخ الاسلام» - مكتبة بلدية الاسكندرية رقم ٢٠٧٢- د .

ابن الجوزى (ت ٥٦٤ هـ / ١٢٥٦ م) أبو المظفر شمس الدين :

«مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان» - دار الكتب المصرية رقم ٢١٨١ تاريخ .

---

(١) المخطوطات المصورة رمزت لها بـ (لوحة) والمكتوبة بخط اليد رمزت لها بـ (ورقة) .

ابن الفرات (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات :

«تاريخ الدول والملوك» — ١٨ ج — دار الكتب المصرية — رقم ٣١٩٧ تاريخ . «تصوير شمسى» .

ابن الفارقى (ت ٨٦٧ هـ / ١٢٨٨ م) أحمد بن يوسف على بن الازرق :

«تاريخ ميافارقين» — ميكروفيلم — جامعة الدول العربية — معهد المخطوطات ، نسخة مصورة عن مخطوط المتحف البريطانى — رقم ٥٨٠٣ .

ابن قاضى شهبة (ت ٨٧٤ هـ / ١٢٧٥ م) بدر الدين محمد بن أبى بكر :

«الدر الثمين فى سيره نور الدين زنكى» — مكتبة بلدية الاسكندرية رقم ١٣٣٦ ب .

أبو الدم الحموى (ت ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م) شهاب الدين ابراهيم بن عبد الله :

«التاريخ المظفرى» — مكتبة بلدية الاسكندرية — رقم ١٢٩٢ ب .

بامخرمة (عاش فى القرن العاشر هـ / السادس عشر م) أبو محمد بن عبد الله ابن أحمد بن على :

«قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر» — ٦ ج — دار الكتب المصرية رقم ٤٤١٠ تاريخ .

البغدادى (ت ١١٠٢ هـ / ١٦٩٠ م) أحمد بن عبد الله :

«عيون أخبار الأعيان ممن مضى من سالف العصر والأزمان» — مجلدان — دار الكتب المصرية — رقم ٣٨١٠ تاريخ . «تصوير شمسى» .

العينى (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) بدر الدين :
«عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان» - ٢٣ جـ فى ٦٩ مجلدا - دار الكتب المصرية - رقم ١٥٨٤ تاريخ «تصوير شمسى» .

النويرى الكندى (ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م) شهاب الدين أحمد :
«نهاية الأرب فى فنون الأدب» - ٥٥ مجلدا - دار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة «تصوير شمسى» .

## ٢ - الكـــتب

ابن الأثير الجزرى (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٤ م) أبو الحسن على بن أبى الكـرم الملقب عز الدين :
١ - «التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية بالموصل» - تحقيق عبد القادر أحمد طليمات - دار الكتب الحديثة - القاهرة - ١٩٦٣ .
٢ - «الكامل فى التاريخ» - ١٢ جزء فى ١٢ مجلد + الفهرس -بيروت ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .

ابن اسحق الأموى (ت حوالى ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م)
«فتوح مصر وأعمالها» - مطبعة الحجر الباهرة - القاهرة-١٢٧٥هـ

ابن أيبك (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدوادارى :
«كنز الدر وجامع الغرر» - الجزء السادس - (الدره المضيئة فى أخبار الدولة الفاطمية) - تحقيق صلاح المنجد - القاهرة ١٣٨٠ هـ ١٩٦١ م .

ابن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) أبو عبد الله محمد بن عبد الله :
«مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار ،

وعجائب الأسفار» ــ ٢ جـ ــ القاهرة (بولاق) ١٩٣٤–١٩٣٧م.

ابن الجوزى (ت ٣٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) أبو المظفر شمس الدين :
«مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان» ــ المجلد الثامن ــ ق ١ ، ٢ ــ حيدر أباد ــ ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م .

ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) عبد الرحمن محمد :
«العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر» ــ ٧ جـ ــ القاهرة (بولاق) ١٢٨٤ هـ .

ابن شداد (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٨ م) أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة :
«سيرة صلاح الدين الأيوبى المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» ــ تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ــ الطبعة الأولى القاهرة ١٩٦٤ م .

ابن العديم (٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م) كمال الدين أبى القاسم عمر بن أحمد بن هبه الله :
«زبدة الحلب فى تاريخ حلب» ــ ٣ جـ ــ تحقيق سامى الدهان ــ دمشق ١٩٥١ ــ ١٩٦٨ م .

ابن الفرات (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن على :
«تاريخ ابن الفرات» ــ المجلد الرابع جـ ١ ، ٢ والمجلد الخامس جـ١ عنى بتحرير نصه ونشره الدكتور حسن محمد الشماع ــ البصرة (مطبعة حداد) ١٩٦٧ ــ ١٩٧٠ م .

ابن القلانسى (ت ٥٥ هـ / ١١٦٠ م) أبو يعلى حمزة بن أسد بن على ابن محمد

«تاريخ أبى يعلى حمزة بن القلانسى ، المعروف بذيل التاريخ دمشق — بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٩٠٨ م .

ابن كثير القرشى (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر «البداية والنهاية فى التاريخ» — ١٤ جـ القاهرة (مطبعة السعادة( ١٣٥١ — ١٣٥٨ هـ .

ابن مماتى (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) أبو المكارم أسعد بن الخطير ابى سعد :
«كتاب قوانين الدواوين» — جمعه ونشره وعلق عليه الدكتور عزيز سوريال عطية — القاهرة (مطبعة الجمعية الزراعية) ١٩٤٣م.

ابن ميسر (ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م) محمد بن على بن يوسف بن حلب :
«أخبار مصر» — ٢ جـ — نشر هنرى ماسيه — القاهرة (مطبعة المعهد العلمى الفرنسى (١٩١٩ م .

ابن واصل (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم :
«مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب» — ٤ جـ — جـ ١ ، ٢ ، ٣
تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال — القاهرة — ١٩٦٠ م — جـ ٤ .
تحقيق الدكتور حسنين محمد ربيع — القاهرة (دار الكتب) ١٩٧٢

أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان شهاب الدين :
«كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية»—جزءان فى مجلد واحد — القاهرة (مطبعة وادى النيل) ١٢٨٧ — ١٢٨٨ هـ.

ابو الفداء (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء اسماعيل ابن على :

١ — «المختصر فى أخبار البشر ، ويعرف بتاريخ أبى الفداء» — ٤ جـ — استانة (دار الطباعة الشاهانية) ١٢٨٦ هـ .

٢ — «تقويم البلدان» — نشره رينو وديسلان — باريس (دار الطباعة السلطانية) ١٨٤٠ م صورة بالأوفست بمعرفة مكتبة المثنى ببغـــداد .

أبو الفرج الملطى (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون :

«تاريخ مختصر الدول» بيروت (المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ١٨٩٠ م .

أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى :

«النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — ٩ جـ — القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٣٤٨ — ١٣٩١ هـ / ١٩٢٩ — ١٩٤٢ م .

أسامه بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م) مؤيد الدولة أبو المظفر أسامه بن رشد الكنانى الشيزرى المعروف بابن منقذ :

«كتاب الاعتبار» ليدن ١٨٨٤ .

الأصفهانى (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) عماد الدين محمد بن محمد بن حامد :

١ — «تاريخ دولة آل سلجوق» — مصر (مطبعة الموسوعات) ١٣١٨ هـ / ١٩٠٠ م .

٢ — «الفتح القسى فى الفتح القدسى» — تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح — القاهرة (الدار القومية للطباعة والنشر) ١٩٦٥

تاج الدين شاهنشاه بن أيوب (ت ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م) .

«منتخبات من كتاب التـــاريخ» — أنظر ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية — مطبعة المؤيد والآداب ١٣١٧ ﻫ ص ٢٥٢ — ٣١٢ .

الحسن بن عبد الله (عاش فى القرن الثامن ﻫ / الرابع عشر م)
«آثار الأول فى ترتيب الدول» — القاهرة (بولاق) ١٢٩٥ ﻫ .

الدمشقى (ت ٧٢٧ ﻫ / ١٣٢٧ م) محمد أبى طالب الأنصارى الصوفى المعروف بشيخ الربوة والمكنى بالدمشقى :
«نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر» — بطرسبرج ١٨٦٦ م .

الذهبى (٧٤٨ ﻫ / ١٣٤٨ م) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان قايماز شمس الـــدين :
«دول الاسلام» — ٣ ج — الهند (مطبعة دائرة المعارف النظامية الكائنة بمدينة حيدر أباد الدكن) ١٣٣٧ ﻫ .

الراوندى (ت بعد ٦٠٣ ﻫ / ١٢٠٧ م) محمد بن على بن سليمان :
«راحة الصدور وآية السرور فى تاريخ الدولة السلجوقية» نقله من الفارسية إلى العربية الدكتور ابراهيم أمين الشواربى وآخرين — القاهرة — (دار القلم) ١٣٧٩ ﻫ / ١٩٦٠ م .

صدر الدين أبو الحسن على (ت ٦٢٢ ﻫ / ١٢٢٥ م) ابن ناصر
«أخبار الدولة السلجوقية» — نشره محمد اقبال — لاهور (مطبعة جامعة البنجاب) ١٩٣٣ م .

العظيمى (ت بعد ٥٥٦ ﻫ / ١١٦١ م) محمد بن على محمد بن أحمد بن نزار التنوخى الحلبى :

«اتاريخ العظيمى» — نشره كاهن أنظر :

Journal Asiatique, Tome ccxxx, 1938—pp. 353—448.

الفارقى (٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م) أحمد بن يوسف بن على بن الازرق :

«تاريخ الفارقى» الدولة المروانية — حققه وقدم له الدكتور بدوى عبد اللطيف عوض — القاهرة ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م .

القلقشندى (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) أحمد بن على بن أحمد عبد الله :

«صبح الأعشى فى صناعة الانشاء» — ١٤ جـ — القاهرة ١٩١٣ — ١٩٢٠ / ١٣٣١ — ١٣٣٨ هـ .

المقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) تقى الدين أبو العباس أحمد :

١ — «السلوك لمعرفة دول الملوك» — الجزءان الأول والثانى إلى سنة ٧٤١ هـ — نشره وعلق عليه الدكتور محمد مصطفى زيادة — القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٩٣٤ — ١٩٤٢ م .

٢ — «المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار» — ٤ جـ — القاهرة (مطبعة النيل) ١٣٢٤ — ١٣٢٦ هـ .

ناصر خسرو (ت ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م)

«سفر نامه» — نقله إلى العربية الدكتور يحى الخشاب — القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م .

L'Histoire des Patriarohes d'Alexandria, extraits, tran, Blochet, cf. Revue de l'Orient Latin, Vol. XI. Paris, 1908. (pp. 240—260).

الواقدى (٢٠٧ هـ / ٨١٥ م) أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد :

«كتاب فتوح مصر والاسكندرية» — ليدن ١٢٤١ هـ / ١٨٢٥ م .

اليافعي اليمنى (ت ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ — ١٣٦٧ م) أبو محمد عبد الله بن أسعد ابن على :

مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان»
٤ جـ حيدر أباد الدكن (مطبعة دائرة المعارف النظامية) ١٣٣٧ — ١٣٣٩ هـ .

ياقوت الرومى الحموى (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) أبو عبد الله ياقوت بن عبدالله الملقب شهاب الدين :

«معجم البلدان» ٥ أجزاء وفهرس — ليبزج ١٨٩٠ م .

# المـــراجع الاجنبيـــة

Addison, C.G.,

The History of the Knights. Templors. London, 1842.

Adeney, W.F.,

The Greek & Eastern Churches. Edinburgh, 1908.

Anderson, J.G.C.,

The Road System of Eastern Asia Mainar with the Evidence of Byz, in the Journal of Hellenic Studies Vol XVII 1879. pp. 22—44.

Archer, T.A., & Kingsford C.L.,

The Crusades : The Story of the Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1894.

Bailly, A.,

Byzance. Paris, 1948.

Baynes, N.,

The Byzantine Empire. Oxford, 1952.

Baynes & Moss,

Byzantium, An Introduction to East Roman Civilization. Oxford, 1949.

Bellac, H.,

The Crusade. London, 1937.

Brehier, L.,

1 — La Civilisation Byzantine. Albin Michal. Paris, 1970.

2 — Vie et Mort de Byzance. Paris, 1947.

Brooke, Z.N.,

A History of Europe from 911—1198. Vol 2 First Published. London 1938.

Brundage, J.A.,

Crusades : A Documentary Survey. The Marquette University Press, 1962.

Byron, R.,

The Byzantine Achievement an Historical Perspeclive A.D. 330—1453. London, 1929.

Cahen, C.,

La Syrie du Nord. Paris, 1940.

Campbell, G.A.

The Crusades. London, 1935.

Chalandon, F.,

Les Comnenes, T. II : Jean II Comnene et Manuel Comnene. Paris, 1913.

Conder, C.R.,

The Latin Kingdom of Jerusalem 1099—1291. London, 1897.

Curzon, R.,

Armenia — London. 1854.

Diehl, C.,

1 — Byzantium : Greatness & Decline. Tran. From French by Naomi Walford. New Jersey, 1957.

2 — Histoire de l'Empire Byzantin. 12 me Edition. Paris, 1934.

Duggan, A.,

The Story of The Crusades 1097 — 1291. London, 1963.

Ebersolt, J.,

Orient et Occident. 2 Vols. Paris, 1929.

Fedden, R. & Thomson, J.,

Crusader Castles. London, 1957.

Finlay, G.,

History of Greece, from its Conquest by the Romans to the Present time. B.C. 146—A.D. 1964. 7 Volumes. Oxford, 1877.

Folz, R.,

The Concept of Empire in Western Europe translated by Sheila Ann Oglilvie. London, 1969.

Foord, E.,

The Byzantine Empire. London, 1911.

Freeman, E.A.,

The Historical Geography of Europe (ed. J.B. Bury). Third edition London, 1903.

Grousset, R.,

1 — L'Empire du Levant. Paris, 1949.

2 — Histoire des Croisades. 3 Vols. Paris, 1935.

Haskins, C., H.,

The Normans in European History. New York, 1959.

Heyd, W.,

Histoire du Commerce de Levant au Moyen Age. 2 Vols. Leipzig, 1885—1886.

Hendy, M.,

Coinage & Money in The Byzantine Empire, Cf. Dumbarton Oaks Papers. 1969.

Hutton, W.H.,

Constantinople : The Story of the Old Capital of the Empire. London, 1921.

Jullien, R.P.,

Note sur l'Emplacement de L'Ancienne Damiette, Cf., Bulletin de L'Institut Egyptien, 1886 (pp. 72—77.) Le Caire 1887.

King, E.J.,

The Knights Hospitallers in the Holy Land. London, 1931.

Lamb, H.,

The Crusades : The Flame of Islam. London, 1931.

La Monte, J.,

1 — The Lordes of Caesarea in the Period of the Crusades. in Speculum Jornal of Mediaeval Studies Vol XXII, 1947. pp. 145—161.

2 — To What Extent was the Byzantine Empire the Suzerain of the Latin Crusading States ? in Byzantion Vol VII, 1972. pp. 253—264.

3 — The World of the Middle Ages. New York, 1949.

Ludlow, J. M.,

The Age of the Crusades. Edinburgh, 1897.

Martin, Abb,.

Les Premiers Princes Croises et les Syriens Jacabites de Jerusalem, in Journal Asiatique Vols XII, & XIII. Paris, 1888 pp. 471—400, 1889 pp. 33—79.

Michaud, M.,

History of the Crusades. tran. from the french, by W. Robson 3 Vols. London, 1852.

Neale & Others,

A History of The Holy Eastern Church. The Patriarchate of Antioch London, 1873.

Norwich, J. J.,

The Kingdom in the Sun 1130—1194. London, 1970.

Oman, C.,

1 — The Byzantine Empire. Sixth impression. London, 1922.

2 — A History of The Art of War in The Middle Ages 2 Vols. Vol I 378—1278. Vol 2 Second Edition, London, 1924.

Ostrogorsky, G.,

History of The Byzantine State. Oxford, 1956.

Painter, S.,

A History of The Middle Ages 284—1500. New York, 1954.

Rey, E.,

1 — Resume de L'Histoire de Princes d'Antioche. in R.O.L. tome 1896 pp. (319—407).

2 — Les Seigneure de Barut in R.O.L. 1896 pp. 12—24.

Rice, T.,

Everyday Life in Byzantium. London, 1976.

Richard, J.,

Le Comt de Tripoli sous la Dynastie Toulousaine. Paris, 1945.

Runciman, S.,

1 — Byzantine Civilisation. London, 1936.

2 — A Story of The Crusades. 3 Vols. Cambridge., 1954.

Schlumberger, G.,

1 — Campagnes du Roi Amaury I de Jerusalem. Paris, 1906.

2 — Renaud de Chatillon Prince d'Anlioche, Seigneur de la terre d'Outre Jouidain. Paris, 1933.

3 — Sceawx Byzantins Inedits. in Revue des Etudes Grecques tome XIII, 1900 pp. (467—492).

Setton, K.M., (ed.)

A History of The Crusades. 2 Vol. Pennsylvania, 1958—1962.

Smail, R. C.,

Crusading Warfare 1097—1193. Cambridge, 1956.

Stevenson, W.B.

The Crusaders in The East. Cambridge, 1907.

Tout, T.F.

The Empire & the papacy 918—1273. London, 1909.

Vambery, A.,

Hungary in The Ancient, Mediaeval, & Modern Times. 3th. ed. London, 1889.

Vasiliev, A.A.,

History of The Byzantine Empire. 2 Vols. Madison, 1929.

Walker, C.H.,

Eleanor of Aquitaine & the Disaster at Cadoms Mountain on the Second Crusade. in American Historical Review, July. 1950 pp. (857—861).

Walter, G.,

La Vie Quotidienne a Byzance au Siecle des Comnenes 1081—1180. Hachelte, Paris, 1866.

Woodhouse, F.C.,

The Millitary Religious Order of The Middle Ages. London, 1879.

Joseph, N. Y.,

Arab Awakening During The Crusades, Cf. Bulletin of The Faculty of Arts, 1971, pp. 11—22.

## المراجع العربية والمعربة

أحمد مختار العبادى (دكتور) ، السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :

تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام – جامعة بيروت العربية ١٩٧٢ .

أسد رستم (دكتور) :

١ – الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب – ٢ ج – بيروت (دار المكشوف) ١٩٥٦ .

٢ – كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى – ٣ جزء – بيروت ١٩٥٨ .

أنطون خانجى :

مختصر تواريخ الأرمن – أورشليم – ١٨٦٨ م .

جمال الدين الشيال (دكتور) :

١ – مجمل تاريخ دمياط سياسيا واقتصاديا – الاسكندرية (مطبعة مدرسة دون بوسكو) ١٩٤٩ م .

٢ – تاريخ مصر الاسلامية – ٢ ج الاسكندرية (دار المعارف) ١٩٦٧ .

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية :

بحوث التاريخ الاقتصادى – ترجمة توفية اسكندر – القاهرة (مطابع دار النشر للجامعات المصرية) ١٩٦١ .

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

١ - «العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى» - الطبعة الثانية - الاسكندرية (دار المعارف بمصر) ١٩٦٧ .

٢ - «الوحدة وحركات اليقظة العربية ابان العدوان الصليبى» - الاسكندرية - (دار المعارف بمصر) ١٩٦٧ .

٣ - «العدوان الصليبي على مصر» هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور» - الطبعة الأولى - الاسكندرية (دار الكتب الجامعية) ١٩٦٩ م .

حسن ابراهيم حسن (دكتور) :

«تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى» - ٤ ج - طبعة أولى - مكتبة النهضة المصرية - ١٩٦٧ .

حسن حبشى (دكتور) :

١ - «الحرب الصليبية الأولى» - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٥٨ .

٢ - «نور الدين والصليبيون» حركة الافاقة والتجمع الاسلامى فى القرن السادس الهجرى - القاهرة (دار الفكر العربى) ١٩٤٨ .

درويش النخيلى (دكتور) :

«السفن الاسلامية على حروف المعجم» - القاهرة - (مطبعة الأهرام التجارية) ١٩٧٤ .

زامباور :

«معجم الانساب» - جزءان - مطبعة جامعة فؤاد ١٩٥١-١٩٥٢

سعاد ماهر (دكتوره) :

«البحرية فى مصر الاسلامية وأثارها الباقية»— القاهرة ١٩٦٧ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :

١ — «قبرص والحروب الصليبية»— القاهرة (مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧ .

٢ — «الحركة الصليبية» صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى» — ٢ جـ — طبعة أولى — القاهرة (مكتبة الانجلو المصرية) ١٩٦٣ .

٣ — «أوروبا العصور الوسطى» — ٢ جـ — الطبعة الثالثة—القاهرة ١٩٦٤ .

سليم حسن هيثى :

«الاسماعيليون عبر التاريخ» بيروت ١٩٦٩.

عبد المنعم ماجد (دكتور) :

«ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر»— التاريخ السياسى — اسكندرية — (دار المعارف بمصر) ١٩٦٨ .

على مبارك (ت ١٣١١ هـ / ١٨٩٣ م) على مبارك بن سليمان بن ابراهيم الرومى :

«الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة»وتعرف بخطط على مبارك — ٢٠ جـ فى ٤ مجلدات — القاهرة (بولاق( ١٣٠٤ — ١٣٠٦ .

عمر كمال توفيق (دكتور) :

١ — «مملكة المقدس الصليبية»— الاسكندرية (مطبعة رويال) ١٩٥٨ .

٢ — «تاريخ الامبراطورية البيزنطية» — الاسكندرية (دار المعارف) ١٩٦٧ .

٣ — «مقدمات العدوان الصليبي على الشرق العربي» الامبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية ٩٦٩ — ٩٧٦ م» — طبعة ثانية — الاسكندرية (دار المعارف) ١٩٦٧ .

٤ — «المؤرخ وليم الصورى» — مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية (العدد ٢١ لسنة ١٩٦٧) — مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٦٨ — ص ١٨١ — ٢٠٠ .

٥ — «الامبراطورنقفور فوكاس واسترجاع الأراضي المقدسة». الاسكندرية ١٩٥٩ .

لى سترانج :

١ — «بلدان الخلافة الشرقية» نقله إلى العربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد — بغداد (مطبوعات المجمع العلمى العراقى) ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م .

٢ — «فلسطين فى العصر الاسلامى» — ترجمة محمود عمايرى — عمان (طبعة أولى) ١٩٧٠ .

محمود سعيد عمران : (دكتور)

«حملة جان دى برين الصليبية على مصر»

الهيئة المصرية العامة للكتاب (فرع الاسكندرية) ١٩٧٨.

نبيه عاقل (دكتور) :

الامبراطورية البيزنطية — دمشق ١٩٧٠ .

## كشاف عـــام

### ( أ )

(ب)

(ج)

(ح)

(س)

(ش)



(ص)

(ط)

(ع)

(ق)

(ك)

(م)

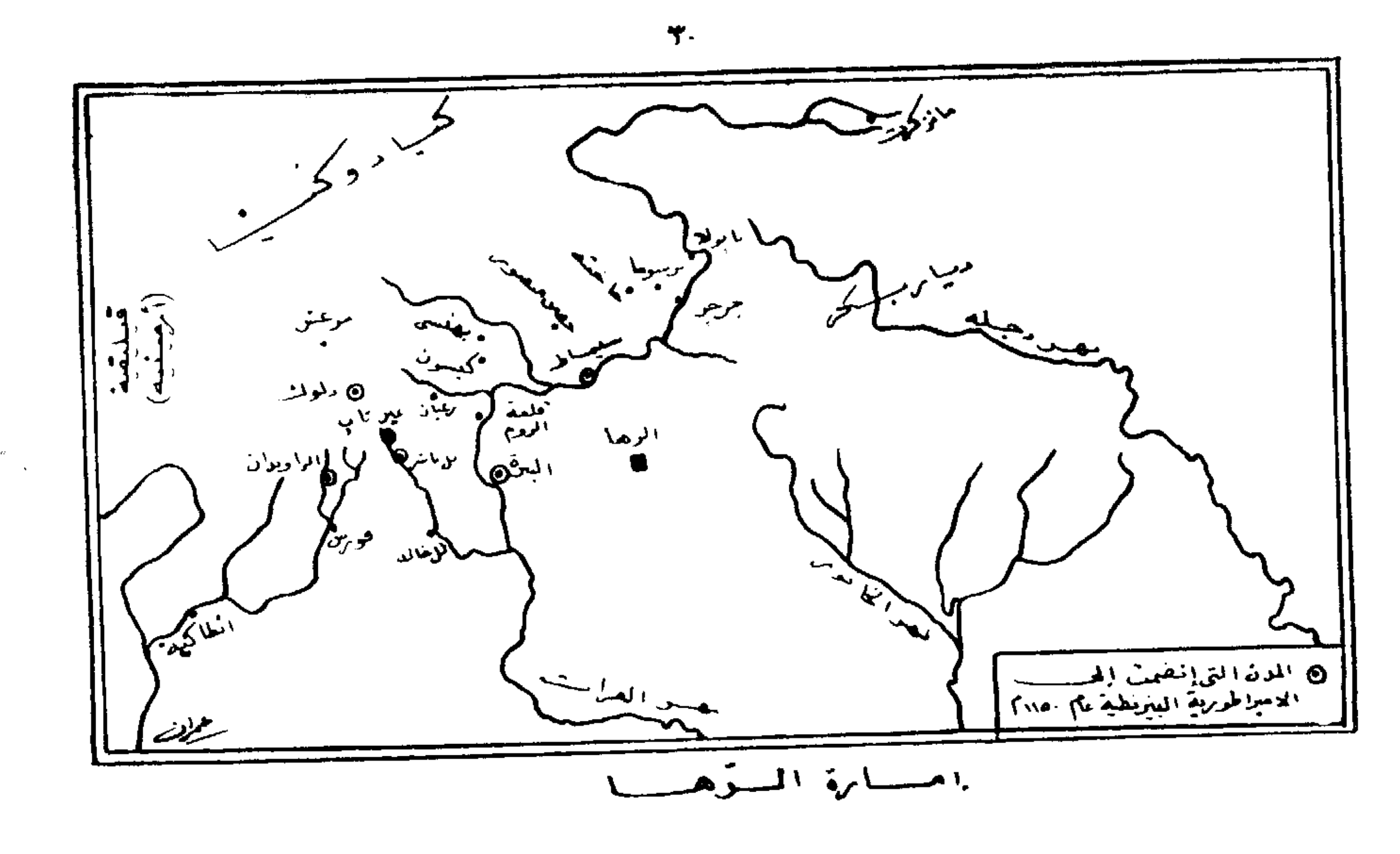
(ن)

آســيا الصغـرى

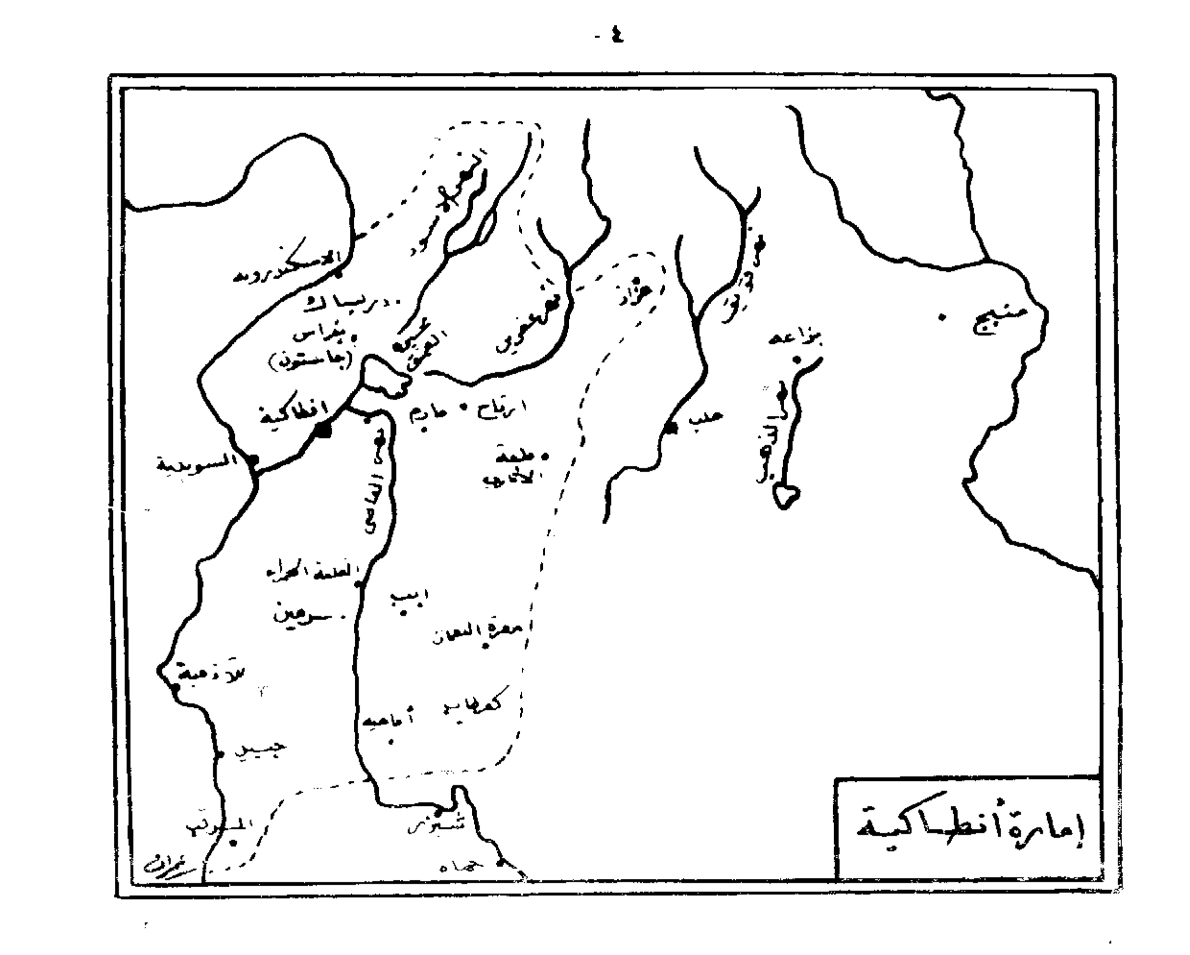
٢

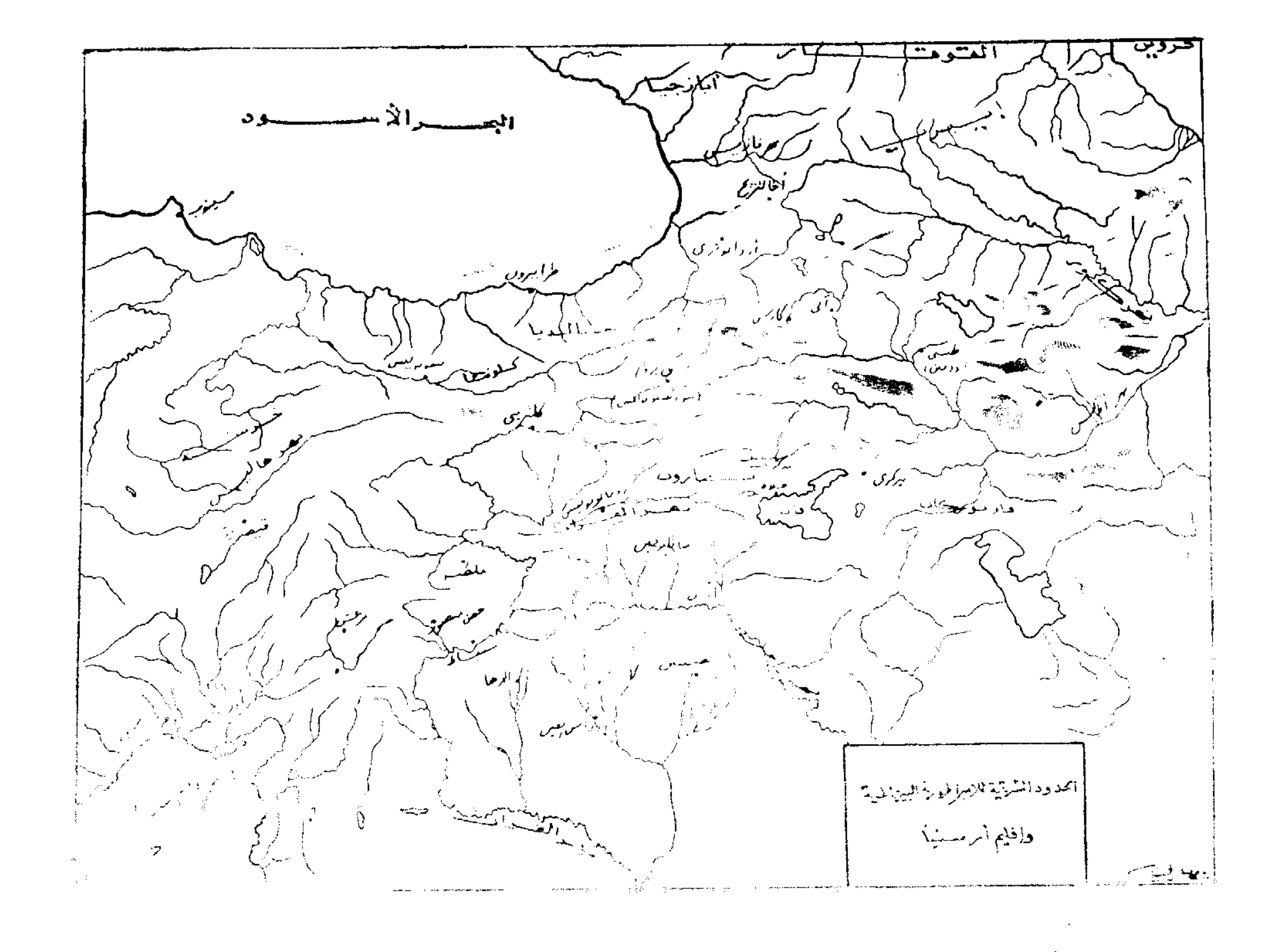


أرمينية الصغرى


كبادوكيا
قليقية
(أرمينيه)
مرعش
بهنسى
كيسون
دلوك
عين تاب
رعبان
قلعة الروم
الرها
البيرة
تل باشر
الراوندان
الأثارب
سميساط
ديار بكر
نهر دجلة
نهر الخابور
نهر الفرات
أنطاكية
ملازكرد
جرجر
المدن التي إنضمت إلى
الامبراطورية البيزنطية عام ١١٥٠م

إمارة الرها


إمارة أنطاكية
الاسكندرونة
دربساك
بغراس
(جاستون)
انطاكية
السويدية
نهر العاصي
نهر عفرين
عزاز
حارم
ارتاح
حلب
بزاعة
نهر الذهب
منبج
سرمين
معرة النعمان
كفرطاب
أفاميه
شيزر
حماه
جبلة



البحر الأسود
القوقاز
أبخازيا
سينوب
طرابزون
كلونيه
ملطية
الرها
ملطية
قيصرية
آمد
تفليس
دوين
الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية
وإقليم أرمينيا

# تصويباب لأهم الأخطاء

| الصفحة | السطر | الخطأ | الصواب |
|---|---|---|---|
| ٢٤ | قبل الأخير | بازل ابن شومان | بازل بن شومان |
| ٢٥ | الأول | ديونيسوس ابن الكلبي | ديونيسوس بن الكلبي |
| ٦٠ | السابع | باعى سيان | ياغى سيان |
| ١٠١ | السابع | الكسيوس | الكسيوس |
| ١٠٣ | الثانى | والوقت نفسه | وفى الوقت نفسه |
| ١٠٤ | الرابع | فحمى اللون | قمحى اللون |
| ١٠٦ | الرابع عشر | ميشيل أف اوترانتو | ميخائيل أف أوترانتو |
| ١٠٦ | ح ٣ ، ٥ | Cinnamos | Ciunamus |
| ١١٤ | السابع | تما يدل | مما يدل |
| ١١٦ | الثالث عشر | تقديم | تقدم |
| ١١٨ | الثانى | فيلوميلون | فيلومليون |
| ١٣٤ | الرابع | فى أيدى الصليبيين | فى أيدى المسلمين |
| ١٤٢ | الثانى | فيليبولس | فيليبوليس |
| ١٤٢ | العاشر | ادیانبول | أدريانوبل |
| ١٤٦ | الثانى عشر | كورفرى Corvery | كورفى Corvey |
| ١٤٦ | السابع عشر | فيلوميليوم Philomeliom | فيلومليون Philomelion |
| ١٦٤ | الرابع | كروفو | كورفو |
| ٢٠٤ | الرابع عشر | صفى | صفا |
| ٢٢١ | الثامن | هفرى | همفرى |
| ٣٤٣ | السادس عشر | ماكرودكاس | ماكرودوكاس |

تم بحمـــــد الله

عظيم شكرى وتقديرى لجميع المسئولين بدار المعارف ومطبعة ( السفير )
ولجميع العامليـــن الذيـــن عملـــوا فى طبع هذا الكتاب .

محمود سعيد عمـــران

مطابـــع جـــريدة السفـــير

٦٢٥

١/١٢٢٥٥٩

دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة
الناشر منطقة الاسكندرية ٤٢ ش سعد زغلول - ٢ ميدان التحرير (المنشية)